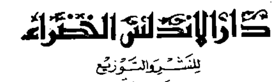
قادة

فتح السند وأفغانستان

تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب

دار ابن حزم



الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الأندلس الخضراء
حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

قادة

فتح السند وأفغانستان



﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

سورة البقرة (٢ : ١٤٢)

الإهداء

إلى ذي النورين
عثمان بن عفّان
ثالث الخلفاء الراشدين

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين



المقدّمة

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(قرآن كريم)



تمهيد

الحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ورضي الله عن قادة الفتح الإسلاميّ وجنوده، وقادة الفكر الإسلاميّ وجنوده، وعلى جميع الذي خدموا العربية لغةً والإسلام ديناً.

كثيراً ما سألني القرّاء والناشرون: لماذا طال سكوتك عن قادة الفتح الإسلامي؟ ولماذا لا تكمل سلسلة: قادة الفتح الإسلامي؟

وكنت قد بدأت بطبع قسم من سلسلة: قادة الفتح الإسلامي من سنة ١٣٨٤هـ إلى سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٤م - ١٩٦٦م)، فصدر من تلك السلسلة:

قادة فتح العراق والجزيرة.

قادة فتح بلاد فارس.

قادة فتح الشّام ومصر.

قادة فتح المغرب العربيّ.

ثم انقطعت عن إكمال نشر السلسلة، فظنّ المتسائلون أنني نسيتها، وبخاصة بعد مرور مدة من الزمن طالت كثيراً، حتى بلغت عشرين سنة كاملة.

وما نسيت واجبي في إكمال تلك السلسلة لحظة من لحظات عمري، بل كان إكمالها يشغل فكري ويلازمني ملازمة الظلّ، ولكن شغلت خمس

سنوات تقريباً في توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية وإصدار المعجمات العسكرية الموحَّدة، كما شغلت في الإعداد لإصدار: معجم القرآن الكريم سنتين، ولكن حالت دون إعداده وإصداره مشاكل وصِعَاب إن لم أستطع التغلب عليها اليوم فسأتغلّب عليها غداً بإذن الله.

وقد كنت خلال السنين العشرين، أعمل بدأب وشوق ولهفة في كتابة سِيَر قادة الفتح الإسلامي، وحتى في خلال السنوات السبع التي شغلت خلالها بالواجبات العلمية العامة، كنت اقتنص الفرص السانحة من وقتي المثقل بالأعمال، لدراسة سِيَر القادة ونشر ما أنتجه في مجلّات المجامع العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، ولكن انتشار تلك المجلات محدود، فلم يطلّع عليها قسم من القرّاء والناشرين، فكثر تساؤلهم ظناً منهم بتقصيري، وبعض الظن إثم.

وكتابة سيرة قائد من قادة الفتح الإسلامي، يحتاج إلى قراءة عشرات المصادر المعتمدة، لتتَضح سيرته قائداً وإنساناً، وقد يستغرق كتابة بضع صفحات لسيرة قائد من القادة إلى بضعة أشهر، لإمكان إبراز سيرته كما كان عربياً مسلماً، وإبراز جهاده قائداً ومجاهداً كما حدث في ميدان الجهاد، فمن العبث أن نشبِّه أولئك القادة بغيرهم من قادة الأمم، ومن العبث أن نشبِّه جهادهم بقتال غيرهم في حروب الأمم، فشتان بين قائد يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وبين قائد يجاهد من أجل المغانم والمكاسب والأمجاد الشخصية.

ولا أزال أعتبر كتابة: العسكرية العربية الإسلامية، رسالة عليّ واجب تحمّلها وأداؤها، كأن الله سبحانه وتعالى خلقني لتحقيقها، ولا قيمة لحياتي بدونها.

وقد أنجزت خلال العشرين سنة المنصرمة، الدراسات العسكرية التالية وستصدر تباعاً إن شاء الله.

قادة فتح السِّند وأفغانستان.

قادة فتح إرمينية.

قادة فتح بلاد ما وراء النهر.

قادة فتح بلاد الرّوم.

قادة النبيّ ﷺ.

وبقى عليّ أن أنجز كتاباً في قادة فتح الأندلس والبحار، وكتاباً في قادة فتح أوروبة، لاستكمال سلسلة قادة الفتح الإسلامي.

وأستطيع أن أبشِّرالعرب والمسلمين في كلِّ مكان، بأنّ الوعي العسكري في العسكرية العربية الإسلامية قد تنامى بالتدريج، فأصبح في كل مجلة عربية وإسلامية حديث عن قادة الفتح ومعارك الفتح بخاصة، وعن العسكرية العربية الإسلامية بعامة، كما صدرت مؤلفات كثيرة عن العسكرية العربية الإسلامية، وهذا يبشِّر بالخير والحمد لله، وبخاصة بعد أن كانت المكتبات العربية الإسلامية قبل اليوم غنية بقادة الأجانب المستعمِرين وبمعارك الاستعمار، فقيرة بقادة الفتح الإسلامي ومعارك الفتح.

وأفغانستان جزء من خُراسان كما هو معروف، والسِّند متأثرة تأثّراً بعيداً بكلِّ ما في خُراسان، فآثرت أن تكون المقدمة هي: البلاد السّاسانية في عهد السّاسانيين، لتكون دليلًا على أوضاع تلك المناطق من العالم في عهودها الغابرة.

وإذا كانت تلك المقدمة مفيدة بصورة عامة في دراسة السنِّد وأفغانستان، فإِنّ السنِّد لها ما يمِّيزها، لذلك سجّلت بحثاً في: الهند قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، لإلقاء الضوء على السِّند بصورة خاصة.

كما سجّلت بحثاً في: أفغانستان قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، لإلقاء الضوء على أفغانستان بصورة خاصة أيضاً.

لقد بذلت كل ما أستطيع في هذا المجال، فإن أحسنت فالفضل لله

وحده. فلولا توفيقه وتسديده لما فعلت شيئاً مذكوراً. وإن أسأت فبتقصيري، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلت وإليه أُنيب، وحسبي الله ونعم الوكيل.

والله أسأل أن يجعل هذه الدراسات مفيدة للعرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم، وأن يجعلها عِلْماً يُنْتَفَع به ويمكث في الأرض، وأن يجعلها قبل ذلك خالصة لوجهه الكريم.

محمود شيت خطّاب

البلاد السّاسانيّة في عَهد السَّاسانيّين



مُسْتَهَل

استطاع العرب المسلمون في بضع سنين من انتقال الرَّسول القائد ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى أن يفتحوا إيران وما حولها من البلاد التي كانت تحت حكم الإمبراطورية السَّاسانِيَّة ويحطموا عرش كسرى، وفي سنة ست عشرة الهجرية (٦٣٧م) كان سعد بن أبي وقاص الزُهْرِيّ رضي الله عنه يصلي بالمسلمين في (إيوان) كسرى بالمدائن ويقرأ قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾[1]

فأي امبراطورية هذه التي استطاع العرب المسلمون القضاء عليها بعد أن بقيت تحكم عشرات القرون؟!

ذلك ما ستقرؤه وشيكاً في هذه المقدِّمة الموجزة عن هذه الإمبراطورية السّاسانيّة العظيمة البائدة.

وقد اعتمدت[2] كتاب: «إيران في عهد الساسانيين» الذي ألَّفه آثر كريستنسن أستاذ الدراساتُ الإيرانية في جامعة كوبنهاكن وعرّبه الدكتور يحيى الخشّاب وراجعه الدكتور عبد الوهاب عزّام عليه رحمة الله، فهو أحسن مرجع في موضوعه هذا حتى الآن[3].

---

(١) الطبري (٣/ ١٢٥) وابن الأثير (٢/ ١٩٩)، والآيات الكريمة من سورة الدخان (٤٤: ٢٥ ـ ٢٨).

(٢) يقال اعتمدته واعتمدت عليه.

(٣) سألت كثيراً من المعنيين بتاريخ إيران القديم من العرب والإيرانيين عن أحسن مرجع في تاريخ الساسانيين، فأبدوا أنّ هذا الكتاب هو أهمّ وأقوم كتاب حول الساسانيين.

كما اعتمدت غيره من مصادر التاريخ والجغرافيّة العربية لإيضاح بعض ما جاء في هذا الكتاب من معلومات تاريخية وجغرافية، لتكون هذه المقدمة مدخلًا مناسباً لكتاب «قادة الفتح» الذين قادوا الجيش العربي الإسلامي في حروب هذه الامبراطورية التي قادت المشرق ردحاً طويلًا من الزمن سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً.

وقد كانت السِّند جزءاً من الإمبراطورية الساسانية، كما كانت أفغانستان جزءاً من خراسان أيضاً.

قبْل السَّاسَانِيِّين[1]:

١ ـ النظام الاجتماعي والسياسي:

كوّن الإيرانيون منذ القدم مجموعة من الأُسر الكبيرة يستند نظامها إلى أربع وحدات: البيت، والقرية، والقبيلة، والإقليم، وقد سمي الشعب (آريا) وهي الكلمة التي اشتقت منها كلمة: (إيران) الحديثة.

وقد توارى نظام الأُسر جزئياً في مجتمع (إيران) الغربية بتأثير المدنية البابلية، وكانت الدولة الإكمينية (هخامنشية) استمراراً للدولة الآشورية والبابلية والعيلامية، وكانت الأساليب الإكمينية هي أساليب الملوك البابليين والميديين[2] مع ما أُدخل عليها من الإصلاح بفضل العبقرية المنظمة، عبقرية كورش ودارا الأول.

ولكنّ التنظيم على أساس الأسر لم يمح نهائياً، فبقي في بلاد الميديين

---

(١) أكثر هذه المعلومات مقتبسة عن كتاب: إيران في عهد الساسانيين ـ تأليف كريستنسن، ترجمة يحيى الخشاب ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة سنة ١٩٥٧.

(٢) ميديا: اسم قديم يطلق على الجزء الشمالي الغربي من إيران، وهو إقليم الميديين، ويتفق في الوقت الحاضر مع مقاطعات أذربيجان وأردلان والعراق العجمي وبعض أجزاء كردستان؛ ومعظم أنحاء ميديا يمثل هضبة مرتفعة يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ قدم.

كما عاش في فارس بالمعنى الأخص، وكان في فارس الأكمينية سبع قبائل يجري في إحداها الدم الملكي.

وكان في إيران الإكمينية، عدا هذه الأسرات الكبيرة بحكم مولدها، سلسلة من التابعين، ففي آسيا الصغرى مثلًا إمارات قديمة حكم أمراؤها تحت سيادة الملك الأعظم، فقد جعل الملك الأعظم لنفسه أتباعاً يمنحهم إقطاعات يتوارثونها مع امتيازات خاصة، ولم تعد صلة الأسرات وثيقة بالقرى الفارسية التي نشأوا فيها فحسب، بل تعدتها إلى أملاك كبيرة أخرى في شتى أنحاء الدولة، وقد أتيح لأناس من الأجانب ومن غير الأسرات الكبيرة من الفرس والميديين، كالإغريق المنفيين، أن يملكوا إمارات يمنحها لهم الملك الأعظم، فتمتّعوا بامتيازات تتفاوت خطورة، منها الإعفاء من الضريبة أحياناً بحيث كان في مقدورهم أن يستحوذوا على الأموال التي يجبونها من رعاياهم، وهذا هو مبدأ نظام الإقطاع في فارس.

ولم تترك التقاليد السياسية الإكمينية حينما تمكَّن (الإشكانيون) من الحكم، إذ انتقلت السيادة بقيام الإشكانيين من الغرب إلى الأقاليم الشمالية التي كانت أكثر الجهات الإيرانية احتفاظاً بالطابع الإيراني.

وهكذا كانت دولة الإشكانيين - رغم طابعها الإغريقي - أكثر إيرانية من الدولة الإكمينية، وقد اتّخذوا عاصمة لهم (الدامغان)[1] مدة قرنين قبل أن يلجئهم تطور الزمن إلى نقلها إلى المدائن[2] على ضفاف دجلة.

---

(١) دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٦) والمسالك والممالك للإصطخري (١٢٤) وتقويم البلدان (٣٣٦) ومختصر كتاب البلدان (٣١٨) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٢٤٤).

(٢) المدائن: هي مدينة سلمان باك على دجلة في منطقة بغداد، فيها قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، انظر ما جاء عنها في معجم البلدان (٧/ ٤١٢).

وقد عاد نظام الأسر سيرته الأولى بانتقال السيادة إلى إيران، فظلّت أصالة النسب مرعية في الجماعة الإيرانية عدة قرون، بل ظلت مرعية حتى بعد سقوط الدولة الساسانية بين جماعة الزردشتيين، ويذكر في الكتب البهلوية الرياسات الأربعة: رئيس البيت، ورئيس القرية، ورئيس القبيلة، ورئيس الإقليم، كما نجد هذا التقسيم في الكتب المانَوية.

وكان لرؤساء القرى المكانة العظمى في الدولة، فإنهم كانوا كبار أمراء الملك وكانوا ينشّئون رعاياهم على الحرب، ومعنى ذلك أن الفلاحين وعليهم يقع عبء الخدمة العسكرية، كانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة سادتهم الأقوياء.

ولم يكن العرش نفسه أيام الإشكانيين مماثلًا لنظام الإقطاع من حيث الوراثة، فقد كان الملك مقصوراً على أسرتهم، ولكن الوراثة لم تكن من الوالد لولده لزاماً، فإنّ العظماء يختارون من يلي العرش، فإذا اختلفوا تحاربت الأحزاب وانتخب كلّ حزب ملكاً أشكانياً، ويظهر أن لقب (ملك) لم يكن قاصراً على الحكام من البيت المالك، بل إنّ الثماني عشرة ولاية المؤلفة منها الدولة تسمى بممالك، ولذا فإنّ تسمية المؤرخين العرب[١] للعهد الذي بين الإسكندر وقيام الدولة الساسانية بعهد: ملوك الطوائف، لم تكن مجانبة للصواب.

وقد ظهرت السلطة السياسية للأمراء الكبار في مجلس الشورى الأرستقراطي: (مجلس الشيوخ) الذي كان يحدّد سلطة الملك، وكان قواد الجيش والحكام من بين أعضاء هذا المجلس، وكانت هناك طائفة أخرى شاركت في تصريف شؤون الحكم هم أهل الحكمة ورجال الدين، ولكن لم يكن لهذه الطائفة تأثير كبير في سياسة الدولة، بينما كان مجلس الشيوخ قوة حقيقية في الدولة.

---

(١) انظر الطبري (١/٤٧٦) وابن الأثير (١/١٠٠) واليعقوبي (١/١٢٨) وابن خلدون (٢/١٦٧).

وإذا كانت الدولة الإشكانية لم تبلغ يوماً ما كان للدولة الإكمينية من القوة والثبات، إلّا أنها كانت من حيث الشكل دولة استبدادية، فلم تكن سلطة الملك محدودة بالقوانين، وكان إذا أتاحت له الظروف القوة الكافية يحكم البلاد بكل ما لدى السلطان الشرقي من الاستبداد.

وكان الملك يخشى أفراد أسرته خاصة، ولم يكن العظماء ليجرؤوا على المخاطرة بمناوأته من غير أن يعتمدوا على أفراد الأسرة الإشكانية ممن يعارضونه.

والملك بعيد المنال عادة، ومن المزايا التي احتفظ بها هي لبس التاج العالي وحق النوم على سرير من الذهب، وكان للملك غابات تربى فيها الآساد والدببة والنمور خاصة لصيده، وكان إذا ذهب للصيد أحاطت به جماعة كبيرة من حملة الحراب والحرس، وكان على من يقابل الملك أن يقدم له الهدايا، وكانت خزينة الملك وخزينة الدولة شيئاً واحداً، وكانت الجزية التي تدفعها الدولة التابعة تنصب في خزينة الملك.

٢ ـ العقائد الدينية:

بني دين الآريين القديم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والأجرام السماوية، وأضيف إلى آلهة الطبيعة منذ زمان قديم آلهة تمثل قوى أخلاقية أو آراء معنوية مجسمة.

وكان الإله مزدا (الحكيم) عند الإيرانيين يتميّز بالدعوة إلى الأخلاق والعمران، وفي الوقت الذي دخل فيه الإيرانيون العصر التاريخي، كان مزدا الإله الأعلى للقبائل المستقرة والمتمدنة في الشرق والغرب.

والمزدية أقدم عهداً من الزردشتية، وليس مزدا إلهاً لقبيلة أو لشعب، بل هو إله العالم والناس جميعاً، وعلى هذا كانت الصلات بين الناس والقوى السماوية أكثر صفاء في الديانة المزدية منها في ديانات آسيا الصغرى الأخرى، ويبدو باعث الأخلاق بصفائه التام في هذا الدين، وبهذين

الوصفين العموم والصفاء، بدأ المذهب الإيراني تأثيره على الأفكار الدينية في الشرق الأدنى.

وادّعى (زردشت) النبوة نبياً لمذهب مزديّ معدل في الشرق في القرن (السابع ق.م) ولما بين الآلهة من تفاوت نمت عنده فكرة الصراع بين الروحين اللذين وجدا منذ خلق العالم: روح الخير وهي نوع من تجلي مزدا وروح الشر.

ودين زردشت توحيد ناقص، فهنالك جماعة من الكائنات المقدسة، ولكنها كلها تجليات لذات مزدا وهي في الوقت نفسه منفذة لإرادته التي هي الإرادة الإلهية الوحيدة.

فالثنائية ليست إلّا في الظاهر، لأنّ المعركة بين الأصلين ستنتهي بالنصر النهائي لروح الخير، وفي هذه المعركة يجد الإنسان رسالة عليه أداؤها، فكأنه بالإيمان الخالص وبالجهاد في سبيل الحقيقة الدينية والأخلاق، وأخيراً بالجد في الأعمال التي تؤدي إلى غلبة قوى الحياة على قوى الموت، وبالمساعي المؤدية إلى الحضارة وخاصة زرع الأرض، يقف بكل ذلك في صف روح الخير.

والفكر الطيب والقول الطيب والعمل هي الأسس الثلاثة التي تنطوي عليها عبارة الأخلاق عند زردشت، والجزاء هو الجنة والعافية والخلود في مساكن «العليين»، بينما العذاب الطويل في (مأوى الكذب) سيكون عقاب الأشرار.

وبجانب المحاكمة التي يقضيها الفرد بعد موته مباشرة، نجد في (كاتات الأوستا) وهي العظات المنظومة التي تحوي أو تعبِّر عن وعظ زردشت، إشارات إلى حساب عالمي عال يجريه الروح والنار، أي روح مزدا وبلاء النار، بلاء المعدن المذاب في آخر الزمان، حين تنتهي المعركة الأخيرة بين قوى الروحين: الخير والشر، بانتصار مزدا.

وقد ظلّت الزردشتية مدة قرون كأنها غريبة في وسط المزدية الإيرانية القديمة، وكان معظم ملوك الإشكانيين زردشتيين.

ومنذ طرد بختنصر اليهود ازداد عددهم في بابل والجزيرة حيث عملوا بالزراعة والتجارة وبشتى الحرف، وفي عهد الإشكانيين كثر عددهم بنوع خاص في بابل وفي المدائن، وكذلك كان لليهود جماعات في ميديا وفارس، وكان هؤلاء يهتمون دائماً بدراسة الشريعة (شريعة موسى) والتاريخ.

وفي القرن الأول الميلادي انتشرت المسيحية عن طريق الشام وآسيا الصغرى، فكان هناك جماعة في (أربل)، وعلى كل حال فإنه لم يكن للنصارى أيُّ دور سياسي في عهد الإشكانيين.

وقد أتاح اختلاط الشعوب والأجناس في آسيا الوسطى أرضاً صالحة لمزج المدنيات والديانات، فقد توحّدت الفلسفة الإغريقية مع الأديان الشرقية، ونتج عن ذلك تشابك كثير ومتنوِّع؛ وكانت الآراء الإيرانية والسامية قد امتزجت في البيئة الأرمينية منذ زمن طويل، فالديانات الغامضة ـ ديانات شعوب آسيا الصغرى ـ قد أدخلت هناك عنصراً جديداً، والآراء الفلسفية اليونانية قد سرت إلى هذا المزيج الذي أضيفت إليه نظريات كيمياوية وسحرية والأمور المعنوية والقوى الطبيعية التي كانت تعد آلهة قد ظهرت في أسماء إغريقية، والأساطير الإغريقية والبابلية والإيرانية قد امتزجت أيضاً، واختفت الصور الأُسطورية الشرقية تحت أسماء آلهة يونانية، والتفرقة الدقيقة بين عالمين أحدهما خير الطبيعة والثاني خبثها، دنيا النور ودنيا الظلمات، وما على الإنسان من واجب خاص في حياته، والجنة والنار ويوم الحساب وبعث الدنيا والروح الكلية، وما بين الإنسان والقوى الملكوتية من ارتباط تام، كلّ هذه العلاقات المميزة للمزدية الإيرانية دخلت في مجموعة الأفكار العامة في آسيا الصغرى.

أيّام السَّاسَانيين:

١ ـ قيادة الدولة الساسانية:

سادت الفوضى إقليم فارس في أول القرن الثالث الميلادي واضمحلّت قوة الإشكانيين، ويبدو أن كلّ بلد ذي أهمية كان له مليكه الخاص، وكان أهم هذه الإمارات إمارة مدينة (إِصْطَخْر)[1] عاصمة ملوك فارس القدماء.

وعُيِّن (ساسان) وهو رجل من عائلة نبيلة متزوج من عائلة ملوك (إِصْطَخْر) سادناً لبيت نار في (إِصْطَخْر)، وقد استفاد ابنه (بابك) الذي خلفه في وظيفته من صلته ببيت الملك فنصب واحداً من أولاده الصغار وهو (أردشير) في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة (دَارَابْجِرْد)[2]، وابتداء من سنة (٢١٢م) أو حوالي هذا التاريخ أصبح أردشير سيداً على كثير من مدن هذا الإقليم وذلك بالقضاء على حكامها بينما ثار (بابك) على قريبه ملك إصطخر (جوتجهر) ودهمه في مقره وقتله وولي مكانه.

ومات (بابك) بعد قليل، فارتقى ولده (سابور) عرش فارس، واشتعلت الحرب بينه وبين أخيه (أردشير)، ولكن سابور توفي فجأة، فمنح إخوةُ (أردشير) الآخرون التاج له ولكنه قتلهم بعد ذلك خشية أن يخونوه.

وبعد أن أخمد (أردشير) ثورة (درابجرد) عمل على تثبيت سلطانه بغزو إقليم (كِرْمَان) المجاور، فأسر ملكه، كما غزا سواحل الخليج العربي فسقط ملكه بسيف الغازي.

وأخيرا شبت الحرب بين (أردشير) وكبير ملوك الإشكانيين. فقد أمر

---

(١) إصطخر: بلدة بفارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٧٥) والمسالك والممالك للإصطخري (٦٨).

(٢) دارا بجرد: ولاية بفارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦) وتقويم البلدان (٣٣٠) والمسالك والممالك للإصطخري (٧٦).

هذا الملك ملك (الأهواز)[1] أن يذهب لقتال (أردشير) وأن يحمله مصفداً بالأغلال إلى (المدائن)، ولكن أردشير نفسه بعد أن هزم ملك (أصْفَهَان)[2] اتَجه لقتال ملك الأهواز فغلبه في معركة حاسمة واستولى على ولايته، ثم أخضع ولاية (مَيْسَان)[3] التي كان يحكمها وقتذاك العرب الوافدون من (عُمان)[4] سابقين في ذلك القبائل العربية التي وفدت واستقرت في (الحيرة)[5] غربي الفرات في نفس الوقت الذي أقامت به الدولة الساسانية.

وأخيراً نشبت معركة بين جيش (أردشير) وجيش الإشكانيين بقيادة ملك الملوك الإشكاني نفسه الذي سقط في تلك المعركة قتيلًا بيد (أردشير)، وبعد هذه المعركة التي حدثت في نيسان (إبريل) (٢٢٤م) دخل أردشير المدائن دخول الظافر معتبراً نفسه وارث الإشكانيين.

وفي السنين التالية أخضع (بابل)، و (ميديا) ومعهما (هَمَذَان) [6]،

---

(١) الأهواز: جمع هوز وأصله خوز، وكان اسمها أيام الفرس: خوزستان، وهي سبع كور بين البصرة وفارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٨٠) والمسالك والممالك للإصطخري (٦٢ ـ ٦٥).

(٢) أصفهان: وهي أصبهان، مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان اسم للأقليم بأسره، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٦٩).

(٣) ميسان: ولاية صغيرة عند مصب نهر دجلة في الخليج العربي، وقد وردت ميسين في كتاب: إيران في عهد الساسانيين (٧٥) والصحيح: ميسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٢٤).

(٤) عُمان: اسم كورة عربية على ساحل الخليج العربي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢١٥).

(٥) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٧٦) والمسالك والممالك للإصطخري (٥٨) وتقويم البلدان (٢٩٨).

(٦) همذان: مدينة كبيرة في ولاية الجبال من إيران، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١١٧) ومعجم البلدان (٨/ ٤٧١).

وبعد أن حاصر المدينة الحصينة (الحَضْرَ)[1] هاجم (أذْرَبِيْجَان)[2] و (إِرْمِيْنِيَة)[3] فلم يفلح في غزو هذا الإقليم أولًا ولكنه تمكن منه أخيراً.

ومد سلطانه على الأقاليم الشرقية بإخضاعه (سِجِسْتان) وإقليم (خُرَاسان) و(خُوارزْم)[4] وعاصمته (بَلْخ).

ومن المحتمل أن يكون أردشير قد تُوِّج ملكاً لملوك إيران (شاهنشاه) بعد استيلائه على العاصمة (المدائن) بزمن قليل.

وكان للملوك الساسانيين الأول ولع طبيعي بإقليم فارس الذي هو مسقط رأسهم، وقد أصبحت (إصْطَخْر) المدينة المقدسة في التاريخ الساساني وبذلك أعاد الفرس سلطانهم على شعوب إيران وقامت في الشرق دولة جديدة سادت على قدم المساواة مع الإمبراطورية الرومانية، وكانت المدينة الساسانية استمراراً لمدنية الإشكانيين. وفي الوقت نفسه كانت تجديداً وتكملة لها.

ولكن إقليم فارس وعاصمته (إصطخر): لم يعودا صالحين لإقامة الشاهنشاه، فقد صارت بلاد ما بين النهرين المركز الرئيس للإمبراطورية الشرقية تبعاً لضرورة التطور التاريخي، وانتقل دور بابل السياسي إلى (المدائن).

---

(١) الحضر: اسم مدينة بإزاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل والفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٩٠).

(٢) أذربيجان: منطقة واسعة بين قهستان وارن، انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) ومعجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨).

(٣) إرمينية: اسم صقع واسع من برذعة إلى باب الأبواب، وإلى بلاد الروم. وقيل، إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٠٣) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧).

(٤) خوارزم: اسم إقليم يحدّه من الشمال والغرب الغزية، ومن الجنوب والشرق خراسان وما وراء النهر، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (٦٨) ومعجم البلدان (٣/ ٤٧٤).

٢ ـ تنظيم الدولة:

لم يكن تغير الأسرة الحاكمة حادثاً سياسياً حسب، ولكنه يمتاز بظهور روح جديدة في الدولة الإيرانية. والطابعان المميزان لنظام الدولة الساسانية هما: تركيز السلطان، واتخاذ دين رسمي للدولة.

وقد لقيت أحوال الحياة العامة والتنظيم الإداري للدولة السَّاسانية تغييراً مختلفاً في القرون الأربعة التي دامت فيها الإمبراطورية التي أسّسها (أردشير)، ولكن الهيكل الاجتماعي والإداري الذي أنشأه أو أكمله مؤسس الأسرة الساسانية قد بقي حتى النهاية في الأمور الكبرى.

كانت هناك الطبقات الأربع الآتية أيام الساسانيين: طبقة رجال الدين أولًا، وطبقة رجال الحرب ثانياً، وطبقة كُتَّاب الدواوين ثالثاً، وطبقة الشعب من الفلاحين والصناع أخيراً.

وقد قُسِّمت كلّ طبقة إلى عدّة أقسام، فرجال الدين منهم الحكام والعباد والزهاد والسدنة والمعلمون.

وتتكون طبقة المحاربين من الفرسان والرجالة، ولكل من القسمين رُتَبُه وموظفوه المختصون به.

وتنقسم طبقة الكتَّاب إلى كتَّاب الرسائل، وكتَّاب المحاسبات، وكتَّاب الأقضية والسجلات والشروط، وكتَّاب السِّيَر، ويدخل فيهم الأطباء والمنجمون والشعراء.

وأخيراً فإنَّ الشعب يشمل الزّراع والرعاة والتجار وسائر أرباب الحرف.

وكان لكل طبقة من هذه الطبقات رئيس.

وقد احتفظ الساسانيون بالتقيسم القديم للدولة، التقسيم الذي يجعلها أربع إيالات، ومنذ القرن الخامس سمي حكام الإيالات بالمرازبة. وهؤلاء المرازبة الأربعة الكبار كانوا من طبقة الأُسر المالكة ويحملون لقب: شاه،

وكان الشاهنشاه يستطيع عزل هؤلاء كلما رأى ذلك من مصلحة الدولة، وكانوا ملزمين بالحضور إلى البلاط كل في نوبته ليقدِّموا حساباً عن أعمالهم.

وقد ورث الساسانيون نظام الإشكانيين الإقطاعي، وليس لدينا معلومات محدّدة عن الامتيازات التي كان يتمتّع بها أصحاب الإقطاعات، ولا نعلم أكان لحكومة الملك بعض سلطان على المقاطعات التي تقع في حكمهم، وهل كان لهؤلاء حصانة كاملة أو جزئية، ولكن الذي نعلمه علم اليقين هو أن الرعايا كانوا ملزمين بأداء الخدمة العسكرية تحت رئاسة صاحب الإقطاع.

ونجد في أيام الساسانيين ـ اتباعاً للتقاليد القديمة ـ بعض المناصب العامة التي تُورّث، منذ كان لبعض الأسر وظيفة تتويج الملك، وكان بعضها يتوارث إدارة شؤون الحرب، وثالثة تتولى الإدارات المدنية، ورابعة يعهد إليها فض المنازعات بين المتخاصمين الراغبين في التحكيم، وخامسة تتولى قيادة الفرسان، وسادسة تتولى جباية الضرائب ورعاية الكنوز الملكية، وسابعة تتولى العناية بالأسلحة ونظام التعبئة الحربية.

أما الوظائف الوراثية الست الباقية، فمنها ثلاث وظائف حربية وثلاث مدنية، أما الوظائف الحربية فهي: رياسة الشؤون العسكرية، ورياسة الفرسان، والقيام على الأهراء (الميرة والتموين).

أما الوظائف المدنية فهي: رياسة الشؤون المدنية، والقيام على تحصيل الخراج، ورئيس تفتيش الخزائن الملكية.

ومع ملاحظة أنّ الوظائف الوراثية كانت مهمة جداً، إلّا أنها لم تكن أعلى وظائف الدولة وأهمها، فليس من المعقول أن تكون الوظائف الأولى في الدولة مثل وظائف رياسة الوزارة وقيادة الجيش وغيرها خاضعة لأن تنقل بالميراث من رجل إلى آخر، كذلك ليس معقولاً ألّا يكون للملك حق الخيار بين مستشاريه، بل أن يكون له إذا أراد أن يتخلّص من موظف كبير أن يقتله لكي يخلفه ابنه الأكبر.

والوظائف الوراثية في الدولة الساسانية كانت وظائف (شرف) تبين مكانة شاغليها، وكانت قوة الأُسر الكبيرة تستند كذلك على دخل إقطاعاتهم ثم على ما بينهم وبين رعاياهم في الإقطاع من صلة قوية، وأخيراً يستمدون قوتهم من أنهم يستطيعون في يسر مقابلة (الشاهنشاه)، فكان هذا يعطيهم بعض المزايا لكي يُعَيَّنوا في أسمى وظائف الدولة.

وقد لبث أبناء البيوتات يتساندون زمناً طويلًا بعد سقوط الدولة السَّاسانية، كتب ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي (القرن الرابع الهجري) يقول: «وبفارس سُنَّة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة والتزام أهل النعم الأولية، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى يومنا هذا»، كما يذكر المسعودي أيضاً أهل البيوتات في فارس.

ونجد في تاريخ السَّاسانيين الذي رُوِي بعضهُ في تاريخ الطبري ذكراً لاصطلاح العظماء والأشراف، فكلما ذكر ارتقاء ملك جديد للعرش قيل: إنّ العظماء وأهل البيوتات اجتمعوا ليقدموا له فروض الولاء وليستمعوا الحديث الذي يتقدّم به إلى الشعب، وأحياناً نجد الاصطلاح المركّب: العظماء والأشراف، والاصطلاح: أهل البيوتات والعظماء والأشراف، وليس هناك أدنى شك في معرفة أي فريق من الناس يشار إليه بهذا التعبير: إنّهم الضباط الكبار للدولة، إنهم أعلى ممثلي الإدارة، والعظماء يشملون الوزراء ورؤساء الإدارة.

ومن المحتمل أن نعد الفرسان وهم زهرة الجيش السَّاساني من طبقة الأشراف، والمفروض أنّ الفرسان (الأساورة) كانوا يعيشون إبان السلم من ريع أراضيهم، فكانوا يزرعونها ويباشرون فلاحتها.

وإلى جانب هذا كانت طبقات النبلاء الذين هم في الدرجة الثانية وهم: رؤساء العائلة ورؤساء القرية يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية، وكان الدهاقين كعجلات لا غنى عنها في آلات الدولة قليلًا

ما يظهرون في الحوادث التاريخية الخطرة، ومع هذا كانت لهم قيمة لا تقدر من حيث أنهم أساس متين للإدارة وبناء الدولة. والدهاقين هم الرؤساء وملاك الأرض والقرى، ولكن في أغلب الأحوال لم تكن الأرض المزروعة التي تؤول إلى الدهاقين بالميراث واسعة جداً، وأحياناً لم يكن الدهقان نفسه إلّا أول فلاحي الناحية، فلم يكن إذاً للدهقان ما للسادة مالكي الأرض من الأرستقراطية الرفيعة، بل كانوا يمثلون الحكومة أمام حراث الدولة، وعلى هذا الاعتبار كانت وظيفة الدهاقين الأصلية أن يستلموا الضرائب وإليهم يعود الفضل ـ خاصة وأنّ الدولة القليلة الخصب ـ استطاعت بوجه عام أن تتحمّل النفقات التي اقتضتها المعيشة المترفة في بلاط الملك وأن تقدر على الحروب التي تتطلب تكاليف باهظة من غير أن تنوء بهذا العبء، إذ كانوا يعرفون البلاد وسكانها معرفة جيدة؛ وبعد الفتح الإسلامي لم يستطع الفاتحون أن يستولوا على ما في إيران من النقود التي جمعها ملوك السَّاسانيين دون أن يتحالفوا مع الدهاقين.

٣ ـ الإدارة المركزية:

أ ـ رئيس الوزراء:

كان كبير الوزراء رئيساً للإدارة المركزية، وكان مكلفاً بإدارة دفّة الأمور في الدولة تحت رقابة الملك، وكان في كثير من الأمور يتصرّف بما يرى؛ وكان يقوم مقام الملك حين يكون هذا في رحلة أو في الحرب، وكانت المفاوضات الدبلوماسية من اختصاصه، وكان يحصل على قيادة الجيش أحياناً.

والخلاصة أنه وهو مستشار رئيسي للملك، كان يجمع في يديه كلّ إدارة الدولة، وكان يتدخّل في كلٍّ شيء. ورئيس الوزراء الأمثل كان الكامل في ثقافته، المتميِّز في سلوكه، المتقدِّم على أهل زمانه، النبيل الطبع، الحذر، الذي له من الحكمة العملية والنظرية، القادر على التأثير في الملك إلّا إذا اتّبع الهوى.

وكانت سلطة رئيس الوزراء محدودة بثلاثة تحديدات: الأولى، أنه لم يكن في سلطته أن يعيِّن بنفسه خلفه أو من يقوم مقامه، والثانية، لا يجوز له أن يطلب إقالته من الشعب، لأنه يتصرّف باسم الملك لا باسم الشعب، والثالثة، لا يستطيع أن يعزل أو ينقل الموظفين الذين عينوا بناء على أمر ملكي من غير استئذان الملك.

لقد كان ملوك فارس يمجِّدون وزراءهم أكثر من أي ملك آخر، وكانوا يقولون: «إنّ الوزير هو منظم أعمالنا وزينة دولتنا، إنه لساننا الذي نعبِّر به، وسلاحنا الذي أتاح لنا أن نضرب أعداءنا في البلاد البعيدة».

ب ـ رجال الدين:

كان رجال الدين في الأصل قبيلة ميدية أو بالأحرى كانوا طبقة خاصة بين الميديين، وكان لهم الرياسة الروحية في الديانة المزدية غير الزردشتية، وعندما اجتاحت الزردشتية الأقاليم الغربية: ميديا وفارس بمعناها الخاص، أصبح هؤلاء هم السادة الروحانيين للدين الجديد، وكان يطلق عليهم أيام الإشكانيين والساسانيين (المغان).

وقد استمرّ (المغان) يعدّون أنفسهم قبيلة ويعتبرون أنفسهم طبقة من الناس، نشأوا من قبيلة واحدة وجبلوا على خدمة الآلهة.

وقد سار رجال الدين في الدولة السَّاسانية مع نبلاء الإقطاع جنباً إلى جنب، وفي أثناء عهود الانحلال، كان رجال هاتين الطبقتين: رجال الدين والنبلاء يتحدون ضدّ الملك، ولكنهما ظلا دائماً طائفتين منفصلتين، لكل منهما تصوراتهما الخاصة بها.

وكان الرؤساء الروحانيون يختارون دائماً من بين قبيلة (المغان) التي تزايدت على مرِّ العصور، وكان رجال الدين ينسبون أنفسهم نسباً يرجع إلى التاريخ الخرافي المجيد لإيران.

وقد أسبغت السلطة الروحية على السلطان الدنيوي طابعها المقدس،

وكانت تدخل في الوقت نفسه في حياة كل فرد في كل أمر مهم، فهي بهذا المعنى كانت تلازم الرجل من المهد إلى اللّحد؛ فكان الجميع يجلُّون (المغان) وينظرون إليهم بكثير من التعظيم، فالأشغال العامة منسقة فوق نصائحهم وإرشادهم، وهم يتولّون بنوع خاص قضايا المتخاصمين فيقومون عليها بعناية تامة ثم يقضون فيها، ولا يحلّ الفُرس أيّ شيء أو يرونه عادلاً ما لم يقل رجال الدين بذلك.

ولا يستند تأثير المغان إلى سلطانهم الروحي وإلى حق القضاء الذي خولتهم الدولة، وإلى سلطانهم في إثبات شهادات الميلاد وعقود الزواج وغيرها، وإلى قيامهم بالتطهير ورعاية القرابين فحسب، ولكن تأثيرهم يستند أيضاً إلى أرضهم التي يملكونها وإلى مواردهم الغزيرة التي يجنونها من الغرامات الدينية والعشور والهبات، ومن ناحية أخرى كانوا يتمتَّعون باستقلال بعيد المدى، إنهم كانوا يكوِّنون دولة داخل الدولة تقريباً.

وفي أيام سابور الثاني، كانت ميديا ـ وخاصة أَذْربِيْجَان ـ إقليم (المغان)، وهناك كانت أرضهم الخصبة، وكانت لهم بيوت قروية لم تكن لها أسوار لحفظها، وكانوا يعيشون وفقاً لقوانينهم الخاصة، وبالجملة كان كبار رؤساء هذه الطائفة يملكون عقارات كبيرة.

ورجال الدين الزردشتيون يكوّنون جماعة منظَّمة غاية التنظيم ولها درجات منسّقة، والمغان كانت الطبقة الكبيرة من رجال الدين الصغار، وكان رؤساء المعابد يلقبون(مغان مغ) والطبقة العليا من رجال الدين تشمل (الموابذة)، وكانت الدولة كلها مقسمة إلى مراكز دينية على رأس كل منها (موبذ).

ورئيس (الموابذة) جميعاً الذي هو عند الزردشتيين بمثابة (البابا) عند النصارى يدعى: (موبذان موبذ)، ولم يكن لهذا المنصب أهمية بالغة، إلّا حين أصبح الدين المزدي ديناً رسمياً للدولة السَّاسانية.

وكان للموبذان موبذ السلطة العليا في المسائل الدينية، فإليه يرجع

الفصْل في المسائل النظرية في الأصول والفروع، وهو الذي يفتي في المسائل العلمية وفي السياسة الروحية، وهو الذي يعيِّن ويعزل الموظفين الدينيين، ومن ناحية أخرى كان الملك يعيِّنه، وهو يشترك في تكوين محاكم التفتيش وخاصة في الأقاليم التي يشتدّ فيها العداء للدين، وكان مستشاراً للملك في جميع الأحوال التي تمسّ الدين، وكان له تأثير قوي في جميع شؤون الدولة بوصفه الرائد الخلقي والمرشد والمسيِّر الروحي للملك.

وكان (الهرابذة)[١] يديرون المراسيم الدينية في المعابد الدينية مما يتطلّب معارف خاصة وتجربة عظيمة والدليل على ما كان يتمتّع به الهرابذة من الشرف أنّ أحدهم كان يحكم إقليم فارس أميراً دينياً في القرن السابع حين فتح العرب المسلمون هذا الإقليم.

والرئيس الأعلى للهرابذة هو (الهربذان هربذ)، وهو يظهر في بعض عصور العهد السَّاساني بين أعظم الشخصيات تالياً للموبذان موبذ، وكانت الوظائف القضائية من اختصاص الهربذان هربذ، وهو رجل دين ومشرّع يلجأ إليه الناس لحسم القضايا المشتبه فيها.

وكان لرجال الدين في علاقتهم مع الجمهور، وظائف متعدِّدة ومتفاوتة: إجراء أحكام الطهارة، والاعتراف، والعفو، والغفران، والحكم بالغرامة بعد الإقرار بالذنب، وإقامة المراسيم العادية في المواليد، وفي وضع الحزام المقدس والزواج والجنائز وسائر الأعياد المختلفة.

وإذا عرفنا كيف أنّ الدين يتدخّل في أقل أمور الحياة اليومية شأناً وإلى أي حد كان الفرد العادي معرضاً، ليلًا ونهاراً، لأن يقع في الإثم أو النجاسة لأقل غفلة تبدو منه، لفهمنا أنّ وظيفة رجال الدين لم تكن قط وظيفة تشريف، وأنّ رجل الدين الذي لم يرث منقولاً أو عقاراً يستطيع بسهولة أن يجني ثروة طائلة بفضل أعماله المختلفة.

(١) الهرابذة: جمع هربذ وهو خادم النار، انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي، نشر «فان فولتن» (٢١٦) ـ نقلًا عن هامش: إيران في عهد الساسانيين (١٠٧).

وكان على الفرد أن يصلي للشمس أربع مرات أثناء النهار، وعليه أن يصلي للقمر وللنار وللماء، وعليه أن يرتل الأدعية قبل النوم وحين يصحو وأثناء الاستحمام والتمنطق بالحزام وأثناء الأكل وحين يذهب إلى الضرورة وإذا عطس وإذ حلق شعر رأسه أو قلّم أظافره وحين يضيء السراج وهكذا، ونار البيت لا يجوز أن تخبو ولا يجوز أن تقع الشمس على النار، ولا يجوز أن يقترب الماء والنار، وآنية المعدن ينبغي ألّا تصدأ لأنّ المعادن كانت مقدّسة، والمراسيم الضرورية للتطهير من لمس ميت أو امرأة حائض أو نفساء وخاصة إذا وضعت طفلًا ميتاً ـ كلّ هذه التكاليف ـ كانت متّبعة للغاية وصعبة جداً.

ولم يكن تنفيذ مراسيم الحفلات الدينية كل ما على رجال الدين من أعباء، بل كان عليهم توجيه الشعب أخلاقياً، وكانت لهم حكومات الأرواح وكان التعليم الابتدائي والعالي بوجه عام في أيدي رجال الدين، وهم يختصون وحدهم بجميع فروع علوم الزمان، وقد كان هناك آداب دينية وفقهية منسقة للغاية، عدا الكتب المقدسة وشروحها.

ج ـ المالية:

يلي (رئيسُ الزراع)[1] رياسةَ الضريبة العقارية، فإنّ على الزراعة يقع عبء الضريبة العقارية، وبما أنّ الضريبة تفرض حسب الخصوبة وجودة زراعة القرى أو ردائتها، فقد أصبح على رئيس الزراع أن يسهر على زراعة الأرض وريها وغير ذلك.

ورئيس الزراع يلقّب أيضاً: رئيس الصنّاع أو رئيس كل مَن يمتهن حرفة يدوية عبيداً أو حرّاثين أو تجّاراً، فكان عليه في الجملة أن يكون وزير المالية، وكانت هذه الوزارة تتضمّن وزارات الزراعة والعمل والتجارة.

ومن بين كبار موظفي المالية، ولاة الخراج، ورئيس محاسبي البلاط

---

(١) رئيس الزراع: يطلق عليه ـ واستر بوشانسالار.

أو القصر الذي يقيم به الملك، ووالي الخراج الذي تتقاضاه الدولة، ووالي خراج أذربيجان، وحارس المسكوكات. وكانت المصادر الرئيسية للدخل في الدولة تتكوّن من ضريبتين: العقارية والشخصية، وكانت الضريبة الشخصية تُحدّد مرة واحدة بمبلغ سنوي محدّد.

وكانت الضريبة العقارية تجبى بنفس الطريقة، فإنّ التقدير يتمّ حسب ما تنتجه الأرض من غلّات، وعلى كلّ قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة الأرض.

ولكنّ توزيع وتحصيل الضرائب كثيراً ما كان سبباً في الجور وسوء الحصيلة من ناحية الموظفين، ولأنه تبعاً لهذه الطريقة كانت تتفاوت كثيراً من سنة لأخرى، فإنه كان من غير الممكن عمل حساب تقريبي مقدماً للحالة المالية واستخدام ما يجبى منها؛ ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية في الصعوبة، وكان ينتج عن ذلك غالباً أن تفاجئ الحرب الدولة فيعوزها المال، وفي هذه الحالة كان ينبغي فرض ضرائب استثنائية، وكان عبؤها الفادح يقع غالباً على الأقاليم الغربية الغنية وخاصة العراق.

وكثيراً ما يشار إلى إعفاء الزارع من الضرائب الباقية عليهم حسب النظام القديم، وقد كان ذلك للملك الجديد وسيلة لتقربه من الشعب.

ويضاف إلى الضرائب المنظّمة، الهبات العادية والتي يحسب منها التحف التي تقدّم للملك جبراً في عيدي النوروز والمهرجان. ومن أهم موارد الدخل ما تغله الأملاك الخاصة (أملاك الملك) وما كان للملك من حقوق على الموارد الأخرى، وقد كان من بين هذه الحقوق حقوقه في مناجم الذهب بأقليم فارس وإِرْمِينِيَة، وكانت غنائم الحرب مورداً غير منظّم من موارد الدخل.

وكذلك كان دخل الجمارك مورداً من موارد الدّخل.

ونفقات الدولة كانت تنصب غالباً على الحرب ومصاريف البلاط

ورواتب الموظفين، وعلى الأبواب اللّازمة لتسيير دولاب العمل العادي في الدولة، ثم في الأشغال العامة لتيسير زراعة الأرض وإنشاء الجسور والمحافظة عليها وحفر الترع وهكذا، ولو أنّ المتبع غالباً أن تفرض على أهل الجهة التي تستفيد من مشروع عام ضرائب استثنائية حتى يتيسر تنفيذه.

وكان الملك حين يعفي رعاياه من المتأخر عليهم من الضرائب يوزع أحياناً هبات مباشرة، على الفقراء.

إنّ ما ينفق من الميزانية في سبيل الخير العام لم يكن كثيراً، لأنّ ملوك إيران من عادتهم أن يجمعوا في خزائنهم أقصى ما يستطيعون من الأموال والنفائس.

وعند ارتقاء ملك جديد كانوا يذيبون النقود المتداولة ثم يعيدون سكها باسم الملك الجديد ورسمه، وكذلك تكتب الوثائق المحفوظة من جديد باسمه مع التغييرات التي لا غنى عن إجرائها.

د ـ الصناعة والتجارة والمواصلات:

كانت البلاد تنتج الذهب والفضة والبلّور الصخري والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة، وصناع إيران يجيدون نسيج السُندس الحريري والأقمشة الصوفية والسجّاد وغيرها.

وقد اعتاد الإيرانيون إنشاء مستعمرات من أسرى الحرب: لإدخال فروع جديدة في الصناعة، ولزرع الأرض البور، وللقيام بالأعمال الهندسية كإنشاء السدود.

وكانت التجارة البرية تتبع القوافل القديمة.

أما عن المواصلات مع الإمبراطورية الرومانية، فقد كانت مدينة (نَصِيْبِيْن) مركزاً مهماً لها. وكانت التجارة البحرية مهمة، وقد أخذت السفن الفَارسَية تمخر عباب البحار الشرقية كلها، فبدت منافسة للأسطولين الروماني والحبشي أول الأمر، ثم صارت قوة متفوقة بعد ذلك.

وكان الحرير أهم أصناف تجارة المرور (الترانزيت) عند الفرس، ولكن كان يحجز بفارس مقدار كبير جداً من الحرير الخام المستورد من الصين لينسج بها، وكان الفرس يستطيعون دائماً بيع منتجاتهم الحريرية للبلاد العربية بالأسعار التي يحدِّدونها بأنفسهم.

وكان الصينيون يشترون ضمن البضائع الفارسية الكحل الإيراني المشهور، وكانوا يدفعون فيه ثمناً باهظاً، كذلك كانت السجاجيد البابلية من البضائع المطلوبة، وكان الفرس يصدرون للصين الأحجار الثمينة السورية ـ طبيعية وصناعية ـ والمرجان واللؤلؤ من البحر الأحمر والأقمشة المنسوجة في الشام ومصر والمواد المخدرة من آسيا الصغرى.

وأما نظام البريد فقد كان مسخّراً لمصالح الدولة لا لمصلحة الرعية، فكان غرضه الأول ضمان مواصلات سريعة مريحة بين الحكومة المركزية وإدارة الأقاليم، فكانت الأشخاص والرسائل تسير في طرق معبّدة، وكانت المنازل (المحطات) مزوّدة حسب أهميتها بالموظفين والخيل، وكان هناك سعاة للبريد يركبون الخيل وآخرون من العدّائين، وهؤلاء كانوا يستخدمون بنوع خاص في الأقاليم الإيرانية الخالصة، حيث المسافات بين المحطات أقصر كثيراً جداً مما في البلاد السورية أو العربية، التي كان يستخدم في جزء منها بريد الجمال.

هـ ـ الجيش:

كان الجيش خاضعاً لقائد عام واحد، ولكن سيطرة هذا القائد كانت أوسع من سيطرة قائد الجيش بالمعنى الحديث، فقد كانت وظيفته تشتمل أعباء ثلاثة: وزارة الحرب، وقيادة الجيش العليا، والقيام بمفاوضات الصلح.

أما أنه كان يسيطر على تنظيم الجيش الإمبراطوري وتدبير أموره، فلأنه عضو في الدائرة الصغيرة من مستشارى الملك، وكانت أمور الحرب ترفع إليه بوصفه وزيراً، ولكنا مع ذلك نذكر أن سلطة رئيس الوزراء لم تكن

محدودة بالدقة، فكان يستطيع دائماً أن يتدخّل في إدارة الجيش، والملك كان يتدخّل في معظم الأوقات في المسائل المهمة المتعلقة بالحرب، وكان أكثر ملوك الساسانيين شغوفين بالحرب واشتركوا فعلّا في أعمالها.

وكان من مزايا القواد أن يدخلوا المعسكرات على صوت الطبل.

وكان هناك رئيس للحرس الملكي، وكانت فرق من المشاة بإمرة رئيسهم تحت تصرّف موظفي الأقاليم شُرطاً أو جلّادين وغير ذلك، وكانت فرق الرماة بإمرة قائدها تلحق بالقرية في بعض أنحاء المملكة على الأقل، وكان في البلاط جنود الحرس غالباً ملزمين بعمل الجلادين.

وكان هناك موظف كبير هو مؤدِّب الأساورة، واجبه: أن يعمل على تعليم أبناء المحاربين في المدن والرساتيق[1] حمل السلاح وآدابه.

و ـ الكتّاب وموظفو الإدارة المركزية:

إنّ الجّاه الذي كان تتمتّع به طبقة الكتاب في إيران واضح غاية الوضوح، فإن الإيرانيين كانوا دائماً يُعْنَوْن بالشكل، فالوثائق الرسمية ومراسلات الأفراد ينبغي أن تصاغ صوغاً أنيقاً، فتختلط بها نبذ من أقوال الحكماء والحكم الخلقية والدينية والأشعار والألغاز الرائقة لكي تكون الرسالة أو الوثيقة قطعة جميلة، كما أنّ الطريقة التي يُصاغ بها الكتاب ويوجّه يراعى فيها الفوارق بين رتبتي المرسل والمرسل إليه مراعاة دقيقة.

ويبدو الميل إلى البلاغة الشكلية في الآداب البهلوية أو في أحاديث العرش التي يبدأ بها كل ملك جديد، كما يظهر ذلك أكثر وضوحاً بين الهيئات المختلفة أيام الدولة السّاسانية، وبين الدولة وغيرها من الدول.

وكانت الكتابة صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية، يُنتفع بها في المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة في

(١) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، انظر معجم البلدان (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

المدح والذم، والاحتيال والاستعطاف والإغراء وتكبير الأعمال وتصغير الأمور، والتصرف في وجوه الاعتذار والعتاب، وفي أحكام العلائق، والتذكير بالسوابق، وترتيب الكلام وتنظيمه في كل واقعة على الوجه الأول والمناهج الأخرى؛ فينبغي أن يكون الكاتب كريم الأصل شريف العرض، دقيق النظر، عميق الفكر، ثاقب الرأي، وأن ينال الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته، وينبغي أن يكون بعيداً من القياسات المنطقية غريباً عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من الأغراض وأولي الأغماض ولا يغتر بهم، وينبغي بعد هذا أن يكون حسن الخط، وكان أذكى الكتاب وأحسنهم خطاً يستخدمون في البلاط الملكي، أما الآخرون فكانوا يرسلون إلى الأقاليم.

كان الكتاب إذاً دبلوماسيين حقيقيين، فقد كانوا يُمْلون كل أنواع الوثائق ويسيطرون على مراسلات الدولة ويصوغون جميع الأوامر الملكية، وينظمون قوائم الضرائب وحسابات الدولة، وكان عليهم في الكتابة للأعداء وخصوم الملك أن يقسطوا في كتابتهم ويراعوا الظروف التي يكتبون فيها، فيطبعوا كتابتهم بالمسالمة أو التهديد والوعيد.

وكان رئيس كتّاب الدولة في بعض الأحيان يُعيَّن من بين حاشية الملك، وكان الملك يعهد إليه حسب الظروف بمهام دبلوماسية.

وكان كتّاب الدولة كما عدّدهم الخوارزمي[1] كما يلي: كاتب الأحكام - كاتب البلد للخراج - كاتب حساب دار الملك - كاتب الخزائن - كاتب الإصطبلات - كاتب حسابات النيران، كاتب الأوقاف[2].

وكان في بلاط ملك إيران كاتب مختص بالشؤون العربية، وكان يتخذ أيضاً مترجماً، وكان يؤجَّر من عرب الحيرة.

---

(١) نقلًا عن كتاب: إيران في عهد الساسانيين (١٢٤).

(٢) كاتب الأوقاف: هو القائم على أعمال البر.

وكان هناك كاتب يعمل معلماً لأبناء الأسر الكبيرة باسم: معلِّم البلاط. وهناك موظفون آخرون كانوا قُوّاماً على الأختام ورؤساء لديوان الأخبار، وكان لأمناء سجلات الملك مرتبة عالية كذلك.

وكان الوزراء والكتاب يعينون غالباً من طائفتين من العظماء ينوب بعضهم عن بعض.

ز ـ إدارة الأقاليم:

ومن كبار موظفي الدولة حكّام الأقاليم (المرازبة)، وهم يقيمون بأقاليمهم، ومن الأقاليم، إرْمِيْنِيَة وفارس وكِرْمَان وأصْفهان وأذْرِبِيْجان وَطبَرِسْتَان[1] وزَرَنْج[2] والبحرين وهَرَاة[3] ومَرْو[4] وسَرْخَسَ[5] ونيْسابور[6] وطوْس[7].

وكانت مساحة بعض هذه الولايات صغيرة نسبياً، وبالجملة فإنه يبدو أنه لم يكن للولايات أيام السَّاسانيين حدود ثابتة، وكان الملك يرسل مرزباناً إلى إحدى الولايات حيث يحتاج إليه فيها، وكان الملك يجمع أو يقسم

---

(١) طبرستان: أكبر مدنها (آمل) وهي منطقة كثيرة المياه والثمار والأنهار، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٢٤) ومعجم البلدان (٦/ ١٧).

(٢) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٨٥) والمسالك والممالك للإصطخري (١٣٩).

(٣) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥) والمسالك والممالك للإصطخري (١٤٩) وتقويم البلدان (٤٥٤).

(٤) مرو: أشهر وأكبر مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢ ـ ٣٣) والمسالك والممالك للإصطخري (١٥٢) وتقويم البلدان (٤٥٤).

(٥) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٦٥) وتقويم البلدان (٤٥٤).

(٦) نيسابور: مدينة عظيمة من مدن خراسان، انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد (٤٧٣) ومعجم البلدان (٨/ ٣٥٦).

(٧) طوس: مدينة بخراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٧٠) وتقويم البلدان (٤٥٠).

الولايات حسب المصلحة؛ ويبدو أنّ معظم المرازبة كان يغلب عليهم الطابع العسكري على الطابع المدني، فإنّ الإدارة المدنية في جزء كبير من الولايات والنظام المركزي القوي في العهد السَّاساني كانت بأيدي موظفين مرؤوسين فيما يخص الجهات الصغيرة (المدن والقرى)، وفي أثناء الحرب كان المرازبة يعملون قواداً في الجيش.

وكان المرازبة يختارون من بين النبلاء، وكان لبعض المرازبة قصر في العاصمة، ومن التشريف المتميِّز للمرزبان أن يمنح عرشاً من الفضة.

وكانت الولايات مقسمة إلى مديريات يرأسها والٍ له جماعة من الجند تحت تصرفه، وكان هؤلاء الولاة مديرين للأملاك الملكية، ولعلهم كانوا يستمرون في مباشرة هذه الوظيفة حتى ولو كانوا حكاماً عسكريين في الأقاليم التي توجد بها هذه الأملاك.

أما التقسيم إلى كُوَرَ (جمع كورة)[١]، فكان تقسيماً إدارياً بحتاً، وكان على رأس الكورة: رئيس الكورة، والكورة تقسم إلى قرى على رأسها: رئيس القرية.

الزَرْدَشتيّة دينُ الدَّولة:

اتّحد السّاسانيون منذ بداية عهدهم مع رجال الدين الزردشتيين، وقد استمرت الصلات الوثيقة بين الدولة والدين طوال العهد السّاساني.

أمر أردشير الأول بعد أن ولي عرش إيران بجمع النصوص المبعثرة من الأوستا[٢] الإشكانية، وبكتابة نص واحد منها، ثم أجيز هذا النص واعتُبر كتاباً مقدساً.

ثم جاء سابور الأول بن أردشير وخليفته، فأدخل في هذه المجموعة

---

(١) الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ذلك اسم الكورة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٦).

(٢) الأوستا: الكتاب المقدس للزردشتيين.

من الكتب المقدسة التي لا تتعلق بالدين والتي تبحث في الطب والنجوم وما وراء الطبيعة التي كانت موجودة في الهند واليونان وغيرها من البلاد.

وقد أمر سابور بوضع نسخة من الأوستا في بيت (آذركشنسب) في (شِيْز)[1]، وأضيفت إليها الزيادات الجديدة، ولكن الخلافات الدينية ظلت مستمرة، فأمر سابور الثاني لكي يضع حداً لهذه الخلافات بعقد مجمع مقدس يرأسه الموبذان موبذ الذي حدد نهائياً نص الأوستا وقسمها إلى واحد وعشرين سورة على عدد كلمات الصلاة المقدسة تقع كل سورة في مائتي ورقة[2].

والأوستا الساسانية التي لم يبق منها اليوم غير أقلها، جمعٌ لنصوص بهلوية، ترجع إلى القرن التاسع، لم تكن قاصرة على النصوص الخاصة بالعبادات فحسب، بل كانت في الوقت نفسه نوعاً من دائرة معارف تحوي العلوم كلّها، فعلوم المبدأ والمعاد وأساطير الأولين والنجوم وعلم التكوين والعلوم الطبيعية والتشريع والحكمة العملية للعهد السّاساني، كلّها مقتبسة من الواحد والعشرين سورة التي تنقسم إليها الأوستا.

ومختصر الأوستا الموجود، حالياً غير متناسب الأجزاء، ففي بعضه وخاصة فيما يتناول المسائل الفقهية، نجد بيانات مفصلة، بينما أجزاء أخرى ولا سيما ما يتناول المبدأ والمعاد منها ملخّصة في بضع كلمات كما يحتوي على مُقطّعات في الشعائر الدينية وفي قوانين المعابد الزردشتية.

وقد عامل المسلمون في الفتح الزردشتيين معاملة أهل الكتاب، وعدّوا كتابهم كأنه كتاب منزل، وجرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك لما روي له الحديث الشريف «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب، إلخ»[3]، وقد

---

(١) شيز: أقليم بأذربيجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٢) فجر الإسلام (١/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(٣) فجر الإسلام (١/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

رأينا أنّ معظم الأوستا الساسانية كان موجوداً إلى القرن التاسع الميلادي في الترجمة البهلوية. فلا شك أنّ الظروف المادية القاسية التي كان عليها المجوس في ذلك الوقت جعلت من الصعب عليهم الاستمرار في استنساخ هذه المجموعة الكبيرة من النصوص المقدسة؛ ونفهم من ذلك أنهم تركوا الأجزاء المتعلقة بمسائل الفقه يطويها النسيان، ذلك لأنها قليلة الخطر لعدم وجود دولة مجوسية تطبق أحكام هذا الفقه.

فمن هو زرْدشْت (zoroaster) وما هي تعاليمه وفلسفته؟

اشتهر الفرس - والجنس الآري عامة - بأنهم ميّالون إلى عبادة مظاهر الطبيعة، فالسماء الصافية والضوء والنار والهواء والماء ينزل من السماء، جذبت أنظارهم وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهيّة، حتى سمّوا الشمس: عين الله، والضّوء: ابن الله: كما أنّ الظلمة والجدب ونحوهما كائنات إلهيّة شريرة ملعونة.

ثم جاء بَعْدُ (زردشت) نبيُ الفرس، فدعا إلى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد إصلاحها.

وقد كان وجود (زردشت) نفسه موضع شك عند كثيرين وموضوع جدل بين النافين والمثبتين، واختلف المثبتون في تاريخ وجوده على أقوال تتردد بين سنة (٦٠٠٠) قبل الميلاد و (٦٠٠) قبل الميلاد، وقد ألف الأستاذ (جاكسن Jackson) كتاباً قيماً في حياته[١] كان له أثر كبير في ترجيح كفة المثبتين لوجوده، وقد وصل في بحثه إلى أن زردشت شخص تاريخي لا خرافي، وأنه كان من قبيلة ميديا (في الجزء الغربي الشمالي من فارس)، وقد ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ومات نحو سنة (٥٨٣) قبل الميلاد بعد أن عمر (٧٧) سنة، وأن موطنه كان أَذْرَبِيْجَان[٢]،

---

(١) اسمه (Life of zoroaster).

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٧٧ - ٨١).

ولكن أول نجاح ناله كان في (بَلْخ)، وأنّ دينه انتشر من بَلْخ إلى فَارَس كلها.

لقد بنى الفُرس قبل زردشت تعاليمهم على أساسين: الأول، أنّ لهذا العالم قانوناً يسير عليه، وأنّ له ظواهر طبيعية ثابتة. والثاني، أنّ هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة، بين النور والظلمة، والخصْب والجَدب.. إلخ، فجاءت تعاليم زردشت مبنية على هذين الأساسين أيضاً، إلّا أنّ مَنْ قبله كانوا يعبدون الأرواح الخيِّرة وهي كثيرة فوحَّدها زردشت في إلهٍ واحد هو: (أهورا مزْدا)، وكذلك فعل في قوى الشر فحصرها في شيء واحد سمى (دروج إهرْمن)، وبذلك عنده قوتان فقط: قوة الخير، وقوة الشر.

والمشهور من تعاليمه أنه يقول: إنّ للعالم أصلين أو إلَهين: أصل الخير وهو (أهورا) أو (أهورا مزدا)، وأصل الشر وهو (أهرمن)[1]، وهما في نزاع دائم، ولكل من هذين الأصلين قدرة الخلق. فأصل الخير هو النور، وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع، فخلق النظام وخلق الحق وخلق النور وكلب الحراسة والديك ونحو ذلك من الحيوانات النافعة، والواجب على المؤمن العناية بها. وأصل الشر هو الظلمة، وقد خلق كل ما هو شر في العالم، فخلق الحيوانات المفترسة والحيات والأفاعي والحشرات والهوام، وعلى المؤمن قتلها، والحرب بين هذين الروحين سجال، ولكن الفوز النهائي لروح الخير، والناس في الحرب ينحازون إلى الروحين، فمنهم مَن ينصر (أهورا) ومنهم من ينصر (أهرمن)، وليس الروحان يباشران الحرب لأنفسهما بل بمخلوقاتهما.

وكان الإنسان موضع نزاع بين الروحين، لأنه مخلوق (مزدا)، ولكنه خلقه حُرّ الإرادة، فكان في الإمكان أن يخضع للقوى الشريرة؛ والإنسان في

---

(١) يسمى أيضاً إله الخير (يزدان) وفي ذلك يقول أبو العلاء المعري:

قال أناس باطل زعمهم ... فراقب الله ولا تزعمن
فكَّر (يزدان) على غرة ... فصيغَ من تفكيره أهرمن

حياته تتجاذبه القوتان، فإن هو اعتنق ديناً حقاً، وعمل عملاً صالحاً، وطهَّر بدنه ونفسه، فقد أخزى روح الشر ونصر روح الخير واستحقّ الثواب من (مزدا)، وإلّا قوّى روح الشر وأسخط عليه (مزدا).

كذلك من أهم مبادئه أنّ أشرف عمل للإنسان: الزراعة والعناية بالماشية، فَحَبّب إلى الناس أن يزرعوا وأن يعيشوا مع ماشيتهم، وأن يجدّوا، ويعملوا، حتى حرّم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل، وهو يريدهم أقوياء عاملين.

وعلَّم أن الهواء والماء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجَّس، وكان من مظاهر هذا تقديس النار واتخاذها رمزاً، وتحريم تنجيس الماء الجاري، وتحريم دفن الموتى في الأرض ونحو ذلك[1].

ومع هذا فإِنّ مكانة النار أعظم في الدين الزردشتي، وتُميِّز الأوستا بين خمسة أنواع من نار المعابد وهي أيضاً النار التي ينتفع بها الناس عادة، وهي النار التي توجد في جسد الإِنسان والحيوان، وهي النار التي توجد في النباتات، وهي النار الكامنة في السحاب أي الصاعقة، وهي النار التي تشتعل أمام (أهورا مزدا) في الجنة، وقد اعتبر المجد الذي يصاحب الملوك الشرعيين الآريين تجلياً لهذه النار، النار السماوية.

كان الزردشتيون يقدسون الماء إلى حد أنهم لا يغسلون به وجوههم ولا يلمسونه، إلا أن يكون ذلك للشرب أو ريّ الزرع.

وللإِنسان حياتان: حياة أولى، وفيها قد أحصيت أعماله في كتاب، وعُدّت سيئاته ديواناً عليه، وفي الأيام الثلاثة التي تعقب الموت تحلِّق نفس الإنسان فوق جسده، وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله، ومن أجل هذا تقام الشعائر الدينية في هذه الأيام إيناساً للنفس؛ وعند الحساب تمر النفس على صراط ممدود على شفير جهنم، وهو للمؤمن عريض سهل المجاز، وللكافر

---

(١) فجر الإسلام (١/١٢٣ ـ ١٢٦).

أرق من الشعرة؛ فمن آمن وعمل صالحاً جاز الصراط بسلام، ولقي (أهورا) فأحسن لقاءه وأنزله منزلًا كريماً، وإلا سقط في الجحيم وصار عبداً لأهرمن، وإن تعادلت سيئاته وحسناته ذهبت الروح إلى الأعراف إلى يوم الفصل.

وقد غيِّب على الإنسان في حياته الدنيا ما أعدّ له بعد موته، ولم يعلم الخير من الشر، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولًا يهدي به الناس.

ويذكر زردشت أنّ يوم القيامة قريب، وأنّ نهاية هذه الحياة ليست بعيدة، وسيجمع (مزدا) قوته، ويضرب إله الشر ضربة قاضية، ويعذبه بالجحيم هو ومَن أطاعه[1].

بجانب هذه التعاليم الدينية كانت لزردشت فلسفة فيما وراء المادة، ولكن لم تكن بحوثه شاملة كالذي كان عند اليونان، بل كانت بحوثاً جزئية، كذلك نرى له امتزاجاً فيما وراء الطبيعة والدين والتوفيق بينهما.

فمن أبحاثه الفلسفية بحثه في النفس، فالديانة الزردشتية ترى أنّ نفس الإنسان قد خلقها الله بعد أن لم تكن، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة إذا حاربت الشرور في العالم الأرضي، وقد منحها الله حرية الإرادة، فهي تستطيع أن تختار الخير أو الشر، وللنفس الإنسانية قوى مختلفة: الضمير والوجدان، والقوة الحيوية، والقوة العقلية، والقوة الروحية، والقوة الواقية... إلخ.

فهل دين زردشت ثنويّ يرى أنّ العالم يحكمه إلهان: إله الخير، وإله الشر، وأنّ لكل إله ذاتاً مستقلة؟؟ أو هو موحِّد يرى أنّ العالم يحكمه إله واحد، وأنّ ما في العالم من خير وشر وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا إلّا مظهرين أو أثرين لإله واحد؟؟

---

(١) فجر الإسلام (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

اختلف الباحثون في الإجابة على هذا السؤال، فيرى كثيرون أنه ثنوي كما يدل عليه ظاهر كلامه، وقد ذهب إلى هذا الرأي بعض كتاب الفرنج، ومنهم مَن يرى أنه موحِّد وإلى ذلك ذهب الشهرستاني في الملل والنحل والقلقشندي في صبح الأعشى وغيرهما. ويقول هوك (Haug): «إِنّ زردشت كان من الناحية اللّاهوتية موحِّداً ومن الناحية الفلسفية ثنوياً»[1].

وكان للزردشتيين بيوت للنار يقيمون فيها شعائرهم الدينية، وقد رأينا أنّ جدّ (أردشير) الأول كان قيِّماً على بيت نار في مدينة (إصطخر) وأنّ الأسرة السّاسانية حافظت دائماً على صلتها القريبة بهذا البيت، وكانت هناك معابد يختصّ كل منها بإله، ومن المحتمل - مع ذلك - أن تكون المعابد بصفة عامة مخصّصة لعبادة آلهة الشريعة الزردشتية جميعاً، وأنها كانت من نوع واحد، فكان مركز الخدمة المقدسة هو الهيكل الذي فيه النار المقدسة، وكان لبيت النار عادة ثمانية أبواب وعدّة أبهاء من ثمانية أركان، ويمثل هذا النوع من المعابد في أيامنا هذه معبد نار (يَزْد)[2]، وقد حُوِّل إلى مسجد كبير منذ الفتح الإسلامي؛ ويصف المسعودي خرائب بيت النار القديم في إصطخر، وكان في أيامه مسجد سليمان: «وللفرس بيت نار بإصطخر تعظمه الفرس... وهو على نحو فراسخ من مدينة إصطخر، وقد دخلته فرأيت بنياناً عجيباً وهيكلًا عظيماً وأساطين صخر عجيبة في أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوانات عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حَيِّز وسور منيع من الحجر وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأتقنت صورها، يزعم مَن جاء هذا الموضع أنها صور الأنبياء».

وباختلاف الدرجات في نظام الأسرة عند الإِيرانيين القُدامى وجدت

---

(١) فجر الإسلام(١/ ١٢٧).

(٢) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان معدودة من أعمال فارس ثم من كورة إصطخر، وهو اسم للناحية وقصبتها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٠٦).

درجات متفاوتة من النار، فكان هناك: نار البيت، ونار القبيلة، ونار القرية، ونار لكل كورة أو إقليم، وبينما نار البيت كانت منوطة برب البيت، كان اثنان من الهرابذة على الأقل لازمين للقيام بخدمة نار القرية، وكانت نار الكورة أو الإِقليم تتطلب هيئة من الهرابذة أكثر عدداً يرأسها موبذ.

وقد جاء في إحدى سور الأوستا السّاسانية تفاصيل عن طريقة عبادة النار مؤيدة بالقصص الدينية، ففي المعبد حيث الهواء مفعم بالبخور يقف الهربذ، وقد أخفى فمه برباط لكي لا تلوث أنفاسه النار، ليغذي النار بقطع من الخشب طهِّرت تطهيراً دينياً، مادّاً يده بحزمة الخشب المسوّى والمهيأ طبقاً لمراسيم الدين، مرتلًا الأدعية الدينية، ويأخذ هرابذة المعبد بعد ذلك في نثر (الهوما)[1] والأغصان المطهرة من نبات الهوما تدق في الهون بينما الهرابذة يرتلون الأدعية أو يتلون بعض آي الأوستا.

وفي معبد النار يرتِّل رجال الدين الأدعية المقرّرة للأوقات الخمسة المحدّدة في النهار، ثم يقومون بكل أعمال المذهب وهي تأخذ شكلًا علنياً رائعاً في الأعياد السنوية الستة والتي تساير فصول السنة على اختلافها، ولكن الطبقات من غير رجال الدين لم يكونوا مبعدين عن المعابد بل على العكس كان من الواجبات الدينية على كل فرد منهم أن يذهب ليرتل دعاء مجد النار، ومن يذهب منهم ثلاث مرات ويرتل هذا الدعاء يظفر بالمال والسّعادة الروحية. وقد كان منظر المعبد يبعث المؤمنين على الاستغراق، وذلك بقاعاته المظلمة حيث تشتعل النار فوق المذبح والآلات المعدنية تلمع، وحيث الهرابذة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيناً آخر، وهم يردِّدون الأدعية والصلوات دائماً في أوقاتها على قدر المرات المحدودة لكل حالة.

وبالجملة كانت هذه النار التي توقد في المعابد رمزاً للوحدة الملكية

---

(١) نوع من النبات.

والدينية، رمز الملكية السّاسانية التي قويت بتحالفها مع رجال الدين، على خلاف الملكية الإشكانية التي كان لكل ملك مقاطعة فيها معبد خاص به.

وتعتبر الأعياد السنوية أيّام السّاسانيين[1] أعياداً زراعية تتّصل بأعمال المزارع، ولما اعترف الدين الرسمي بهذه الأعياد صار الاحتفال بها ذا مراسيم دينية مع احتفالات مهيبة.

وتتألّف السنة الزردشتية من اثني عشر شهراً، وهذه الأشهر تحمل أسماء الآلهة الرئيسيين، وكل شهر يَعُد ثلاثين يوماً، وكل يوم يحمل اسم إله من آلهة الزردشتيين، ويضاف إلى هذه الأيام الثلاثمائة والستين خمسة أيام إضافية أو مسترقة توضع في نهاية الشهر الأخير من السنة.

ولكي تكون السنة الزردشتية مطابقة للسنة النجمية، كانوا يضيفون شهراً في كل مائة وعشرين سنة، وحينئذ كانت الأيام الخمسة المسترقة تضاف عقب هذا الشهر، ولكنهم كانوا لأسباب شتى، يضيفون شهرين دفعة واحدة لمدة (٢٤٠) سنة.

وكان النوروز أكبر الأعياد الشعبية كما هو اليوم في إيران، وهو يوم رأس السنة، وكان الملوك يُسعدون رعاياهم في جميع الولايات في هذا اليوم السعيد، وكان مَن يشتغل يستريح به ويحتفل بالعيد، وكانت الضرائب المجبية تقدّم للملك في النوروز، وفيه يُعَيّن أو يُستبدل حكام الأقاليم، وتضرب النقود الجديدة وتطهرّ بيوت النار. ويستمر العيد ستة أيام متوالية، وفي هذه الأيام يجلس ملوك السّاسانيين للعامة، ويقابلون العظماء وآل ساسان في نظام حسن ويقدِّمون لهم الهدايا، وفي اليوم السادس كان الملك يحتفل هو نفسه بالعيد مع خاصته والواقع أن اليوم الأول واليوم الأخير من النوروز (اليوم السادس) كان يحتفل بهما احتفالاً يحوي كلَّ المظاهر الشعبية، وكانوا يصحون مبكرين في اليوم الأول ويذهبون إلى مجاري المياه

(١) يعتبر كتاب البيروني: الآثار الباقية، من المصادر الرئيسية لمعرفتها.

والقنوات للاستحمام ورش بعضهم بعضاً بالماء، وكانوا يتبادلون هدايا الحلوى، وكانوا في الصباح قبل أن ينطق أحدهم بكلمة يأكلون السكَّر ويلعقون العسل ثلاث مرات ويدلكون أجسادهم بالزيت ويتبخرون بثلاث قطع من الشمع ليحفظوا أنفسهم من الأمراض والآفات.

أما عن أعياد السنة الأخرى، فسنقتصر على الإشارة إلى أهمها: في كل شهر عيد اليوم المسمى باسمه الشهر، وفيه يغتسل الفرس ويطبخون الحنطة والفواكه.

وكان هناك عيد النار، وهو عيد النيران التي في دور الناس، وفيه يوقدون النيران العظيمة في بيوتهم ويكثرون من عبادة الله وحمده، ويجتمعون على الأكل والفرح، ولكن يظهر أنّ هذا اليوم لم يكن عيداً إلّا في بعض ولايات إيران.

وكان المهرجان عيداً كبيراً جداً، وهو عيد (ميترا)[1]، وكان في الأزمنة القديمة يوم رأس السنة، وقد احتفظ بكل تقاليده. وقد كان (المهرجان) كالنوروز احتفالًا بخلق الإنسان والأرض وغير ذلك من حوادث التاريخ الخرافي، ومن رسوم الأكاسرة في هذا اليوم التتويج بالتاج الذي عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ومنه جرى الرسم بأن يقف في صحن دار الملك رجل شجاع وقت إسفار الصبح ويقول بأعلى صوته: «يا أيها الملائكة! انزلوا إلى الدنيا، وامنعوا الشياطين والأشرار، وادفعوهم عن الدنيا، ومن طَعم يوم (المهرجان) شيئاً من الرّمان وشمّ ماء الورد رفع عنه آفات كثيرة».

وفي أول آذار (مارس) يحتفل بعيد الربيع.

وهناك عيد اليوم السعيد، وكان الملك فيه ينزل عن السرير، ويلبس الثياب البيض، ويجلس على الفرش البيض في الصحراء، ويرفض الحجبة

---

(١) اسم إله.

وهيبة الملك، ويتفرّغ للنظر في أمور الدنيا وأهلها، ومن احتاج أن يكلمه في شيء دنا منه رفيعاً كان أو وضيعاً وخاطبه غير ممنوع من ذلك، ويجالس الدهاقين والمزارعين ويواكلهم ويشاربهم ويقول: «أنا اليوم كواحد منكم، وأنا أخوكم، لأنّ قوام الدنيا بالعمارة التي تجري على أيديكم، وقوام العمارة بالملك، ولا استغناء بأحدهما عن الآخر»[1].

وهناك عيد يسمى بعيد (الثوم)، وفيه يؤكل الثوم ويشرب الخمر ويطبخ النبات باللحوم التي يتحرز بها من الشيطان، وبها يتداوون من العلل المنسوبة إلى أرواح السوء.

وهناك عيد (السَّقي)، وفيه يصب كلّ فرد الماء، وهو عمل سحريّ يقصد به جلب المطر، ويقال: إنّ هذا اليوم أصبح عيداً احتفالاً بنزول المطر بعد جدب طال أوانه.

وهناك عيد اسمه: (عيد النساء)، وفيه يجود الرجال على النساء.

وهناك عيد اسمه: نوروز الأنهار والمياه الجارية، وفيه يطرحون الطيب وماء الورد وغير ذلك في المياه الجارية.

وهناك عيد إبادة الكائنات الشريرة، وهو عيد ديني من أعظم الأعياد عند الإِيرانيين، وفي هذا العيد يُقتل عدد كبير من الزواحف والحشرات التي تعيش في الصحاري، وتقدّم إلى (المغان)، إثباتاً لتقوى القاتلين.

وكانت قراءة الطالع من الأعمال التي يقوم بها (المغان)، فكانوا يتحدّثون عن الغيب وهم ينظرون إلى النار المقدسة، وكانوا يحصرون الطالع بما لهم من معرفة بعلم النجوم، ولكن مع ذلك كان هناك طريقة شعبية لمعرفة النجوم، فالبيروني[2] يذكر قائمة بأسماء أيام السعد والنحس، كما أنه يبيِّن أحكام الحية ورؤيتها في أيام الشهر: العلة والمرض، موت أو ذهاب

---

(١) البيروني (٢١١ ـ ٢١٢).

(٢) البيروني (٢١٨).

شيء من أهل البيت، منفعة ومعونة من أهل البلد، ذِكْر ومَحْمدة، سفر فيه منفعة كثيرة، دخول على السلطان، تزويج ونكاح، مال بلا تعب، وكانت أيام قِران النجوم أو تقابلها من أيام النحس.

تلك هي مجمل حياة زردشت وتعاليمه وفلسفته ومجمل العقيدة الزردشتية ومجمل طقوسها وبيوت عبادتها وتقويمها وأعيادها كافية لإِعطاء فكرة عن الحياة الدينية للساسانيين.

المانويَّة والمَزْدَكيّة:

١ ـ ماني والمانوية:

توفي مؤسس الأسرة السّاسانية سنة (٢٤١م)، ولم يقم الاحتفال الرسمي بتتويج خلفه سابور، إلّا في سنة (٢٤٢م)، وكان أول خطبة دينية لماني حسب رواية ابن النديم، في يوم تتويج سابور وذلك يوم الأحد أول نيسان (أبريل)، فإذا استطعنا تصديق هذه الرواية فإِنّ اليوم العشرين من شهر آذار (مارس) من سنة (٢٤٢م) شهد حادثين تاريخيين؛ ولكن جاء في عبارة من كتاب (كفلايا)[١]: «أنّ ماني نفسه يحدثنا بأنه منذ أيام أردشير قام برحلة في بلاد الهند ليدعو إلى مذهبه فيها، وإنه قد عاد إلى إيران حين سمع بوفاة أردشير وتولية سابور، وأنه قابل سابور في (خوزستان)»[٢].

كان ماني إيرانياً من أسرة عريقة، وتقول الروايات: إنّ أمه كانت من العائلة المالكة الإشكانية، وكانت لا تزال تحكم إيران حين ولد ماني، وليس بعيداً أن يكون أبوه (فاتك) من الأصل نفسه، وقد هاجر (فاتك) هذا من بلدة (همذان) إلى بابل حيث أقام في قرية وسط ولاية (مَيْسَان) وفي هذه القرية ولد ماني سنة (٢١٥م) أو (٢١٦م).

---

(١) كفلايا: كتاب يشمل تعاليم ماني التي جمعت بعد موته، انظر كتاب: إيران في عهد الساسانيين (١٨٨).

(٢) خوزستان: هي الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٨٨).

وقد نشأ الطفل الصغير ماني على مذهب (المغتسلة)[1]، ولكنه تعمق بعد ذلك في درس أديان زمانه: الزردشتية والمسيحية... إلخ، فترك مذهب (المغتسلة) وزعم ماني أنه (الفارقليط) الذي بشّر به عيسى عليه السّلام.

ويرى ماني أنه كان في مبدأ العالم كونان: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنّ الأول هو (العظيم الأول) أو الإله، وهو يتجلى في خمسة أشياء هي بمنزلة الوسائط بين الخالق والخلق وبمثابة آقانيم الأب الخمسة: الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة، وفي رواية شائعة في بلاد ما بين النهرين، أن العناصر الشريرة الخمسة قد كونت العوالم الخمسة لإله الظلمات هي: الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة.

ولكن إله الظلمات هاجم النور بكل قواه حين رآه، فنظم (العظيم الأول) دفاعه عن مملكته، وذلك بخلقه أول المخلوقات، فدعا (أم الحياة) أو (والدة الأحياء) ودعت هي بعد ذلك (الرجل القديم)، و(العظيم الأول) و(أم الأحياء) و(الرجل القديم) يكونون التثليث الأول: الأب والأم والولد، وبعد هذا ولد (الرجل القديم) خمسة أبناء هم: النسيم والريح والنور والماء والنار.

وحينما أحاط (الرجل القديم) نفسه بالعناصر الخمسة كأنها جُنَّة له، نزل ليقابل إله الظلمات الذي تسلح بعناصره الخمسة، وقد وجد (الرجل القديم) أن عدوه أشد منه قوة فتركه يزدرد عناصره المنيرة، فاختلطت العناصر الخمسة النورانية بعناصر الظلمات الخمسة فنتج عن ذلك عناصرنا الخمسة التي لها صفتا الطيبة والخبث.

لقد أثَّرت الآراء المسيحية تأثيراً عظيماً على مذهب ماني، (فالعظيم الأول) و(الرجل القديم) و(أم الحياة)، والتثليث المانوي الأول، كانوا يقدّسون كالأب والابن وروح القدس، وفي النصوص المانوية عبارات مأخوذة عن الأناجيل المسيحية.

---

(١) المغتسلة: إحدى الفرق الدينية التي وجدت في الأقاليم الواقعة بين دجلة والفرات.

وكانت تعاليم ماني مزيجاً من الديانة المسيحية والزردشتية، وهي كما يقول الأستاذ (بْرَوْن): «أن تُعدَّ زردشتية منصرة أقرب من أن تعد نصرانية مزردشة».

ومن ذلك يتضح أنّ خلاصة مذهبه، أنّ العالم نشأ كما قال زردشت عن أصلين وهما: النور والظلمة، وعن النور نشأ كلّ خير، وعن الظلمة نشأ كلّ شر، والنور لا يقدر على الشر، والظلمة لا تقدر على الخير، وما يصدر عن الإِنسان من خير فمصدره إله الخير وما يصدر من شر فمصدره إله الشر، فإِن هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة؛ وكذلك جميع الحواس، وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجاً تاماً.

وهو في هذا لا يخرج كثيراً عن تعاليم زردشت، ولكن يخالفه بعد في أمر جوهري: هو أنّ زردشت كان يرى: أنّ هذا العالم الحاضر عالم خير، لما فيه من مظاهر نصرة الخير على الشر، في حين أنّ ماني يرى أنّ نفس الامتزاج شر يجب الخلاص منه، وزردشت يرى أن يعيش الإِنسان عيشة طبيعية فيتزوج وينسل ويعنى بزرعه ونسله وماشيته ويقوي بدنه ولا يصوم، وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر، وأما ماني فنزع منزعاً آخر هو أشبه ما يكون بالرهبنة.

فقد رأى ماني أنّ امتزاج النور بالظلمة في هذا العالم شر، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء، ودعا إلى الزهد، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة يقوم الرجل فيغتسل بالماء ويستقبل الشمس قائماً، ثم يقوم ويسجد وهكذا، اثنتي عشرة سجدة، يقول في كل سجدة منها دعاء، ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام، وأقرّ بنبوة عيسى وزردشت[١].

---

(١) فجر الإسلام (١٣١ ـ ١٣٢) والملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٨١ ـ ٨٦).

أما الأخلاق المانوية فقد وسعها سلسلة من القواعد، وخاصة الخواتيم السبعة التي منها أربعة روحانية تتعلق بالعقائد وثلاثة تبحث في سلوك المؤمنين، وهذه الثلاثة هي: خاتم الفم (الكف عن الكلام المؤدي إلى الكفر أو الخبث) وخاتم اليد (الاحتراز من كل فعل أو تصرف يغضب النور)، وخاتم القلب (تجنب الاستسلام للشهوات الجنسية المحرّمة).

وقد لقيت دعوة ماني نجاحاً كبيراً منذ البداية، لا في بابل وحدها بل بين الإيرانيين، وكان ماني ذا حظوة عند سابور أيام حكم أردشير الأول، وقد نجح في إدخال أخوين لسابور في دعوته هما مهرشاه حاكم (مَيْسَان) وفيروز.

وقد ذهب ماني إلى الهند والصين داعياً لمذهبه في كل مكان ومؤلفاً للكتب والرسائل التي يبعثها إلى الرؤساء والجماعات في بابل وإيران وبلاد المشرق وأخيراً توفي سابور سنة (٢٧٢م) وخلفه ابنه هرمزد الأول سنة (٢٧٣م) فتجرّأ ماني وتحدىّ خصومه الموابذة، وكان أثيراً عند هرمزد الأول.

ومات هرمزد ملك الفرس الذي اعتنق مذهب ماني وأيّده، فخلفه بهرام الأول: أخو هرمزد، وهو ملك شهواني قليل النشاط، فترك ماني تحت رحمة رجال الدين، فجرت بين ماني والموابذن موبذ (قاضي القضاة) مناظرة، فقال الموبذان: «أنت الذي تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم؟»، فقال ماني: «واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل». فقال الموبذان موبذ: «فمن الحق الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم»، فبهت ماني[1] وغلب على أمره، فأدخل السجن حيث عُذِّب عذاباً مبيناً مات على أثره، وكان ذلك عام (٢٧٩م).

(١) فجر الإسلام (١/ ١٣١).

وقد ألّف ماني كثيراً من الكتب والرسائل التي ضمنها مذهبه، وأدخل إصلاحاً على الكتابة البهلوية بوصفه أحد كتابها، وذلك بأن استبدل بالكتابة البهلوية التي كانت لغموضها قابلة لقراءات كثيرة مغلوطة ـ الألف باء السريانية التي استطاع تطبيقها بغاية الدقة على اللّهجتين الإِيرانيتين: (لهجتي الجنوب الغربي والشمال)، وقد عبر عن الحروف البهلوية الصوتية بأقرب الحروف السريانية لها.

وكان ماني ماهراً في الخط والنقش، وقد نقش صوراً منفرة لأبناء الظلمات ليبغضها إلى الناس، بينما صور أبناء النور صوراً جذّابة ليحبِّب جمالها إلى الناس.

وللاضطهاد الذي لقيه المانويون في إيران من رجال الدين الزردشتيين، فإِنّ هذا الدين الجديد قد عاش في صورة شبه سرية.

وقد وجد كثير من المانوية في بابل بنوع خاص لأنها مهد هذا الدين، وفي المدائن عاصمة الدولة، ومن ناحية أخرى أدى الاضطهاد إلى هجرة كثير منهم إلى أقاليم الشرق والشمال حيث يقيم كثير من الإِيرانيين، كما انتشرت المانوية في أوروبا إلى فرنسا الجنوبية، وقد ذكروا أن سانت أوغسطين ظلّ مانوياً عهداً طويلًا قبل أن يعتنق النصرانية.

فلماذا اضطهد بهرام المانوية؟

إنّ الذي دعا بهرام لقتل ماني وأصحابه هي الناحية العملية، فقد كان زردشت يدعو إلى العمل.

وكان في تعاليمه مؤيداً للقومية والنزعة الحربية، مما يتّفق وميول الإِيرانيين إذ ذاك، وعلى العكس من ذلك تعاليم ماني، فهي أميل إلى الزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء، وهي ـ بلا شك ـ في منتهى الخطورة لمملكة حربية كفارس، ويؤيد هذا ما جاء في الآثار الباقية: «إن بهرام قال: إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده».

٢ ـ مزدك والمزدكية:

يستفاد من روايات المؤرخين العرب أن زردشت كان رجل دعوة فقط، وأن مزدك كان رجل التنفيذ، وقد استطاع هذا أن يقضي على شهرة سابِقِه.

أما شخصية مزدك فلا نعرف عنها إلا قليلًا جداً، ويقول الدَيْنَوَرِيّ: «إنّ أصله من (إصطخر)»، أما صاحب «تبصرة العوام» فيرى أنّ مزدك ولد في مدينة (تبريز)[١] وقد ظهر مزدك حول سنة (٤٨٧م) في فارس، ويقول الطبري: «إنه من (نيسابور)»[٢].

ومذهب مزدك كان طابعه إصلاح مذهب ماني، وهو كالمانوية الأولى بدأ يناقش الصلة بين الأصلين القديمين: النور والظلمة، وهو يختلف عن مذهب ماني لأنه يقول: إن الظلمة لا تعمل كما يعمل النور بالقصد والاختيار، ولكنها تفعل على الخبط والاتفاق، وعلى هذا النحو يكون امتزاج النور بالظلمة ـ وهو الامتزاج الذي نشأت عنه الدنيا ـ غير ناتج بالقصد والاختيار كما قال ماني ولكنه كان على الاتفاق والخبط، وعلى ذلك فعلو النور أكثر توكيداً في النظرية المزدكية منه في المانوية.

وقد قال ماني بوجود خمسة أركان للنور: الأثير والهواء والنور والماء والنار، ولكن مزدك قال بثلاثة أركان: الماء والنار والتراب، ولما اختلطت النور والظلمة، حدث عنها مدبِّر الخير ومدبِّر الشر، فما كان من صفوها فهومن مدبِّر الخير، وما كان من كدرها فهو من مدبِّر الشر، ومدبِّر الخير هو إله النور (ملك النور) عند المانوية؛ وقد صوّر مزدك معبوده وهو قاعد

---

(١) تبريز: مدينة عامرة ذات أسوار محكمة، وفي قصبة منطقة أذربيجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٦٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٣٩).

(٢) نيسابور: مدينة عظيمة، من الري إليها مائة وستون فرسخاً ومنها إلى سرخس أربعون فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٥٧)، وانظر فجر الإسلام (١/ ١٣٤).

على كرسيه في العالم الأعلى على هيئة قعود كسرى في العالم الأسفل، وبين يديه أربع قوى: قوة التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور.

وقد نهى مزدك الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب عدم المساواة بين الرجال، فقد أوجب إزالة هذا السبب، وقد وجب في الجماعة المانوية على (الصدّيقين) أن يعيشوا بلا نساء ولا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ومن الملابس غير ما يكفي سنة واحدة، والمفروض أن قواعد مماثلة فرضت على الطبقة العليا في الفرقة المزدكية، لأننا نجد فيها هذا الميل نحو الزهد ورياضة النفس، ولكن رؤساء المزدكية قد أدركوا أنّ الرجال العاديين لا يستطيعون التخلّص من حب اللّذات المادية، أي الرغبة في تملّك الأموال والنساء، أو المرأة التي يحبونها، إلّا في اللّحظة التي يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالاختيار، وبهذه الفكرة ظهرت النظرية الاجتماعية للمزدكية: فإنّ الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره، ولقد نتج عدم المساواة بالقوة فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه؛ والحقيقة أنّ من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو أولى بها من غيره، فينبغي أن يأخذوا من الأغنياء للفقراء وأن يردّوا من المكثرين على المقلين، وذلك ليقيموا المساواة البدائية، وينبغي أن تكون الأموال والنساء شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ.

وأكّد مزدك أنّ ذلك من البر الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب، وأنه لو لم يكن الذي أمرهم به وحثّهم عليه من الدين لكان مكرمة في الفعال ورضاء في التفاوض.

وقد أصرّ المزدكية على وجوب القيام بأعمال الخير، فإنهم لم يحرموا القتل فحسب، ولكنهم حرموا أيضاً إدخال الآلام على النفوس، ولهم مذهب في الضيافات يوصي بأن لا يمنع الضيف من شيء يلتمسه كائناً ما كان.

واتصل مزدك بالملك (قباذ)، وقد ذكر الثعالبي والفردوسي، أنْ مزدك استطاع أثناء قحط، أن يستدرج قباذ بالأسئلة الماكرة إلى أن يعلن أن من منع رجلًا من الطعام والشراب ينبغي أن يقتل به، فخرج مزدك عند ذلك فقال للسوقة المتجمعين حول القصر: إنّ الملك قد أباح لكم ما في الإهراء من الغلات، فابسطوا أيدكم، وأينما وجدتم شيئاً فاستبيحوه[1].

ونستطيع بدراسة عميقة لما في أيدينا من تاريخ المزدكية أن نكوِّن لأنفسنا فكرة تقريبية عن هذه الحركة أثناء حكم قباذ المديد. كانت المزدكية في الأصل مذهباً دينياً، ولم يكن لمظهر المذهب الاجتماعي إلّا شأن قليل فيه، والقوانين التي أصدرها قباذ في المدة الأولى من حكمة ليحقق إلى حد ما المثل الأعلى الدنيوي للمزدكية، كانت في الحقيقة قوانين ثورية. كانت المبادئ الشيوعية قد بدأت تتأصل في السوقة، وكانوا منذ أجيال في ضيق من ظلم الطبقات المتميّزة، وقد انتشرت هذه المبادئ بطيئة في أول الأمر، ثم لم تلبث أن أسرعت، وظهرت أعمال لا تنطوي على الرحمة الدينية ولا تتمثّل فيها النزاهة عن الهوى، واستفحل الاستيلاء، وَجَرَّأ السوقة التكاثر، فبدأوا العدوان؛ ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا: إنّ العبارة الآتية من كتاب (تنسر) تعبر عن هذا الحال[2]: «فإذا حجاب الحِفاظ والأدب قد ارتفع، وظهر قوم لا يتحلّون بشرف الفن أو العمل، لا ضياع لهم موروثة ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة، عاطلون مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء، بل هم من ذلك يحيون في رغد من العيش وسعة المال».

وهكذا عمّ التطاول في كلِّ مكان، واقتحم الثوار قصور الأشراف ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر، وكانوا يملكون هنا وهناك أراضي قد بارت، لأنّ السَّادة الجُدد لا يعرفون الزراعة.

---

(١) الملل والنحل (٢/ ٨٦ ـ ٨٨).

(٢) دار مستتر (٢١٥) و (٢١٩)، مينوى (١٣)، الترجمة العربية للخشاب (٣٥).

ونرى إلى أي حد بلغت الفوضى حينذاك مما جاء في روايات المؤرخين العرب عن الوسائل التي اتخذها كسرى الأول (أنو شروان) من بعد لإِصلاح ما نتج عن المفاسد.

فقد بدأ كسرى إصلاحاته بالقضاء على الفوضى التي أحدثها اتباع مزدك، فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة، وجعل من الأموال التي لا وارث لها رصيداً لإِصلاح ما فسد. وأما من غلب على أمره من النساء، فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة: فإِذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب، ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفي عنها، يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضي أهلها، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة فالطلاق واجب على رأي، وفي رأي آخر يكون لها الخيار في أن تكون زوجة لغالبها أو أن يطلقها، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يُرضيَ أهلها على أية حال، وإذا كان للمرأة زوج وجب ردّها إلى زوجها وألزم الغالب أن يدفع لها مهراً مساوياً للمهر الذي دفعه زوجها الشرعي من قبل.

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه، وأن يعطى نصيباً من مال الرجل الذي ينسب إليه إذا قبله الرجل، وأمر بكل من كان أضرّ برجل في ماله أو ركب أحداً بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه.

وأمر بعيال أهل الأحساب الذين مات قيِّمُهم فكتبوا له، فأنكح بناتهم الأكفاء وجعل جَهازهم من بيت المال، وأنكح شبانهم من بيوتات الأشراف، وساق عنهم وأغناهم وأمرهم بملازمة بابه ليستعان بهم في أعماله.

وأمر بكري الأنهار وحفر القنى وإسلاف أصحاب العمارات وتقويتهم، وأمر بإِعادة كل جسر قطع أو قنطرة كسرت أو قرية خربت، وأن يرد ذلك إلى أحسن ما كان عليه من الصّلاح.

وأمر بالنظر فيما تهدم من المساكن والقرى حيثما عجز الملاك عن

المحافظة عليها، وعلى أدوات الري والزرع، فأعان أهلها لإصلاح حالهم وأمدهم بالمواشي، وأعيد بناء القرى التي خربت وأقيمت الجسور الخشبية التي كسرت وبنيت الجسور الحجرية التي انهارت، ثم أقيمت الحصون في الأماكن المعرضة للعدو.

لقد أخذت المزدكية فيما بعد تتخذ رويداً رويداً طابع نظرية اجتماعية ثورية وهي تنتشر في الطبقات الدنيا من المجتمع، وقد بقي أساسها الديني وكان لها دائماً أنصار بين الطبقات العالية؛ وأخيراً أحسّت الجماعة المزدكية بالقوة الكافية لإنشاء المراتب الدينية، فكانوا ينتخبون رئيساً يدعى: (المستشار) أو (المعلم)، وبقيت المزدكية فرقة سرية وعاشت على هذا النحو أيام الدولة الساسانية، ثم عادت إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية.

نرى من هذا أنّ تعاليم مزدك اشتراكية من أسبق الاشتراكيات في العالم، ويقول الأستاذ نولدكه: «إنّ الذي يميّز مزدك عن الاشتراكية الحديثة ما لتعاليمه من الصبغة الدينية»، وقد كانت له تعاليم روحية أخرى، فقد كان يعلّم القناعة والزهد وحرمة الحيوان فلا يذبح.

وقد اعتنق مذهبه الآلاف من الناس، ولكن قباذ نكّل به أخيراً وبقومه ودبّر لهم مذبحة سنة (٥٢٣م) كاد أن يستأصلهم بها.

مع هذا ظلّ قوم يتّبعون مذهبه حتى إلى ما بعد الإسلام، وذكر الإصطخري وابن حوقل: أنّ سكّان بعض قرى (كرمان) كانوا يعتنقون المزدكية على عهد الدولة الأُموية[١].

٣ ـ أثر الدين في الفرس:

كان الفرس ميّالين إلى عبادة المظاهر الطبيعية، فالسماء الصافية والضوء والنار والهواء والماء، جذبت أنظارهم وجعلتهم يعبدونها على أنها

---

(١) انظر فجر الإسلام (١/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

كائنات إلهية، حتى سمّوا الشمس عين الله، والضوء: ابن الله، كما أنّ الظلمة والجدب ونحوهما كائنات إلهية شريرية ملعونة.

عبدوا آلهة الخير وصلّوا لها وسبّحوا بحمدها وقدّموا الضحايا والقرابين لها واستمدوا العون منها، ورأوا أنّ آلهة الخير في نزاع دائم مع آلهة الشر، وأعمال الإِنسان من صلاة وغيرها تعين الآلهة في منازلتها آلهة الشر، وقد اتّخذوا النار رمزاً للضوء، وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير، يشعلونها في معابدهم وينفحونها بإمدادهم حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها.

وجاء زردشت، فدعا إلى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد إصلاحها، ثم جاء (ماني) وكانت تعاليمه مزيجاً من الديانة النصرانية والزردشتية، ثم جاء (مزدك) وكان يقول أيضاً بالظلمة والنور وتميّز بتعاليمه الاشتراكية في المال والنساء، وهكذا كانت الفرس تعيش موزعة بين (رمزية) زردشتية الذي مهّد للمجوسية و(عدمية) ماني الذي حرم الزواج استعجالاً للفناء، و(وجودية) مزّدك الذي جعل الناس شركة في الأموال والنساء[1].

ذلك بعض أثر الدين على الفرس: تفريق للصفوف وتبديد للقوى، وتخبط في الظلام، ومضيعة للوقت والجهود بدون هدف ولا انسجام فكري.

الجيش:

اتسعت دولة (أردشير) في ظل نظام عسكري متين، وقد أحس أنه وارث (دارا) وأنّ عليه أن يجدِّد الجهود التي بذلها الإشكانيون وكان نجاحهم فيها غير متكامل، وذلك لكي يحيي الإمبراطورية الشرقية التي قضى عليها الإسكندر، وعلى هذا نجد اتجاهاً نحو التوسع في السياسة الخارجية التي انتهجها أردشير وخلفاؤه الأوائل؛ وكانت هذه السياسة متّجهة أولاً إلى حماية الحدود في الشرق والشمال والغرب، تلك الحدود التي كانت مهددة دائماً، فكان لزاماً، إعداد خطط دفاعية محكمة عنها.

(١) فجر الإسلام (١/ ١٢٢).

وقد عدلت النظم الإِقطاعية القديمة وفقاً للأوضاع ومقتضيات الأحوال في نظام الدولة السَّاسانية العسكري، فأدمجت طوائف الجند التي كانت تتبع صاحب الإِقطاع في الجيش النظامي.

لقد كان أكبر الألقاب العسكرية وهو لقب (أرجبذ) وراثياً في الأُسرة المالكة وأن وظيفتين عسكريتين أخريين وهما رئيس شؤون الجيش وقائد الفرسان، كانتا كذلك وراثيتين في أُسرتين من الأُسر الكبيرة، وكان تحت إمرة حكّام المقاطعات التي على الحدود جنود مرتزقة في كل زمان، وكانت تقيم دوماً حاميات عسكرية في الأماكن الحصينة من الحدود.

وكانت نخبة الجيش كما كانت في عهد الإشكانيين، مؤلفة من الفرسان الدارعين، الفرسان النبلاء، وكان لهؤلاء (أسواران) المقام الأول في المعارك، وكان النصر يتوقف على قوتهم وشجاعتهم في كل شيء، فقد كان الإِيرانيون يزجّون في الحرب ضدّ الرومان بكتائب منظّمة من الفرسان الدارعين في صفوف كثيفة كل الكثافة، فكان بريق الدروع يعكس هيبة تبهر الأبصار، وكانت فرق الفرسان كأنها صيغت من حديد، وقد غطي جسد كل منهم بألواح من الحديد ملتصقة به إلى درجة تجعل مفاصل الدروع الحديدية الصلبة تتحرك في يسر وفقاً لحركة أعضاء الجسد، كما كان للوجه قناع مدرّع يحميه، لذلك كان من المتعذر تصويب سهم إلى الفارس ما لم يسدد نحو الفتحات الصغيرة قبالة العينين أو إلى الثقبين الدقيقين أمام الأنف اللذين كان الفارس يتنفس منهما؛ وكان بعض الفرسان المسلحين بالحراب يقفون بلا حراك حتى ليظن أنهم شدوا إلى سلاسل من حديد، وبجانبهم يقف الرماة وقد مدوا أذرعهم ليشدوا الأقواس المرنة بحيث يلمس الوتر الجزء الأيمن من صدورهم بينما السهم معلق في أيديهم اليسرى، وكان السهم ينطلق بضغط بالإصبع فيدوي في الفضاء ويصمي من يصيبه.

ومع ذلك لم يكن الإِيرانيون ذوي بأس في الوغى، فهم لم يتعودوا النضال في جسارة إلّا أن يكونوا على مسافة بعيدة من أعدائهم، وإذا أحسّوا

أنّ فرقهم تتراجع يتقهقرون سراعاً كالريح العاصف، مطلقين سهامهم من خلفهم كي يخففوا من جرأة عدوهم وهو يطاردهم.

وكان لدى الساسانين ـ كما كان للاكمينيين ـ فرقة من الفرسان المختارين تسمى: (فرقة الخالدين)، وهي تتكون كأنموذجها الأكميني، من عشرة آلاف فارس لهم رئيس خاص، وأما الفرسان الفدائيون فهم فرقة أخرى متميِّزة معروفة بالجرأة وتحدي الموت.

وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها المخيفة تلقي الذعر في خيل العدو، وكان (الفيالة) يركبون وفي أيديهم اليمنى سكاكين طويلة المقابض، فإِذا ما ذعر فيل ـ وكان هذا يحدث أحياناً ـ فانقلب يتخبط في صفوف الإِيرانيين يوقعهم ويدوسهم، فإِنّ الفيَّال يبادر إلى قتله بأن يغمد السكين في عظام رقبته.

وأما مؤخرة الجيش، فكانت مؤلفة من المشاة يقودهم رؤساؤهم، وكان المشاة من أهل القرى، وكانوا يُتخذون جنداً لحفظ النظام، يذهبون للحرب من غير أن يشجعهم أحد بالأجر أو بغيره من المثوبة: إنهم كانوا جمهرة الحرائين الخاضعين للنظام العسكري، وقد كانوا على الأقل مصفحين بدروع مستطيلة ومقوسة من الخيزران المتشابك المغطى بجلد غير مدبوغ، وكان المشاة جنوداً غير ماهرين بوجه عام.

وكانت الفرق الاحتياطية (الرديف) التي تتكون من الشعوب المحاربة القاطنة في أطراف الدولة أكثر غناء من المشاة الحراثين، وربما كان بعض هذه الشعوب مستقلّاً استقلالاً تاماً، ولكنهم كونوا بالمال فرقاً من الجنود المرتزقة، وكانت هذه الفرقة تحارب راكبة كالأساورة الإِيرانيين.

وكان تنظيم الفرق يتلخّص بوجود فرق كبيرة وفرق وسطى وفرق صغيرة، وكان للإِيرانيين رايات وشارات عسكرية، فهناك راية من النسيج طويلة ورفيعة تشبه كثيراً (الرباط) وهي تخفق على عصا.

وفي إحدى الصور نقش رستم، يرى حامل الراية ممسكاً القناة بيده وقد ألصق بها عارض من الخشب تعلوه ثلاث كرات: واحدة على كل من طرفيه، والثالثة فوق القناة مباشرة.

وكان لديهم علم ناري اللّون، ونجد في قول الفردوسي وصف علم ملكي عليه صورة الشمس بلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب، كما نجد علماً محلًى بصورة أسد أمسك في مخالبه بدبوس وسيف، وآخر أسود عليه صورة الذئب، ورابعاً عليه صورة النمر، وأعلاماً أخرى مزينة بغزال أو خنزير بري أو نسر ملكي أو تنين له سبعة رؤوس متقابلة، ثم هناك علم عليه صورة الشمس وآخر عليه صورة حمار الوحش، وعلم قد جعلت له أهداب قد صور عليه القمر بلون أرجواني، وعلم عليه صورة ثور.

وكان العلم الساساني (درفش كاويان) يتكوّن من فوطة الحداد الذي كان في الأزمنة القديمة الخرافية قد أثار الناس على الملك الظالم (الضحّاك)، ولكن الأوصاف الباقية من هذا العلم الملكي لا ترقى إلّا إلى العصر الأخير من حكم السّاسانيين.

وفي المعارك الكبيرة التي كان يديرها الملك نفسه، كان يحمل له عرش كبير، يوضع وسط الجيش، ويلتف حول العرش خدم الملك وحاشيته وفرقة من الجند كان عليها أن تدافع عنه حتى الموت، وقد رفعت الأعلام في أركان العرش، وخلف هذه الأعلام يقف حرس من الرماة والرّجل؛ فإذا لم يكن الملك حاضراً وكان قائد الجيش هو الذي يتولى المعركة، فإنه يجلس على العرش، ومن فوق عرش كهذا قاد رستم معركة القادسية؛ وكانت معابد نار مستقلة توضع في خيمة خاصة، لأنّ الملك لا يحارب مطلقاً من غير أن يصحبه رجال الدين (المغان) وبيوت النار.

وقد تعلّم الساسانيون من الرومان فنّ الاستيلاء على القلاع، فكانوا يستخدمون آلات الهدم والمجانيق والأبراج المتحركة وآلات الحصار الأخرى التي كانت تستعمل قديماً؛ وكانوا إذا حوصروا هم أنفسهم يعلمون كيف

يفسدون آلات عدوهم، وذلك بإِيقاع آلات الهدم التي يستعملها عدوهم في الكمينات أو بصب الرصاص المذاب أو المواد الملتهبة عليها.

وكان الإِيرانيون يحرقون حقول القمح إذا توغّل العدو في أرضهم لكي يحرموه من الاستفادة منها للتموين، وكانوا يفتحون السدود فيغرقون الأرض لوقف تقدم العدو.

وكان أسرى الحرب عامة يساقون وقد قيدت أيديهم خلف ظهورهم ليباعوا رقيقاً، أو كانوا يرحّلون إلى الأماكن المهجورة من الدولة حيث يكوِّنون مستعمرات زراعية.

وقد اتّخذ الإِيرانيون طريقة بديعة لإِحصاء القتلى في الحرب، فقبل نشوب القتال كان يجري استعراض أمام الملك الجالس فوق عرشه وأمام القائد الذي أسندت إليه إدارة دفّة الحرب، وكان الجنود يمرون الواحد تلو الآخر، وكلّ منهم يرمي سهماً في أسفاط كبيرة وضعت هناك لهذا الغرض، ثم تختم الأسفاط بالختم الملكي، فإِذا انتهت الحرب فتحت الأسفاط فيأتي الجند ويأخذ كلّ واحد منهم سهماً واحداً، فالأسهم التي تبقى تنمّ عن عدد القتلى أو الأسرى.

وهكذا يتسنّى للملك أن يعرف هل اشترى القائد نصراً بثمن غال؟؟

وفي زمن السلم كانت الأسلحة ومعدات الحرب تحفظ في المخازن وفي المخابئ، وقد كان على المسؤول عن ذلك أن يراعي كون كل شي منظماً ومعدّاً للتسليم في أقصر مدة، فإِذا انتهت الحرب أعيدت المعدات العسكرية إلى مستودعاته الخاصة بها.

وكانت الخيول موضع عناية خاصة، وكان الطبيب البيطري ذا شأن، وكانوا يجمعون له الأعشاب ليستخدمها في علاج الحيوانات، ولم يكن الاستيلاء على خيول الشعب مباحاً إلّا إذا أعلنت الحرب فعلًا ولم تتيسر لدى الجيش الخيل الّلازمة لإِدامة الحرب.

أما عن تموين الجيش، من اللّحم واللّبن والخبز، فإنّ هذه المواد كانت توزن وتوزع يومياً على المحاربين بالتساوي؛ ويظهر أنّ الجنود والخيل كانوا يتناولون مواداً تموينية إضافية في يوم المعركة أكثر مما يأخذونه اعتيادياً.

وكانت هناك ملاحظات مدونة عن خطط الحرب وعن الأحوال التي يجب الاشتباك في المعركة والحالات التي يتفادى فيها النزال، وكان يشترط في القائد أن تتوفر فيه المزايا الضرورية لإدارة القتال والقدرة على وضع الخطط، والنظرة السليمة، والإلمام بحالة جيشه ودقّة سلوكه، وعليه أن يعرف مزايا وحدات جيشه وقابلية كل وحدة منها، وعليه ألّا يبدي غضبه يوم المعركة، ولا يتّخذ عملًا يوقع الخوف في نفوس جنده، ويجب أن يرتبط الجندي بأخيه بميثاق المحبة، ويجب أن يطيع الجنود قائدهم طاعة عمياء. وعلى القائد أن يشجع جنده يوم المعركة حتى لا يبالوا بالموت وذلك بأن يذكرهم بواجبهم الديني الذي يحتم عليه قتال الكفار، وبالجزاء والأجر الذي سينالونه في الدنيا، وبالذكر الطيب الذي سيكون لهم في الآخرة.

وكان الجيش يثار للقتال على قرع الطبل، ويبدأ القتال بعد أن يصل الماء المقدس في أقرب مجرى ماء، وبعد أن يرمى غصن مقدّس على أنه السّهم الأول.

وجرت العادة بأنّ القائد ينصح عدوه قبل المعركة بأن يخضع للشاهنشاه وأن يؤمن بدين زردشت، وأن يدعو للحرب بالمبارزة بين رجل ورجل، كل رجل له شجاعة في القتال.

وهناك تعاليم مدونة عن المكافآت التي تمنح للفرق المحاربة بعد الظفر، ومعاملة العدو المنهزم، والأسرى والرهائن، وتخيير الشعب المغلوب بين الموت أو قبول الجنسية الإيرانية، ويحتمل أن يكون معنى ذلك الإلزام بخدمة إيران بالسّلاح - أي الاندماج في جيشها - وكان سلاح الفارس يتكوّن

من: تجافيف ودروع وجوشن وساقين وسيف ورمح وترس وحرز تلزمه منطقة وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين مضفورين يعلقهما الفارس في مغفر له ظهرياً.

وكان السلاح الرئيس: القوس والنشاب، وهو السلاح القديم الذي كان الفرس يحسنون استعماله منذ أقدم العصور.

لقد كان الجيش الإِيراني مرتكزاً على الحكم الإقطاعي، فكان المرازبة والدهاقين يتولّون قيادته ويتحكّمون في الأرض والعقارات الشّاسعة للقيام بإِعاشة رجالهم، ولم يكن للجيش الإِيراني هدف يوْحِّد صفوفه ويسعى لتحقيقه غير الارتزاق، كما كانت قيادته وراثية غالباً وكان قادته يعتمدون على حسبهم ونسبهم وحظوتهم لدى الأكاسرة لا على مواهبهم العسكرية وكفايتهم في القتال[1].

كما لم يكن الجنود الإِيرانيون على درجة عالية من الشجاعة والفداء، كما أنّ الحروب التي دارت رحاها بين الفرس والرومان أضعفت قوى الجيشين على حد سواء.

المُلوك:

الملوك السّاسانيون هم من نسل (ساسان) الذي كان سادناً لبيت نار في (إِصْطَخُر)، وقد استفاد ابنه (بابك) الذي خلفه في منصبه من صلته ببيت البارزنجيين فنصب واحداً من أولاده الصغار (أردشير) في الوظيفة العسكرية الكبرى على مدينة (دَارَابْجِرْد).

وتطلّع أردشير إلى ارتقاء عرش إيران، ولكن الملك اعتبر بابك وولده أردشير ثائرين، وقد مات بابك بعد ذلك بقليل، فارتقى ولده الأكبر سابور عرش فارس.

---

(١) انظر: قادة فتح العراق والجزيرة (١٥).

واشتعلت الحرب بين سابور وأخيه أردشير، ولكن سابور توفي فجأة، فعمل أردشير على تثبت ملكه بغزوه (كِرْمَان) وسواحل الخليج العربي و(أَصْفَهَان) و(مَيْسَان) وقضى على آخر ملوك الإشكانيين (أردوان) في ٢٨ نيسان ٢٢٤م، فدخل (المدائن) دخول الظافر معتبراً نفسه وارث الإشكانيين؛ فتوج رسمياً ملكاً لملوك إيران (شاهنشاه) بعد استيلائه على العاصمة (المدائن) بزمن قليل، فكان أردشير مؤسس الأسرة السّاسانية المالكة.

لقد أشاد المؤرخون بجدارة (أردشير) الحربية وبقوة روحه وبآرائه السياسية السديدة، فقد خلق أداة سياسية ودينية ظلت أكثر من أربعمائة سنة، كما أنشأ المدن والمعابد وحفر الترع وغيرها من المنشآت ذات النفع العام، وقد توفي سنة (٢٤١م).

وتولى الملك بعد أردشير ولده (سابور) فتوج رسمياً سنة (٢٤٢م)، فظهر ماني في أيامه، فتساهل مع المانوية ورحّب بهم؛ وقد قال ماني عن ذلك: «وقد مثلت في حضرة الملك سابور، فأحاطني برعايته ثم أتاح لي أن أجوب مملكته وأن أعظ بكلام الحياة، وقد أمضيت سنين عدداً في حاشيته وسنين كثيرة في إيران... إلخ».

وتوفي سابور سنة (٢٧٢م) فخلفه ابنه هرمزد الأول سنة (٢٧٣م)، ولا نكاد نعلم شيئاً عن الحوادث السياسية في عهد هرمزد الأول (٢٧٢م - ٢٧٣م) وبهرام الأول (٢٧٣م - ٢٧٦م) ابني سابور الأول.

واستؤنفت الحرب ضد روما أيام بهرام الثاني (٢٧٦م - ٢٩٣م) ابن بهرام الأول، وتقدمت جيوش الإمبراطور كاروس حتى بلغت المدائن، ولكن الروم تراجعوا عنها لوفاة كبيرهم فجأة؛ وفي سنة (٢٨٣م) عقد صلح تملكت به روما إِرْمِيْنِيَة والجزيرة، وقد كان لتنازل الملك عن هاتين الولايتين للعدو الذي كانت قواه قد وهنت أسباب وجيهة، وذلك لأن ثورة خطيرة قد شبت في الشرق.

وبعد موت بهرام الثاني في سنة (٢٩٣م) ولي العرش ابنه بهرام الثالث، ولكن حكمه لم يدم غير أربعة شهور، فقد ثار أكبر أعمامه (نرسي بن سابور الأول) وانتصر عليه.

ولم يكن نرسي موفقاً في حربه ضد روما، فاضطر أن يتنازل للرومان عن مقاطعة أرمينية الصغرى، واستمر السلم الذي عقد بين إيران وروما ما يقرب من أربعين سنة. وتولى الحكم هرمزد الثاني ابن نرسي (٣٠٢م - ٣٠٩م ـ ٣١٠م). الذي اشتهر بأنه ملك رقيق الحاشية، عادل، خاض معارك حامية الوطيس ضد الروم. ثم ولي العرش آذر ـ نرسي أحد أبناء هرمزد الثاني من زوجته الأولى، ولكنه لم يكن محبوباً من العظماء، فعزل بعد أشهر من حكمه وسملت عينا أحد أخوته وسجن آخر اسمه هرمزد، فنصب العظماء أحد أبناء هرمزد الثاني من زوجة أخرى، الأمير سابور الذي كان طفلًا وقتذاك.

وقد حكم سابور الثاني سبعين سنة متواصلة (٣٠٩م أو ٣١٠م - ٣٧٩م) وحكمت أمه يساعدها العظماء حين كان قاصراً، فأبدى سابور وهو طفل اتجاهاً عجيباً إلى الإصلاح، فقد كان ينام ذات مرة في القصر الملكي بالمدائن، فاستيقظ على ضجة كبيرة أمام القصر، فلما سأل عن أسباب هذا الصخب أجابوه، بأنه ناجم عن تزاحم القوم على جسر دجلة حيث يتقابل الناس في الذهاب والإياب، فأمر الملك في الحال بتشييد جسر آخر بجانب الأول، بحيث يكون أحد الجسرين للذهاب والآخر للإياب.

كان سابور الثاني ملكاً عظيماً جديراً بأن يخلف أردشير الأول وسابور الأول وبهرام الثاني، وقد أطلق عليه الإِيرانيون لقب: (ذي الأكتاف)، لأنه كان ينقب أكتاف الأسرى.

وأخيراً أعدّ العُدّة لحرب روما، فتذرع بالمنازعات الداخلية في إرْمِيْنِيَة ليبدأ الحرب التي أراد بها استرجاع البلاد التي فقدت بهزائم نرسي، فاجتاح إرمينية بغير صعوبة ثم اصطدم بعد ذلك بالرومان في الجزيرة، وقد ثبتت

(نُصيبين) لهجمات الفرس المتوالية وظفر الرومان بمعركة (سنجار)[1]، ولكن هذا النصر تلته هزائم عديدة، فكسب الإِيرانيون ـ بعد الصلح بين الطرفين والذي استمر ثلاثين عاماً ـ نصيبين وسنجار والمقاطعات المتنازع عليها في إرمينية.

وسابور الثاني بين الملوك السَّاسانيين الأول، هو الملك الوحيد الذي تتيح لنا مصادرنا أن نتعرف مزاياه، فقد كان مهيب المظهر جريئاً، ذا قامة مديدة يفرع حاشيته كلها طولًا بمقدار الرأس، وكان مزهواً إلى أقصى حد بقوته وعظمته، سريع الغضب، قاسياً ولم تكن الإنسانية ومروءة الفروسية غريبتين على أخلاقه، وكان قائداً عظيماً، ولم تحدث مذابح بدون جدوى في أيامه عند الاستيلاء على بلاد معادية غالباً، وقد شيّد عدة مدن كبيرة.

وخلف سابور أخوه أردشير الثاني (٣٧٩م ـ ٣٨٣م) وسابور الثالث ابن سابور الثاني (٣٨٣م ـ ٣٨٨) وبهرام الرابع ابن سابور الثاني (٣٨٨م ـ ٣٩٩م)، وكانوا ملوكاً ضعفاء استعاد عظماء الدولة في عهودهم ما فقدوه من الأرض أيام سابور الأكبر، وقد عزل العظماء الأول، وذاق الآخران الموت الزؤام.

وفي السنوات الأولى من حكم بهرام الرابع، اقتسمت إيران وروما ملك إرمينية، فدخل قسمها الشرقي ـ وهو أكبرها ـ تحت حماية إيران، وخضع القسم الغربي لحماية الرومان.

وتولّى العرش يزدجرد الأول (٣٩٩م ـ ٤٢١م) وكان ملكاً مملوءاً بالنشاط ميالًا بطبعه إلى الخير، وفي أيامه ساد السّلام بين الإمبراطوريتين السّاسانية والرومانية، فأمر بإعادة بناء الكنائس المخربة وإطلاق سراح

---

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاث مراحل، وهي على سفح جبال سنجار، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٤/٥) والمسالك والممالك للاصطخري (٥٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٩٣) وتقويم البلدان (٢٨٢) وانظر مختصر كتاب البلدان (١٣٦).

المسجونين النصارى بسبب عقيدتهم، وسمح لرجال الدين المسيحي بالتجول في كل مكان بالدولة، ولكنه غيَّر سياسته مع النصارى في أواخر أيام حكمه لأنهم عتوا وتحدوا الرأي العام، فلم يكن مفر من مقابلة الشر بمثله.

وترك يزدجرد الذي توفي سنة (٤٢١م) من بعده ثلاثة أبناء: سابور، وبهرام، ونرسي، وكان يزدجرد قد أقام ابنه سابور ملكاً على قسم إرمينية الخاضع لإيران، وكان بهرام يقيم عند ملك الحيرة العربي التابع للملك الفارسي، ويحتمل أن يكون نرسي بن يزدجرد الثالث قاصراً عند وفاة أبيه.

وقد أراد الأشراف ورجال الدين انتهاز الفرصة لكي يوطِّدوا جاههم، فتألفت جماعة من الأشراف لكي يبعدوا أبناء يزدجرد جميعاً عن وراثة العرش، فسارع سابور ملك أرمينية إلى المدائن ليضمن العرش، ولكن العظماء، قتلوه ونصبوا أميراً اسمه: كسرى، ملكاً عليهم وهو من فرع بعيد من الأسرة السّاسانية.

ولكنّ الأمير بهرام لم ينتظر أن يهزم بغير معركة، فتقدّم نحو المدائن يساعده العرب، فارتاع العظماء وأهل البيوتات وبدأوا يفاوضون المنذر بن النعمان ملك الحيرة وربيبه بهرام، وعزل كسرى وولي بهرام العرش.

ولم يكن لأحد من ملوك السَّاسانيين - عدا أردشير الأول وكسرى أنو شروان وكسرى برويز - ما كان لبهرام الخامس من ميل قلوب الناس إليه، فإنه خفض الضرائب عن أصحابها عطفاً منه على الناس أجمعين، وكان مطبوعاً على الجَلَد والنشاط، فدعا الناس إلى التمتع بالحياة، وكان يقول الشعر العربي ويتكلّم بسائر اللّغات، وكان محباً للموسيقى فسوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنين ورفع مَن أطربه، وقد توفي سنة (٤٣٨م) أو (٤٣٩م)، وكانت وفاته طبيعية في قول الفردوسي، ولكن معظم المصادر العربية تجعل موته ضحية حبه للصيد.

ولم يكن يزدجرد الثاني بن بهرام وخليفته متحلياً بصفات أبيه الحميدة، وقد حدثت حرب صغيرة ضد الروم في أول عهد يزدجرد

(٤٤٢م)، وانتهت من غير حوادث خطيرة إلى صلح لم يبدل من جوهر الأوضاع السابقة.

ومات يزدجرد ميتة طبيعية سنة (٤٥٧م)، فتُوِّج من بعده ولده هرمزد الثالث، ولكن أخاه الأصغر منه فيروز كان يتطلع إلى العرش، فجمع جيشاً وهاجم هرمزد وكان في (الري)[1]، وبينما كان الأخوان يتقاتلان كانت أمهما تحكم في المدائن، فقتل هرمزد وانتصر أخوه فيروز.

وكان عهد فيروز (٤٥٩م ـ ٤٨٤م) غير موفّق، فقد كان الدفاع عن الحدود الشمالية والشرقية يتطلّب جهوداً حربية، وقد زاد على متاعب الحرب قحط طويل على أثر الجفاف، فرفع فيروز عن الناس جزءً من الضرائب ونظّم توزيع الغلال، وقد قتل فيروز في أحد حروبه سنة (٤٨٤م) ولم يعثر على جثمانه.

وتولى بلاش أخو فيروز الملك، فتحوّلت إيران في عهده إلى دولة ذليلة بتبعيتها إلى ملك الهياطلة، وقد قضي على خير رجال الجيش، ولم يكن لدى الملك من المال ما يدفع منه أجور الجند، ومع ذلك كان مخلصاً توفرت فيه أطيب النيات لإِسعاد رعيته، ويقال: إنه كان لا يبلغه أنّ بيتاً خرّب وجلا أهله عنه إلّا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك البيت على تركه وإنعاشهم وسد فاقتهم حتى لا يضطروا على الجلاء عن أوطانهم.

ولكنه لم يكن الرجل الذي يجب أن يكون لإِحياء الدولة، فشاع التذمر بين العظماء وعزل بلاش بعد حكم أربع سنوات وسملت عيناه.

وحل محله قباذ بن فيروز (٤٨٨م) فأشعل غضب العظماء لصلاته بفرقة المزدكية الكافرة والبدع التي ترتبت على ذلك، وقد باشر قباذ حكمه متبعاً سبيل العنف ثم أدخل على النظام الإداري بدعاً، وكان مستعداً

(١) الري: مدينة مشهورة وهي قصبة بلاد الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥٥) والمسالك والممالك للإصطخري (١٢٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٧٥).

للتطويح بالنظام القائم ولقلب حياة الأفراد قلباً ثورياً وللقضاء على الآداب القديمة، وقد اتصل بمزدك ودخل في مذهبه وتصرف على هذا الأساس، فأصدر قوانين تبيح النساء والأموال، وقد تحالف مع المزدكية بقصد تحطيم قوة الأشراف، فقامت ثورة في القصر أثارها بعض كبار رجال الدين الزردشتيين، ونصب الثوار (جاماسب) أخا قباذ على العرش.

واجتمع الأشراف الذين كوّنوا مجلس شورى الملك تحت رياسة جاماسب ليتداولوا في مصير قباذ، فأشار بعضهم بأنّ الأفضل قتل الملك المعزول، ولكن الأكثرية رفضوا اقتراحه وأشاروا برأي أقل غلواً، فحبس قباذ.

ولكنه لم يلبث طويلا في سجنه، فقد خلصه أحد أصدقائه وهرب معه إلى بلاط ملك الهياطلة أو الخاقان، فاستقبله استقبال صديق قديم وزوّجه ابنته، وأخيراً أمدّه صهره بجيش وتعهد قباذ بأداء الجزية إذا نجح في استعادة عرشه، وفي سنة (٤٩٨م) أو (٤٩٩م) دخل قباذ مملكته بدون حرب تقريباً.

ولم تتحدّث المصادر جميعاً عما جرى من حوادث أيام جاماسب، فثورة الأرمن والاضطرابات الأخرى التي بدأت من قبل، قد استمرت ولم يتم كبحها إلّا بعد سقوط جاماسب، وهذا الملك الذي اكتسب شهرة الملك الرحيم العادل لم يثبت أنه نشيط عامل، ولما لم يجد مدافعين عنه متحمسين آثر أن ينزل باختياره عن العرش لأخيه. وعفا قباذ عن جاماسب ولم يقتله، كما قبل اعتذار الأشراف الذين تآمروا عليه وعفا عنهم، ولم يعاقب غير من كانت عداواتهم بالغة الخطر.

وقد عرف قباذ كيف يثبت سلطان الملك، فقد أخضع أعداءه وشنّ حرباً على الروم، وأما الأرمن فقد أخضعوا وأقر قباذ بحقهم في حرية العقيدة على شرط أن يعاونوه مخلصين في الحرب ضد الروم، فقبلوا كارهين.

وحوالي سنة (٥١٩م) أثيرت مسألة وراثة العرش، وكان قباذ قد وطد

سلطانه حينذاك إلى حد أن حاول إعادة النظام القديم الذي يخول للملك أن يختار خليفته، ونجح في ذلك.

واختار قباذ ابنه كسرى أنوشروان، فعارض المزدكية (قباذ) في وراثة العرش، فدعا قباذ إلى مؤتمر ديني حضره كبير المزدكية مع رؤساء الفرقة، واجتهد في دعوة جماعة كبيرة من المزدكية. وترأس قباذ نفسه المجلس، ولكن كسرى ولي العهد الذي رأى حقوقه مهددة، عمل وسعه لإنهاء هذا الأمر بضربة قاضية يصوبها نحو هذه الفرقة، وجيء بأقوى المناظرين من الموابذة كما حضر الموبذان موبذ وأسقف نصارى إيران. وارتج على أنصار المزدكية وغلبوا، وفي هذه اللحظة انقض الجند الذين كانوا يحاصرونهم وانهالوا عليهم بأسلحتهم، فقتل مزدك وعدد كبير من أصحابه كما استبيح دم المزدكية بعد ذلك وبدأت المذابح، فلم يستطع أهل هذا المذهب وهم مشتتون لا رئيس لهم، مقاومة أعدائهم الألداء فقتلوا وصودرت أملاكهم وأحرقت كتبهم الدينية.

وبعد هلاك المزدكية خطا قباذ أول خطواته إلى تحقيق برنامجه في الإصلاح، الذي انتهى نهاية طيبة في عهد خليفته، ولعله قد اقترح وأعد في هذا البرنامج نظام الضرائب الذي أكسب كسرى المجد.

وفي سنة (٥٣١م) أصيب قباذ بالمرض، فأملى وصيته الأخيرة بولاية كسرى من بعده، وقد توفي بعد ذلك بقليل.

يعتبر ارتقاء كسرى الأول عرش إيران ـ وهو المعروف في التاريخ بلقب (أنوشروان) ـ افتتاحاً لأزهى عصر من عصور الدولة الساسانية، فإنه قد قضى على البدع التي أتت بها جماعة مزدك، كما ساد في حكمه الأمن في داخل البلاد، ولكنه كان أمناً جزئياً لقوم منهكين فقراء من كثرة ما لقوا من الفتن وسوء الحكم الذي عمّ جميع الطبقات.

لقد كان أنوشروان عماد السلطات كلها، فهو يحكم على النبلاء كما يحكم على أفراد الشعب، وكذلك خضع له رجال الدين.

وقد بدأ إصلاحاته بالقضاء على الفوضى التي أحدثها اتباع مزدك، فقضى بحكمته وعدله على المظالم وأعطى كل ذي حق حقه.

واتّجه كسرى الأول لإِصلاح نظام الضرائب، فمسحت الأرض المزروعة بدقة وحدد ما يدفع عنه المال منها، ثم اتخذ هذا النظام وسيلة لتنظيم الضريبة العقارية من جديد: درهم واحد في السنة عن كل جريب[1] من القمح أو الشعير، وثمانية دراهم في السنة عن كل جريب من الأعناب، وسبعة دراهم في السنة عن كل جريب برسيم، وخمسة أسداس درهم في السنة عن كل جريب أُرز، ودرهم واحد عن كل أربع نخلات إيرانية أو ست آرامية أو ستة أصول من الزيتون.

وأعفيت كلّ المحصولات الزراعية الأخرى من الضرائب، كذلك أعفي النخل المتفرق الذي لا يكون حديقة واحدة. والذي لا شك فيه أنّ هذا النظام كان مرضياً للشعب بصفة عامة، كما أنه أمدّ الخزينة بدخل أوفر وأكثر استقراراً.

وقد عدّل أنوشروان الضريبة الشخصية وفقاً للقانون الذي أعده المختصون، ففرضت هذه الضريبة على من يتفاوت عمرهم بين العشرين والخمسين من الرجال، واستثنى منها أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتاب ومن كان في خدمة الملك.

وقسّم مَن فرضت عليهم الضريبة إلى طبقات كثيرة حسب ثرائهم: فمنهم من كان يدفع اثني عشر درهماً، ومنهم من يدفع ثمانية، ومنهم من يدفع ستة، وأكثر الشعب كانوا يدفعون أربعة دراهم.

وأعفى من الضريبة العقارية من بارت زراعة قمحه أو تلفت أشجاره وقت جباية الضريبة، وكان على قضاة المراكز، أن يرفعوا إلى الحكومة المركزية بياناً بالأرض المعفاة ليتسنى للحكومة إخبار الجباة عنها، وقد أراد

---

(١) الجريب: (٢٤٠٠) متر مربع.

كسرى بهذه الرقابة أن يقضي على الظلم الذي كان يقع على الناس عادة من تعسف الجباة في استعمال حصتهم.

وأدخل على النظام العسكري إصلاحات جديدة، فقد كانت أُسر النبلاء الفقيرة ـ حتى ذلك الوقت ـ هي التي تتكون منها نواة الجيش، وكانوا مجبرين على القيام بالجندية بلا أجر، بل كان عليهم أن ينفقوا على أسلحتهم، ولكن كسرى تفقد الأساورة (الفرسان) فمن لم يكن له منهم يسار قوّاه بالدواب والعدة وأجرى لهم ما يقويهم من مال، وكان المشاة من الحراثين الفقراء، ولم يكن لهم في الحرب ـ في جميع العهود ـ شأن كبير، منهم جماعة من الحراثين البؤساء يعملون في الجيش لهدم الأسوار وسلب القتلى ثم خدمة الجند من الفرسان.

وكان هناك طابع للإِصلاح العسكري أيام أنوشروان، فقد حصَّن مدن الحدود واتخذ منها مسالح لها حاميات خاصة مؤلفة من مقاتلي الأمم المغلوبة على أمرها الأشداء.

واستتبع النظام العسكري الجديد تغييراً في القيادة العليا، فألغى أنوشروان وظيفة القائد العام لإِيران وكانت له الرياسة على الجنود، ففرق كسرى سلطة هذا المنصب بين أربعة قادة، منهم واحد للمشرق وخُراسان وما والاها، والثاني من العراق حتى حدود الدولة البيزنطية، والثالث لليمن، والرابع لأذربِيْجان وما والاها وهو بلاد الجزيرة.

لقد أجرى كسرى إصلاحات عظيمة في الجيش، فجعل منه أداة عظيمة في الحرب وفي حفظ الأمن.

وكان النزاع بين دولة الغساسنة وهي تابعة للروم وبين ملك الحيرة وهو تابع لملك إيران سبباً في قيام الحرب بين الدولتين الكبيرتين، وفي سنة (٥٤٠م) استولى كسرى على (إنطاكية) وخرّبها، وبعد سلسلة من الحروب أعلنت الهدنة بين الطرفين سنة (٥٤٥م)، وبعد ذلك نشب القتال حين حاول كسرى إخضاع بعض نصارى القوقاز، وكانت محاولة عقيمة بسبب تدخل

الروم، وعقد الصلح النهائي بين الدولتين سنة (٥٦٢م) لمدة خمسين سنة.

ونجح كسرى بين سنتي (٥٦٣ ـ ٥٦٧م) في إبادة دولة الهياطلة، وكان نهر (جيحون) هوالحد بين إيران وبلاد الخاقان التركي الذي أصبح عدواً شديد المراس لا يقاس به ملك الهياطلة، وظهرت في القوقاز قبائل الترك أيضاً، ولكي يدفع كسرى عن هذه الحدود هجماتهم، جدد تحصينات قلعة باب الأبواب[1] (دَرْبَنْد) وقوّاها.

ومدّ كسرى نفوذه جنوباً على اليمن، وقد تحالف أحد قواد كسرى مع العرب وطرد الأحباش منها سنة (٥٧٠م).

لقد كان كسرى مثالًا للملك العادل، وقد طبقت القوانين في أيامه بدقة وعدالة.

وبلغت (المدائن) عاصمة الدولة في عهده أقصى اتساعها، وكانت محاطة بأسوار حصينة عليها أبواب محكمة.

وقد بدأت النهضة الفلسفية والأدبية في إيران أيام كسرى أنوشروان، وحالف رجال الدين الزردشتي لكي يخلص نهائياً من المزدكية، ولا شك أن كسرى كان زردشتياً، إلّا أنه كان حر التفكير، وكانت عقليته قابلة لبحث الآراء المختلفة في المسائل الدينية والطبيعية، وقد منح النصارى حرية العقيدة.

إنّ عهد كسرى الأول من أمجد العهود السّاسانية، فقد بلغت إيران في أيامه مجداً فاق ما بلغته أيام الملوك العظام.

وخلّف كسرى الأول على العرش هرمزد الرابع سنة (٥٧٩م)، فكان خير خلف لخير سلف.

---

(١) باب الأبواب: ويقال لها: الباب أيضاً، ميناء كبير على بحر الخزر وهي مدينة كبيرة محصنة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٠٩ ـ ١١٠) ومعجم البلدان (٢/ ٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦).

وقد كان بوسعه أن يدّعي لنفسه لقب: العادل، ولعله كان أكثر استحقاقاً له من كسرى، فقد كان كثير العطف على الضعفاء والمظلومين شديداً على الأشراف والظالمين.

وقد عرّضه تسامحه في أمور الدين لحقد رجال الدين الزردشتي، وحينما ولي العرش كانت مفاوضات السلم تدور بين بيزنطة وإيران، فعمل على إخفاقها.

فتجدّدت الحرب سنة (٥٨١م) على غير طائل.

وأخيراً ثار عليه القائد (بهرام) الذي مني بالهزيمة أمام الروم فانتزعه هرمزد بطريقة مهينة، فانتشر التمرد في البلاد كلها، ونجحت الثورة وخلع الملك وأدخل السجن وسملت عيناه.

وتولى ابنه كسرى الثاني (برويز المظفر) العرش سنة (٥٩٠م)، ولكن القائد الثائر بهرام جوبين لم يكن مستعداً لمبايعة الملك، فتجرّأ على المطالبة بالعرش، فولى كسرى فراراً أمام قوات بهرام المتفوقة، ودخل بهرام مظفراً إلى العاصمة ووضع التاج على مفرقيه رغم معارضة لفيف من العظماء، ثم سك النقود باسمه، بينما كان كسرى يعبر الحدود البيزنطية ويحتمي بالإمبراطور موريس.

وكان عهد بهرام السادس سلسلة من الاضطرابات والمعارك، فقد كان رجال الدين خصوماً له وكذلك كان عدد كبير من العظماء الذين لم يريدوا المبايعة لمغتصب من طبقتهم أنفسهم، فدبّرت فتنة ضد بهرام، ولكن المؤامرة أخفقت وقتل زعماؤها.

وعمل الإمبراطور موريس على مناصرة كسرى وأمده بالعون العسكري، وبعد معارك عنيفة هزمت قوات بهرام، فلجأ آمناً إلى بلاد الترك حيث قتل بعد زمن قليل.

وعاد كسرى الثاني إلى عرشه، فتغلّب في الأخير على مؤامرات

ودسائس داخلية، ثم هاجم بيزنطية متذرعاً بمقتل الإمبراطور موريس سبباً لهجومه، فغزا آسيا الصغرى واستولى على الرها وإنطاكية ودمشق وبيت المقدس حيث انتزع (الصليب) وبعث به إلى المدائن، ثم استولى على الإسكندرية وأجزاء أخرى من مصر، وفي ذلك الوقت حوالي سنة (٦١٥م) بلغت قوة كسرى أوجها.

وقد أوقف هرقل آخر الأمر الزحف المظفر الذي قامت به جيوش الفرس، فاستعاد آسيا الصغرى وتقدم طارداً جيوش كسرى في إرمينية وأذربيجان.

وبعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة لقي كسرى الثاني المصير الذي أعده لأبيه من قبل، فإنه بعد أن رفض عروض الصلح الذي قدمها هرقل عاد إلى قصره في المدائن، ثم لم يلبث أن عبر دجلة ليقيم مع عشيقته (شيرين) في (سلوقية)، وحينئذ ثار القواد الفرس وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل لهم فيها. ومرض كسرى بالزحار فنقل إلى المدائن ليرتب وراثة العرش، وكانت معه شيرين وولداه مردانشاه وشهريار، وكانت نيته تثبيت مردانشاه على العرش. ولما علم قباذ الملقب بشيرويه وهو ابن كسرى ولعله أكبر الأمراء، عزم على الدفاع عن حقوقه واستوثق من مساعدة القائد العام الجديد، وانضم لشيرويه عظماء آخرون.

وهكذا نصب شيرويه نفسه ملكاً، وفي الصباح الباكر سمع كسرى الثاني الناس يصيحون فرحين: (قباذ شاهنشاه)، ففر كسرى وقد أخذ الهلع منه كل مأخذ واختبأ في حديقة القصر حيث عثر عليه فقتل غداة هذه الحوادث، وأمر شيرويه بأن تقطع أيدي إخوته وأرجلهم ثم قتلهم بعد ذلك.

وقد توفي قباذ الثاني (شيرويه) بعد أن حكم حوالي الستة أشهر مسموماً أو فريسة لطاعون مروع اجتاح الدولة وأهلك الكثير من سكانها.

وتولى العرش ابن شيرويه: أردشير الثالث، وكان طفلاً فنصب عليه الرئيس الأعلى (ماه آذركشب) رائداً فكان الوصي الحقيقي له، وقد أبى

(فرخان شهربراز) قائد كسرى برويز المشهور أن يخضع لأوامر واحد من أكفائه، فاتفق مع هرقل ملك الروم وزحف بجيشه عى المدائن فدخلها وقتل الملك الصغير الذي لم يكن قد حكم غير سنة ونصف، ونصب شهربراز نفسه ملكاً بالرغم من أنه لم يكن من الأسرة المالكة.

ولكن مؤامرة دبرت ضد الملك الجديد، فقتل الغاصب وبويع كسرى الثالث ابن الأمير قباذ أخي كسرى الثاني ملكاً على القسم الشرقي من الدولة، ولكن لم يلبث أن قتله حاكم خُراسان.

وفي المدائن وضعوا التاج على رأس السيدة بوران بنت كسرى برويز، فعقدت سلماً نهائياً مع بيزنطة. وتوفيت بعد أن حكمت حوالي سنة وأربعة أشهر، وكان الفرس قد ردوا قبيل محادثات الصلح الأخيرة، الصليب الذي كانوا قد أخذوه من بيت المقدس، وقد كان الاحتفال بهذا الحادث سنة (٦٢٩م) في بيت المقدس.

وتولى الملك فيروز الثاني مدة قصيرة جداً، ثم نصبت (آزر ميدخت) أخت بوران ملكة في المدائن، ولم يلبث حكمها غير بضعة شهور حيث ثار عليها أحد القادة وسمل عينيها.

وحوالي هذا الوقت نفسه بين سنتي (٦٣٠م) و(٦٣٢م) حكم هرمزد الخامس وكسرى الرابع، ولا نعرف عنهما غير الاسم.

وفي مدة أربع سنوات تقريباً، ولي عرش إيران عشرة ملوك على الأقل، وأخيراً عثر على أمير من نسل كسرى برويز هو يزدجرد ابن الأمير شهريار، وكان يعيش مختفياً في إصطخر، وقد بايعه عظماء إصطخر ملكاً وسار أعوانه إلى المدائن فاستولوا عليها بمساعدة رستم[١]، وهكذا اتحدت المملكة للمرة الأخيرة تحت حكم يزدجرد الثالث.

---

(١) هو قائد الفرس في معركة القادسية.

هذا هو حال إيران، حين غزتها جيوش العرب المسلمين بروح لا تُقاوَم.

وكان من أسباب انتصار العرب المسلمين على الفرس تسلط القادة العسكريين ومحاولاتهم اغتصاب العرش وتسلط حكام الولايات واعتبارهم ولاياتهم كأنها إقطاع وراثي، فكانوا شبه مستقلين عن الدولة المركزية.

وفي سنة (٦٣٦م) التقى الجيش الفارسي بقيادة رستم بجيش العرب المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقّاص الزهري في القادسية غير بعيد عن الحيرة، واستمر القتال ثلاثة أيام وانتهى بهزيمة الفرس وقتل رستم.

وتقدم العرب المسلمون نحو المدائن سنة (٦٣٧م) ففتحوها ودخل سعد بن أبي وقّاص مظفراً في العاصمة المهجورة وعسكر بجيشه أمام طاق كسرى.

وحاول الملك محاولة أخيرة، فجمع جيشاً من جميع أجزاء المملكة، ووضع على رأسه قائداً مسناً اسمه (بيروزان)، فاشتبك بالعرب المسلمين سنة (٦٤٢م) في موقعة نهاوند التي كانت معركة حامية الوطيس والتي انتهت بهزيمة الفرس، فلم يبق بعد ذلك جيش للملك.

وترك الملك الدفاع عن المملكة للمرازبة أو إلى الولاة المحليين، وقد أبلى بعض هؤلاء مثل الهرمزان في الأهواز بلاء حسناً في مقاومة العرب المسلمين، ولكن بغير جدوى.

وفتحت همذان والري وأذربيجان وإرمينية، وتراجع يزدجرد إلى أصفهان حيث أقام ومن حوله عدد كبير من النبلاء. وبعد دخول العرب المسلمين أصفهان آوى يزدجرد إلى إصطخر ثم هرب منها بعد فتحها وفتح فارس كله وهو الإقليم الذي نشأت فيه الأسرة الساسانية.

ولجأ يزدجرد أخيراً إلى خُراسان، وعبثاً حاول استنهاض همم الولاة المحليين لحمل السلاح وكان قد طلب سنة (٦٣٨م) عون إمبراطور الصين.

وسار من نيسابور إلى طوس، فلم يرد حاكمها أن يأويه ورده برفق، فاتجه إلى (مرو) آخر الأمر لعله يجد مأوى، ولكنه هرب منها خوفاً من أسره في ظلام الليل وقد اتشح بثوب مطرز بالذهب، وبعد أن سار حيناً على غير هدى أحس بالتعب فدخل طاحونة وسأل الطحان أن يأويه سواد الليل، فلم يعرف الطحان ضيفه، ولكن ما عليه من فاخر الثياب أثار طمعه، فقتله وهو يغط في النوم[1].

وبذلك انقضى ملك العجم بعد عشرين سنة مضت من ملك يزدجرد في سنة إحدى وثلاثين للهجرة (٦٥١م).

فما هي حقوق الملك وما هي واجباته؟

نستطيع أن نقول: إنها خلاصة للنظرية الدينية في السلطة الملكية أيام السّاسانيين، وقد عدلت هذه النظرية تعديلًا طفيفاً بحكم التطور أيام كسرى الأول، ولكنها ليست دينية دائماً.

وصفات الملك وواجباته هي: ١ ـ الصفات والواجبات التي تتصل بالدين، ٢ ـ العقل السليم، ٣ ـ الخلق القويم، ٤ ـ القدرة على العفو، ٥ ـ حب الرعية، ٦ ـ القدرة على تهيئة الراحة للرعية، ٧ ـ السرور، ٨ ـ التذكر دائماً بأنّ السلطة فانية، ٩ ـ تقدير الأكفاء برفع درجاتهم، ١٠ ـ تنبيه الغافلين، ١١ ـ حسن السلوك مع رؤساء الأقاليم، ١٢ ـ إصدار الأوامر العادلة، ١٣ ـ مراعاة عقد اجتماعات عامة في حضرته، ١٤ ـ الكرم، ١٥ ـ طرح الحرص، ١٦ ـ تأمين الناس من الخوف، ١٧ ـ مكافأة الطيبين بجعلهم مع رجال البلاط أو برفع درجاتهم، ١٨ ـ العناية بتعيين المديرين في الدولة، ١٩ ـ طاعة الله طاعة تامة.

ومن خلال هذه الصفات والأوامر، نستطيع أن نتبيّن بوضوح النظرية

---

(١) انظر تفاصيل روايات مقتله في الطبري (٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٨) وابن الأثير (٢/ ٤٥ ـ ٤٧) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٦٨) وابن خلدون (٢/ ١٣٦).

الدينية في الدولة، ونرى إلى أي حدٍ كانت هذه النظرية تعتمد على الطابع الديني المجوسي للدولة على أساس الاستبداد. وقد قام دستور الدولة السّاسانية قولًا وفعلًا الذي يلطفه (جزاء) العزل أو القتل للملك، وفي هذا حد من سلطة الملك، ولكنه حد لا يستند إلى نصوص في دستور مسطور، ولكن يستند إلى الروح الديني والخلقي في الدولة، وكان عجز الملك يتجلى بطرق مختلفة منها ضرورة اتباع نصائح كبار رجال الدين وتوجيههم، وكانت نظرية عزل الملك سلاحاً قوياً في أيدي الموابذة، وإذا كثر المرشّحون للملك وكان يشد أزر كل واحد منهم حزب النبلاء، كان رأي كبير الموابذة فاصلًا في تعيين الملك الذي يرضاه، فإنه يمثل القوة الروحانية وفي شخصه يتجسّد إيمان الأمة وشعورها الديني.

وكان الملوك السّاسانيون الأول يعيِّنون خلفاءهم، ولكن ولاية العهد لم تكن مرتبطة بقواعد محددة، والعادة أن ينصب الملك أحد أبنائه لولاية عهده، ولكنه إذا أراد يستطيع أن يعيِّن فرداً آخر من بيته.

وفي المدة التي ضعف فيها سلطان الملك، استطاع ملوك مثل بهرام الخامس ويزدجرد الثاني أن يسيروا في حكمهم بلباقة، فقد أظهر هذان الملكان للناس التقوى وتركا أمور الدولة للعظماء يسيرونها، وفي هذه المدة لم يكن الملك يختار ولي عهده، بل جرى العمل في الواقع على اختيار الملك من بين أفراد أسرة الساسانيين، وقد أعطي حق انتخاب الملك لرؤساء رجال الدين والجيش والكتَّاب، وفي حالة اختلافهم إلى كبير الموابذة وحده.

ويجري انتخاب الملك بالطريقة الآتية: كان الملك كتب بيده ثلاث وصايا، يودع الأولى للموبذان موبذ (قاضي القضاة)، والثانية كبير الكتَّاب، والثالثة كبير رجال الجيش، ولم تكن هذه الوصية لتحوي غير نظرات عامة وآراء في أخلاق المرشحين المختلفين واستعدادهم وحاجات الدولة، فهي لا تتضمن توصية محدودة، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك حاجة للمداولة

واختيار واحد من أولئك الثلاثة الكبار. وحينما يموت الشاهنشاه يدعى الموبذان موبذ ومعه الرجلان الآخران، ثم يجتمعون للمداولة ويفضون الرسائل ويتشاورون في اختيار أحد أبناء الملك، فإذا اتفق رأي الموبذان موبذ مع رأي الآخرين، يذاع الرأي على الناس، أما إذا كان اختلاف لم يذع شيء في الخارج، ولا يعلم أحد شيئاً عن الوثائق المكتوبة أو عن رأي الموبذان موبذ إلى أن يدعو هذا إلى مجلس سري فيه الهرابذة وعلماء الدين والزهاد، فيصلُّون، ويقف الأتقياء من خلفهم يقولون: آمين، ويسجدون ويرفعون أيديهم وهم خاشعون، وينتهي هذا بصلاة المساء، ويؤمن الحاضرون بما أوحى الله إلى قلب الموبذ الكبير، وفي تلك اللّيلة يحضرون إلى القاعة الكبرى في القصر، ويأخذ كبار الضباط مكانهم، ثم يدخل كبير الموابذة مصحوباً بالهرابذة والعظماء والوزراء إلى مجلس أمراء البيت المالك، فيصطفون جميعاً أمام الأمراء ويقولون: لقد تشاورنا أمام الإله الأعلى، فأرشدنا وألهمنا وهدانا إلى الخير، ثم يصيح كبير الموابذة عالياً: «إن الملائكة قد ارتضوا فلان ابن فلان ملكاً، فبايعوه أيها الناس، وإنها لبشرى لنا»، وحينئذ يرفعون هذا الأمير ويجلسونه على العرش ويضعون التاج على رأسه، ثم يمسكون يده ويقولون له: «أتقبل من الله دين زردشت الذي قواه كشتاسب بن لهراسب والذي أحياه أردشير بن بابك؟»، فيجيب الأمير بالإيجاب ويقول: «سأعمل لخير رعيتي إن شاء الله»، ويمكث رجال القصر والحرس معه، وتعود الجماعات الأخرى إلى أعمالها وشؤونها.

وهكذا كان انتخاب الملك متوقفاً في نهاية الأمر على الموبذان موبذ، الذي كان يحتفظ، من ناحية أخرى، بالمهمة العظيمة وهي تتويج الملك، وهذا ما يبين بجلاء مركز رجال الدين الزردشتيين ومكانة كبيرهم.

وكان للعدالة حرمة عظيمة في إيران القديمة، وهناك دلائل كثيرة على أنّ الملوك منذ عهد الإكمينيين، كانوا يراعون بدقة التوجيه الصحيح من القضاة وعدل القضاة، وكان اسم القاضي أيام السّاسانيين، أيضاً له حرمة

تامة، وكان القضاة يختارون من بين ذوي التجارب والعدل من الرجال، الذين لا يحتاجون إلى المشاورة.

وكان الملوك يجلسون للعامة مرتين في السنة، يوماً في النوروز ويوماً في المهرجان، ولا يحجب عن الملك أحد في هذين اليومين لا صغير ولا كبير ولا جاهل ولا عالم، ولا وضيع ولا شريف، وكان الملك يأمر بالنداء قبل جلوسه بأيام ليتأهب الناس لذلك، فيهيئ الرجل القصة ويهيئ الآخر الحجة في مظلمته، ثم يأمر الملك (الموبذ) أن يوكل رجالًا من ثقات أصحابه فيقفوا بباب العامة، فلا يمنع أحد من الدخول على الملك، وينادي مناديه: «بأن مَن حبس رجلًا عن رفع مظلمته فقد عصى الله وخالف سنة الملك، ومن عصى الله فقد أذن بحرب منه ومن الملك»، ثم يؤذن للناس بالدخول وتؤخذ رقاعهم فينظر فيها، فإن كان فيها شيء يتظلّم فيه من الملك بدئ به أولًا، فيخبر الملك الموبذ الكبير ورأس سدنة الناس، ثم يقوم مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبذ، فيقول له: «إنه ما من ذنب أعظم عند الله من ذنب الملوك، وإنما خولّها الله تعالى رعاياها لتدفع عنهم الظلم وتذب عن بيضة الملك جور الجائرين وظلم الظالمين، فإذا كان الملك هو الظالم الجائر، فحق لمن دونه هدم بيوت النيران وسلب ما في النواويس من الأكفان، ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل، يشبه مجلسك من الله غداً، فإن آثرت الله آثرك، وإن آثرت الملك عذّبك». فيقول له الموبذ: «إنّ الله إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل أرضه، فإذا أراد أن يعرفهم قدره عنده أجرى على لسانه ما أُجرى على لسانك»، ثم ينظر في أمره وأمرِ خصمه بالحق والعدل، فإن صحّ على الملك شيء أخذه به، وإلّا حبس مَن ادّعى عليه باطلًا ونكّل به ونودي عليه: «هذا جزاء من أراد شين الملك وقدح في المملكة». فإذا فرغ الملك من مظالمه في نفسه، قام فحمد الله ومجّده طويلًا، ثم وضع التاج على رأسه وجلس على سرير الملك، وأخذ ينظر في شكاوى الناس.

وكان الملك اعتيادياً في أيام السلم يدير دولته من إيوانه في المدائن،

وهناك كان يقيم الملك محاطاً بحاشيته العظيمة، وكانت الإدارة العامة للدولة تستقر في المكاتب (الدواوين) التي كان يسودها نظام أحكم تحديده، وكانت للملك أختام عدة: خاتم للسر، وخاتم للرسل، وخاتم للتخليد يختم به السجلات والإقطاعات وما أشبه ذلك من كتب التشريف، وخاتم للخراج، وكان هناك دواوين للحرب وللبريد وللنقود والمقاييس والمكاييل وللأملاك الملكية الخاصة.

وكانت الأوامر الملكية والمعاهدات ووثائق الدولة الأخرى تختم بخاتم الملك، وكان خاتماً نقش عليه صورة خنزير بريّ، فإذا تضمّنت الوثيقة التزاماً قِبَل دولة أخرى، مستقلة كانت أو تابعة لإيران، فإنها تشفع بكيس من الملح وتختم بخاتم الملك، وذلك علامة للعهد الذي لا ينقض.

وكان يحيط بالملك كثير من رجال الحاشية المتميِّزين المقربين، فكان هناك رئيس الديوان الملكي، ورئيس التشريفات، والموكل بالحجاب. وكان هناك نظام القصر ورؤساء المخازن والسقاة والذواقون ورئيس أصحاب المائدة والحجاب والقوام على الصقور ورئيس الإصطبلات وكبير البوابين وغيرهم، وكان يحيط بالملك حرس عديد قوي مهمته الدفاع عن الملك والقيام بحراسته، وكان رئيسهم يتمتّع بأوسع جاه في البلاط، وكان هذا الحرس في آخر عهد الساسانيين مؤلفاً من النبلاء. وحين يمتطي الملك حصانه يقف الحرس صفين عليهم الدورع والبيض[1] والترسة والسيوف وبأيديهم السلاح، فإذا حاذاهم الملك وضع كل رجل ترسه على قربوس سرجه (مقدم السرج) ثم وضع جبهته عليه كهيئة السجود.

وكانت هناك طوائف أخرى ذات شأن كبير في الدولة الساسانية لما كان لرجالها من تأثير شخصي على الملك، وهؤلاء هم: أولًا المنجمون ورئيسهم، وكانوا من طبقة الكتاب، والكهان، وكان الملوك الساسانيون

(١) البيض: جمع بيضة وهي الخوذة غطاء الرأس في الحرب أو في المراسيم.

يستشيرونهم كما كان يفعل أسلافهم، وكان رجال الدين أنفسهم يمارسون قراءة الغيب. وكان هناك أطباء البلاط، وشعراء البلاط، وأما الخصيان، فكانوا من ذوي الخطر، ولعلّهم لم يدخلوا في زمرة النبلاء قط.

وكانت الجلسات الملكية العامة في بهو الاستقبال الملكي بالإيوان، وفي تلك الأيام كانت الجماهير تتدفق أمام البوابة العظيمة التي هي باب بهو الاستقبال، ولا تلبث القاعة الكبيرة أن تغص بالوافدين، وكانت أرض القاعة مفروشة بالسجاجيد العظيمة، كما كانت تعلق السجاجيد على الجدران، والجدران العارية كانت عليها لوحات من الفسيفساء أعدت بأمر كسرى الأول، وكان العرش موضوعاً في أقصى القاعة خلف الستارة وقد أحاط به الضباط العظام والنبلاء، وكانوا يقفون على بعد من الستارة وفقاً لسنن المراسيم، وكان هناك حاجز بين رجال البلاط والعظماء وبين جمهرة الشعب، وفجأة ترتفع الستارة ويظهر الشاهنشاه وقد جلس فوق عرشه على وسادة من الديباج المذهب، وكان يرتدي ثوباً ثميناً موشى بالذهب، وكان التاج موشى بالذهب والفضة ومطعماً بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، معلقاً بسلسلة من الذهب في رأس طاق مجلسه، ذلك لأن عنقه كانت لا تحمل تاجه إنما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك، ثم يدخل رأسه في التاج، وهو يزن واحداً وتسعين ونصف كيلوغرام. ومنظر هذا الإيوان الفخم الذي ينفذ إليه ضوء أخاذ من خلال الخمسين ومائة كوة التي في القبة والتي يبلغ قطر كل واحدة منها من اثني عشر إلى خمس عشر سنتمتراً، هذا المنظر الفخم كان يدهش من يراه لأول مرة، فيركع لهيبته، وعندما يغادر الملك القاعة بعد انتهاء المجلس، يبقى التاج معلقاً، فيلف بستار من الديباج حتى لا يتسرب إليه التراب.

وكان منظر الملك وقد تزّين بحليه كلها عظيماً رائعاً، وكان على من يمثُل في الحضرة الملكية أن يسجد حسب التقليد القديم.

وكان ضابط كبير من حرس الباب، يرفع إلى الملك اسم من يريد أن

يتكلّم معه، فإذا أذنَ الملك بذلك دخل الرجل وهو يجذب من كمه منديلًا أبيضاً نقياً يغطي به فمه لمنع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة، ويستخدم ذلك في هذه الحالة لوقاية جلال الملك، فإذا احتاط الداخل هذا الاحتياط اقترب ثم ألقى بنفسه على الأرض أمام الملك، ويبقى على هذه الهيئة إلى أن يأمره الملك بالوقوف، فإذا دعاه الملك للكلام بدأ حديثه ببعض الجمل المناسبة التي تعبر عن دعائه للملك، وكانت الصيغة الشائعة أن يقول: «خلّدك الله» أو: «حقّق الله رغباتك». . . وهكذا.

وكان الملوك السّاسانيون يلقبون: (أنتم الكائنات الأولية) أو (قدسيتكم)، ويقال للملك: الإنسان الأول، فكان المخاطب له لا يذكر اسمه، وكان من المحرم أن يدعو الناس إذا كان الملك يصلي ويقول: آمين، لأن الملك الطيب له امتياز، وواجب أن يصلي لرعيته الطيبة، ولكن الشعب الطيب لا يصلي للملك الطيب، لأنّ دعاء الملك الصالح أقرب إلى الله.

ومن ناحية أخرى كانت الفوارق بين الملك والرعية ظاهرة بطرق مختلفة، فقد كانت ملوك العجم تمنع أن يشاركها الرعية في الحجامة والفصد وشرب الدواء يوم تفعل ذلك.

وأما نظام المراسيم أو الآداب الصارم الدقيق الذي كان يسود البلاط الساساني، فلدينا معلومات ذكرها الجاحظ في كتابه: التاج، في مناسباتها، فيصف طبقات خاصته الثلاث: الأولى الأساورة وأبناء الملوك، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة، ثم الطبقة الثانية وكان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم، ثم الطبقة الثالثة وكان مجلسهم على عشرة أذرع من الناحية وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة، ولم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح، ولا فاحش الطول

والقصر ولا مصاب بآفة ولا مرمى بابنة ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجّام.

وكانت ملوك الفرس تحتجب عن الندماء بستارة، والستارة من الملك على عشرة أذرع، وهي من الطبقة الأولى على مثل هذا القدر، فبين الملك وبين أول طبقة عشرون ذراعاً.

وإذا همّ الملك بالمسير في نزهة أو لبعض أموره، فإنّ الأساورة، وخاصة الملك، يعرضون دوابهم على راضة دواب الملك وصاحب دوابه، لأنه لا ينبغي أن يكون حصان أحدهم بليداً أو كثير النفور أو العثار أو الجماح، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره، ولا يحاذي حصان أحدهم حصان الملك وإن أراد ذلك منعه راكبه، ويجب ألّا يبول أو يروث أو يشغب، ولذا كان على الأساورة إلّا يطعموا دوابهم في اليوم السابق على الخروج مع الملك، فمسايرة الملك في رحلة كان واجباً ثقيلًا وشرفاً غير مستساغ عند العظماء، وكذلك لم يكن الملك يثابر على مسايرة أحد من بطانته بعينه، لما كان يعلم من طيرتهم من ذلك وكراهتهم له.

وكان حرمة مجلس الملك، إذا غاب كحرمته إذا حضر، وكان للملوك عيون على مجالسها إذا غابت عنها، فمن حضرها فكان في كلامه وإشارته وقلة حركته وحسن ألفاظه وأدبه ـ حتى أنفاسه ـ على مثل ما يكون إذا حضر الملك سمي ذا وجه، ومن خالف أخلاقه وشيمه وظهر منه خلاف ما يظهر بحضرة الملك سمي: ذا وجهين، وكان عند الملك منقوصاً متصنِّعاً.

وقد احتاط الملوك الساسانيون لأنفسهم خشية الاعتداء عليهم، فلم يكن أحد يعرف أين ينامون، أما أردشير بن بابك وسابور وبهرام ويزدجرد وبرويز وكسرى أنو شروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فراشاً في أربعين موضعاً ليس فيها فراش إلّا ومن رآه من بعيد على الانفراد فإنه لا يشك أنه فراش الملك خاصة وأنه نائم فيه، ولعله لا يكون على واحد منها، بل لعله ينام على مجلس رقيق وربما توسد ذراعه فنام.

ولم يكن لأحد الحق في أن يدخل غرفة الملك الخاصة، حتى ابن الملك كان عليه أن يستأذن قبل أن يدخل.

وعلى الملك أن يكون جواداً لرعاياه، وعلى حاشيته خاصة، فإنّ جود الملك هو مظهر عظمة المملكة ويبقى له ذكرى طيبة من بعده.

وكان الملك السّاساني يقدر للرجل من خاصته وبطانته تقديراً وسطاً بين الإسراف والاقتصاد في مؤونته كلها وحوائجه خاصها وعامها، فإذا كان التقدير على الجهة التي وصفنا عشرة آلاف درهم في الشهر وكانت للرجل ضيعة فإنه لا يخصم منه في نظير هذه الضيعة التي أفادها من صلات الملك، وأمر أن يدفع إليه في ثلاثين ليلة عشرة آلاف درهم لضيوفه ونفقاته وحوائجه بحيث لا يحتاج إلى طلب المال من الملك.

وكان الملك إذا زار وزيراً من وزرائه أو عظيماً من عظمائه (للتعظيم لا لغيره)، أرّخت الفرس تلك الزيارة وخرجت بذلك التاريخ كتبهم إلى الآفاق والأطراف، وكانت السنَّة أنّ من زاره الملك للتعظيم أن توغر ضياعه (تعفى من الضرائب) وتوسم خيله ودوابه لئلا تسخّر ولا تمتهن، ويأتيه خليفة صاحب الشرطة كل يوم مع ثلاثمائة راكب ومائة راجل، يكونون ببابه حتى غروب الشمس، فإن ركب كانت الرجالة مشاة أمامه والفرسان من خلفه، وكان عليه أن يقدم الهدايا للملك ومنها حصان سريع معد أحسن إعداد سرجه مذهب يضعه تحت تصرف الملك أثناء إقامته، وكان هذا يأخذه معه في عودته، والشرف الذي يسبغه الملك على مضيفه يؤدي إلى مزايا دائمة له: فلا يحبس أحد من عامته وخاصته لجناية جناها، ولا يحكم على أحد من عبيده بحكم، وإن وجب على أحد من بطانته حد وجه به إليه ليرى فيه رأيه، ويؤخر عليه وظيفة ما عليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له، وتقدم هداياه في النوروز والمهرجان على كل هدية، وتعرض على الملك ويكون أول من يأذن له الحاجب، ويكون من الملك إذا ركب

عن يمينه منزوياً، وتكون مرتبته إذا قعد عن يمينه، وإذا خرج من دار المملكة لم يقعد بعده أحد.

وكان العظماء يقدمون الهدايا للملك في عيدي النوروز والمهرجان، والسنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يحب من ملكه إذا كان من الطبقة العالية، فإن كان يحب مسكاً أهدى له مسكاً لا غير، وإن كان يحب عنبراً أهدى عنبراً، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثياباً، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدي فرساً أو رمحاً أو سيفاً، وإن كان رامياً فالسنة أن يهدي نشاباً، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدي ذهباً أو فضة، ولمن كان من عمال الملك وكانت عليه بقايا ديون للسنة الماضية جمعها وجعلها في بدر من حرير صيني وشريحات فضة وخيوط إبريسم وخواتيم عنبر ثم وجّهها هدية إلى الملك، وكان يهدي الشاعر الشعر والخطيب الخطبة، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات.

وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه كما قدمنا في الرجال، غير أنه يجب على المرأة من نساء الملك، إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها، أن تهديها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن هيئتها، فإذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة ويعلم أنها قد آثرته على نفسها وبذلت له ما تجود النفس به وخصته بما ليس في وسع النساء ـ إلا القليل منهن ـ الجود به.

ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوّم قيمة عدل، وقد وكل بذلك رجل يرعى هذا وما أشبهه ويتعهده، فإذا أصابت صاحب الهدية نائبة من مصيبة يصاب بها أو اضطر إلى المال لظرف قاهر، نظر إلى ماله في الديوان فرده الملك مضاعفاً ليستعين به على نائبته، وإذا كان المهدي قد قدم هدية رمزية ليست لها قيمة مادية كأن يكون قد

قدم تفاحة أو أترجة، فإنه إذا نزلت به مصيبة أو اضطر إلى المال ردت إليه التفاحة مثلًا ولكن ملؤها الدنانير المنظومة، وكان من تقدمت له هدية صغرت أم كبرت، قلت أم كثرت، ثم لم تخرج من الملك صلة عند نائبة تنوبه أو حق يلزمه، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكّر بنفسه وألا يغفل عن إحياء السنة ولزوم الشريعة، فإن أغفل ذلك عن عمد فمن سنة الملك أن يحرمه أرزاقه لستة أشهر وأن يدفعها إلى عدوه إن كان له، إذ أنه أتى شيئاً فيه شين على الملك وضعة في المملكة، وكان بعض الملوك الساسانيين يأمرون بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنوروز من الكسي فتفرق على بطانة الملك وخاصته، ثم على بطانة البطانة، ثم على سائر الناس على مراتبهم، وكانوا يقولون: إن الملك يستغني عن كسوة الصيف في الشتاء وعن كسوة الشتاء في الصيف.

وأكبر النياشين الملكية (الأوسمة) هو عصابة محلاة باللآلئ، وقد حرم على الناس أن يلبسوا خواتيم الذهب والأحزمة والأقراط، وغير ذلك إلّا مَن أنعم عليه الملك بها، وإذا أدىّ أحد الأفراد للدولة أو للملك خدمة تستحق التخليد، فإن اسمه ينقش على الآثار الملكية.

وكان من علامات التميز منح الألقاب فكان الأفراد الذين استحقوا الإكبار من المملكة أو الملك كانوا يمنحون علاوة على الأرض الواسعة لقب (الخيِّر)، وكانت هناك مجموعة كبيرة من الألقاب المختلفة في أيام الساسانيين.

وكانت الألقاب والألطاف الملكية ووظائف البلاط أو الدولة أكثر المسائل استعمالًا لمكافأة الإحسان، كما أنها استخدمت وسيلة تبذل ليرجع إلى دينه مَن اعتنق النصرانية من الزردشتيين. وحين يمنح الملك التاج لأحد، فهذا يمنحه الحق في أن يتخذ لنفسه مكاناً على المائدة الملكية وأن يشارك في مجلس الملك، وقد منح هرمزد الرابع الملك العربي النعمان

الثالث تاجاً يساوي ألف درهم، وكان هذا أكثر من منحة عادية، فهو يشبه ما يسمى: «الوسام» في العصور الحديثة.

وكان من بين تقاليد بلاط أنوشروان أن يوضع على يمين العرش كرسي من الذهب وكرسيان آخران من الذهب عن يساره ووراءه، فأحد هذه الكراسي الثلاثة كان خاصاً بملك الصين، والثاني لملك الروم، والثالث لملك الخزر، بحيث أنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسي، وهذه الكراسي الثلاثة توضع طول السنة، فلم تكن لترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها، وكان أمام العرش كرسي من ذهب يجلس عليه رئيس الوزراء ومن تحته كرسي الموبذان موبذ ومن تحته كراسي حجزت للمرازبة والعظماء، وكان لكل واحد منهم كرسي خاص بحيث لا يتنازعون على الأماكن، وكان كسرى إذا غضب على أحدهم أقصى كرسيه عن المجلس.

وحينما تكون البلاد ساهمة لأمر قد حزبها تلغى الموائد الملكية ويقتصر على مائدة لطيفة تقرب من الملك ويحضرها الموبذان موبذ ورئيس الوزراء ورأس الأساورة، فلا يوضع عليها إلّا الخبز والملح والخل والبقل فيأخذ منه شيئاً هو ومن معه، ثم يأتيه الخباز بنوع من البيض المضروب مع اللّحم والخضر يلف بالخبز في طبق فيأكل منه لقمة، ثم ترفع المائدة ويتشاغل بتدبير حربه وتجهيز عساكره، ولكن عندما تأتي الأخبار مبشرة بالنصر يأمر الملك أن يتخذ له طعام مثل طعامه الأول ويأمر الخاصة والعامة بالحضور، ويقوم الخطباء أولًا بالتهنئة له والتحميد لله تعالى بالفتح عليه والنصر له، ثم يقوم الموبذ فيتكلم ثم الوزراء بنحو من كلام الخطباء. . . ثم يمد الناس أيديهم إلى الأطعمة على مراتبهم، فإذا فرغوا بسط للعامة ظهر الإيوان وللخاصة في صحنه بحضرة الملك، ويقعد صاحب الشرطة للعامة كقعود الملك للخاصة، وكانوا لا يتكلمون وهم يأكلون. فإذا أراد أحدهم شيئاً أشار بما يريد، ثم يدعى بالمغنين وأصحاب الملاهي.

وإذا علم أحدهم أنّ الملك غاضب عليه، فعليه ألّا يلجأ إلى أحد المعابد وألّا يهرب، بل عليه أن يذهب فيجلس على كرسي ذي ثلاثة أرجل من حديد أمام القصر، وأن ينتظر حتى يقضي الملك في أمره، وقبل هذا، لا يجرؤ أحد على حمايته، وكان القتل يوقع في ساحة مكشوفة بالقصر، فهناك تقطع الرقاب أو الأيدي أو الأرجل من المجرمين أو ممن استحقوا سخط الملك.

وكان على الملك أن يتغاضى عن تافه الجرائم.

وكان في بلاط الملك كل حين، مبعوثون من البلاد الأجنبية النائية، وكان السفراء الأجانب يكرمون كلّ الإكرام، وكان إذا قدم سفير أرسل قائد الحدود تقريره في الحال، فيسرع حكام الأقاليم التي سيمر بها السفير إلى اتخاذ التدابير لإعداد المنازل اللائقة به، فإذا علم حاكم الإقليم بمهمة السفير فإنه يبلغ الأمر إلى الملك، فيرسل هذا جماعة لاستقباله ومصاحبته إلى القصر الملكي حيث يستقبله الملك في حفل عام وهو جالس على العرش وحوله عظماء الدولة. ثم يسأل عن اسمه وعن رحلته ثم عن رسالته وعن حالة بلاده وملكه وجيشه، ثم يصحبه الملك إلى قصره بكل مظاهر الأبهة الواجبة للسفير، ثم يدعوه إلى مائدته، ثم يصحبه إلى الصَّيد، وأخيراً يسرِّحه بما يليق بمقام السفير من الحفاوة، بعد أن يهديه خلعة.

وأما الدبلوماسية الإيرانية، فكان الملك يحتاط في اختيار سفرائه فكان يختبر رسوله اختباراً طويلًا قبل أن يفوِّض إليه القيام برسالة: كان الملك يوجِّهه إلى بعض خاصته ثم يرسل عيناً عليه يحضر رسالته ويكتب كلامه، فإذا رجع الرسول بالرسالة جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابل بها الملك ألفاظ الرسول، فإن اتفقت أو اتفقت معانيها عرف الملك صحّة عقله وصدق لهجته، ثم جعله الملك رسولًا إلى عدوه وجعل عليه أيضاً عيناً يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك. فإذا نجح في هذه التجربة أيضاً جعله رسوله إلى ملوك الأمم ووثق به.

هؤلاء هم ملوك السّاسانيين. وتلك هي مجمل تقاليدهم وأسلوب حكمهم وطريقة تصريفهم للأمور.

الشَّعبُ:

كلّ الإيرانيين تقريباً في مظهرهم الخارجي ممشوقو القوام سمر البشرة لونهم أدكن، نظراتهم حادة وحواجبهم مقوسة كنصف دائرة ومقرونة، لحاهم جميلة، وشعورهم طويلة شعثاء وهم شكاكون حذرون إلى أقصى حد، وقد يجتازون أحياناً وهم في بلاد العدو، البساتين والحدائق فلا يمسون منها ثمرة خوف السم أو السحر، وهم يحرصون على ألّا يقعوا في عيب، فقلّ أن ترى فارسياً يبول واقفاً أو يبتعد ليتغوّط، وهم يتركون ثيابهم الخارجية مفتوحة من الأمام والجانبين بحيث أنها تخفق مع الهواء، ويستعملون الأحجار الكريمة وخاصة اللؤلؤ، وتراهم دائماً قد تمنطقوا بالسيوف حتى في الولائم والأعياد، وهم يكثرون من لغو الكلام ويتحدّثون سقطاً صلفون قساة، عتاة متوعدون مقبلين كانوا أو مدبرين ماكرون، منكرون، يمشون الهوينى بخطى متبخترة لعلها توصف بالتخنث مع أنهم أمهر محاربي العالم، والحق أن مهارتهم ترجع للفن لا للشجاعة، وهم دهاة في الحرب خاصة إذا كانوا بعيدين من خصمهم، وهم يدعون حق الموت والحياة على عبيدهم وطغام الناس، ولم يكن يجرؤ خادم ممن يخدمونهم أو يقفون على موائدهم أن يفتح فاه لينطق بكلمة أو ليبصق، ميالون للعشق والقليل بينهم من يقنع بسراريه الكثيرات.

هذا هو وصف جماعة الأشراف الإيرانيين، وهم على العموم يقضون حياتهم في نشاط، قسمة عادلة بين ممارسة السلاح للحرب أو الصيد وبين اللّذات المائعة، ولم يفرض عليهم الدين الزردشتي عدو الزهد أياً كان أي قيد، ولكن حياة الجد في وضح النهار قد خففت إلى حد ما من أثر اللّذات التي تضعفهم، وكانت فيهم عيوب كثيرة ولكنهم يتحلّون بصفة لا نجدها غالباً في الشعوب القديمة هي: التأدب

وروح الفروسية، وهذه الصفة ملحوظة في إيران منذ بدء العصور التاريخية.

والمعلومات التي لدينا عن التعلم في إيران قليلة، ولكن يظهر أنّ الحراثين كانوا غالباً أميين، وأما الدهاقين فكانوا في جميع العهود مثقفين إلى حد ما، وأما التجار فكان كثير منهم يستطيع القراءة والكتابة وفهم الحساب، وعدا ذلك فثقافة الشعب الأدبية كانت ضئيلة جداً، فقد كانوا لا يعنون بالتعليم كثيراً ولكنهم يهتمون بأعمالهم.

وليس من شك، في أنّ التعليم الأولي وجزءاً من التعليم العالي على الأقل، كانا محصورين في رجال الدين. وكان طابعهما دينياً ظاهراً؛ أما تعليم أطفال وشباب طبقات المجتمع العالية فكانوا يتلقون جزءاً من تعليمهم مع أمراء البيت المالك في القصر تحت إشراف معلم الأساورة، وكانوا يتعلّمون القراءة والكتابة والحساب ورمي القرص والشطرنج وركوب الخيل والصيد، ومما لا يحتاج إلى بيان أنّ النبلاء الشبان كانوا يتلقون فن الحرب قبل كل شيء. وفي الخامسة عشرة يكتمل التعليم الجسماني والذهني، فيجب على الشاب في هذا السن أن يعرف أصول الدين وأن يعرف تاريخ الرجال وواجباتهم، وفي العشرين يمتحنه الحكماء والهرابذة. ويصف خادم صغير في بلاط كسرى الأول تفاصيل التعليم الذي تلقاه، ففي السن المعينة أُلحق بالمدرسة حيث حفظ عن ظهر قلب كالهربذ، الأجزاء الرئيسية من الأوستا مع شروحها، ثم في التعليم المتوسط اهتم بدراسة الأدب والتاريخ والفصاحة والفروسية ورمي السهام وتسديد الرمح وأعمال البلطة،، ثم عرف الموسيقى والغناء وعلم النجوم وأتقن الشطرنج وأنواع الألعاب الأخرى، وأخيراً تعلّم فنّ إعداد أنواع المأكولات وفن اللبس.

أما تعليم البنات، فالأغلب أنه كان يقتصر على التعليم المنزلي، ولكن نساء الطبقات العالية كنّ يلقين أحياناً درساً عميقاً في العلوم.

أما العلوم فقد كان اليونان والرومان أساتذة للإيرانيين، وكان هناك أناس انصرفوا انصرافاً تاماً إلى الدراسات العلمية، وقد كانت الأوستا السّاسانية هي المصدر الرئيسي لكلِّ العلوم. وكان العلماء من رجال الدين هم المعلمين غالباً.

أما عن الطب، فقد كانت هناك قواعد لأجور الأطباء التي كان للطبيب أن يطلبها: آلات طبية وملابس جميلة وخيل سريعة الجري، أما الأجور النقدية فقد حدد ما يدفعه رب البيت العادي ورئيس القرية ورئيس الكورة ورئيس الإقليم ثم ما يستطيع الطبيب أن يطلبه من الفقراء، وكان أجر الطبيب يختلف حسب ما قام به إذا كان قد عالج الجسد كله أو عضواً منه، وكان على الطبيب أن يعالج المريض بإخلاص وفي حزم وحذر، ويرتكب الطبيب جريمة إذا تباطأ أو تردّد في زيارة مريض. وكان هناك نوع من الإجازة للأطباء، ولكن كان من المتعذر أن تجد دائماً الطبيب الحائز لهذه الإجازة، ويجوز أن يستعين الرجل بطبيب أجنبي إذا استحال الالتجاء إلى الطبيب الإيراني، ولكن من الجرم أن يستعين الرجل بالطيب الأجنبي مع وجود الإيراني، أما ملوك السّاسانيين فكانوا يستخدمون غالباً الأطباء من الروم أو السريان النصارى.

وكان هناك أطباء عيون وأطباء بيطريون، وهناك عادة كانت جارية في إيران وهي الإبقاء على مجرم حكم عليه بالإعدام ليستفيد الطب بإجراء التجارب عليه.

والطب نوعان: طب الصحة الروحية، وطب الصحة الجسمانية، وهناك أطباء يمارسون علاج الروح وآخرون صناعتهم علاج الجسد، ولكن يبدو أنّ العناية بالناحية الروحية كانت تدخل في ممارسة الطب بالمعنى الأخص إلى حد ما.

وأصول الطب الإيراني زردشتية كلّها بنيت على تقاليد الأوستا، ولكن

أثر الطب الإغريقي يظهر في كل ناحية. وهناك ثلاث طرق للعلاج كما يقول الطب البقراطي، فما لا تنجع فيه الأدوية يشفى بالحديد (أي بالجراحة)، وما لا ينجح فيه الحديد يشفى بالكي (النار)، وأما المرض الذي لا يمكن علاجه بالكي فإنه مستعص لا علاج له.

والطبيب الحاذق هو الذي يُعْنى عناية فائقة بمرضاه، والذي يطَّلع كثيراً، وعليه أن يعرف أعضاء الجسد والمفاصل وأن يعرف الأدوية، وأن يكون رقيق الحاشية، حلو الحديث، صبوراً مع المرضى.

وطبيب الروح الماهر الذي يتبع رجال الدين، وطبيب الجسد الماهر، يجب أن يُثْبتا كفايتهما، وعلى طبيب الجسم أن يكون قد عالج كافراً حتى يجوز له أن يمارس مهنته في تطبيب المؤمنين، فإذا عالج ثلاثة أشخاص فماتوا فإنه يحرم نهائياً من ممارسة مهنته. والطبيب ملزم بعيادة المريض كل يوم طوال المدة اللازمة للعلاج، وله في نظير ذلك أن يقدم له غذاء فاخر وحصان سريع ومسكن أنيق في موقع عامر، ولكن عليه ألّا يسرف في حب المال. ومن ناحيتي الأخلاق والدين كان هناك عدة أصناف من الأطباء: وخيرهم مَن يمارس مهنته بالشفقة الدينية المحضة، ويأتي بعده من يتوسط بين الرحمة التي يقول بها الدين وحب المال، ولكنه يكون أميل إلى الرحمة، ثم يأتي من يؤثر المال، وهكذا.

كان رجال الدين الزردشتيون شديدي التعصب، ولكن مثار تعصبهم كان لأسباب سياسية خاصة، ولم يكن الدين الزردشتي دين دعاية، فلم يكن رؤساؤه مملوئين بالحماسة لبث سعادة الأرواح في العالم كافة، ولكنهم ادعوا السيادة المطلقة في داخل حدود الدولة، وكانوا لا يطمئنون كثيراً إلى مَن يدينون بدين آخر، وخاصة إذا انتموا إلى دين دولة أجنبية قوية، وكان في إيران جماعة من يهود ولكنهم لم يكونوا خطراً على سلطة رجال الدين الزردشتيين، كما انتشرت النصرانية على نطاق ضيق في كل مكان من إيران.

وكانت وظيفة الوسيط أو الحكم ـ وربما كانت بين النبلاء وحدهم ـ من الوظائف السبع الوراثية في الأسر الممتازة، ولكن ما بين الدين والأخلاق والقانون من الارتباط الوثيق الذي هو من طبيعة الدين الفارسي، استلزم أن تكون السلطة القضائية بالمعنى الصحيح في يد رجال الدين، وكانت العلوم كلها منحصرة فيهم، وكان الرئيس الأعلى للقضاة هو (قاضي الدولة) وكان أحد القضاة الروحانيين يقوم على القضاء في كورة، وكان عليه بوجه عام أن يراقب سير العدالة حتى في سلوك السلطات المدنية العليا في الإقليم، وكان لزاماً أن يكون لكل قرية مرجع قضائي أدنى، كان هو الدهقان أو قاض خاص يعين بالقرية. وكان هناك قضاة صلح درسوا القانون عشر سنوات وإحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، والظاهر أن أحكامهم وفتاواهم كانت تتفاوت في درجاتها، وقد نيط القضاء العسكري بقاض خاص، والمفروض أن كثيراً من الموظفين القضائيين الذين يلقبون بألقاب خاصة كانوا من الموابذة أو الهرابذة، وكان الهرابذة يصدرون أحكاماً قضائية بوصفهم قضاة.

وكانت مصادر القانون، الأوستا مع الشروح، ومجموع فتاوى الفقهاء الدينيين الطيبين، ولم يكن هناك مجموعة قانونية بالمعنى الصحيح، ولكن يظهر من مختصر أجزاء الأوستا الساسانية أن أجزاء كثيرة قد تناولت المسائل القانونية.

وكانت الكلمة العليا في الدعاوى المدنية للموبذان موبذ، ويسري ذلك أيضاً على القضايا الجنائية، فإنّ قرار الموبذ الكبير أقوى من اليمين... إنّ قراره لا يخطئ.

وقد حدّد القانون مدة لاستدعاء الشهود كما حددت القواعد مدة المرافعات كلها، وهناك قيود محددة لثرثرة المتخاصمين الذين يحاولون إطالة المرافعات أو عرقلة سير القضايا، كما كان من الممكن التظلم من القاضي

الذي يقدم، لمصلحته الخاصة، قضية مشكوكاً فيها على أنها ثابتة، أو قضية ثابتة على أنها مشكوك فيها.

وقد كان للابتهال شأن كبير في الفصل حين الشك في إدانة المتهم أو براءته، وكانت طريقة الابتهال تتفاوت في خطورتها، وكانوا يفرقون بين (الابتهال الحار) و (الابتهال البارد)، فالابتهال الحار كان يتم مثلًا باختراق المتهم النار، وهناك قواعد معينة لوصف الخشب الذي يتخذ للوقود، وكان الابتهال يجري في احتفالات دينية، وأما الابتهال البارد فإنه يكون بأفنان مقدسة، وهناك نوع آخر قديم جداً من الابتهال يصحب أداء اليمين، قوامه شرب الماء المختلط بالكبريت، ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون استخدام الماء الكبريتي في حالة أداء اليمين أمام الساسانيين أمراً صورياً، وكان هناك موظف من رجال العدالة مهمته الإشراف على صحة الابتهال.

ونظرية العقاب تبرز بين ثلاثة أنواع من الجرائم التي يعاقب عليها القانون: الجرائم في حق الله حينما يرتد رجل عن الدين أو يحدث البدع في الشريعة، والجرائم في حق الملك حين يعصي الفرد أو يخون أو يغش، والجرائم بين الأفراد حين يظلم بعضهم بعضاً؛ وكان عقاب النوعين الأوليين من الجرائم، أي جرائم الكفر والعصيان والجناية والهرب من الجيش الموت، وذلك في القرون الأولى من العهد الساساني. وأما جرائم الأفراد: السرقة وقطع الطريق وهتك العرض والظلم وغير ذلك، فكان يعاقب عليها بعقوبات بدنية شديدة أو بالموت. وقد كان قانون العقوبات صارماً جداً حينذاك: إنّ القوانين بالغة الصرامة عند الفرس، والقوانين الزاجرة للجاحدين أو الهاربين من الجيش كانت قاسية بوجه خاص، والقوانين الخاصة بالجرائم الأخرى كانت فاحشة، فربما تجر جريمة فرد الهلاك على أقاربه جميعاً!!

وقد تضمّن القانون قواعد الاتهام وإقامة الدعوى في قضايا السرقة وقطع الطريق والأضرار المختلفة والقتل وهتك العرض والتهديد بالاغتصاب

والسجن بدون حق، والحرمان من الزاد، والتخفيض الجائر لأجور العمال، والإضرار برجل السحر وغيرها، وقد تناول أيضاً مسائل قانونية أخر مثل حدود مسؤولية الطفل والتحريض على قتل أجنبي وغير ذلك..

فمثلًا، إنّ السارق الذي يضبط متلبِّساً كان يساق إلى القاضي. وقد علّق ما سرقه برقبته، وكان يُلقى به في السجن مكبلًا بالحديد، وكان عدد السلاسل يختلف باختلاف خطورة الجريمة؛ وأعضاء الجسد التي تمّ بها الإثم كان يضيق عليها الوثاق أكثر من غيرها، وواضح أنّ هذه السلاسل لم تكن ضماناً من الهروب فحسب، بل كان لها صبغة رمزية أيضاً، وكان قاضي التحقيق يتوسّل إذا اقتضى الأمر في أسئلته بالمحبة المصطنعة والألفاظ الخداعة كي يحمل المجرم على الاعتراف، وكان من يخون شركاءه في الجريمة فيعترف عليهم يكافأ، وكان مخفي الأشياء المسروقة يعاقب بمثل عقوبة السارق.

ومن المشكوك فيه أن يكون القانون الإيراني قد اتخذ السجن إلى أمد عقوبة، ولكن من الممكن أن يمتدّ الحبس الاحتياطي إلى ما شاء الله، وكان المجرمون يحبسون في مكان قذر خاصة، حيث يطلق عليهم عدد من الحيوانات المؤذية تعيَّن لكل حالة، ومن ناحية أخرى استخدم السجن وسيلة لإبادة أفراد الطبقة الرفيعة لخطرهم على الدولة أو تأميناً لملك، إبادة بغير جلبة.

وهناك عقوبة مشهورة جداً، يعاقب بها خاصة الأمراء الثائرون، وهي سمل العيون بإبرة محماة أو بصب الزيب المغلي في مآقي الفريسة، وكان الإعدام ينفذ بالسيف، أما بعض الجرائم مثل خيانة الوطن أو الخروج على الدين فكان يعاقب عليها بالصلب.

وكانت أشدّ أنواع التعذيب فظاعة (التسع موتات)، وها هو تفصيلها: فإنّ الجلّاد يقطع أولًا أصابع اليدين، ثم أصابع القدمين، ثم يقطع اليدين

حتى الرسغين، ثم القدمين حتى الكعبين، ثم الذراعين حتى المرفقين، ثم الساقين حتى الركبتين، ثم الأذنين، فالأنف، ثم يختم بالرأس، وكانت جثث القتلى تترك للحيوانات المفترسة!!

وكانت قائمة عظماء الدولة مؤلفة من كبير الوزراء والموبذان موبذ (كبير الموابذة) وهو القائم بأمور الدين وقاضي القضاة وهو رئيس الموابذة، والهرابذة هربذ (كبير الهرابذة وهم رجال الدين)، وكبير الكتاب وقائد الجيش، وأصحاب تدبير الملك: كل واحد منهم قد أُفرِد بتدبير جزء من أجزاء المملكة، فكلّ واحد منهم صاحب ربع منها، ولكل واحد منهم مرزبان وهو خليفته، وصاحب الخراج.

وكانت ملابس الإيرانيين مصنوعة من الجلود أو الصوف أو الّلباد أو الحرير ذي الصور.

وكان الحراثون يصففون شعورهم ويسيرون عراة الرأس، وكانت طبقة النبلاء تعيش عيشة وادعة هادئة، وكانت طبقة النبلاء الأقل شأناً تقضي وقتها في أرضها وتهتم بالأعباء الإدارية في جهاتها.

لقد كانت الحالة الاجتماعية ورزايا المعيشة العامة في الجملة أخف وطأة أيام كسرى الأول مما كانت عليه في العهود السابقة، ولكن ها هي صورة لهذا العهد كما ذكرها (برزويه) في تاريخ حياته: «... فإنا نرى الزمان مدبراً بكل مكان حتى كأنّ الفضل قد وُدِّع، وأصبح مفقوداً ما كان عزيزاً فقده، موجوداً ما هو ضار لمن ظفر به، وكأنّ الخير أصبح ذابلًا والشر نضيراً، وكأنّ الغيّ أقبل ضاحكاً وأدبر الرشد باكياً، وكأنّ العدل أصبح غابراً، وأصبح الجور غالباً، وكأنّ العلم أصبح مستوراً، وأصبح الجهل منشوراً، وكأنّ اللؤم أصبح آمراً، وأصبح الكرم موطوءاً، وكأنّ الودّ أصبح مقطوعاً، وأصبح الحقد موصولًا، وكأنّ الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخي بها الأشرار، وكأنّ الغدر أصبح مستيقظاً، وأصبح الوفاء

نائماً، وكأنما الكذب أصبح غضاً والصدق قاحلاً، وكأنّ الحق ولى عاثراً وأصبح العدوان قد جرى سبيله... والإنصاف بائساً باطلًا مستعلياً، والمظلوم بالخسف مقراً والظالم لنفسه فيه مستطيلًا، والحرص فاغراً فاه يتلقف من كل جهة ما قرب منه وما بعد عنه، والرضا مجهوداً مفقوداً، والأشرار يُسامون السماء والأبرار يريدون بطن الأرض، وأصبحت المروءة مقذوفاً بها من أعلى شُرف إلى أسفل مهواة، والدناءة مكرمة، والرفعة مجفوة، والسلطان متنقلًا من أهل الفضل إلى أهل النقص، والدنيا جذلة مسرورة تقول: قد غيَّبت الحسنات وأظهرت السيئات».

لقد عاش رجل الشارع كما عاش قروناً طويلة في الجهل والظلم، وكانت روح القبيلة والهوة التي تفصل بين الطبقات والحالة التعسة التي كان عليها الشعب من الأمور الملموسة الاعتيادية: القوي يظلم الضعيف، وطبقات الشعب ترتكب كثيراً من القسوة والوحشية فيما بينها..!

الخَاتِمة

كيف كانت الإمبراطورية الساسانية قُبيْل الفتح العربي الإسلامي وفي أثنائه؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يلقي ضوءاً على الظروف الراهنة التي جابهها القادة الفاتحون، ويقدِّم صورة واضحة لحالة تلك الإمبراطورية من النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية في أيام الفتح الإسلامي.

كانت عوامل الفساد والاضطراب قد استفحلت في القرن السادس الميلادي واشتد أثرها في أرجاء تلك الإمبراطورية التاريخية التي قادت جزءاً كبيراً من أرجاء المشرق قروناً طويلة عسكرياً واقتصادياً وفكرياً.

كان البلاط الفارسي مضطرباً تنتشر في جوِّه دسائس الطامعين بالعرش، وكان الملك يخشى أفراد أسرته خاصة؛ إذ اتخذ بعضهم الغدر سلاحاً لتولي الملك، فابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب، وضعف الولاء له في نفوس قادة الجيوش وحكام المناطق والعظماء والنبلاء.

وكثرت مذاهب الشعب وتبلبلت عقائد الناس، وانحلّت العصبية القومية وانهارت القوى المعنوية وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو متع الحياة.

وكان الفرس من الناحية الدينية موزعين بين (رمزية) زردشت و (عدمية) ماني و (وجودية) مزدك!

وانتشر الظلم، وشاع الجهل، وتفشى المرض والفقر بين عامة أفراد الشعب الذي كان يعيش تحت وطأة نظام طبقي إقطاعي قاس.

وكانت خيرات البلاد محتكرة لفئة من الإقطاعيين وأصحاب البيوتات والنبلاء والأساورة، بينما يعاني باقي الشعب كلّ أنواع المذلة والحرمان.

أرسل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه المُغيرة بن شُعْبَة الثَّقَفِيّ إلى رستم قائد الفرس قبيل معركة القادسية، فأقبل المغيرة حتى جلس مع (رستم) على سريره، فوثب عليه رجال رستم وأنزلوه، فقال لهم: «قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم! إنّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أنّ بعضكم أرباب بعض!!!»، فقال عامة الناس: «صدق والله العربي»، وقال رؤساؤهم: «والله لقد رمى بكلام لا زال عبيدنا ينزعون إليه»[1].

فما أصدق قول المغيرة: «إن بعضكم أرباب بعض»!

وكان الجيش الفارسي مرتكزاً على الحكم الإقطاعي، فكان المرازبة والدهاقين يتولون قيادة الجيش ويتحكَّمون في الأرض والعقارات الشاسعة، ولم يكن لجيش فارس هدف يوحِّد صفوفه ويسعى لتحقيقه غير الارتزاق؛ كما كانت قيادته وراثية وقادته يعتمدون على حسبهم ونسبهم وحظوتهم لدى الملوك لا على مواهبهم العسكرية وكفايتهم القيادية[2]، وكانت معنويات الجيش متردية وتدريبه ضعيفاً وضبطه قليلًا وإخلاصه لقضية بلاده معدوماً.

لقد كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الإمبراطورية الساسانية قبيل الإسلام وأيام الفتح الإسلامي.

ولكنّ الأسباب التي قضت على الفرس بالهزيمة أمام العرب المسلمين ـ كائنة ما كانت ـ ليست هي الأسباب التي قضت للمسلمين بقيام دولة وانتشار عقيدة، لأنّ استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء.

---

(١) الطبري (٣/٣٦) وابن الأثير (٢/١٧٩)، وانظر قادة فتح العراق والجزيرة (٣٩٤).

(٢) كان قادة المسلمين يقاتلون في الصفوف الأمامية لرجالهم دائماً، وكانوا يبارزون.

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس لأنهم عرب وكفى، فقد كان هناك عرب كثيرون في العراق يدينون للفرس بالطاعة وينظرون إليهم نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عدداً وأمضى سلاحاً وأقربَ إلى ساحات القتال من أولئك النازحين إليها من الجزيرة العربية.

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام العرب المسلمين، وهم كذلك أوفر عدداً وسلاحاً وأغنى بالخيل والإبل والأموال.

فهي نصرة عقيدة لأمراء! ولكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول.

فالواقع أنّ الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالًا أُولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم.

إنها عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون(*).

وستقرأ في هذا الكتاب وشيكاً عن القادة القادرين الذين ذادوا عن عقيدتهم وحملوا رايات العرب المسلمين شرقاً وغرباً، هؤلاء القادة الذين يندر أمثالهم في كل أطوار التاريخ لكل الشعوب في العالم.

والحمد لله الذي يسر لي إخراج هذا الكتاب إلى حيِّز الوجود، وأدعوه أن يأخذ بيدي لإخراج الأجزاء الباقية من كتاب: قادة الفتح الإسلامي، حتى استكمل بين طياته قصة حياة كل قائد فاتح ضم بلداً إلى الدولة الإسلامية.

وصلّى الله على سيد القادات وقائد السّادات النبيّ العربيّ محمد بن عبد الله، ورضي الله عن قادته الميامين، خريجي مدرسته، ومعتنقي مبادئه، وحاملي راياته: قادة الفتح الإسلامي.

(*) عبقرية خالد (١٢٦ ـ ١٢٨) وانظر قادة فتح العراق والجزيرة (١٨ ـ ١٩).



الهند
قبل الفتح الإسلاميّ وفي أيامه

من التّاريخ

١ ـ المعنى والحدود:

لم تكن الهند في القديم هي شبه القارة المترامية الأطراف المتعارف عليها في العصور الحديثة، إذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً، فلا يُعْرَف به إلّا شُقّة ضيِّقة من الأرض، أو يتّسع اتِّساعاً كبيراً حيناً آخر، فيشمل رقعة واسعة من جنوبي القارة الآسيوية.

واختلف الناس في منشأ تسمية هذه البلاد، فمنهم مَنْ نسبها إلى الإله (إندرا) إله الهند القديم، ومنهم من ردّها إلى اسم نهر (السِّند)(١) الذي كان يعرفه الفرس القدماء باسم: (هِنْدهو) أي النهر، جرياً على عادتهم في إبدال السين السنسكريتية بالهاء، وكان نفوذ الفرس قبل غزو الإسكندر للهند قد عمّ الجزء الغربي من هذه البلاد وتوغّلوا فيه. وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا كذلك اسم: (الهندستان) أي (أرض الأنهار) على القسم الشمالي بأكمله من هذا الإقليم.

وشبه القارة الهنديّة تضم اليوم ثلاث جمهوريات: باكستان، وبنكلاديش، والهند، وهي كتلة بالغة الضّخامة من اليابسة، تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال المربّعة، أي ما يزيد على نصف مساحة القارة الأوروبية، فيها تمثيل لمختلف عروق الإنسان وما عرفه من فنون وآداب

---

(١) يعرف باسم: نهر الأندوس.

وعلوم، وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد. وفيها أنواع الأجواء المتباينة من الصّقيع وثلوجه في الهملايا ومرتفعاتها بالشمال، إلى قيظ المناطق الإستوائية وشواطئها بأقصى الجنوب. وفيها أيضاً من صنوف الحيوانات والطيور والنباتات والمعادن ما يصلح لأن يكون إجمالًا لما بالعالم كلّه منها.

يحدّها من الشمال جبال الهملايا، ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع إيران وأفغانستان، ثم تمتد الهند إلى الجنوب في شبه جزيرة يقع بحر العرب في غربها وخليج البنغال في شرقها وسيلان في طرفها الجنوبي، ويتّجه الإقليم الشمالي منها إلى الشرق حتى جبال آسام.

٢ ـ الهند القديمة:

كان في الهند حضارات مزدهرة أيام كان المصريون يقيمون أهراماتهم قبل المسيح بثلاثين قرناً، فقد كشفت بعثة مارشال في حفرياتها عند (موهنجو دارو) في غربي السند عام ١٩٢٤م، عن آثار يرجع تاريخها إلى عصر الأهرامات، لمدينة عريقة كانت تسود البلاد حينذاك، وكان أصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل في وادي الرافدين.

وهذه المدن التي كشفت عنها هذه البعثة، حوت دوراً من عدة طبقات مبنية بالآجر المتين، وإلى جوارها الحمامات والآبار، وفيها آنية من خزف مصقول وزخارف من الخشب والمعدن، وأسلحة دقيقة، وأدوات للزينة لا يتداولها غير أرقى المجتمعات.

ولكن قلة الوثائق التاريخية القديمة عن الهند، وصعوبة الاستدلال على ماضيها من نقوشها وأطلالها، جعل المؤرخين يستقرئون كتب الهند الدينية القديمة وملاحمها، وما حوت من أكداس الأساطير، لاستنتاج شيءٍ عن بعض نواحي التاريخ الهندي القديم وأحداثه.

وحمد جمهرة المؤرخين لمؤرخي المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمي

البارز الموفّق حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند التاريخية لم يبدأ إلّا بتدوينات هؤلاء العلماء[1].

وقد غزاها الفرس (الآريون) قبل الميلاد بنحو ألفي سنة، وذكر قسم من المؤرخين أن الغزو كان قبل أكثر من أربعة آلاف سنة.

وكان للفرس أثر كبير في تاريخ الهند، إذ يعزى إليهم تكوين اللغة السنسكريتية التي يقول علماء اللغات إنها تشبه اللغات الأوروبية القديمة كاللّاتينيّة والقوطية والفارسية القديمة، مما جعلهم يحكمون بأن أصلها جميعاً واحد. وقد تولّد من استعلاء الفرس الفاتحين على سكان الهند الأصليين ومن احتكاكهم بهم، تلك التقاليد الهندوسيّة التي اعتبرت على مرِّ التاريخ ديناً يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه.

وقد استولى هؤلاء على إقليم السند والقسم الشمالي الغربي من الهند، فاستخدموا السكّان وفيولهم في جيوشهم، وحاربوا بهم اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد.

واكتسح الإسكندر بلاد فارس وأفغانستان، ونفذ من محور مدينة كابل إلى السِّند، فدخله سنة (٣٢٦ق.م) بعد أن عبر جبال (الهندكوش)، فطفق يتجول بالبنجاب عاماً كاملًا، حتى إذا ما عزم على المضي بالغزو قدماً بعدما هزم (ورس) ملك الهند ليبلغ البحر في ناحية الشرق، فيقيم له إمبراطورية هندية، عارضه رجاله الذين لم يصبروا على احتمال حر الهند مع ما عاودهم من الحنين إلى بلادهم، فاستدار بهم عائداً إلى وطنه بعد أن ترك حاميات له في الهند، ولكن هذه الحاميات تلاشت في بضع سنين من رحيل الإسكندر عن الهند.

ومن الواضح أنّ غزو الإسكندر للهند لم تكن له نتائج سياسية، بينما كان لها نتائج حضارية، إذ وُصلت الهند بأوروبا بصورة مباشرة وبشكل

---

(١) حضارات الهند (٢٠٦).

أعمق عما كانت عليه من قبل، فالواقع أنّ الهند كانت على اتصال بالغرب قبل غزوة الإسكندر، فقد عرفت الهند الإغريق عن طريق فارس، كما عرف الإغريق الهند عن طريقها أيضاً. فقد كانت الأقاليم الغربية لنهر السِّند تكوِّن الإمبراطورية الفارسية في عهد (دارا) ثم في عهد ابنه، كما شارك الهنود في الجيش الذي قاده ابن (دارا) إلى اليونان؛ وقد وصف (هيردوت) جنود هذه الحملة بأنهم كانوا يحملون أقواساً من الغاب وحراباً قصيرة، وأنّ الهنود منهم كانوا يرتدون بزّات من القطن ويحملون أقواساً من الخيزران وسهاماً ذات رءوس مصنوعة من الحديد.

وقد عمل هذا الاحتكاك بين الإغريق والهنود على التفات الهند نحو اليونان، وكما نقل الإغريقيّ إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التي سمعها من البلاط الفارسي، فقد شرع الهنود يهتمّون بالإغريق أيضاً. ويحدِّثنا (أرسطو) عن فلاسفة من الهند قدموا (أثينا) لمحاورة (سقراط) ومناقشته في المشاكل الفلسفيّة التي يعالجها المفكر اليوناني.

لقد كانت هناك صلة بين الهند والإغريق، ولكنها زادت واتّسعت بعد غزو الإسكندر.

وظهر في الهند أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، إمبراطورية (الموريا) الهندية التي اتخذت لها الطاووس شعاراً، وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهندكوش وتضمّ معها (مالوه) و (الكُجْرات) وأرض (كابل).

وقد كان چندرا كُبتا(٣٢١ ـ ٢٩٦ق.م) مؤسس هذه الإمبراطورية قد أقام زمناً في معسكر الإسكندر، إذ كان أبوه من زعماء البنچاب الذين وقعوا في أسر القائد المقدوني، ثمّ نكّل بالحاميات الإغريقية الذي خلفها الإسكندر في الهند بعد انسحابه منها، وطفق يوسِّع من رقعة ملكه.

وذاع صيت هذا الملك الهندي، حتى بعث إليه (نيكاتور السلوقي) الذي ملك بعد وفاة الإسكندر سورية وبابل، سفيره (ميغاستين)، فاطّلعَ

اطلاعاً واسعاً على أحوال الهند وطبائع أهلها وعاداتهم، حتى ليُعَدّ ما وصل إلينا من مذكراته من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة[١].

وقد أشاد هذا المبعوث الإغريقي بما كان عليه قصر الملك من الروعة والفخامة، وما كان يزِّينه من نقوش وجواهر وعُمد طليت بالذهب. كما وصف الحضارة الهندية التي كانت قائمة إذا ذاك بأنها تساوي أختها اليونانية مساواة تامة. وأثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكّان عموماً، وانعدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم.

وكان من أهداف هذا السفير، العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشّام بدلًا من الطريق البحري الذي ينتهي إلى مصر فتثرى من ورائه[٢].

ودهمت الهند في أواخر عصر هذا الملك مجاعات قاسية اعتزل الحكم بسببها، فترهب مدى اثنتى عشرة سنة قتل نفسه في آخرها جوعاً على مذهب (مهابير).

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفيلسوف آشوك (**٢٧١ ـ ٢٣١ق.م**) أول حاكم واضح الشخصيّة في تاريخ الهند القديم، وبه يبدأ تاريخ الهند المعماري، ولا تزال حتى اليوم كثير من عُمُدِه التي أقامها في أنحاء متفرقة من مدن الهند لتنقش عليها مراسيمه، هذا فضلًا عن قصوره التي وصفها الرحالة (فاهيان) بأنها كانت من الأعاجيب.

وقد وقف حياته على التعبد والعناية بأمر الدين، حتى صار داعية البوذية الأكبر الذي أحيا شعائرها من جديد. وقد أمر عماله في أنحاء بلاده كافة أن ينظروا إلى رعاياهم نظرتهم إلى أبنائهم، ويعاملوهم بالحسنى، كما بنى دوراً للشفاء وملاجئ للعجزة من الإنسان والحيوان، ثم بعث بمبشري

---

(١) Cambridge History of India. PP.384, 467.

(٢) Havell. E.B. The History Of Arayan Rule in India. PP.75-83.

هذه العقيدة إلى خارج الهند، فبلغوا مصر واليونان وسورية وبلاد العرب، كما انتشروا في أواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان.

وفي عهد هذا الملك، عرفت الهند النقود أداة تعامل لأول مرة في تاريخها.

وانتهى أمر أسرة الموريا هذه سنة (١٨٤ق.م) على أيدي أسرة (أندهارا) التي خلفتها في بلادها.

وظهرت قبائل (السكّا) على حدود الهند الشمالية الغربية، ولكن أسرة أندهارا تصدّت لهم وأنزلت بهم هزائم كثيرة.

كذلك عبرت قبائل كوشان السيخيّة حدود الهند الغربية وتوغّلت في شمالي الهند حتى(بنارس)، وفي عهد ملكهم (كنِشكا) ضمت دولتهم أرض كابل والذ...اب والرا...وتانا.

ويُعدّ الملك كنشكا ثاني حماة البوذيّة في الهند بعد آشول، فقد جمع مجلساً من كهنة البوذيّة الكبار، عهد إليهم بتدوين سُنَن البوذيّة، فبلغت ثلاثمائة ألف نص رفعوا فيها (البُدّ)(١) إلى مصاف الآلهة.

وفي عهد هذا الملك الذي كان على اتصال بالرومان، راجت الحياة العقلية رواجاً كبيراً، وازدهرت العمارة والنحت.

ويسود الظلام تاريخ الهند الذي يحرم من وضوح الرؤية حتى بداية القرن الرابع الميلادي، لتظهر أسرة (كُبتا) الثانية على مسرح الحوادث في شبه القارة الهندية، فتطرد بفضل ثاني ملوكها(بكر ما ديت) السِّيخ أصحاب كنشكا من الهند وتبعد عن حدودها ولاة السكا، ثم تبسط نفوذها بعد ذلك في الشمال والوسط والغرب وتخضع لولائها الدكن والبنغال وآسام.

وقد تحدّث الرحالة الصيني فاهيان في مذكراته عن ملوك هذه الأسرة،

---

(١) يرد ذكر هذا (البد) في سيرة محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند.

ووصف بلاطهم وما كان فيه من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيّات. وخلب لبه ما رأى في الهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعجّ بالحركة والسكّان، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة، ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائها وطلابها، ومن بينها جامعة (تكسيلا) السنديّة ومدرستها الطبية المشهورة، بالإضافة إلى شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش.

وفي عهد هذه الأسرة، نَعِمَ البراهمة برعاية ردّت إليهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذي كان آشوكا قد حدّ منه كثيراً، فراحوا بالتالي يحيون تقاليدهم الأدبية من جديد.

وظلّت هذه الأسرة تحكم الهند، حتى أقبل (الهون) من بلاد ما وراء النهر في القرن الخامس الميلادي، فقضوا عليها، في الوقت الذي كانت فيه قبائل أخرى تتوغل بقيادة زعيم الهون الأكبر أتيلا في أوروبا.

وأقام هرشا وكان من سلالة كُبتا إمبراطورية واسعة له في القرن السابع الميلادي شملت آسام والكجرات مع شمالي الهند كلّه، وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه، فحدّ من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذيّة من جديد. ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة في كل أربع سنوات، وقد استنفدت هباته في إحدى هذه المرات كّل أمواله وأملاكه، حتى ذهب يستجدي أُختاً له رداء قديماً ليتدثَر به، فما كان يتناوله منها حتى سجد للبُد حمداً وشكراً.

ويذكر الرحالة الصيني الثاني (هيون تسيانغ) الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذي انتزع الملك من (الهون)، ويشيد بما كانت عليه حاضرته (قَنّوج) من الروعة والفخامة. وهذه المدينة التي كانت حاضرة أُسرة كُبتا من قبل، والتي ذكرها الجغرافيّ بطليموس عام (١٤٠م) باسم: (قَنُوجيا)، كانت تقع إلى الشرق من مدينة (أكرا) الحالية على مسيرة كيلومترات قليلة من نهر (الكنج).

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة، لأنّ خلفاءه لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا في وجه الهون التي طفقت تتدفق من جديد على أرض الهند، فضربت الفوضى أطنابها في أنحاء البلاد، وقام بين أمرائها ما يشبه الحرب الأهليّة التي أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلباً لزيادة نفوذهم ولإخضاع البوذية لسلطانهم.

واستطاعت إمارة (قنّوج)، بالرغم من انسلاخ الجزء الأكبر من إمبراطوريّة هرشا الواسعة عنها، أن تحتفظ بمركز الصدارة في شمالي الهند.

وعلى الرغم من أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير، إلّا أنه أفلح في حمل أصحابه على قبول البوذيّة في بلادهم.

أما إقليم السِّند، فقد خضع طويلًا لقبائل السكا الفارسية حتى انتزعه منهم الملك البرهمي (داهر)، وهو الذي وجده العرب المسلمون على هذا الإقليم عند غزوهم له.

وتاريخ جنوبي الهند أشدّ غموضاً من تاريخ شمالي الهند الذي لم يرتبط به إلّا عرضاً، ولا تشيركتب شمالي الهند وملاحمه ونقوشه وآثاره إلى جنوبي الهند إلّا إشارات قليلة.

ويرجع ظهور ممالك جنوبي الهند الكبرى، وهي (نديا) و (كولا) و (جيرا) إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل. وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادي وثيق بالمصريين والرومان، كما كانت عاصمتها (ما دورا) من أجمل مدن الهند إذ ذاك وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم (كولا)، في حين كانت (جيرا) تقع إلى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية.

وتمكّن حكّام (كولا) من الاستيلاء على (پنديا) وبسط سلطانهم على

جزيرة سيلان جنوباً، في حين امتدّ نفوذهم في الشمال حتى البنغال وإن لم يعمِّر طويلًا هناك[1].

٣ ـ الحضارة:

كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية بلغت من الرقي درجة عالية، فلم تكن أقلّ شأناً من نضائرها عند اليونان ومصر ووادي الرافدين في القديم.

وتشير الكتب القديمة إلى قيام النظام الجمهوري، وتتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثاً ديمقراطياً، وتصف الملك الهندي بأنه في حقيقته خادم لقومه يحصل على أجره، وكانت حصّته السدس السنوي من الحاصلات ليعمل به وينفقه على رفاهيتهم.

ولما كانت مساحة البلاد الشاسعة لا تمكِّن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكّان في كلِّ مكان، فقد أدّى ذلك تلقائياً إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة في القُرى ترعى شئون نفسها بنفسها في وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة، فكانت القرية منذ القدم بنظامها السياسي والاجتماعي وطن الهندوكي الذي يقوم على شئونه الدنيوية والدينية كافة، ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، فهو يشاركهم في العمل بأرض القرية التي هي في الغالب مشاع بينهم، وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها ودخلها، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث.

ولم يتعرّض الغزاة وحكوماتهم في الغالب لهذا النظام، فلم يكن يعنيهم إلّا دفع الضرائب لهم، وكانت حالة الفلّاح الهندوكي عموماً تتراوح بين اليسر والعسر وفقاً لما يطالب به من ضرائب.

---

(١) تاريخ المسلمين في شبة القارة الهندية (١/٢٦ ـ ٤٠)، وانظر تاريخ الإسلام في الهند (١٦ ـ ٢٠) والهند القديمة (٢١ ـ ٦٠) والهند (٢٦ ـ ٤٨) وباكستان (٤١ ـ ٤٥) والإسلام ظهوره وانتشاره في العالم (٢٦٢ ـ ٢٦٣) وباكستان (١٤ ـ ٢٠) والهند والغرب (١٦ ـ ١٩).

والمرأة الهندية كان لها في مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم، فشاركت في الاشتغال بفنون المعرفة، ولا تزال الهند تتغنى بذكرى (جارجي) التي كان لها شرف الانخراط في سلك الفلاسفة القدماء. وشاركت الهندية كذلك في الدفاع عن بلادها، فحارَبت غير مرة بجانب أبطال الهند، واعتلت المواقد مفضلة الموت حرقاً على الوقوع في أيدي الأعداء.

وقد وصل فنّ العمارة في الهند القديمة إلى ذروة الرقي والجمال الذي تجلى في معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة، فبهرت أعين الرحالة والمؤرخين من الإغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد واطّلعوا على أحوالها.

أما الصناعات الهنديّة من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية، فقد بلغت شأواً عظيماً في الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة، وكان لكل طائفة من أبناء الحرف في الغالب نقابة قوية تنظّم شؤونهم وتدافع عن حقوقهم.

وحملت قوافل الهند ما بين بريّة وبحريّة منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى نواحي العالم القديم مباشرة أو بوساطة بلاد الشرق الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة التي يطلق عليها: (الهندوانيّة)، وتعطّر الرجال والنساء بعطورها، ورفلوا بأقمشتها الحريرية وازّينت النساء بالحلى الهندية الفاخرة، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلتها في الميدان.

وكانت الهند حينذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها في عالم الاقتصاد اليوم، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمن طويل.

ويذكر الرحالة الصيني هيون تسيانغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة، ومنها جامعة (تاكسيلا) التي كانت تشتهر بالبحث العلمي على أيام

الإسكندر، وجامعة (بو...ين) الفلكية و (أجانتا) الطبية و (بنارس) البرهميّة و (نالاندا) البوذية، ويفيض بحديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون في هذه البلاد.

والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدّمهم فيها قديم جداً، فعالمهم (آريه بهت) الذي ترجم العرب كتبه أيام العباسيين، هو الذي سبق إلى إثبات دوران الأرض حول محورها، وأعلن عن كرويتها، وعلّل أسباب الكسُوف والخسوف والانقلابين والاعتدالين في الفصول الأربعة، كما تحدّث عن قيمة النسبة التقريبيّة المستعملة في حساب مساحة الدائرة، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجيب.

وخلف هذا العالم رياضيّ آخر يدعى (براهما كوبتا) وطائفة من الفلكيين قسموا العام إلى اثني عشر شهراً، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً، وحسبوا بدقّة بالغة مواقع النجوم في أفلاكها، وبحثوا في قوانين الجاذبيّة، كما ابتكروا فكرة السلبية في الجبر، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق.

وكذلك نبغ الهنود في الكيمياء، فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم، حتى اعتبر الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا، فآثرها على الذهب والفضّة، ولعلّ ذلك كان مردّ شهرة أسلحتهم وسيوفهم.

كما تفنّنوا في الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون، وكلّسوا وقطّروا وحضّروا الأملاح على اختلاف أنواعها.

وكما تفوق الهنود القدماء على الإغريق في نواحٍ من الرياضيات كثيرة، كذلك تفوقوا عليهم في العلوم الطبيّة، فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والعضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها، كما استنبطوا ضروباً من المخدِّر استعانوا بها على إجراء الجراحات الكثيرة التي كانوا يحذقونها، واهتدوا إلى لقاح الجدري قبل الميلاد بخمسة قرون، وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر في بول المريض.

كما أنّ الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمن طويل، والمعروف أن فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الذي عاصر بوذا، قد شغل بعلوم الهند في القرن السّادس قبل الميلاد، أي قبل أن يغزو الإسكندر الهند بأكثر من قرنين، ويُرْوَى أنّ فلاسفة من الهنود زاروا أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه.

ومن بين فلاسفة الهند القدامى، فيما قبل عصر الإسكندر، الفيلسوف كايلا، أول من قال بمقدرة العقل البشري واستقلاله وحريته الكاملتين.

ولم يكن عمل الهنود بالآداب السنسكريتيّة وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموّهم بها ليقلّ عما فعلوه بالفلسفة، وهناك في تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشعر ما يشهد بطول باعهم في هذا المضمار[1].

وقد انفرد أبو الريحان البيروني في العربية بأول وأكبر حديث على الهنود وحضارتهم ومدنيتهم، وأثبت وجود مبدأ التوحيد عندهم[2].

لقد كان للهند القديمة حضارة عريقة أصيلة.

طبيعة الهند:

١ ـ السطح:

الهند شبه قارة عظيمة المساحة، تمتد في جنوبي آسيا من هضبة أفغانستان في الغرب، إلى شبه جزيرة الهند الصينية في الشرق، ومن جبال هيملايا في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب.

---

(١) انظر التفاصيل في: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٤٠ ـ ٤٦).

(٢) انظر كتابه: «ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة» ـ (١٣) من طبعة زاخاوبلندن ـ ١٨٨٧ ـ «واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء».

ويتكوّن القسم الجنوبي من هذه البلاد العظيمة من شبه جزيرة مثلثة الشكل لها سواحل في الغرب على بحر العرب وسواحل في الشرق على خليج البنغال، وتطلّ على المحيط الهندي في الجنوب برأس بارز هو رأس كومورين الذي هو أبعد أجزاء الهند نحو الجنوب.

والسواحل الغربية والشرقية منتظمة تكاد تكون مستقيمة فيما عدا جزيرة كاثياوار التي تقع بين خليج كتش في الشمال وخليج كمباي في الشرق.

أما القسم الشمالي من الهند الأصلية الذي يمتد من بلوخستان غرباً إلى آسام شرقاً، فهو مساحة عظيمة من الأرض المنبسطة، تقسمها بعض المرتفعات إلى حوضين عظيمين، وتمتد هذه المرتفعات بالرغم من قلة ارتفاعها حتى تبلغ جبال هيملايا جهة الغرب إلى كشمير التي تبلغ في امتدادها نحو الشمال إلى عقدة البامير وإلى جبال كركورم في الشرق من هضبة البامير، وجبال هندكوش، في الغرب من تلك الهضبة.

وإذا نظرنا إلى خريطة لتضاريس الهند، لوجدنا أنه يمكن تقسيم السطح إلى ثلاثة أقسام رئيسة: الجبال الشمالية، السهول الشمالية، وإقليم الدكن.



قمة أفرست في جبال الهيملايا

أ ـ الجبال الشمالية:

هذه هي سلسلة جبال هيملايا وما يتبعها من سلاسل جبلية في الغرب والشرق، وتمتدّ بانحناء قليل نحو الجنوب على شكل قوس شاهق الارتفاع، يتكوّن من ثلاث سلاسل متوازية تنتهي إلى هضبة التبت. وهي حائط منيع يبلغ طوله (١٥٠٠ ميل) أو أكثر، يفصل الهند عن أواسط آسيا، إذ لا تخترقها إلّا بعض الممّرات الوعرة التي توصل بكثير من المشقّة إلى هضبة التبت.

وهذه الجبال هي أعلى جبال في العالم، وقمتها المشهورة (أفرست) تبلغ (٢٩٠٠٠ قدم)، وهناك قمم أخرى كلّها تزيد على (٢٧٠٠٠ قدم).

وفي غربي كشمير تمتد سلاسل هندوكوش التي ترتفع أكثر من (١٥٠٠٠قدم) والتي كثيراً ما لقي الهنود مصرعهم تحت ثلوجها، ولهذا عرفت بأنها مصرع الهنود (وهو معنى هندوكوش). ويتّصل بها من الجنوب مجموعة من المرتفعات التي تعتبر الحد الفاصل بين سهول نهر السند وهضاب أفغانستان وإيران. وأشهر هذه المرتفعات هي: جبال سليمان التي تمتدّ من الشمال إلى الجنوب موازية لنهر السند، وفي هذا الجانب من شمال غربي الهند، نجد عدّة ممرات أشهرها ممر خيبر الذي يعتبر الباب الشمالي الغربي للهند، والذي جاء منه المهاجرون والغزاة في تاريخ الهند منذ قدوم الآريين. كما يوجد ممر آخر في الوسط اسمه: ممر بولان متوسطاً بين جبال هندوكوش وساحل بحر العرب، ومن ممر خيبر جاء الإسكندر الأكبر بحملته المشهورة إلى الهند، وعند عودته طرق ممر بولان كما استخدم الطريق الساحلي في إقليم (مكران) في بلوخستان.

أما الجانب الشمالي الشرقي بين الهند وبورما، فنجد قوساً من الجبال بين الهيملايا وجبال باتكاي، وبينهما سهل يجري فيه نهر براهمابترا. وتتصل بهذه الجبال سلسلة تمتد من الشرق إلى الغرب وهي جبال خاسي التي تقع في جنوبها بلدة شرابونجي التي تشتهر بأنها أكثر جهات العالم مطراً. وإذا

تتبعنا جبال باتكاي نحو الجنوب، وجدنا جبال (مانيبور) ثم جبال (أراكان يوما) التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، وهذه الجبال هي حدود طبيعية تحمي الهند من هذا الجانب، وفيها بعض المسالك الطبيعيّة التي توصل بين الهند وبورما.

ولجبال هيملايا (أو جبال هيمافات في الأساطير القديمة) أهمية كبرى في تاريخ الهند القديم، فقد تصوّر الأقدمون أنّ هذه الجبال الشاهقة التي لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى أعاليها والتي تغطيها الثلوج، هي موطن الآلهة، فهي أقرب الأماكن إلى السماء. وقد أصبحت منابع الأنهار في هذه الجبال أماكن مقدّسة يحج إليها الهندوس، وفي سكونها يجدون مجالًا للتدبّر والعبادة.

ب ـ السهول الشمالية:

وهي سهول هندوستان التي تمتد من الغرب إلى الشرق، من الحدود الغربية إلى الحدود الشرقية للهند الأصلية.

وتنقسم هذه السهول إلى قسمين: **أحدهما** سهول السِّند التي تمتدّ من كشمير شمالًا إلى بحر العرب جنوباً. **والثاني**، سهول الكنج وبراهمابترا التي تمتدّ من المنطقة التي تفصل بين حوض الكنج عن حوض السِّند إلى المرتفعات الواقعة في الطريق الشمالي الشرقي وإلى خليج البنغال.

وتعتبر هذه السهول من أخصب بقاع العالم، وهي قليلة الانحدار وبخاصة قرب الساحل، وينحدر نهر الكنج من دلهي إلى المصب نحو (٦٠٠ قدم) في مسافة تزيد على ألف ميل.

وفي هذه السهول قامت الإمبراطوريات العظيمة التي امتدّ سلطانها حتى شمل جميع أنحاء البلاد.

وينبع السِّند وبراهمابترا من السلاسل الشمالية لجبال هيملايا من منبعين متجاورين، ويتّجه السِّند نحو الغرب وبراهمابترا نحو الشرق. ويخترق نهر

السَّند مرتفعات كشمير مكوِّناً وادياً عظيماً هو أهم أجزاء كشمير، ثم ينحني إلى الجنوب الغربي ويستمر في اتِّجاهه مخترقاً الجبال، حتى يصبّ به نهر كابل الذي ينبع من هضبة أفغانستان، ويستمر النهر موازياً للجبال الممتدة في الغرب حتى يصبّ في بحر العرب.

ولنهر السِّند أربعة روافد عظيمة في البنجاب، والبنجاب أرض الأنهار الخمسة.

أما نهر براهمابترا (ابن براهما)، فينبع من هضبة التبت ويعرف هناك باسم: تسامبو، حيث يتّجه من الغرب إلى الشرق موازياً لسلسلة الهيملايا، ثم ينحني نحو الجنوب قاطعاً الجبال من الشمال إلى الجنوب مخترقاً منطقة كثيرة الأخاديد والمنحدرات، ثم ينحني مرة أخرى نحو الجنوب الشرقي ويخترق السهول إلى الشمال من تلال: (ناجا) وتلال (خاسي)، ثم يتحوّل مرة أخرى حول تلك التلال نحو الجنوب ويتّصل بمصب الكنج الأخير من جهة الشرق، ويطلق على مجراه الأدنى: نهر يامونا.

وينبع نهر الكنج من المنحدرات الجنوبية لجبال هيملايا، ثم يصب في خليج البنغال بدلتا عظيمة، أما حوضه فتبلغ مساحته (٣٠٠٠٠٠ ميل مربع)، ويتراوح عرض حوضه بين (١٥٠ ـ ٢٠٠ ميل)، وله عدّة روافد بعضها من الجانب الشمالي وبعضها من الجانب الجنوبي كلّها تنبع من الهيملايا.

أما جبال فنديا، فهي جبال تمتد من الغرب إلى الشرق موازية لنهر نربادا، ولا يزيد ارتفاعها على ألف متر فوق مستوى سطح البحر، ومع ذلك فقد كانت حداً فاصلًا بين السهول الشمالية وهضبة الدكن بسبب ما كان يغطيها من الغابات والأحراش الكثيفة، وقد حالت دون توغّل الآريين نحو الجنوب، وقد شبّهها بعضهم بالحجاب الحاجز في جسم الإنسان، فهي تقسم الهند إلى قسمين مختلفين.

وإلى جنوب نهر نربادا يمتدّ نطاق من المرتفعات يبدأ بتلال (ساتبورا) وجبال (ما يكال) ومرتفعات (شوتا ناجبور). أما تلال(ساتبورا)، فهي تمتّد

بين نهر (نربادا) ونهر (تابتي)، وهي توازي جبال (فنديا). وأما جبال (مايكال) فهي سلسلة جبلية تفصل منابع نهر (نربادا) عن المجرى الأعلى لنهر (مهنادي). وأما مرتفعات (شوتا ناجبور) فهي كتلة جبلية تمتدّ في الشمال الشرقي لهضبة الدكن وتقترب من نهر (الكنج) عند انحنائه نحو الجنوب الشرقي.

ج - إقليم الدكن:

أما هضبة (الدكن) ومعناها: (أرض الجنوب)، فهي هضبة تعتبر أقدم أجزاء الهند، ويتكوّن معظمها من الصخور المتبلورة النارية والمتحِّولة، ويحدّها من الغرب جبال (غات) الغربية، ومن الشرق جبال (غات) الشرقية، وكلمة (غات) معناها المدرّجات، فإنّ هذه الجبال ترتفع على شكل مدرجات، وهي ذات انحدار شديد نحو البحر. وتنحدر هضبة (الدكن) من الغرب إلى الشرق انحداراً تدريجياً، مما جعل معظم أنهار الهضبة تتجه من الغرب إلى الشرق لتصب في خليج البنغال، وأهم هذه الأنهار من الشمال إلى الجنوب نهر (منهادي) ونهر (جودفري) ونهر (كستنا) ونهر (كوفيري)، وأما الأنهار التي تصبّ في بحر العرب فهما: (نريادا) و (تابتي) ويسيران في مجريين متوازيين تقريباً. ويصبّان في خليج (كمباي) في بحر العرب.

وفي الشمال الغربي من الهضبة تمتدّ جبال (أرفالي) في إقليم (راجبوتانا)، وامتدادها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهي كالهضبة من أقدم جبال الهند. وفي الطرف الجنوبي الغربي لجبال (أرفالي) يقع جبل (أبو) وهو المركز المقدّس عند طائفة الجينيّة الذين سيأتي حديثهم وشيكاً.

وقد انفصلت عن الهند جزيرة (سيلان) وبينهما مضيق (بالك)، ورغم اتساع هذا المضيق، فإنه تعبره عدّة جزر صغيرة منتظمة كالسلسلة بين سيلان والهند، ويطلق عليها: (قنطرة آدم)، وذلك لأنّ الأقدمين تصوّروا أنّ آدم عليه السّلام عبر عليها من الجزيرة إلى الهند، ولهذه الجزر أهميّة في الأساطير الهندية القديمة.

ولكلٍّ من أقسام الهند الثلاثة: الجبال الشمالية والسهول وهضبة الدكن، تاريخ طبيعي خاص، فشبه جزيرة الدكن هي في الحقيقة من الأجزاء القليلة في العالم التي ظلت فوق مستوى سطح البحر منذ أقدم الأزمنة[١].

أجناس السكّان ولغاتهم:

١ ـ الأجناس:

كانت الهند في الأزمنة القديمة ملتقى لهجرات كثيرة جاء معظمها من الشمال الغربي، وجاء بعضها من الشمال الشرقي. وكانت الهجرات التي تصل إلى الهند تتخذ طريقها في السهل الشمالي وتستقر فيه، ثم تجيء بعدها هجرة جديدة تدفع السّابقة نحو الشرق والجنوب، وفي جنوبي الدكن نجد أقدم عناصر السكّان الذين لجأوا إلى الجبال والغابات، وقد عبر بعضهم البحر إلى سيلان واستقروا فيها. ولما كانت الهند قطراً متّسعاً متنوِّع السطح، فإنّ هذه الموجات جميعها استقرّت وامتزجت، وفي بعض الأوقات نشبت بينها حروب ومنازعات. وبالرغم من وجود عدد كبير من الأجناس ومن اللغات ومن الأديان، فقد امتزج معظم السكان، وأصبح للهند طابعاً خاصاً، يتميز بتقاليده وعاداته، وإن اختلفت عقائده ولغاته.

وأقدم الجماعات التي سكنت الهند، جماعات من الجنس الزنجي، انتقلت إليها من جنوب شرقي آسيا، وهم قصار القامة لهم صفات الزنوج، ولكن شعرهم كان مرسلًا يختلف عن شعر الزنوج المفلفل. وقد عاشوا في الغابات معيشة بدائية يجمعون الثمار ويسكنون الأكواخ. وجاء بعدهم جماعة الملايو من سكان جنوب شرقي آسيا، وهم قصار القامة، لهم أنف عريض وشعر مرسل وبشرة سوداء، وقد امتزجوا بالعنصر الزنجيّ وسكنوا معهم الغابات والأحراش في هضبة الدكن، ويطلق على هذه الجماعات اسم: جماعات ما قبل الدرافيد.

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٩ ـ ١٩).

أما العنصر الدرافيدي، فقد جاء إلى الهند حوالي (٢٠٠٠ ق.م) من ناحية الغرب عن طريق ممرات في جبال سليمان، ثم انتشر في شمالي الهند وجنوبيها، ولا يزال للدرافيديين بقايا في غربي الهند في (بلوخستان)، وهم يكوِّنون عنصراً أساسياً في معظم سكّان الهند الحالية. وقد كانت لهم حضارة راقية، وهم يتبعون جنس البحر الأبيض المتوسط، ويعتبر الدرافيد عنصراً هاماً في حضارة الهند وثقافتها.

وبعدهم جاء الآريون (الفُرس)، وهم قوم يختلفون في صفاتهم الجسميّة عن الدرافيديين، ولعلهم أقرب شبهاً بسكان أوروبا الشمالية، فهم أكثر بياضاً وميلًا إلى الشقرة من أية جماعة في الهند. ويرجع مجيء الآريين إلى الهند حوالي (١٥٠٠ ق.م)، وقد استقروا في سهول السِّند والكنج وطردوا منها الدرافيديين إلّا مَنْ بقي تابعاً لهم. وقد منعتهم صحراء (تار) مدة طويلة دون التوغل إلى الجنوب، وكانت المنطقة التي تفصل بين حوضي السِّند والكنج عظيمة الأهمية بالنسبة لسهول الكنج والسِّند، وفيها قامت عواصم قديمة كما قامت عاصمة الهند الحالية: دلهي.

وبعد زمن انتشر الآريون في جميع سهول السِّند والكنج واندمجت فيها العناصر القديمة أو هاجرت إلى الجنوب، ولهذا نجد الصفات الآرية تسود بين سكان هذه السهول.

ثم جاءت عناصر مغولية عن طريق الشرق، واستقرّ العنصر المغولي في المنطقة القريبة من جبال هيملايا وفي آسام والبنغال، حيث اختلطوا بالعنصرين الدرافيدي والآري.

ثم جاءت هجرات أخرى من التركستان وأفغانستان، وبعدهم جاءت جماعات أخرى انتشرت في حوض السِّند والكنج وعرفوا باسم: الهنود البيض، وقد نشروا الخراب أينما حلّوا.

وقد استطاع الهنود بعد اتحادهم في القرن الرابع الميلادي طرد الغزاة، ولكن بقي منهم مَنْ استقرّ في البلاد.

وبعد مائتي سنة، جاءت هجرات من فارس وأفغانستان من العناصر التركية التي تسكن أواسط آسيا[1].

٢ ـ اللغات:

يروج في الهند أكثر من مائتي لغة وما يتفرع عنها من لهجات تربو على الثلاثمائة لهجة.

وتردّ لغات الهند عموماً إلى أصلين اثنين: الأصل الآري، وإليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط؛ والأصل الدرافيدي وإليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة في الوسط والشرق.

والسنسكريتية هي أشهر لغات الهند الآرية القديمة وأعرقها، وقد كتبت بها أسفار الهند المقدسة القديمة. ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين والعلماء، ولكنها اليوم أصبحت لغة جمهورية الهند الحديثة، ويصفها بعض اللغويين الأعلام، بأنها فضلًا عن اتحادها في أصولها مع أغلب اللغات الأوروبيّة، فإنها أكمل من لغة اليونان وأوسع من لغة الرومان أي اللآتينيّة، وأدق من كليهما.

وتروج في الدكن والجنوب لغة (تامل) و (تلنجو)، وهما من اللغات الدرافيدية القديمة.

وأعظم لغات شبه القارة الهنديّة انتشاراً هي الأوردويّة، وهي لغة آريّة وضع قواعدها ونحوها علماء مسلمون. وكلمة أوردو، معناها المعسكر، والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك المسلمين حول دلهي، حيث نشأت هذه اللغة، فبدأت بالظهور في القرن العاشر الهجري، وألفاظها مزيج من العربية والسنسكريتية والفارسيّة والتركية، وهي في قواعدها آريّة خالصة، وتكتب بالحروف العربية مع الإضافات الفارسيّة[2].

---

(١) انظر التفاصيل في: الهند وتاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٢٧ ـ ٣٤).

(٢) انظر التفاصيل في: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٢٤ ـ ٢٦).

معتقدات الهند القديمة:

١ ـ الهندوسية

أ ـ الديانة الهندوسيّة عبارة عن تقاليد وأوضاع تولّدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعدما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلّبوا على سكّانها الأصليين وطردوهم من ميادين الحياة.

وأعظم وأقدم كتبهم التي تقدم عليها طقوسهم ويستمدّون منها عقائدهم أربعة، يرجع تاريخ أقدمها إلى (٤٥٠٠ ق.م) وبعضها إلى حوالي (١٢٠٠ ق.م). وهذه الكتب الأربعة هي: ركيدا أولًا، وسام يدا ثانياً، وهما يشتملان على مجموعات من الأناشيد التي كانوا ينشدونها في تقديم القرابين للإله. ويكر ڤيدا وتشتمل على الصلوات والأدعية شعراً ونثراً. والرابعة هي أتهرْ يدا تصف عقائد الجمهور في الأرواح الشريرة والرُّقي والسِّحر، وهي آخر مجموعة من الكتب، ولذا ظلّ مدة غير معترف به، فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السَّابقة من التقديس.

ومعنى: ڤيدا: المقدّس، والفاء تنقّط بثلاث نقط فوقها.

وقد لخّص غوستاف لوبون المعتقدات التي جاءت في هذه الكتب في: عبادة قوى الطبيعة أولًا، وتشخيص هذه القوى باسم الآلهة ثانياً، واعتقاد خلود الروح ثالثاً على أساس فكرة التناسخ، وعبادة الأجداد رابعاً، والميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهو الإله: إندرا على العموم خامساً، وأساس الدين وحقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرابينه ويقدِّم فواكهه وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز سادساً وأخيراً.

ب ـ وقد بدأت فكرة الإشارة إلى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في اليدا، ومن المهم أن نذكر أن هذا التقسيم جاء أولًا نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع، فقد اقتضت

حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية، بينما يقوم الآخرون بالحروب، وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة الأخرى، حتى يتفرّغ الكهان والمحاربون لعملهم، وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة وهي (الشودرا) التي هي أخسّ الطبقات والتي عرفت في العربية بالطائفة المنبوذة أو المنبوذين.

وكانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة في مبدأ حياة هؤلاء، ثم أخذت على ممرِّ الأيام تتّسع وتتشكّل ويوضع لها نظام وحدود.

وقد جاء في شرائع (منو) أعظم شرّاح الكتب المقدسة الهندوسية، تحديد الطوائف في الحياة الاجتماعية الهندوسية بأنها أربع طوائف: الأولى طائفة البراهمة أي الكهّان، والثانية طائفة الأكشترية وهي الطائفة المحاربة، والثالثة طائفة الڤيشيّة وهي طائفة الزراع والتجار التي توفِّر مسائل العيش للكهان والمحاربين، والرابعة طائفة الشودرا وهي أسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعترف لها بعمل إلّا خدمة الطوائف السابقة في أخسّ حاجاتها، وهي طائفة المنبوذين.

جـ - وعلى الرجل أن يتزوّج من طائفته أو من طائفة أدنى منها، ولكن الرجل الذي يتزوّج بواحدة من الشودرا، يصبح مفضوحاً مهتوك الستر ويطرد من طائفته، ويصيبه خزي في الدنيا والآخرة، فلا يتزوّج نساء الشودرا إلّا رجال من الشودرا.

ويمكن للبرهمي أن يتزوّج امرأة كشترية أو من اليشيّة، ولا عكس، أي لا يصحّ للمرأة من طبقة عالية أن تتزوّج من طبقة أقلّ منها، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبيهم التي هي أقلّ من صفات طبقة أمهم.

د - وقد تبلورت الهندوسيّة ذات الآلهة التي لا حدّ لها إلى ثلاثة آلهة: الأول: الإله (شيڤا Shiva) إله الحياة والتبديل، والثاني: الإله (ڤشنو Vishnu) وهوالإله الحافظ، والثالث: (براهما) وهو البارئ الخالق وهو أعلاها.

وبموجب هذه الآلهة الثلاثة، أصبحت المذاهب الهندوسية ثلاثة:

أولاً: المذهب الشيفي:

هو المذهب الذي يعبد أتباعه الإله شيڤا المختص بالإبادة والموت. أو على فكرتهم في التناسخ، وهو المختص بالتبديل والتحويل، إذ إنه لا موت حقيقياً عندهم.

ولم يكتف أتباع هذا المذهب بعبادة الإله (شيڤا)، بل إنهم أخذوا يخترعون له أو بمعنى أصح لعمله واختصاصه رموزاً ترمز إليه ويعبدونها، وقد أداهم فكرهم إلى أن يتخذوا عضوي التناسل في الرجل والمرأة رمزين لهذا الإله ويعبدونهما بعد أن يقيموا لهما تماثيل في معابدهم: «فظهر المذهب القضيبي الذي اتخذ عبادة (شيڤا) في صورة عضو التوليد موضوعاً له، فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضة على الدوام، فيقبِّلونها بين حين وآخر مصلين لها، وعضو التذكير يمثِّل الإله (شيڤا)، وعضو التأنيث يمثلٍ زوجته (پاروتي أوكالي) أي إلهة الحياة والموت والأم التي خرج العالم منها[1]...

ويقول جوستاف لوبون تعليقاً على هذا: «ولا تجد عبادة أدّت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كعبادة (كالي) الهائلة... ولا يزال يرى في معابدها من الفحشاء والمنكر والدعارة ما يستحيل وصفه»[2].

وأكثر ما يكون عبّاد (شيڤا) وأتباعه في الوسط والجنوب، وأتباع هذا المذهب يخططون على جبهاتهم عادة ثلاثة خطوط أفقية من الزعفران أو غيره هكذا: (≡)

ثانياً: المذهب الڤشني:

وهذا المذهب الذي يعبد أتباعه الإله (ڤشنو) إله الحفظ والحب والجمال.

---

(١) حضارة الهند (٦٠٣).

(٢) حضارة الهند (٦٠٤).

ولما كان من طبيعة الهندوس أنهم يميلون إلى تمثيل المعاني في صور حسّية لما يدّعونه من عدم قدرتهم على تعقّل المعاني العليا وإدراكها، وأنهم لهذا يدّعون أنّ الإله يحلّ في صور مادية يتخذونها معبودات لهم ويقدِّسونها تقديسهم للإله نفسه، وغالباً ما ينسى الناس الأصل ويتَّجهون بكل تفكيرهم وعبادتهم إلى الرمز، فقد قال منشؤ هذا المذهب: إنّ الإله ڤشنو يمكن أن يحلّ في كلّ عظيم وبطل من إنسان أو حيوان، ويضاف حينئذ إلى قائمة المعبودات التي لا تنتهي. وأشهر ما عرف عندهم من الأبطال الذين حلّ فيهم الإله ڤشنو هو: (راما) و(كرشنا)، فراما هذا إنسان تحوّل إلى إله معبود بعد أن حلّ ڤشنو فيه، وتورد كتبهم قصته التي يفوق خيالها ما جاء في قصص ألف ليلة وليلة من خيال، وما جاء فيها من البطولة الخيالية لراما كان مدعاة لعبادة الناس له.

وهذه صورة مختصرة لقصة راما: كان ملك الجن المقيم في (سيلان) قد عبث بالكهّان فسخطت عليه الآلهة، فعقدت مجلساً لإنقاذ البشر منه، وقرّرت أن يتجسد أحدها في صورة إنسان ليقهر ملك الجن (راونا)، فتجسّد شنو في صورة البطل (راما). وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة راما وهي (سيتا) حيث خطفها من الهند إلى بلاده، ومع ذلك ظلّت وفيّة مخلصة في حبِّها له. ويجتهد راما لمعرفة مكان زوجته المحبوبة سيتا ليستردّها، ويتعب في محاولته كثيراً، حتى يتقدّم أحد القرود فيكشف له عن مكانها، فيهجم راما بمساعدة القرود والدببة على ملك الجن ويقضي عليه، ثم يعود بزوجته راكبين المركبة السحريّة حتى وصلا إلى الهند، فانتصر بذلك العرق الآري ممثلًا في راما، وأصبح معبوداً منذ ذلك الوقت ومعه سيتا.

وقد أصبح القرد بسبب هذه المعاونة التي أسداها إلى راما من الحيوانات المقدسة[1]، وأصبح تاريخ استرجاع (سيتا) وانتصار (راما) عيداً دينياً يحتفل به الڤشنويون كلّ عام.

---

(١) ذكرت الصحف أنّ الحكومة الهندية اعتذرت عن تصدير القرود للخارج لما في ذلك من مصادرة لعقيدة الشعب.

وبجوار راما وسيتا، يأتي بطل آخر حلّ فيه شنو فصار معبوداً كذلك، وهو (كرشنا Krishna)، وبطولته تتمثّل في الحب واجتذاب قلوب النساء إليه حتى فُتِنَّ به، وأصبح هو مع راما يمثلان عاطفة قوية من عواطف الهندوس، وهي عواطف الحب والوفاء والعشق والغرام، فأصبحا لذلك مهوى أفئدة العاشقين ومهوى أفئدة الأُمهات المحبّات العطوفات.

ويعلِّق غوستاف لوبون على هذا فيقول: «وما في ديانة شنو من الغرام يأتي في الهند ذات الجو المحرق وذات السكان الملتهبي المزاج بنتائج مخالفة للآداب الأوروبّية»[1]... هكذا إلى هذا الحد!! مع ما نعلمه عن المجتمع الأوروبي وآدابه المنحلَّة... ثم يقول: «وتجد في (كَجرات) على الخصوص بعض المذاهب القائلة بعبادة (كرشنا)، فيدّعي كهانها بالمهاراجوات، فمن أقصى آمال النساء، أن يصبحن عاشقات لكرشنا أي لممثليه من أولئك الكهان، الذين يبيعون قضاء الأوطار بأغلى الأسعار»[2].

هـ ـ لقد كانت فكرة الحلول عند الهندوس سبباً في سهولة اعتقادهم وعبادتهم لأي عظيم وأي قوي، فكّل قوي لا بدّ أن يكون قد حلّ فيه الإله، وإلّا لما صار قوياً.

ومن هنا تعدّدت الآلهة وتعددت المذاهب، وإن كانت كلّها داخل الهندوسية التي أوحت بمبادئها وأفكارها بإيجاد وخلق مثل هذه المذاهب وهذه الاعتقادات، فالهندوسي لا يرفض تقديس أيّ قَوِيّ، ومن الممكن بكلّ سهولة أن يضيفه إلى قائمة القديسين في المعبد أو البيت، فالبقر مقدّس لما يدرّه من خير على الحياة في الهند، والأفعى مقدّسة لقدرتها على الضرر، والنمر حين يذوق طعم لحم الإنسان فيصبح مفترساً وخطراً على الإنسان لا يحاولون قتله بل إنه ينقلب في أنفسهم إلى قديس يعبد لقوته

(١) حاضرة الهند (١٤٤).
(٢) حضارة الهند (٦١٠).

وسطوته، والقطار لا مانع أن يُعبد لقوّته الخارقة في قطع المسافات وحمل المسافرين وأثقالهم، وهكذا نجد صورة للبقرة وصورة للأفعى في المعابد، وتقدّم إلى هذه الصور مراسيم العبادة حين تهفو نفس الهندوسي للتبتل والعبادة.

والباب مفتوح يدخله كلّ بطل وكلّ قَوِيّ، وطريقه إلى المعبد سهل، لتصبح صورته مكان التقديس والإجلال، لاعتقادهم أنّ روح الإله ڤشنو قد حلّت فيه.

وأتباع ڤشنو يكثرون في الشمال، وهم يرسمون غالباً على جبهاتهم ثلاثة خطوط رأسيّة هكذا (III).

وأما الذين يضعون نقطة في وسط جبهتهم، فهم أتباع كريشنا[١].

ثالثاً: المذهب البرهمي:

و ـ وحجر الزاوية في الهندوسيّة وعمادها هو البراهمي، وهو الكاهن الذي يستطيع بالعبادة والتوبة أن يصل إلى القوة الخارقة، وهو يحفظ الكثير من الكتب المقدسة ومن الشعائر الدينية عن ظهر قلب، وهو وحده يستطيع أن يشرح النصوص المقدسة ويباشر الشعائر الدينية التي لا يجوز لغيره مباشرتها. وتنص قوانين (منو) على أن البراهمي خليفة الله في الأرض، فيجب احترامه. ومهما ارتكب من جرائم لا يصحّ إعدامه، ولكن يمكن نفيه. وإن أشنع جرم يرتكبه إنسان في هذه الدنيا هو قتل البراهمي، ومن يفعل ذلك يقتل وتذهب روحه إلى حيوان مفترس.

والبراهمي شخص مقرّب عند الآلهة، وأحكامة تعتبر حجّة لا تنقض. وكّل ما في هذا العالم ملك له، وله حق في كل ما هو موجود. وإذا افتقر حقّ له أن يأخذ مال الشودري (من طبقة الشودرا) من غير أن يحاسبه الملك على ذلك، فالشودري عبد للبراهمي. ولا ينبغي للملك أن يجني ضريبة من

(١) انظر التفاصيل في كتاب: تاريخ الإسلام في الهند (٢٦ ـ ٤٨).

البراهمي الذي يحمل في صدره الكتب المقدسة، ولا يجوز للحكّام أن يتركوا براهمياً يتضوّر جوعاً، وإذا توفي شخص ولم يكن له ورثة شرعيون فإنّ أمواله تذهب إلى البراهمة.

ز ـ أما عن الملوك والحكّام فإن قوانين (منو) تأمر باحترامهم كأنهم آلهة في صور بشر، وواجب الملوك صيانة القانون وحماية الضعيف، وعليهم في أيام الحرب أن يقودوا الجيوش ويتقدموها. وكما أن الأرض تصون جميع المخلوقات، فعلى الملوك أن يصونوا رعاياهم ويحموا الضعيف والأرملة والمرأة العاقر وجميع مَن حلت بهم المصائب.

أما عن الميراث، فتنص قوانين (منو) على أن يقسم بين الأولاد الذكور بالتساوي، وأما البنات فلا يرثون لأنهم يعيشون في كنف الأسرة.

وإذا توفي الرجل بلا وارث، فإنّ أمواله تعود إلى الملك وإلى البراهمة[١].

٢ ـ الچينية:

إحدى الديانات المنتشرة في الهند، وإن كان أتباعها اليوم قليلين، وإذا كانت الشيڤيّة والڤشنوية مشتقتين من الديانة الهندوسيّة القديمة التي تقوم على الكتب المقدّسة الهندوسية من اليدا وغيره، فإنَّ الچينيّة يعتبرها أتباعها ديانة مستقلة كالبوذيّة لا تعترف باليدا.

ويدَّعي الچينيون أنّ ديانتهم أقدم الديانات في الهند، ولكنّ المؤرخين لا يعرفون الچينية حقيقة إلّا منذ القرن السّادس قبل الميلاد، ويعرفون مؤسسها أو منظِّمها الأخير (مهاويرا)[٢] الذين يؤرخون ميلاده بسنة (**٥٩٩** ق.م) أي قبل ولادة (بوذا) التي كانت سنة (٥٥٧ق.م)، وتعاصرا في الحياة ثلاثين سنة، ولكنهما لم يتقابلا، مع أنهما كانا في منطقة واحدة تعرف الآن

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الهند تاريخها وتقاليدها وجعرفيتها (٣٤ ـ ٦٥).

(٢) مهاويرا معناها: البطل العظيم، وقد أطلق على أتباعه: الچينا، ومعناها الأحرار، أو الذين لا يتقيدون بشيء من أشياء المادة.

باسم: (بيهار)، وقد مات (مهاويرا) قبل (بوذا) بحوالي خمسين سنة، ولكنّ بعض المؤرخين يعتبرون الچينيّة مشتقة من الهندوسيّة.

وقد قامت الچينيّة كما قامت البوذيّة في وقت ثارت فيه الطبقة المحاربة على البراهمة لاختصاصهم بجميع الامتيازات، وكان (مهاويرا) من هذه الطبقة المحاربة، فأسّس هذه الديانة التي تختلف عن البرهميّة الهندوسيّة، لا سيما في القول بتقسيم الناس إلى طبقات، وفي عدم الاعتراف بآلهة الهندوسية الثلاثة: براهما، وشيڤا، وڤشنو، وإن اعترفوا ببعض آلهة أخرى ولكن لم يعبدوها، فإنّ هذه الديانة تقوم على عدم الاعتراف بالروح الأكبر أي الخالق، وإن اعترفت بوجود أرواح خالدة. وهم يتّجهون في عبادتهم إلى أبطالهم الذي يعتبر (مهاويرا) آخرهم، فهم يعبدون الإنسان عوضاً عن الله، ويتَّخذون الأصنام للعبادة في معابدهم.

وتخالف الچينيّة الهندوسيّة أيضاً، في أنها لا تعترف بمسألة تعدّد الولادة التي يقول بها الهندوس نتيجة لفكرة التناسخ التي تقول: إنّ الإنسان لا يزال يموت ويولد حتى تطهر نفسه تماماً فتصل إلى الخلود والنعيم.

أما الچينيّة فتقول: إن الإنسان يستطيع أن يتحرّر من دورة الولادة هذه بتعطيل حياته، وذلك بالتخلي عن كلِّ عمل وكلِّ ما يغذي جسمه، حتى تنتهي حياته، وكأنها ترغب بذلك في الانتحار، حتى سمِّيت بالانتحاريّة.

وأهم شيء في الچينيّة، هو الدعوة إلى تجرّد الإنسان من شرور الحياة وشهواتها، حتى تدخل النفس في حالة من الجمود والخمود لا تشعر فيها بأي شيءٍ مما حولها. والناسك الحق، هو الذي يقهر جميع مشاعره وعواطفه وحوائجه، فلا يحتاج إلى شيءٍ حتى اللِّباس، لأنه لا يشعر بحرٍ ولا برد ولاحياء. ويهتم الكهّان الچينيون بنتف أشعارهم كلّها كدليل على أنهم لا يهتمون بالجسد المادي، لأن الذي يشعر بالحياة ـ وبالتالي بحاجته إلى ستر عورته، وأنّ في الحياة خيراً وشراً حسناً وقبحاً ـ معناه أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها.

ويقولون: إنّ آدم وحوّاء كانا يعيشان في الجنّة بطهر كامل، لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر، ولا يحملان همّاً أو غمّاً، حتى تسلّط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللّذة، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر، فأُخرجا من الجنّة، وبهذه النظريّة يعيش نسّاكهم عراة لا يسترهم شيء مطلقاً، لأنّ هذا هو المثل الأعلى عندهم، إذ معناه أنّ الناسك تجّرد من كلِّ إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها، فأصبح لا يهتمّ فيها بخير أو شر أو حسن أو قبح.

ويفلسفون هذا المعنى فيقولون: إنّ الشعور بالحياء يتضمّن تصوّر الإثم، فلو لم يكن الإثم في الحياة لما كان الحياء، فترك اللِّباس هو ترك للإثم وتصوّره، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عارياً ويتّخذ من الهواء والسماء لباساً له.

وهكذا نرى السمات البارزة لهذا الدين هي: المساواة، وعدم الاعتراف بإله، مع الاعتراف بالروح، والرغبة في الانتحار البطيء للوصول إلى سمّو الروح وتخلّصها من الآلام، والرغبة في العري واعتباره مثلًا أعلى للناسكين، حتى سمى هذا الدين: بدين العرى.

وقد انقسم الچينيون إلى فرقتين: إحداهما تميل إلى التقشف التام وإنكار الذات متَّخذة من حياة (مهاويرا) المتقشّفة شعاراً لها؛ أما ثانيتهما فمعتدلة في شؤون الحياة، متّخذة من حياة (مهاويرا) الأولى في كنف والديه حين كان يتمتّع بالخدم والملذّات قدوة لها[1].

وأهم مبدأ لهذا الدين هو (أحمسا) أي عدم القتل وعدم الإيذاء، والإنسان يجب عليه ألّا يمسّ بالأذى كائناً من كائنات الطبيعة من حيوان أو نبات.

أما عن تاريخ حياة (مهاويرا)، فالمعروف عنه أنه من أسرة ملكيّة،

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: تاريخ الإسلام في الهند (٤٨ ـ ٥١).

وأنّ عشيرته كانت تختلف في عقيدتها بعض الاختلاف عن الهندوسية. ولما بلغ الثلاثين من عمره هجر أسرته وتنازل عن الحكم لأخيه، وقضى عدّة سنين في حياة الزهد متجولاً بين القبائل البدائية في غابات البنغال. وكان كثيراً ما يتدبّر أمر الآلهة والعقائد، حتى وصل إلى عقيدة تختلف عن الهندوسيّة في أمور جوهريّة. ثم أخذ يتنقّل في البلاد ويعظ الناس ويحثّهم على ترك اللهو وعلى التفرّغ للحياة الروحيّة وترك اللحوم وقتل النفس مهما تكن حيواناً أو إنساناً وقد توفي وسِنّه اثنتان وسبعون سنة (٥٢٧ ق.م)، فانقسم الچينيّة بعد موته إلى قسمين: الذين يلتحفون السماء، أصحاب مذهب العري، والثاني ذوو الرداء الأبيض.

ومهاويرا كبوذا، كلّ منهما ثار ضد استبداد البراهمة، وكلّ منهما ترك اللغة السنسكريتية المقدسة واتخذ لغة العامة التي يتكلم بها جمهور الشعب، وقد أنكر كلّ منهما ما تحتوي عليه كتب اليدا من أساطير وخرافات، كما رفضا نظام الطبقات. وقد سلك الاثنان في إقامة دينهما أساليب وطرقاً متشابهة، هي الزهد وحياة الدير.

ولم تنتشر الچينيّة بين جماهير الشعب الهندي انتشاراً واسعاً بسبب شدّتها ودقّة فرائضها، ويبلغ أتباعها اليوم نحو مليون ونصف المليون، وهو عدد قليل بالنسبة إلى سكان الهند، ولكن أهميتهم تفوق عددهم بكثير. فهم غالباً من الأثرياء وأصحاب المتاجر الواسعة. وهم لا ينفرون من الهندوس بل يستعينون بالبراهمة الهندوس في أداء الشعائر الدينية في المنازل. والمكان المقدس عندهم جبل (أبو) في الطرف الجنوبي لجبال (أرفالي) في إقليم (راجبوتانا)، وحوله توجد عدّة معابد لهم[١].

٣ ـ البوذية:

ولد (جوتاما بوذا) سنة (٥٦٣ ق.م)، وهو ابن لأحد رؤساء العشائر

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٦٥ ـ ٦٧).

التي كانت تسكن قرب حدود نيبال إلى الشمال من بنارس بنحو مائة ميل، وقد وضع أحد ملوك الهند (آشوك) عموداً تذكارياً في البقعة التي ولد فيها بوذا. وفي سن مبكِّر تزوّج بوذا بابنة عمه، ولما قارب الثلاثين من عمره قصّ شعر رأسه ولحيته، ولبس رداءً أصفر، وترك مسكنه معتزلًا العالم، دون أن يأبه لبكاء أسرته، وقد عبّر بوذا عن هذه الخطوة بأنها: التحرير العظيم. وبعد ذلك قضى مدة مع بعض النساء، ثم انقطع عنهنّ وقضى على نفسه بالتقشف والتعذيب، حتى أوشك على الموت، لولا أنّ إحدى القرويات عثرت به وقدّمت له كوباً من الّلبن. وبعد سنوات من تقشفه واعتزاله، أدرك أنّ عليه رسالة في هذه الدنيا يجب عليه أن يؤديها، وكان في ذلك الوقت يجلس تحت شجرة في مكان يقال له: (بوده جويا) جنوبي (بتنا) بقليل، واشتهرت هذه الشجرة بأنها: مهبط البوذية، وقد أقيم في مكانها معبد عظيم. وقد قال بوذا: إنّ شيطاناً جاءه وحاول أن يثنيه عن عزمه، ولكنه انتصر على الشيطان، وعند ذلك شعرت نفسه بسعادة عظيمة.

وانتقل بوذا بعد ذلك إلى مدينة بنارس، حيث دخل حديقة عامة يقال لها: حديقة الغزلان، فجاءه أناس كثيرون يسألونه أن يعظهم، فألقى عليهم أوّل موعظة له، وكان موضوعها: الوجود والأحزان والآلام التي يمرّ بها الإنسان من يوم مولده إلى يوم موته ومولده الثاني. وقال: إنّ خلاص الإنسان لا يكون إلّا باتباع الطريق المُثَمَّن وهو طريق الفضائل: الفهم الحق، والعزم الحق، والكلام الحق، والعمل الحق، والتفكير الحق، والمجهود الحق، والتأمّل الحق، وأخيراً الحياة الحقّة.

وكان الناس في ذلك الوقت يحسّون بالبؤس، وقد فقدوا الأمل في حياة أفضل مما هم فيه، وكان بوذا يبحث عن طريق لخلاص الناس من هذا الشقاء. وقد رأى بوذا أن طريق العلم والحكمة لايتسنى إلّا لطائفة مختارة من الناس، أما عامة الناس فالطريق المناسبة لهم هي طريقة الحياة العمليّة. وكان بوذا كأهل زمانه يعتقد بعودة الروح، وقد شبّه بوذا حياة الإنسان

بإشعال شمعة من شمعة أخرى والضوء فيهما واحدة ولكنه مع ذلك ضوء جديد. وذكرّ الناس أنهم باتّباع الفضائل لا يبقى من ذنوب الإنسان شيء، وعند ذلك تنتهي الشمعة، ولم يذكر بوذا شيئاً عن الآلهة، وكان يقول: كما تزرع تحصد، ولن تنجيك القرابين والدعوات.

وقد حثّ بوذا الناس على الرأفة بجميع الكائنات وعلى صفاء القلوب وطهارة النفس، وذلك بالصدق ونبذ الأطماع والآثام، والبعد عن الحقد والغضب. وكان الناس عنده سواء، لا فرق بين براهمي وغيره، فإن الجميع بحاجة إلى السير في طريق الخلاص والتقوى.

وقد شعر الناس حين استمعوا إليه في حديقة الغزلان، أنهم يستمعون إلى أمور جديدة لا عهد لهم بها، وقد كانت نفوسهم متعطِّشة إليها بعد جفاف الهندوسيّة لهذا هرع الناس إليه وأطلقوا عليه: الرجل المستنير (أي بوذا).

وبعد ذلك لازمه رفيق اسمه: (أناندا) لم يفارقه في جميع رحلاته، وكان لبوذا أحبار يبلغون الستين. وظلّ بوذا يتنقّل من قرية إلى أخرى، وهو يضرب في قلعة الهندوسية العتيقة، فالتف حوله أمراء وبراهمة وتجار وأصحاب الأرض، وجاء إليه المنبوذون من كلِّ فج، واستمع إليه كثير من السيِّدات.

وقد جعل بوذا لحياته نظاماً يتكرّر كلّ يوم: يستيقظ في الفجر، ويرتدي الرداء الأصفر رمز التسوّل، ويخرج مع قسم من أصحابه يتسوّلون من باب إلى باب، لا يسألون الناس إلحافاً. وبعد أن يعودوا يجلسون جميعاً إلى مائدة واحدة، لا يعرفون طبقات أو طوائف، ثم يقضون وقتاً في الصلاة والتأمل. وفي المساء يجتمع إليه الناس، فيقف فيهم خطيباً بعبارات تصل إلى القلوب، ثم يجلس مع الناس يحدِّثهم في مشاكلهم اليوميّة وأمورهم الدينية، وكانوا يأسفون عندما تهطل الأمطار التي تحرمهم الاستماع إليه، فقد كان هو وأتباعه يعتزلون في بعض الأديرة مدّة الأمطار الموسميّة، ومن أشهر هذه الأديرة دير يقع إلى الشمال الغربي من مدينة (بتنا)، وقد انضمت إليه زوجته وأنشأت ديراً للراهبات البوذيات.

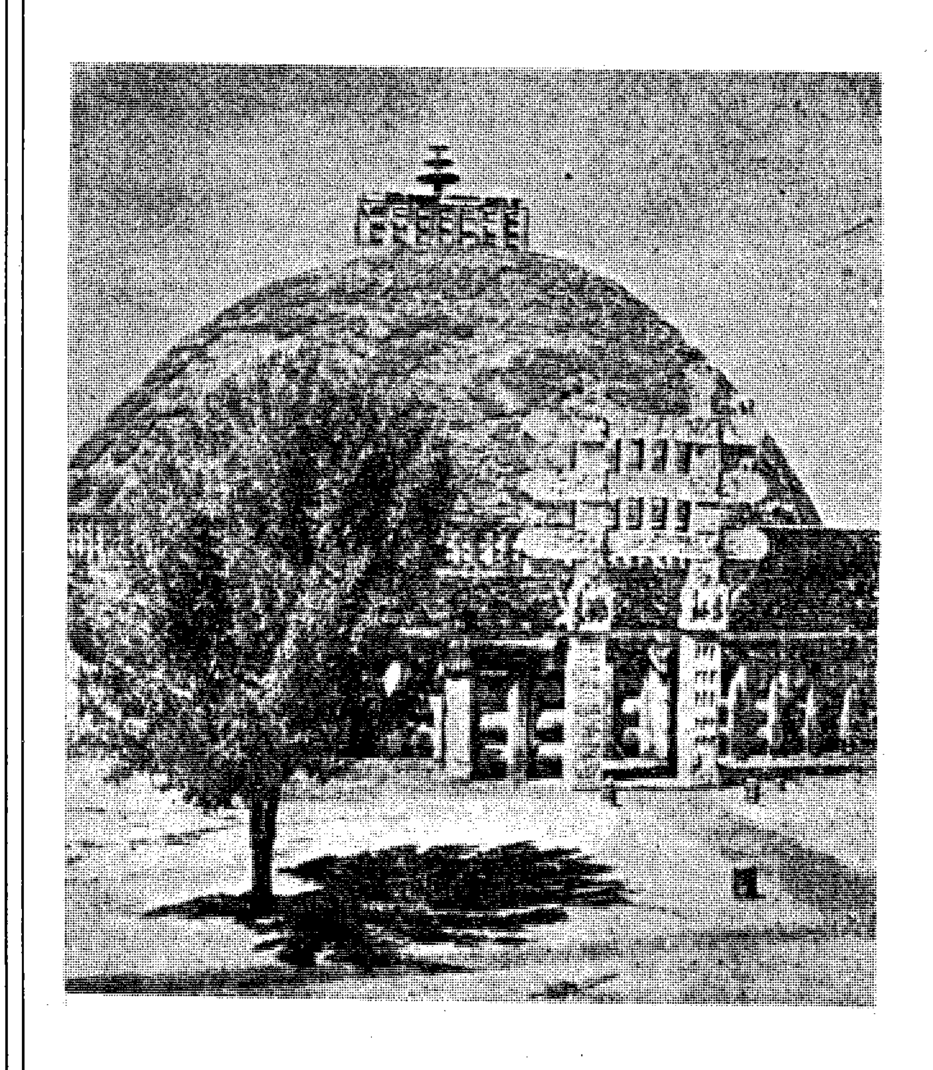
وقضى بوذا ستاً وأربعين سنة لا يكلّ ولا يتعب متنقلًا في أرجاء الهند الواسعة يقابل بالترحاب في بعض الأماكن، ويقابل بالصد والمعارضة في أخرى.

ولم يدّعِ بوذا لنفسه أية قوّة خارقة أو أية صلة بالآلهة، ولم يقم بمعجزات، وكان يقول للناس: إنّ في أيديهم وحدهم خلاص أنفسهم، وأقصى ما يستطيع أن يقدِّمه لهم، هو أن يرشدهم إلى الطريق المستقيم.

وقد عاش حياة مثالية إلى أن بلغ الثمانين، فمات. ولموته قصة، فقد بلغ قرية صغيرة تبعد مائة ميل إلى الشمال الشرقي من مدينة بنارس، وهناك استقبله حدّاد فقير، وقدّم له طعاماً من لحم الخنزير. وكان الطعام فاسداً، ولكن بوذا رفض أن يجرح شعور الرجل، فأكل من طعامه ونهى أتباعه عن مشاركته. ورقد بوذا في ظل شجرة وهو يحسّ بالألم الشديد، فدعا إليه تلاميذه وحثّهم على السير في الطريق الذي رسمه لهم، وكانت موعظته الأخيرة لهم: «ليكن كلّ منكم مصباحاً لنفسه، وليكن كلّ منكم ملجأً تلجأ إليه نفسه. اعتصموا بالحق كما يعتصم الإنسان بالمصباح في ليل بهيم.... لا تنتظروا أن يأتيكم الخلاص من الآخرين».

وغلب الحزن تلميذه أناندا، وأخذ يبكي، فدعاه بوذا إليه ونهاه عن البكاء، وقال له: «يكفي يا أناندا! لا ترهق نفسك حزناً عليَّ، ألم أقل لك مراراً: إنّ من طبيعة الأشياء جميعها أن يفترق بعضها عن بعض، مهما بلغت محبتنا لها ومهما كان لها من رفعة الشأن! يا أناندا! كلّ ما يولد لا بدّ أن يموت»... ثم أرسل رسولًا إلى الحدّاد الفقير، يخبره ألّا يحزن وألّا يلقي على نفسه اللوم لما حدث! ثم خاطب الحاضرين قائلًا: «إخواني، استمعوا إليّ! إني أنصح لكم أن تفهموا أنّ الفناء من طبيعة الأشياء... اعملوا لخلاص أنفسكم بقدر ما تملكون من قوّة».

وتوفي بوذا في سنة (٤٨٣ ق.م) في إقليم (جورا خبور) شمالي (بتنا)، وأحرقت جثّته حسب التقاليد، ثم اقتسم أتباعه ما تبقى ودفنوه في



السـتوبا العظيمة في سانشي (شمال نهر نربادا)

أضرحة في أجزاء مختلفة من الهند، وأقاموا على كل قبر ضريحاً يشبه القُبّة يطلقون عليها: (استوبا)، وهو طراز لم يعرف في الهند قبل عهد بوذا، وقد اجتمع عدد من تلاميذه يبلغون الخمسمائة وجمعوا أحاديثه وخطبه وجميع آثاره، وحفظوا كلّ ذلك ودوّنوه بلغة (بهار) القديمة التي تعرف بـ (البالي).

وفي سنة (٣٧٦ ق.م) أي بعد وفاة بوذا بمائة سنة وأكثر، اجتمع مجمع بوذي في موطن بوذا، وقامت مناقشة حامية بشأن تخفيف الفرائض الدينية، وأعادوا تفسير كثير من تعاليم بوذا. وفي عهد الإمبراطور آشوك سنة (٢٤٠ ق.م) اجتمع مجمع في (بتنا) دوّن الكتب البوذية كلّها.

وخلاصة القول: إنّ بوذا كان مصلحاً قبل أن يكون كاهناً، وقد عمل على تخليص المجتمع من العقائد العتيقة الجامدة، ولم يحفل بالكتب المقدّسة، ولم يدع الناس إلى عبادة الآلهة، ونهى عن التفريق بين الطبقات، وكان يقبل في الدير كلّ مَنْ يريد الزهد ولو كان من المنبوذين. وكان يقول: إنّ الناس كالنار لا فرق بين أن نشعلها بخشب الصندل أو بالحطب العادي. وكان يدعو الناس إلى ترك الشر قولًا وعملًا، وأن يتحابوا ويعطف بعضهم على بعض، وألّا يكون للحقد سبيل إلى نفوسهم.

وكان بوذا يدعو إلى الرحمة، ويحكى أنه كان يمرّ في حجرات الدير ذات ليلة كعادته، فوجد راهباً مريضاً، وقد اشتدّ عليه المرض، حتى فقد وعيه، ووجد أنّ الرهبان جميعاً قد ابتعدوا عنه خوفاً من نجاسته. عند ذلك دعا إليه صديقه أناندا لكي يعاونه في تنظيف الراهب وتغيير ملابسه وفرشه، ثم جمع الرهبان وقال لهم: «إنكم الآن قد فقدتم الولد والوالد، فليكن كلّ منكم لأخيه الوالد والأم».

وقد قبلت الهند كلّها المبادئ الأخلاقية التي نادى بها بوذا، ولكن عزّ عليها أن تقبل ما يدعو إليه من نبذ العالم والانقطاع عن الحياة، وقد تنبّأ بوذا لتعاليمه أنها ستفتر بعد خمسمائة سنة وتحتاج إلى رسول جديد ليعيد إليها الحياة، ولكن البوذية بعد خمسمائة سنة ازدهرت وأتت ثمارها

وتطوّرت إلى دين يحتلّ فيها بوذا مكان الإله، وأصبح اسم البوذيّة الجديدة: (المهايانا) أي (الوسيلة الكبرى)، أما البوذية القديمة فيطلق عليها: (الهينايانا) أي(الوسيلة الصغرى)، والوسيلة هنا هي المركبة التي تنقل المؤمنين في طريق العقيدة إلى أن يصلوا إلى الاتحاد بالروح الأعلى (نيرفانا). وأسمى المراتب في البوذية الجديدة ليست (النيرفانا) كما في الهندوسيّة، وإنما العودة إلى الأرض للعمل على تخليص جميع الكائنات الحيّة من الشقاء، وهو ما يفعله القديسون الذين يتطوّعون للعمل بين البشر للعمل بينهم، ولهذا قالوا: إنّ بوذا لم يمت كما يموت غيره، بل إنه لا يزال في الآفاق العليا يعمل من أجل البشر، وهو يرسل إلى الأرض مطراً غزيراً من الإيمان، وهو يجعل الدين طبلًا يرسل رعداً يملأ أرجاء الأرض.

وانتقلت البوذية الجديدة من الهند إلى التبت والصين، أما سيام وسيلان وبورما فاعتنقت البوذية القديمة. وقد نقلت البوذية إلى سيلان في عهد الإمبراطور آشوك (٢٧١ ـ ٢٣١ ق.م)، إذ أرسل ابنه (ماهندرا) وابنته (سنجامترا) إلى جزيرة سيلان، ومعهما فرع من الشجرة التي كان بوذا يجلس تحتها في أول عهده بالدعوة، وقد أرسل الملك المذكور رسلًا إلى وسط آسيا والصين.

أما الهند، فإنّ البوذيّة أخذت تضمحل بعد سنة (٨٠٠م)، وتم زوالها نهائياً حوالي سنة (١٥٠٠م)، لأنّ الهنود أدركوا أنّ الهندوسيّة من الناحية الروحيّة أرسخ جذوراً في تقاليد الهند، فقد قصّرت البوذيّة عن الوصول إلى الوجدان، وجعلت همّها أن تخلّص الفرد من عودة الروح إلى الدنيا.

لقد كانت البوذيّة أسمى من الهندوسيّة في المبادئ الخلقيّة، ولكنها لم تكن وثيقة الصلة بالعقيدة الهنديّة الأصليّة، ولهذا كانت الهندوسيّة أقرب إلى عواطف الناس ومشاعرهم.

وكان أعظم حادث في القرن السّابع الميلادي، أن قام رجل من حكماء الهندوس اسمه (شانكار) أخذ على عاتقه القضاء على البوذيّة وإرجاع الهندوسيّة إلى مكانتها. وأخذ يجوب البلاد ويقول للناس: إنّ ما في البوذية من فضائل قد انتقل كلّه إلى الهندوسية، ولكن يجب ألّا يكون في الهند إلّا دين واحد، والهندوسية التي كانت في جميع العصور كالإسفنجة تقبل كلّ صالح من المعتقدات والآراء، هي الأحق بالبقاء. وقد استجابت الهند لدعوته، وقامت مراكز لذلك في أركان الهند، وسرعان ما انقرضت البوذيّة من الهند وتحوّلت معابدها إلى معابد هندوسيّة.

ولكنّ الإسلام هو الذي قضى على البوذيّة القضاء الأخير، فقد بقي البوذيون في إقليم البنغال إلى مجيء الإسلام في الهند، فلم تستطع البوذيّة مقاومة المسلمين، وهرب الرهبان إلى التبت، وتحوّلت البنغال نصفها إلى الإسلام ونصفها إلى الهندوسيّة.

وقد خلّفت البوذية وراءها آثاراً طيبة غيّرت كثيراً من تعاليم الهندوسية، كما غيّرت كثيراً من عادات الهندوس.

وقد أخذ الهندوس عن البوذيّة مبدأ ترك اللحوم، والامتناع عن قتل الحيوان أو إيذائه. ومن التعاليم البوذيّة التي أخذ بها المجتمع الهندوسي مبدأ الخدمة العامة، وأصبح ذلك تقليداً بين الطبقات العالية إذ يتطوّع الكثير منهم لخدمة الطبقات الأخرى.

ولكنّ البوذيّة عجزت عن القضاء على نظام الطبقات، وكلّ ما فعله البوذيون أنهم رفعوا من شأن أصحاب الحرف الذين كانوا من (الشودرا)، فأخذ الهنود ينظرون باحترام نحو أولئك الذين يؤدون عملهم في حرفتهم بإخلاص. ومن الحكم البوذية: «لا يكون المرء منبوذاً لأنّ أبويه منبوذان، ولا يكون براهمياً لأن أبويه من البراهمة، بل إن عمل المرء هو الذي يجعله منبوذاً أو براهمياً».

وقد اكتسبت الهندوسيّة بعد خروج البوذيّة نهضة جديدة، وعادت إلى

الشعب أخبار الأبطال السابقين. كما تخلصت الهندوسيّة من كثير من الجمود والقسوة والفساد، ولكنها لم تستطع أن تلغي نظام الطبقات.

وبعد خروج البوذيّة من الهند، تحّولت الهندوسية من عبادة عدد كبير من الآلهة إلى الإيمان بروح عالمية واحدة، وما الكون والمخلوقات إلّا صور من صورتها، وما الآلهة العديدة إلّا رموز للقوى الطبيعية ومظاهر لقدرة الإله الأعظم، وما روح الفرد إلّا شعاع من الروح العالميّة ومآلها إليها، والذي يفصلها عنها القيود التي تربط الروح بالعالم المادي. ومهمة الروح في هذا العالم أن تبحث عن الطريق المستقيم الذي تتخلّص به من تلك القيود.

والمبدأ الأساسي عند الهندوس، هو أن المادة غطاء زائف، وأنها شر يجب التخلّص منه[1]، وغاية ما يصبوا إليه الهندوسي أن يقضي حياته باحثاً عن الحقائق الروحانية، وهو يسأل كما في اليدا: «مَن هو الإله الذي نقدِّم إليه قرباننا! ومَن هو الذي خلق الكون! ومَن في ظلِّه الخلود وفي ظلِّه الفناء!»[2].

فتح الهند:

كان العرب وحدهم قبل الإسلام، واسطة مقايضات التجارة الهندية، ما ورد منه (براً) عن طريق بلاد فارس، فتولّاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانئ الشام، أو (بحراً) عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر، فحمله اليمنيون من أبناء سبأ القديمة، فمنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ليسيروا بدورهم بأكثره من رحلة الصيف إلى بلاد الشّام، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير.

---

(١) ملامح الهند والباكستان (١٤٢ ـ ١٤٦).

(٢) انظر التفاصيل في كتاب: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٦٧ ـ ٧٦).

لقد كان العرب قديماً على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجّارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها، فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية من حكامها، ليعودوا إلى بلادهم في كلّ مرة، فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل ومالهم من غرائب العادات والمعتقدات، ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها.

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما فيها من علوم وآداب وفنون عن طريق المدارس العلميّة في أرض الرافدين مهد الحضارات القديمة ومجمعها، التي كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها، وقد تخرّج على أيدي الهنود بمدرسة (جُنْدَيْسَابور) الساسانية الحارث بن كَلَدَة الثّقفيّ طبيب العرب قبل الإسلام، الذي قام على علاج الناس بفارس، وطَبّ بعض سراتها، فأعطاه مالاً وجارية هي سُمَيّة أم زياد بن أبي سفيان[١].

وحين ظهر الإسلام، ودخل العرب في دين الله أفواجاً، كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وأهل (عُمان) والبحرين وغيرهم، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي كانوا يتعاملون معها. وكان من الطبيعي أن يتحدّث هؤلاء العرب المسلمون في حماسة وإيمان عن دينهم الجديد، وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم يدعو الناس إلى التوحيد والإخاء والمساواة والعدل والمعاملة الحسنة بين الناس جميعاً وإلى المُثل العليا. وكانت الهند تئن حينئذٍ من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه ديانتهم، فكان حديث التوحيد والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها، وأن يقارنوا بينها وبين ما هم فيه، فوجد الإسلام في الهند أرضاً

(١) ضحى الإسلام (١/٢٦٦) وانظر كتاب: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٥٤ ـ ٥٥).

خصبة سهلة، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتّصل بها المسلمون جماعة صغيرة أو كبيرة اعتنقوا الإسلام، وأقاموا المساجد، وباشروا شعائرهم في حريّة تامة، لما كان للعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكام، باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدر على هؤلاء الحكّام الدخل الوفير.

وكانت سواحل السِّند ومليبار الواقعة على بحر العرب من أسعد بلاد الهند بالدين الجديد، كما انتشر الإسلام في جزيرة (سيلان) أو جزيرة (الياقوت) كما يسميها المؤرخون القدامى.

وقد بدأ التفكير بفتح الهند في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقد ولى عثمان بن أبي العاص الثّقفي[١] (البحرين) و (عُمان) سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م)، فوجّه أخاه الحكم بن أبي العاص الثّقفيّ[٢] إلى (البحرين) ومضى إلى (عُمان) وسيّر جيشاً إلى (تانة)[٣]، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك، فكتب إليه عمر: «يا أخا ثقيف! حملتَ دوداً على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم». ووجه الحكم بن أبي العاص أيضاً إلى (بَرْوَص)[٤]، ووجّه أخاه المغيرة بن أبي العاص الثّقفي[٥] إلى

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ - ٢٦٩).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٧٠ - ٢٧٢).
(٣) تانة: مدينة تقع شمال مدينة بومباي على بعد خمسة عشر ميلًا منها، وهي على بحر العرب، ولا تزال فيها بعض المقابر الإسلامية، انظر: تاريخ الإسلام في الهند (٧٩) - الفقرة(١).
(٤) بروص Broach: مدينة تقع شمالي مدينة (سورت) بينها وبين نهر (نريدا)، وكانت ميناء قديماً ولكنه فقد أهميته بمرور الزمن، انظر: تاريخ الإسلام في الهند (٧٩) - الفقرة (٢). وسماها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ١٥٥): بروج، ويقال: بروص، وهي تسمى اليوم: بروص.
(٥) المغيرة بن أبي العاص: هو أخو عثمان والحكم ابني أبي العاص، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٦٦).

(خُوْرُ الدَّيْبُل)[1]، فلقي العدو وظفر به[2].

لقد كان عثمان بن العاص أول مَنْ حاول فتح السند من قادة المسلمين، ثم لم تزل السند تغزى إلى زمان زياد بن أبي سفيان وإلى زمان الحجاج بن يوسف الثقفي الذي افتتح باقي السند[3].

لقد غزا عثمان ثلاثة من بلاد الهند[4]، ومن الواضح أنّ الجيش الذي وجّهه إلى (تانة) والحملة التي وجَّهها بقيادة أخيه الحكم إلى (بَرْوَص) والحملة التي وجهها بقيادة أخيه المغيرة إلى (الدِّيْبُل) كانت غارات بقوات خفيفة محمولة بحراً على السفن هدفها الاستطلاع تمهيداً للفتح ولم يكن هدفها الفتح، لأن عثمان لا يمكن أن يُقدم على الفتح بدون موافقة عمر بن الخطاب، كما لا يمكن بهذه القوات الخفيفة السريعة أن يقوم بالفتح، ويبدو أن هذه الحملات أرسلت بأوقات متقاربة قبل أن يصدر عمر أوامره بإيقاف هذه المحاولات.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يخشى على المسلمين من ركوب البحر لما في ركوبه من مجازفة، وقد منع معاوية بن أبي سفيان واليه على الشّام من ركوب البحر الأبيض المتوسط لفتح (قبرس) كما هو معروف.

---

(١) خور الديبل: الخور: مصب الماء في البحر، والمنخفض من الأرض بين مرتفعين، والخليج، ويريد هنا: خليج الديبل.
والديبل: مدينة على شط ماء السِّند وهي على ساحل البحر، بلد صغير شديد الحر، وهي ميناء على البحر تقع شرقي مدينة مهران، بينها وبين المنصورة ست مراحل، وبينها وبين نيرون أربع مراحل، انظر تقويم البلدان (٣٤٩) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٩٥)، وكان موقعها قريباً من كراجي وقد اندرست الآن، انظر تاريخ الإسلام في الهند (٧٤).

(٢) البلاذري (٦٠٧).

(٣) جمل فتوح الإسلام - ملحق بجوامع السيرة لابن حزم الأندلسي (٣٤٧).

(٤) جمهرة أنساب العرب (٢٦٦).

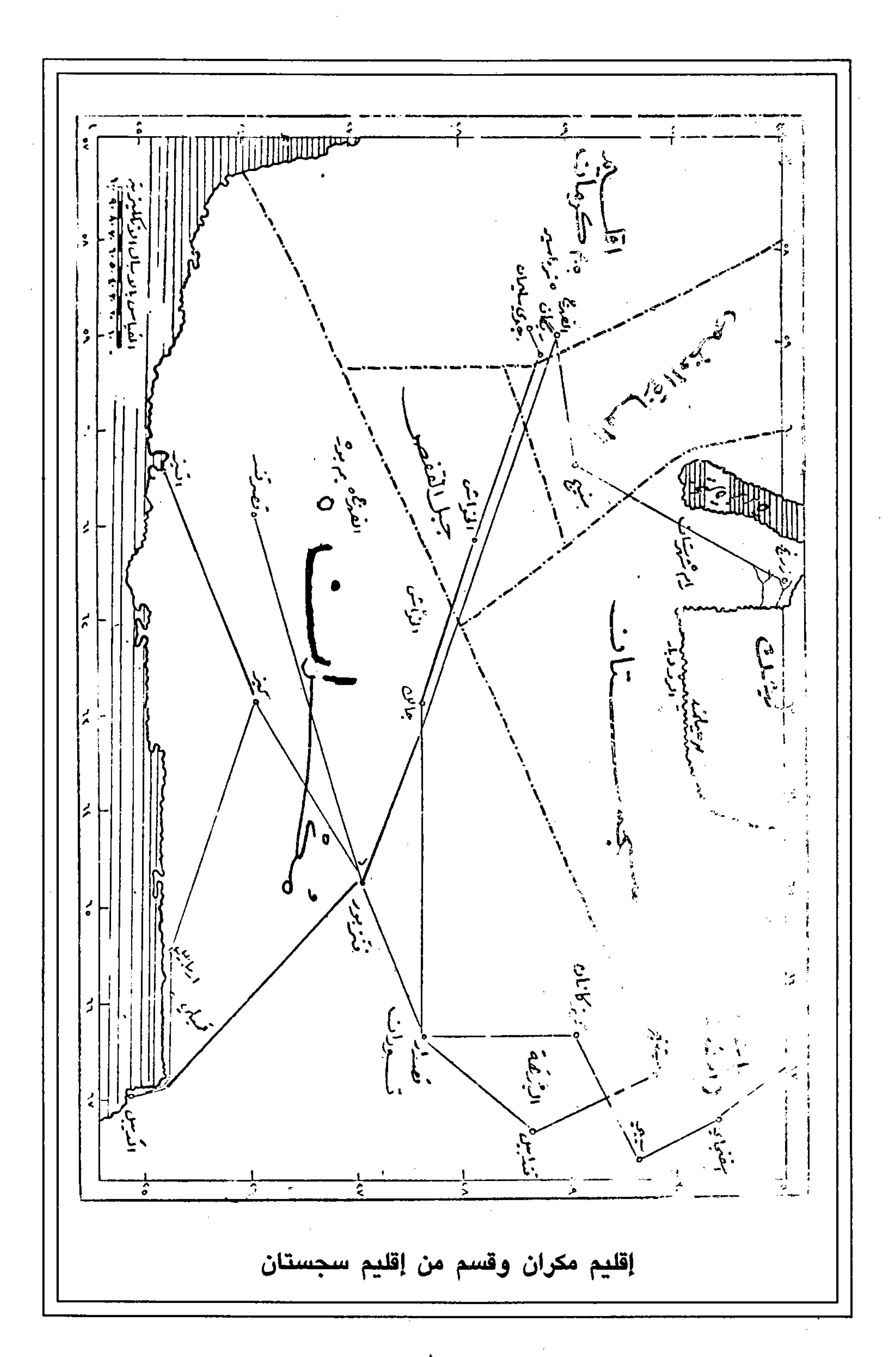
وأضيف سبباً آخر لامتناع عمر عن ركوب البحر، هو أن الفتح الإسلامي توسّع في أيامه توسعاً عظيماً، فكان هذا التوسّع بالمقارنة بقوات المسلمين التي حملت أعباء الفتح يعتبر مجازفة كبيرة، لأنّ قوات المسلمين كانت قليلة جداً بالنسبة للبلاد المفتوحة، فكان عمر يحرص ألّا يزج بقوات المسلمين في فتح جديد ويحرص على كبح جماح الفاتحيين في البر، فمن الأولى أن يحرص على كبح جماح الفاتحين في البحر. وبخاصة وأنّ المسلمين حينذاك لم يكونوا على استعداد مضمون لخوض غمار الحروب البحرية، إذ لم يكن للدولة أسطول بحري، وكان الذين يركبون البحر يعتمدون سفن التجارة، وليس في ذلك ضمان لسلامة الفاتحين ولا لسلامة الفتح والمحافظة عليه.

ولما ولي عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وولّى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز[1] العراق، كتب إليه يأمره أن يوِّجه إلى ثغر الهند مَن يعلم علمه وينصرف إليه بخبره، فوجه حكيم بن جَبَلَة العَبْدي[2]، فلما رجع أوفده إلى عثمان، فسأله عن حال البلاد، فقال: «يا أمير المؤمنين: قد عرفتها وتنحَّرْتُها»، قال: «فصِفها لي»، قال: «ماؤها وشَل، وثمرها دَقل[3]، ولصّها بَطَل. إن قلّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا»، فقال له عثمان: «أخابر أو ساجع؟!»، فقال: «بل خابر»، فلم يُغْزِها أحداً[4].

ويبدو أن حكيم بن جبلة نزل أحد الموانئ البحرية التي تعتمد في حياتها على التجارة لا على الزراعة، فعمّم بتقريره ولم يخصِّص، وكان الأولى به أن يرتاد مناطق واسعة من الهند، ليؤدي واجبه كما ينبغي أولّا، ويكون تقريره عن مهمته متكاملّا وسليماً.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.
(٢) انظر سيرته في أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/ ٣٩ ـ ٤٠).
(٣) الوشل: القليل ـ والدقل: أردأ التمر.
(٤) البلاذري (٦٠٧).



إقليم مكران وقسم من إقليم سجستان

ولما كان آخر سنة ثمان وثلاثين الهجرية (٦٥٨م) وأول سنة تسع وثلاثين الهجريّة (٦٥٩م) في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، توجه إلى الهند الحارث بن مرّة العبديّ متطوِّعاً بإذن عليّ، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسّم في يوم واحد ألف رأس، ثم إنه قتل ومَنْ معه بأرض (القِيْقَان)[١] إلّا قليلًا، وكان مقتله سنة اثنتين وأربعين الهجرية[٢] (٦٦٢م).

وهذه حملة استطلاعيّة أخرى، مؤلّفة من قوّة سريعة مكتفية بذاتها بقيادة الحارث وَمْن شايعه من رجال قبيلته، انتصرت في أول أمرها لاعتمادها على المباغتة، ولكنها لم تستطع أن تديم انتصارها، لقلة أفرادها، ولبعدها عن قواعدها، ولعدم إدامتها بالعَدَد والعُدَد من الدولة، فكانت نتيجتها الإبادة بعد أن تكاثر عليها أعداؤها، فاقتلعوا جذورها الواهية من بلادهم.

وفي أيام معاوية بن أبي سفيان سنة أربع وأربعين الهجرية (٦٦٤م) غزا المُهَلب بن أبي صُفْرَة الهند، وكان على البصرة عبد الله بن عامِر، فأتى المهلّب (بَنَّةِ)[٣] و (لاهور)[٤]، وهما بين (المُلْتَان)[٥] و (كابُل)، فلقيه العدو، فكبده المهلّب خسائر فادحة، فقال بعض الأَزديين:

ألم تَرَ أنّ الأَزْد ليلة بيَّتوا ... بِبَنّة كانوا خير جيش المهلّب[٦]

---

(١) القيقان: من بلاد السند مما يلي خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٩٨) والبلاذري (٦٠٨).

(٢) البلاذري (٦٠٧ ـ ٦٠٨).

(٣) بنّة: مدينة بكابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٩٤).

(٤) لاهور: ولاية من ولايات الهند جنوبي كشمير وعلى طريق القوافل بين الهند وأفغانستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢١٢).

(٥) الملتان: مدينة بنواحي الهند قرب غزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٤٦).

(٦) البلاذري (٦٠٨) ومعجم البلدان (٢/ ٢٩٤).

وقد سلك المهلّب في هذه الحملة الطريق الرئيس الذي يربط أفغانستان بالهند عبر مضيق (خُيْبَر)، وهو الطريق الذي سلكه الإسكندر المقدوني في غزو الهند كما ذكرنا سابقاً، وهو الشريان الرئيس الذي يربط أفغانستان وإيران بالهند.

وقد لقي المهلّب بن أبي صفرة ببلاد (القِيقان) ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة، فقاتلوه، فقُتلوا جميعاً. فقال المهلّب: «ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا!!»، فحذف الخيل، فكان أول مَنْ حذفها من المسلمين[1].

لقد مهّد المهلّب لأول مرة لفتح الهند، ويمكن اعتبار هذه الحملة أول حملة كبيرة نسبياً سلكت الطريق البري، في محاولة جديّة لفتح الهند، ولكنها لم تنجحِ النجاح المطلوب في ضمِّ جزء من الهند إلى بلاد المسلمين وترسيخ أقدامهم فيها، ولكنها نجحت في مهمتها الاستطلاعية، والوقت الذي يقضى من أجل الاستطلاع لا يذهب سدى.

ثمّ ولّى عبد الله بن عامِر في زمن معاوية بن أبي سفيان عبدَ الله بن سَوّار العبدي، ويقال: ولّاه معاوية من قِبَلِه ثغر الهند، فغزا (القِيْقَان) فأصاب مغنماً، ثم وفد إلى معاوية وأهدى له خيلًا قِيْقَانيّة وأقام عنده، ثم رجع إلى (القِيْقَان)، فاستجاشوا الترك، فقتلوه، وفيه يقول الشاعر:

وابن سَوّار على عِدّاته مُوْقِد النار وقَتّال السّغَبِ

وكان سخياً، لم يوقد أحد ناراً غير ناره في عسكره[2]، وهذا دلالة على كرمه وسخائه، فقد تكفل بإقراء الضيوف وإيوائهم نيابة عن رجال معسكره.

---

(١) البلاذري (٦٠٨).

(٢) فتوح البلدان (٦٠٨).

وقد عدل عبد الله بن سَوّار عن الاهتمام بالمناطق الشمالية من الهند لوعورتها، خلافاً لما فعله المهلّب بن أبي صُفرة من قبله، فسلك ابن سَوّار الطريق الساحلّي وتخلى عن المناطق الشمالية.

وحملة ابن سوّار غارة من الغارات الاستطلاعية أيضاً، وقد خسر حياته لاندفاعه عمقاً وقّلة قواته وبعده عن قواعده.

وولّى زياد بن أبي سفيان الذي على العراق لمعاوية بن أبي سفيان، سِنَان بن سَلَمَة بن المُحَبِّق الهُذَلِيّ ثغر الهند، وكان سنان فاضلًا مُتَألِّهاً، وهو أول من أحلف الجند بالطلاق، فأتى الثغر، ففتح (مُكْران) عنوة ومصّرها وأقام بها وضبط البلاد[1].

ومن المعروف أن الذي فتح (مُكْران) في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو الحكم بن عُمَيْر التغلبيّ[2]، والظاهر أن (مكران) انتقضت، فأعاد فتحها سنان.

والمعروف أن (مكران) تتاخم الهند، فهي ولاية واسعة بين (كِرْمَان) في غربها، و (سِجِسْتَان) في شمالها، والبحر في جنوبها، والهند في شرقها[3].

وكما كانت (عُمان) و (البحرين) قواعد انطلاق الحملات البحرّية لغزو الهند، كانت (مُكران) قاعدة انطلاق الحملات البريّة لغزو الهند بالنسبة للطريق السّاحليّ، وكانت (مُكْران) و (كابُل) قاعدتي انطلاق الحملات البرية أيضاً لغزو الهند التي تسلك عبر مضيق (خيبر) وتؤدي إلى شمالي الهند.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (٦٠٨ ـ ٦٠٩).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٩٣ ـ ٢٩٧).

(٣) انظر التفاصيل المسالك والممالك(١٠٢ و١٠٥) ومعجم البلدان (٨/ ١٣٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٧٣).

لذلك كان لمُكران أهمية بالغة بالنسبة للحملات البرية التي تسلك الطريق البري الساحلي، فالسيطرة على (مُكران) ضروري للغاية لتحقيق هدف فتح الهند.

واستعمل زياد بن أبي سفيان على ثغر الهند راشد بن عمرو الجُدَيْدِيّ من الأزد، فأتى (مُكران)، ثم غزا (القِيْقَان) فظفر، ولكنه قتل في غزوة أخرى[١].

وقام بأمر الناس بعد مقتل راشد في حملته، سِنان بن سَلَمَة، فولّاه زياد ثغر الهند، فأقام به سنتين[٢].

والظاهر أن سنان بن سلمة كان محدود النشاط في عمليات الغزو، فاكتفى بالدفاع، ورضي من الغنيمة بالسّلامة، وهذا يدلّ على أن مقاومة الهنود اشتدت وطأتها وانتظمت، فأصبح المسلمون يحسبون لها ألف حساب.

وولّى زياد عبّاد بن زياد ثغر الهند، فانطلق من (سِجْستَان)، فأتى (سَنَارُوْذ)[٣] ثم أخذ على بئر (كُهَز)[٤] إلى (الرُوْذَبَار)[٥] من أرض (سِجِسْتَان) إلى (الهِنْدَمَنْد)[٦]، فنزل (كِشْ)[٧]، وقطع المفازة حتى أتى

---

(١) فتوح البلدان (٦٠٩).

(٢) فتوح البلدان (٦٠٩).

(٣) سناروذ: اسم نهر سجستان، وروذ بالفارسية اسم النهر، يأخذ من نهر (هندمند)، فيجري على فرسخ من سجستان، وهو النهر الذي تجري فيه السُّفن من (بُسّت) إلى سجستان، ويتشعّب منه أنهر كثيرة، انظر معجم البلدان (٥/ ١٤٠).

(٤) كهز: في معجم البلدان (٧/ ٣٠٤): كهك، وهو الأصح: مدينة بسجستان، وربما سموها: بئر كهك، وهي من أعمال (الرخّ) قرب (بُسْت).

(٥) الروذ بار: عدّة مواضع، ومعناها بالفارسية: موضع النهر، انظر معجم البلدان (٤/ ٢٩٨)، والظاهر أنها موضع في سجستان، بين (كهك) ونهر (الهند مند).

(٦) الهندمند: اسم لنهر مدينة سجستان، انظرالتفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٧) كِش: مدينة تقارب سمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٥١).

(القُنْدَهار)[1]، فقاتل أهلها وهزمهم وفتحها بعد أن أُصيب رجال من المسلمين[2].

ويبدو أن إعداد هذه الحملة كان أفضل من الحملات السابقة، ومع ذلك كان نجاحها محدوداً ومؤقتاً، فكان انتصار المسلمين في هذه الحملة انتصاراً تعبوياً.

وولّى زياد ثغر الهند المنذر بن الجارود العَبْدِيّ، ويكنى: أبا الأشعث، فغزا (البوقان)[3] و (القِيْقَان)، فظفر المسلمون وغنموا، وبثّ السرايا في بلادهم، وفتح (قُصْدار)[4]، وكان سنان قد فتحها إلّا أن أهلها انتقضوا، وبها مات المنذر، فقال الشاعر:

حلّ بِقُصْدار فأضحى بها ... في القَبْر لم يَغْفَل مع الغافلين

لِلّهِ قُصْدار وأعنابُها ... أيَّ فَتَى دُنْيا أجَنَّتْ ودِيْن[5]

ثم ولّى عُبَيْدُ اللَّهِ بن زياد بن أبي سفيان الذي تولى العراق بعد أبيه زياد بن أبي سفيان، ثغر الهند حَرِيّ بن حَرِيّ الباهليّ، ففتح الله على يديه تلك البلاد، وقاتل بها قتالًا شديداً، فظفر وغنم. وقيل: إن عبيد الله بن زياد ولّى سِنان بن سلمة، وكان حَري على سراياه، وفي حَرّي بن حَريّ يقول الشاعر:

لولا طعانيَ بالبُوقان ما رجَعَتْ ... منه سرايا بن حَرِيٍّ بأَسْلاب[6]

ومن الواضح أن ميدان قتال حَرِيّ بن حَرِيّ كان (البُوقان) و

---

(1) القندهار: مدينة من بلاد الهند، انظرالتفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).
(2) فتوح البلدان (٦١٠) ومعجم البلدان (٧/ ١٦٧).
(3) البوقان: مدينة بالسند، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٠٧).
(4) قصدار: قصبة من نواحي السند، انظر معجم البلدان (٧/ ٩٥).
(5) فتوح البلدان (٦١٠).
(6) فتوح البلدان (٦١٠ ـ ٦١١).

(القِيقان)، وهو ميدان سلفه المنذر بن الجارود العبديّ، ولعلّ تلك المناطق انتقضت فأعاد فتحها ورسَّخ أقدام المسلمين في أرجائها.

ولما ولي الحّجاج بن يوسف الثّقفَي العراق، ولّى سعيد بن أَسْلَم بن زُرْعة الكلابّي (مُكْران) وثغر الهند، فخرج عليه محمد ومعاوية ابنا الحارث العِلافِيَّان، فقتل، وغلب العلافِيَّان على الثغر، واسم عِلاف هو: رَيَّان بن حُلْوان بن عَمْران بن الحاف بن قُضاعة، وهو أبو جَرْم[1].

وولّى الحجّاج مُجّاعة بن سِعْر التّميميّ ثغر الهند، فغزا مجاعة، فغنم وفتح مناطق من (قَنْدَابيل)[2]، ولكنه مات بعد سنة بمُكْران، قال الشاعر:

ما من مشاهدِكَ التي شَاهَدْتها ... إلّا يُزَيْنُكَ ذِكْرُها مُجَّاعا

ثمْ استعمل الحّجاج بعد مُجّاعة، محمد بن هارون بن ذِراع النمريّ، فأهدى إلى الحّجاج في ولايته ملك جزيرة الياقوت (سيلان) نسوة ولدن في بلاده مسلمات، ومات آباؤهنّ وكانوا تجاراً، فأراد التقرّب بهنّ، فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد (الدَّيْبُل) في بوارج، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهنّ، وكانت من بني يَرْبُوع: «يا حجّاج!». وبلغ الحجّاج ذلك، فقال: «يالبَّيكِ»، فأرسل إلى داهر ملك السند يسأله تخلية النسوة، فقال: «إنما أخذهم لصوص لا أقدر عليهم»، فأغزى الحجّاج عُبَيْدَ اللّه بن نبهْان (الدَّيْبُل)، فقتل.

وكتب الحجّاج إلى بُدَيل بن طَهْفَة البَجَلِيّ وهو على (عُمّان) يأمره أن

---

(١) كان محمد ومعاوية من الخارجين على سلطان الأمويين في ثغر الهند، وكانا قد لقيا عند داهر البرهمي ملك السند كلّ ترحيب حين لجأ إليه برجالهما الخمسمائة، وما لبثا حين نصراه في بعض حروبه، أن صارا من أصحاب الحظوة عنده، انظر: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٥٧).

(٢) قندابيل: مدينة بالسند، وهي قصبة لولاية يقال لها: النُدْهة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).

يسير إلى (الدَّيْبُل)، فلما لقي العدو هناك، نفر به فرسه، فطوّقه العدو وقتله، وقيل: قتله زطّ (البُدْهة)[1].

هناك تبدى للحجّاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فما زال بالخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السِّند[2]، وكان على السند حينذاك الملك البرهمي داهر[3].

واختار الحجّاج ابن أخيه محمد بن القاسم، وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه، وعقد له على ثغر السند وضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وخلقاً من غيرهم، وجهزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والإبر، وأمره أن يقيم بـ (شيراز: حتى يتتام إليه أصحابه ويوافيه ما عُدَّ له، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج، فَنُقِعَ بالخل الحاذق، ثم جُفِّف في الظلّ، فقال: «إذا صرتم إلى السند، فإن الخلّ بها ضيّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا». ويقال: «إن محمداً لما صار إلى الثغر، كتب يشكو ضيق الخل عليهم، فبعث إليه بالقطن المنقوع في الخل».

ومضى محمد إلى (مُكْران)، فأقام أياماً، ثم سار المسلمون من (مُكران) وهدفهم (الدَّيْبُل) في اثني عشر ألفاً من جند الشام والعراق، وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعبهم، أما عتادهم الحربي فقد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون والي مُكران، وقد اتخذ طريقه بحراً، فالتقى الجيش بسفنه في ظاهر مدينة (الدَّيْبُل) في ربيع الأول من سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧م).

---

(١) البدهة: ناحية بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩١)، وانظر ما جاء عن هذه الأحداث في فتوح البلدان (٦١٠ ـ ٦١٢).
(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهنديّة وحضارتهم (١/ ٥٨).
(٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهنديّة وحضارتهم (١/ ٣٧).

وانضم إلى جيش المسلمين عند (الدَّيْبُل) جموع كثيرة من الميد والزط، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهم إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهميّة، إذ كانوا في عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب وارتداء غالي الثياب ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلّا أدْناها وأدنؤها.

وأفاد المسلمون من رجال الميد والزط، وإلى جانب شجاعتهم في الحرب وشدّة جلدهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم في النزال.

وفي طريق الجيش الإسلامي إلى (الدَّيْبُل) افتتح محمد بن القاسم مدينة (فنزبور) ومدينة (أرمائيل).

وسار محمد عن (أرمائيل) بعد فتحها، وقدم (الدَّيْبُل) وهي قرب مدينة كراجي الحاليّة، فخندق وأنزل الناس منازلهم، ونصب منجنيقاً ضخماً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية العالية المدربين على استعماله، فدكَّ معبد الهنادكة الأكبر (البُدّ)، وكان على هذا البُدّ دقل عظيم وعلى الدَّقل راية حمراء، إذا هبّت الريح أطافَت بالمدينة، وكانت تدور.

والبُدّ منارة عظيمة يتَّخذ في بناء لهم، فيه صنم لهم، أو أصنام يشهر بها، وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضاً، وكلّ شيءٍ أعظموه من طريق العبادة، فهو بُدّ، والصنم بُدّ أيضاً.

وحاصر محمد (الدَّيْبُل) وقاتل حماتها بشدّة، فخرجوا إليه ولكنه هزمهم حتى ردّهم إلى البلد، ثم أمر بالسلالم فنصبت، وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مُراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة، فاستباحها محمد ثلاثة أيام، ولكن عامل (داهر) استطاع النجاة بنفسه سالماً، فأنزل محمد فيها أربعة آلاف من المسلمين، وبنى مسجداً، فكان أول مسجد بني في هذه المنطقة.

وسار محمد عن (الدَّيْبُل Daibul) إلى (النيرون) التي تعرف باسم: (نيرانكوت) وموقعها (حيدر آباد السند) الحالية، وكان أهلها قد بعثوا إلى الحجّاج، فصالحوه، فلقوا محمد بالعلوفة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصّلح.

وسار محمد عن (نيرون)، وجعل لا يمرُّ بمدينة إلّا فتحها، حتى عبر نهراً دون (مِهْران) وهو نهر السند، فأتاه أهل (سربيدس) وصالحوه، ففرض عليهم الخراج، وسار عنهم إلى (سبهان) ففتحها، فسار إلى نهر السِّند، فنزل هناك، وبلغ داهر، فاستعدّ لمجابهة جيش المسلمين.

وعبر محمد نهر السِّند (مِهْرَان) على جسر عقده، فالتقى بداهر وجيشه، فاشتدّ القتال بشكل لم يسمع بمثله.

وترجّل داهر عن فيله، وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاءوا.

ولما قتل داهر، غلب محمد على بلاد السِّند، ففتح (رَاوَر) - وهي مدينة كبيرة بالسِّند - عنوة.

وتقدّم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرِّقين حتى بلغوا (برهمنآباد) على فرسخين من مدينة (المنصورة)، وكان المنهزمون من أصحاب داهر يدافعون عنها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها.

وسار محمد يريد (الرُّور) و (بغرور)، والرّور ناحية بالسِّند تقرب (المُلْتَان) في الكبر، وبغرور بلد بالقرب من الرّور، فسأله أهل البلدين الأمان، فأعطاهم إياه، وقد أسلموا بعد ذلك.

وقد كانت (الرّور) عاصمة الملك داهر.

وعبر المسلمون بعد ذلك نهر (بَياس) أحد روافد نهر السِّند إلى (المُلْتَان) أعظم مدن السِّند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليهم شهوراً، نفدت خلالها مؤنتهم، فطعموا الحُمْر حتى أتاهم رجل مستأمن دلّهم على مدخل الماء الذي يشرب منه السكّان، فقطعوه عليهم، وقاتل الهنود

المسلمين قتالًا شديداً استمر أياماً سبعة، اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها وفتحوا (المُلْتان).

وفي (المُلْتان) آخر حصون السِّند الكبرى، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار وأرباب الحرف، في عدد كبير من سكّان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والزط (الجات) الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة، والذين بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربيّ المسلم، فأعلنوا جميعاً ولاءهم له، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم.

وأصاب محمد مالًا كثيراً، جُمِع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع، يُلقى إليه المال من كوّة في وسطه، فسميت (المُلْتان): فَرْج (ثغر) الذهب. وكان (بُدّ) الملتان (بُدّاً) تهدى إليه الأموال، وتنذر له النذور، ويحجّ إليه أهل السِّند، فيطوفون به، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنماً فيه هو أيوب النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم، فحمل إليه محمد ضعف هذا المبلغ، فقال الحجّاج: «شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر».

لقد أنجز محمد هذا الفتح كلّه بين سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧م) وسنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م).

ومات الحجّاج بن يوسف الثّقَفِيّ والي (العِراقَيْن) سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م)، وكان محمد بن القاسم في (المُلْتان)، فرجع إلى (الرّور) و (البغرور) وكان قد فتحهما، فأعطى الناس ووجّه جيشاً إلى (البَيْلَمان) وهي منطقة من أرض السّند والهند، ففتحوها صلحاً. وسالمه أهل (سُرَسْنت) وهي مغزى أهل البصرة، وأهلها من (الميد) الذين يعملون في البحر.

وأتى محمد (الكيرج) وهي مدينة (بومباي) كما يطلق عليها اليوم، وكانت مدينة مقدّسة عند أهل البلاد، فخرج إليه الملك (دوهر) الذي كان ملكاً قديراً، فقاتله محمد، فهرب دوهر ومعه جيشه، وقيل: إنه قتل، فنزل أهل المدينة على حكم محمد، فقتل وسبى.

وبينما كان محمد ينتقل من نصر إلى نصر، ويستعدّ لفتح مملكة (قَنّوج) أعظم إمارات الهند، وكانت تمتد من السِّند إلى (البنغال)، وكان قد أوفد بَعْثَة إلى ملكها تدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فردّ الملكُ الوفَد ردّاً غير كريم، فأخذ محمد يُعِدّ العُدّة لفتحها، وجهّز جيشاً، فيه عشرة آلاف من الفرسان... وفي الوقت الذي أمّل محمد فيه أن يضمّ مملكة الهند الشمالية وعاصمتها (قَنُّوج) إلى ما فتحه من بلاد الهند، إذ جاءه خبر وفاة الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان سنده وسند الحجّاج بن يوسف الثقفي أيضاً، وتولية سليمان بن عبد الملك عدو الحجّاج وأسرته، فولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي كبشة السَّكْسَكِيّ السِّند، وعزل محمد بن القاسم[1].

ومات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السِّند بثمانية عشرة يوماً، وأدى اضطراب الأحوال إلى أن انتهز ...اي سنك[2] بن داهر هذه الفرصة، فانقض على مدينة (براهمينآباد) واستخلصها لنفسه، فلم يستطع حبيب بن المهلّب بن أبي صُفّرة الذي ولّاه السِّند سليمان بن عبد الملك أن يستردّها منه.

ومات سليمان بن عبد الملك، فخلفه عمر بن عبد العزيز رضي الله

---

(١) انظر التفاصيل في: فتوح البلدان (٦١٢ ـ ٦١٨) وابن الأثير (٤/٥٣٦ ـ ٥٣٩)، وانظر سيرة محمد بن القاسم في هذا الكتاب، وانظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٥٨ ـ ٦٥). وانظر ضحى الإسلام (١/ ٢٣٠).

(٢) تطلق عليه المصادر العربية: حبشة بن داهر، انظر مثلًا فتوح البلدان (٦٢٠).

عنه، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطّاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فأسلم چاي سنك بن داهر وغيره من ملوك الهند، وتسمّوا بأسماء العرب.

وولّى عمر بن عبد العزيز عمرو بن مُسْلم الباهلي أخا قُتَيْبَة بن مسلم الباهليّ ثغر الهند، فصادفه شيء من النصر.

وحاول بعض المهالبة الذين هربوا إلى السِّند في أيام يزيد بن عبد الملك السيطرة على ما فتحه المسلمون في الهند والاستقلال به عن الأُمويين، فوجّه إليهم يزيد بن عبد الملك هلال بن أحْوَز التّميمي، فلقيهم هناك وقتل مُدْرِك بن المهلّب بقَنْدابِيل، وقتل المُفَضَّل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بني المهلّب أيضاً.

وهكذا كان العرب المسلمون يقاتلون أعداءهم، فأصبحوا يقتتلون بينهم، وكانت سيوفهم على أعدائهم، فأصبحت سيوفهم عليهم.

وصار أمر السِّند في عهد هشام بن عبد الملك إلى الجُنَيْد بن عبد الرحمن المُرِيّ، فأتى الجُنَيد (الدَّيْبُل) ثم نزل شط (مِهْران)، فمنعه چاي سنك بن داهِر العبور، وأرسل إليه: «إني قد أسلمتُ، وولّاني الرجل الصَّالح[1] بلادي، ولستُ آمنك»، فأعطاه رهناً، وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج، ثم إنهما ترادا الرّهن. وكفر جيش ابن داهر وحارب المسلمين، وقيل: إنه لم يحارب، ولكن الجنيد يجني عليه. وسار الجنيد إلى جيش ابن داهر، فانتصر المسلمون واسترد الجنيد (برهمنآباد) وقتل ابن داهر غدراً.

وتولّى بعد الجُنَيد، تميم بن زيد العتبي، فضعف ووهن، ومات قريباً من (الدَّيْبُل)، وكان تميم من أسخياء العرب، ولكنه كان ضعيفاً متردداً، فضيّع بضعفه وتردّده كلّ ما بذله سلفه من جهود.

---

(١) يريد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وجاء السِّند من بعد ذلك الحكَمُ بن عَوَانة الكَلبيّ، وقد كفر أهل الهند، وكان بصحبته عمرو بن محمد الثقفي، وفي عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة[1] على شاطئ السِّند غير بعيد من (برهمنآباد)، فصارت الأخيرة (المنصورة) حاضرة المسلمين. وقتل الحكم فانفرد عمرو بن محمد بن القاسم بالحكم، فنهج نهج أبيه محمد بن القاسم، فأحيا سيرة أبيه في العدل والحزم ومعاملة الهنادكة معاملة حسنة.

وتولى يزيد بن غرار السِّند بعد عمرو بن محمد بن القاسم، فاقتحم السند عليه ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأُمويّة يدعى: منصور بن جمهور الكلبي، فاغتصب هذه الإمارة سنة ثلاثين ومائة الهجرية لنفسه (٧٤٧م).

ولو اقتصر الأمر على (فرية) الأجانب الحاقدين على العرب والمسلمين، لهان الخَطب ولسكتنا عنهم، لتفاهة هذه الفرية وتهافتها وبعدها عن الصدق والحق.

ولكن هذه الفرية نقلها أبناؤنا العرب والمسلمون عن الأجانب الحاقدين إلى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، ولقنوها للتلاميذ والطلّاب، ونقلوها إلى نصوص محاضراتهم ومؤلفاتهم نقلًا لا يدلّ إلّا على الغباء المقيت.

لذلك كان لزاماً علينا أن نردّ على هذه (الفرية) على الرغم من أنها لا تستحق الرد، لأنّ بواعثها مكشوفة، حرصاً على عقول المعلمين والأساتذة والتلاميذ والطلاب العرب المسلمين وإظهاراً للحق الواضح الصريح.

إنّ ضعف أمة من الأمم، لا يفسح المجال لغيرها من الأمم أن تنتصر، فلا بد أن تتوفر شروط معيّنة في أمة من الأمم لتحرز النصر.

---

(١) موقعها اليوم مشارف حيدر آباد السِّند.

وضعف الهنود وغيرهم من الأمم، لم يكن السبب الأول والأخير لانتصار العرب المسلمين عليهم.

وقد صادف العرب المسلمون في الهند حضارة من أعرق الحضارات، ودولًا قائمة ذات تقاليد عسكرية عريقة، وتفوّق في تعداد النفوس تفوقاً كاسحاً.

وفي السِّند بالذات، كان الملك داهر من أقوى الملوك البراهمة، وهو الذي أنقذ السِّند من الآريين بعد أن سيطروا عليه قروناً طويلة، وهو الذي وجده المسلمون على هذا الإقليم أيام الفتح، فليس من السهل الانتصار عليه وهو الملك القائد المنقذ.

وقد قُتل داهر بعد معارك طاحنة دارت بين جيشه من جهة وجيش المسلمين من جهة أخرى، فخلفه ابنه الذي أعلن إسلامه واستبدل باسمه اسماً عربياً.

وقد أحصيتُ عدد الذين تولّوا ثغر الهند على عهد بني أُميّة، فوجدتهم خمسة عشر والياً، مات منهم خارج الهند سبعة، وقتل منهم أو مات في الهند ثمانية، أي أنّ معدّل الخسائر في الولاة وهم قادة الفتح ستون بالمائة!

وهذا معدل رهيب، يدل دلالة واضحة أنّ الفتح الإسلامي في الهند لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية، بل كان جهاداً رهيباً أساسه الجماجم والأرواح.

ولست أطمع أن أُغيِّر أفكار أعداء العرب والمسلمين، فهم يعرفون الحق ولكنهم يزوغون عنه، ولكنني أطمح أن أعيد المغرّر بهم من العرب والمسلمين إلى طريق الصواب.

ولا أريد أن أشقّ على أحد، ولكن أريد منهم أن يقرأوا مجرى معارك الفتح، ليقررِّوا بأنفسهم مبلغ ما بذله المسلمون الفاتحون من تضحيات

جسام، وليعلموا أنَّ الفتح الإسلامي في جميع الجبهات لم يكن نزهة ترفيهية، بل كان جهاداً صعباً.

وقضى العباسيون على الخلافة الأُمويّة، فعهد السفّاح أول خلفائهم بأمر الإقاليم الإسلاميّة إلى نصيره أبي مُسلم الخُراساني الذي بعث بدوره إلى السِّند بعبد الرحمن بن أبي مُسلم العَبْدِيّ، ليخفق في طرد جمهور بن منصور الكلبيّ ويلاقي حتفه على يديه.

وخلفه موسى بن كعب التميمي، فما زال بالثائر جمهور بن منصور الكلبّي يطارده، إلى أن هلك في الصحراء عطشاً.

تلك هي مجمل قصة فتح الهند منذ حاول المسلمون فتحها على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن تولى العباسيون بعد القضاء على بني أُميّة.

والذي فتح الهند بحق هم الأمويون أيام دولتهم.

لقد كانت محاولات الفتح قبل محمد بن القاسم عبارة عن غارات استطلاعية أو غزوات ذات طابع محدود، لاعتمادها على الجيوش المحليّة للأمراء المحليين، وهي قوات على كل حال قليلة العدد قليلة المدد.

لذلك كان نجاح الفاتحين محليّاً ومحدوداً.

ولأول مرة في عهد الحجاج بن يوسف الثّقفي والي (العِراقَيْن)، وبقيادة محمد بن القاسم الثّقفي، على عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان، زُجّ بجيش الدولة وطاقاتها لفتح الهند، فكان الجيش مؤلفاً من قوّات عراقيّة وقوّات شاميّة، لذلك نجح الفتح بشكل سريع وبنطاق واسع، فكانت فتوح محمد بن القاسم ليس فتحاً بل حشراً ـ على حد تعبير موسى بن نُصَيْر[١]

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

في رسالته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك واصفاً فتح الأندلس: «إنها ليست كالفتوح، ولكنها الحَشْرُ».

ومع إدخال كفاية محمد بن القاسم القياديّة الفَذة في الحساب، وأثر تلك الكفاية في الفتح، إلّا أنّ مشاركة جيش الدولة وزجّ كل طاقاتها الإدارية لإنجاح هذا الجيش في تحقيق أهدافه، كان له أثر كبير في تحقيق أهداف الفتح.

إن فتوح مَن سبق محمد بن القاسم في الهند ومن لحقه على عهد الدولة الأمويّة، كانت فتوحاً تعبوية.

أما فتوح محمد بن القاسم وحده، فكانت فتوحات سَوْقية.

وقبل أن ننتهي من أمر الفتح الإسلامي في الهند، لا بدّ من أن نلفت النظر إلى (فرية) طالما ردّدها أعداء العرب والمسلمين من الأجانب، والهدف منها التهوين من أمر الفتح الإسلامي في الهند وفي غيره من الفتوحات الإسلاميّة شرقاً وغرباً.

وتقول هذه (الفرية): إن الهنود كانوا ضعفاء، ولهذا انتصر عليهم المسلمون!!

وكمثال على ذلك قولهم: «إنّ توفر مقامات الحضارة والمدنية العريقة عند الهنود، لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحرهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان، حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين!!».

قادة فتح السِّند

١ ـ المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة الأَزدِيّ.

٢ ـ محمد بن القاسم الثقفيّ.

المُهَلَّبُ بن أبي صُفرَة الأَزْدِيّ

القائد الذي مَهّد لفتح السِّنْد وفتح منطقة مدينة كِشّ[1] ومدينة خُجَنْدة[2] واستعاد منطقة الخُتَّل[3].

«هذا سيد أهل العراق»

(عبد الله بن الزبير)

نسبه وأهله:

هو أبو سعيد المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة بن سَرَّاق[4] بن صُبَيْح[5] بن كِنْدِيّ بن عمرو بن عَدِي بن وائل بن الحارث بن العَتِيْك بن الأسد[6] بن

---

(١) كش: مدينة تقارب سمرقند عبر نهر جيحون. وقد وردت باسم: كش في الطبري (٥/ ١٣٩) وابن الأثير (٤/ ١٧٥) وابن خلدون (٣/ ٤٦١) والبلاذري (٣٠٧)، لذلك أخذنا بهذا الاسم لشهرته. أما في معجم البلدان (٧/ ٢٥٠) فيذكر أنّ اسمها: كس لا كش ويقول: «وربما صححه بعضهم فقاله بالشين المعجمة وهو خطأ». انظر معجم البلدان (٧/ ٢٥١)، وقد ورد ذكرها في المسالك والممالك (١٦٦) باسم: كش بفتح الكاف لا بكسرها كما جاء في معجم البلدان.

(٢) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ نهر سيحون، بينهما وبين سمرقند عشرة أيام شرقاً. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠٢).

(٣) الختل: كورة واسعة كثيرة المدن تقع وراء النهر، وهي على تخوم السند. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠١).

(٤) ويقال: ابن سارق. انظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة(٧/ ١٠٥).

(٥) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن صُبْح، وكذلك في جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٦) في الإصابة (٧/ ١٠٥) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢): ابن الأزد.

عمران بن عمرو مُزَيْقِيَاء[1] بن عامر ماء السماء[2] بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزدَ الأزدي العتكي[3]، وهو من أزد العَتيك ـ أزد (دَبَا)[4].

وكان أبو صُفْرَة والد المهلب مسلماً على عهد النبيّ ﷺ وأدى إليه زكاة ماله ولكنه لم يفد عليه، وقد وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرة من ولده أصغرهم المهلّب، فجعل عمر ينظر إليهم ويتوّسم، ثم قال لأبي صُفْرة: «هذا سيد ولدك»[5]، وقيل: إنه وفد على أبي بكر الصديق

---

(١) مزيقياء: لقب عمرو المذكور، وكان من ملوك اليمن، وإنما لقب بذلك لأنه كان يلبس كلّ يوم حلّتين منسوجتين بالذهب، فإذا أمسى مزقهما وخلعهما لأنه يكره أن يعود فيهما ويأنف أن يلبسهما أحد غيره. وعمرو هذا هو الذي انتقل من اليمن إلى الشام، والأنصار من ولده وهم الأوس والخزرج. وقد ذكر ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه: (القصد الأمم في أنساب العرب والعجم): أنّ الأكراد من نسل عمرو هذا وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم، فسموا: الكرد، فقال بعض الشعراء:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ... ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩).

(٢) في وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩): عامر ماء السماء لا عامر بن ماء السماء كما ورد في أعلاه، وقد لقب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه، فشبّه بالغيث.

(٣) أسد الغابة (٥/ ٢٣١)، وانظر الإصابة (٣/ ٣٠٣) و(٧/ ١٠٥) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١) و (٧/ ١٢٩) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢)، واسم أبي صفرة: ظالم، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٦٧).

(٤) دبا: اسم موضع بين عمان والبحرين، انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩) والمعارف (٣٩٩). وهي مدينة بعمان قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٠).

وقد أضيفت جماعة من الأزد إلى (دبا) لما نزلوها، وكان الأزد عند تفرقهم أضيفت كل جماعة منهم إلى شيء يميزها عن غيرها، فقيل: أزد دبا، وأزد شنوأة، وأزد عمان وأزد السراة، ومرجع الكل إلى الأزد المذكور.

انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(٥) أسد الغابة (٥/ ٢٣١) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) والإصابة (٦/ ٢١٦) و (٧/ ١٠٥).

رضي الله عنه مع بنيه[1]، ورواية وفوده على أبي بكر ضعيفة كما سنرى.

وقد ذكر الواقدي: أنّ أهل (دَبَا) أسلموا على عهد رسول الله ﷺ ثم ارتدوا بعده ومنعوا الزكاة، فوّجه إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عِكْرِمة بن أبي جَهْل المخزومي فقاتلهم فهزمهم وأثخن بهم القتل، فتحصن فَلُّهم في حصن لهم، فحصرهم المسلمون حتى نزلوا على حكم عكرمة، فقتل مائة من أشرافهم وسبى ذراريهم وبعث بهم إلى أبي بكر الصدِّيق - رضي الله عنه - وفيهم أبو صُفر غلام لم يبلغ، فأعتقهم عمر بن الخطاب وقال: «اذهبوا حيث شئتم»، فتفرّقوا، فكان أبو صفرة ممن نزل البصرة[2].

والحقيقة، أنّ أبا صفرة لم يكن بين السبي ولا رآه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قط، وإنما وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شيخ أبيض الرأس واللحية، فأمر عمر أن يخضب فخضب، فكيف يكون غلاماً في زمن أبي بكر وكان من ولده من ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثين سنة أو أكثر[3]؟!.

لقد أوفد عثمان بن أبي العاص الثقفي وهو أمير البصرة أبا صفرة في رجال من الأزد على عمر بن الخطاب، فسألهم عن أسمائهم وسأل أبا صفرة، فقال: «أنا ظالم بن سارق»، وكان أبيض الرأس واللحية وكان قد اختضب، فقال له عمر: «أنت أبو صُفْرة!»، فغلبت عليه هذه الكنية[4].

إنّ إيفاد أمير البصرة لأبي صفرة على أمير المؤمنين عمر، دليل على

---

(١) الاستيعاب (٤/١٦٩٣) وأسد الغابة (٢٣١٥) والإصابة (٦/٢١٦).

(٢) المعارف (٣٩٩)، وانظر معجم البلدان (٤/ ٣٠ - ٣١) والإصابة (٧/ ١٠٥) وطبقات ابن سعد (٧/ ١٠١ - ١٠٢).

(٣) انظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٢ - ٤٣٣)، ولم يتطرق إلى ذكر رواية الواقدي هذه كل من صاحب أسد الغابة والاستيعاب، انظر أسد الغابة (٥/ ٢٣١) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢ - ١٦٩٣)، وقد ذكرها مؤلف الإصابة وردّ عليها، انظر الإصابة (٧/ ١٠٥ - ١٠٦).

(٤) الإصابة (٧/ ١٠٥ - ١٠٦).

أنه كان من رجالات الأزد شرفاً وعقلًا وتصُّرفاً، فهو ممن نزل البصرة وشرف بها[1]، وكان له طول وجثّة وجمال وفصاحة ولسان[2].

أيامه الأولى:

ينتسب المهلّب إلى قبيلة الأزد المعروفة بشجاعة رجالها وإقدامهم ورجاحة عقولهم، وكان أبوه من سادات الأزد عقلًا واتزاناً وشجاعة وإقداماً، فعاش المهلّب أيامه الأولى في بيئة تقوِّي مزاياه السامية: ورث محاسن البداوة عن قبيلته وأهله، وترعرع في البصرة التي امتزجت فيها البداوة بالحضارة، فنشأ وترعرع في محيط تعتدّ فيه البداوة بمزاياها الأصيلة وتأخذ من الحضارة ما يهذِّب تلك المزايا ويجعلها أكثر رقة وأبلغ أثراً.

لقد امتزج الطبع الموهوب في المهلب بالعلم المكتسب، فكوّن هذا المزيج شخصيته النادرة في مزاياها البشرية والقيادية على حد سواء.

جهاده:

١ ـ في المشرق:

أ ـ شهد المهلّب حروب عبد الرحمن بن سَمُرَة القُرَشِيَ العَبْشَمّي في سِجِسْتان[3] وذلك سنة إحدى وثلاين الهجرية[4]، (٦٥١م) إذ كان أَحد الأشراف الذين كانوا في جيش عبد الرحمن بن سمرة[5]، فوجّهه عبد الرحمن بشارة فتح (كابُل)[6] إلى عبد الله بن عامر أمير البصرة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١٠٢).

(٢) الإصابة (٧/ ١٠٥).

(٣) سجستان: يحدها من الشرق المفازة بين مكران والسند، ومن الغرب خراسان، ومن الشمال الهند، ومن الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٣٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١) ومعجم البلدان (٥/ ٣٧).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٥٠).

(٥) البلاذري (٣٨٨).

(٦) البلاذري (٣٨٨).

ب ـ وكان أول من عقد للمهّلب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ ولّاه قيادة الأزد حين انهزمت يوم (الجمَل)[1] وذلك سنة ست وثلاثين الهجرية[2] (٦٥٦م).

ج ـ وفي أيام معاوية بن أبي سفيان حين كان على البصرة عبد الله بن عامر، غزا المهلّب ثغر السنّد، فأتى (بَنّة)[3]، و(لاهور)[4] وهما بين (المُلْتَان) و(كابل) فلقيه العدو فكبّده المهلّب خسائر فادحة، وفي ذلك يقول بعض الأزديين.

ألم تر أنّ الأزد ليلة بيّتُوا   ببَنّة كانوا خير جيش المهلّب؟![5]

وكان المهلب حينذاك في خراسان مع الحكم بن عمرو الغفاري[6].

ولقي المهلّب ببلاد (القِيْقَان)[7] ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة فقاتلوه فقتلوا جميعاً، فقال المهلّب: «ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا؟!»، فحذف الخيل فكان أول من حذفها من المسلمين[8].

---

(١) الإصابة (٦/٢١٦).

(٢) ابن الأثير (٣/٨٠).

(٣) بنة: مدينة بكابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٩٤).

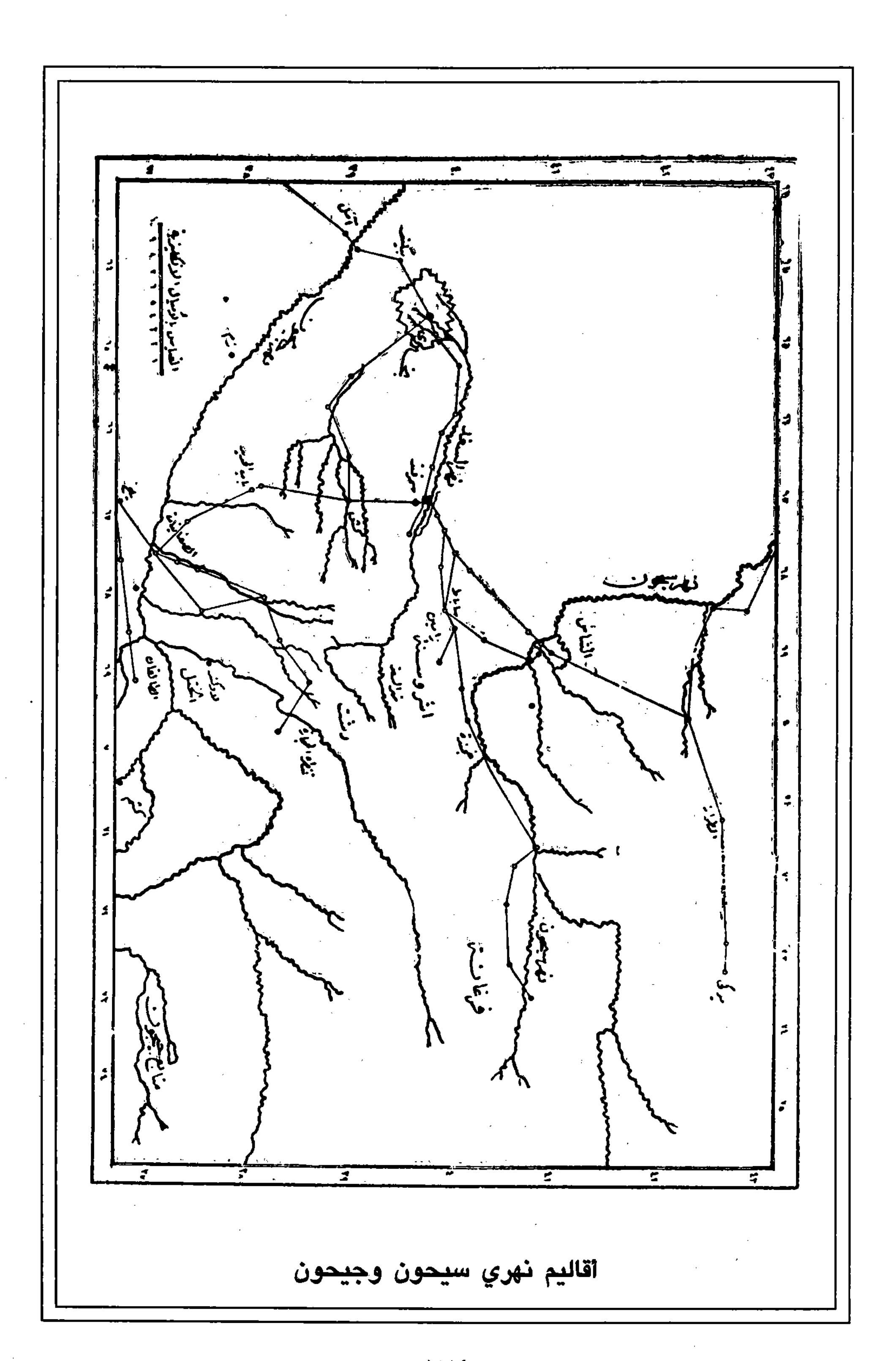
(٤) لاهور: ولاية من ولايات الهند واقعة جنوب كشمير وعلى طريق القوافل بين الهند وأفغانستان وإيران، انظر التفاصيل في منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان (٢/٢١١).

(٥) انظر معجم البلدان (٢/٢٩٤)، وفي ابن الأثير (٣/١٧٧) والبلاذري (٤٢١) وردت كلمة: الأهواز بدلًا من: لاهور، ونص العبارة الواردة في هذين المصدرين: «فأتى بنة والأهواز وهما بين الملتان وكابل». ومن الواضح أنّ الصحيح هو ما ذكرناه أعلاه.

(٦) البدء والتاريخ (٦/٣٢).

(٧) القيقان: من بلاد السند مما يلي خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٩٧) وكان ذلك سنة أربع وأربعين الهجرية.

(٨) ابن الأثير (٣/١٧٧) والبلاذري (٤٢١) ومعجم البلدان (٧/١١٨).



أقاليم نهري سيحون وجيحون

د ـ وفي أيام معاوية بن أبي سفيان أيضاً حين كان زياد بن أبي سفيان على البصرة، وُلِّي الحَكَم بن عمرو الغِفَارِي[1] (خُرَاسان) فغزا (الغُوْر)[2]: وكان المهلّب مع الحكم فغزا معه بعض جبال الترك، فأخذ الترك عليهم الشِّعاب والطرق، فولّى الحكمُ المهلبَ أمر الحرب، فلم يزل يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال له: «إما أن تُخْرِجَنا من هذا الضيق أو لأقتلنّكَ»؛ فقال له: «أَوْقِدْ النّار حيال طريق من هذه الطرق، وسيِّر الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادروهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه»، ففعل ذلك، فسلمَ الناس بأرواحهم وأموالهم[3].

٢ ـ في قتال الخوارج:

أ ـ حماية البصرة:

أمَّرَ مُصْعَبُ بن الزبير على البصرة المهلّبَ نيابة عنه في أيام أخيه عبد الله بن الزبير، ثم ولّاه عبد الله (خُراسان)[4]، ولكنه بدلًا من أن يتوجّه لتولي منصبه هذا، تولى قيادة أهل البصرة عندما طوّقها الخوارج وهدّدوا أهلها بالفناء، فحمى المهلّب البصرة بعد جلاء أهلها عنها إلّا مَنْ كانت به قوّة، فهي تسمى: بصرة المهلّب[5].

فقد أجمع رأي أهل البصرة وعلى رأسهم الأحنف بن قيس التميمي في أحرج ساعات محنتهم على تسليم قيادتهم للمهلّب، إذ أتى أهل البصرة الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولّى حربهم، فأشار عليهم بالمهلّب لما يعلم

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتاب: قادة فتح ما وراء النهر.

(٢) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٣).

(٣) ابن الأثير (٣/ ١٨١)، وكان ذلك سنة سبع وأربعين الهجرية (٦٦٧م).

(٤) سرح العيون (١٠٢).

(٥) المعارف (٣٩٩) وانظر الإصابة (٦/ ٢١٦) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣)، وانظر ما جاء عن ذلك في اليعقوبي (٣/ ١١).

فيه من الشجاعة والرأي والمعرفة بالحرب[1] قائلًا لأشراف البصرة: «ما لهذا الأمر إلّا المهلّب»؛ فخرج أشراف الناس فكلّموا المهلّب أن يتولى قتال الخوارج، فقال: «لا أفعل! هذا عهد أمير المؤمنين معي على (خُراسان)، فلم أكن لأدع عهده وأمره»، فدعاه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُرَشِيّ أمير البصرة حينذاك فكلّمه في ذلك، فقال له: مثل ما قال للناس، فاتفق رأي أمير البصرة ورأي أهلها على أن يكتبوا على لسان عبد الله بن الزبير يأمره بقتال أهل الخوارج، ثم أتوه بالكتاب[2]، وقال له الحارث أمير البصرة: «يا أبا سعيد! قد ترى مارهقنا[3] من هذا العدو، وقد اجتمع أهل مصرك عليك». وقال له الأحنف: «يا أبا سعيد! إنّا والله ما آثرناك بها، ولكنا لم نر مَن يقوم مقامك»؛ فقال المهلّب: «إني عند نفسي لدون ما وصفتم، ولست آبياً ما دعوتم إليه على شروط أشرطها»، فقال الأحنف: «قل!»؛ فقال المهلّب: «على أن أنتخب من أحببت»، فقال الأحنف: «ذلك لك»، فقال المهلّب: «ولي إمرة كلّ بلد أغلب عليه»، فقال الأحنف: «وذلك لك!»، قال: «ولي فيئ كلّ بلد أظفر به»، فقال الأحنف: «ليس ذلك لك ولا لنا، إنما هو فيئ المسلمين، فإن سلبتهم إياه كنتَ عليهم كعدوهم؛ ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيئ كلِّ بلد تغلب عليه ما شئت، وتنفق على محاربة عدوك، فما فضل عنكم كان للمسلمين»؛ فقبل المهلّب؛ وكتب أمير البصرة بذلك كتاباً[4].

وانتخب المهلب من أهل البصرة اثنى عشر ألفاً[5]، ولم يكن في بيت المال ما يكفى لسدِّ حاجات المتطّلبات الإدارية لهذا الجيش، فبعث المهلّب إلى التجار مَنْ يقول لهم: «إنّ تجارتكم منذ حول قد كسدت عليكم بانقطاع

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٧٩).

(٢) انظر نص هذا الكتاب في الطبري (٤/ ٤٧٨).

(٣) رهقنا: غشينا ولحقنا.

(٤) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٢).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٧٦) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٢).

موارد الأهواز وفارس عنكم، فبايعوني وأخرجوا معي أُوفِّكم إن شاء الله حقوقكم»، فأخذ منهم المال الذي يصلح به عسكره[1].

وسار المهلّب إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر في البصرة، فحاربهم ودفعهم عن هذا الجسر - ولم يكن بقي للخوارج إلّا أن يدخلوا البصرة - فانسحب الخوارج إلى منطقة الجسر الأكبر، فسار إليهم المهلّب في الخيل والرجال، فلما رأوه قاربهم انسحبوا إلى منطقة أخرى[2]؛ فأمر المهلب بسفن فأُحضرت وأُصلحت، فأمر الناس بالعبور إلى الفرات وأمّر عليهم ابنه المُغِيْرة، فحارب الخوارج حتى أعدّ المهلّب الجسر، فلم يعبر إلّا والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتباعهم[3]، وبذلك نجح المهلّب في حماية البصرة من خطر داهم.

ب - في سواد البصرة والأهواز:

أولاً: وأكمل المهلّب استعدادات رجاله، ثم سار حتى نزل بالخوارج في منطقة نهر (تِيري)[4]، فتنحّوا عنه إلى الأهواز[5]، فأقام المهلّب في تلك المنطقة أربعين يوماً يجبي الخراج من كُوَر دجلة، فقضى ما للتجار عليه من ديون وأعطى أصحابه، فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدة الخوارج وفي الغنائم والتجارة[6] بعد أن ارتفعت معنوياتهم وعادت الثقة إلى نفوسهم.

ثانياً: وسيّر المهلب إلى معسكر الخوارج في الأهواز الجواسيس،

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٢ - ١٧٣).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٧٦) والطبري (٤/ ٤٧٩).
(٣) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).
(٤) نهر تيري: نهر من نواحي الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٤٠)، وهو باسم بلد من نواحي الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٣٨)، وانظر المسالك والممالك (٦٥).
(٥) ابن الأثير (٤/ ٧٦).
(٦) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

فأتوه بأخبارهم، فسار نحوهم واستخلف أخاه المُعَارِك بن أبي صُفْرَة على نهر (تيري). وفي الأهواز اصطدمت مقدمته التي كانت بقيادة ابنه المغيرة بالخوارج، فارتحل الخوارج عن (سوق الأهواز)[1] بعد أن أشعلوا النيران في بقايا أمتعتهم[2].

وسار المهلب حتى نزل (سُولاف)[3]، وكان المهلّب شديد الاحتياط والحذر: لا ينزل إلّا ويخندق وهو على تعبية، ويتولى الحرس بنفسه، وهناك في (سولاف) نازل الخوارج فقاتلوا كأشد القتال، وصبر بعضهم لبعض عامة النهار، ثم حملت الخوارج حملة صادقة على المهلّب وأصحابه، فانهزموا لا تلوي أم على ولد، حتى بلغ بعض المنهزمين البصرة، ولكن المهلب ثبت وأخذ ينادي: «إليّ إلي عباد الله»، فثاب إليه جماعة من قومه، واجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس؛ فلما كان الغد أراد القتال بمن معه، فنهاه بعض أصحابه لضعفهم وكثرة الجراح فيهم؛ فترك القتال وانسحب قاطعاً نهر (دُجَيْل)[4] ونزل (بالعاقول)[5] في موضع لا يؤتى إلّا من جهة واحدة، وأقام هناك ثلاثة أيام. ثم ارتحل نحو الخوارج وهم بـ

---

(١) سوق الأهواز: اسم مدينة في الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٦) و (١/ ٣٨٠).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٧٧).

(٣) سولاف: قرية في غربي نهر دجيل من أرض الأهواز قرب مناذر الكبرى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٨).

(٤) دجيل: اسم نهر في موضعين: أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها، فيسقي كورة واسعة وبلاداً كثيرة ثم تصب فضلته في دجلة.
ودجيل الآخر ـ وهو المراد هنا ـ نهر بالأهواز، مخرجه من أرض أصبهان ومصبه في الخليج العربي قرب عبادان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١).

(٥) العاقول: لم أعثر على محله بالضبط، وهناك دير العاقول بين مدائن كسرى والنعمانية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٥٤)، ولا يمكن أن ينسحب المهلب إلى هذا الموضع لبعده عن منطقة القتال، والمرجح أنّ العاقول في منطقة الأهواز بالقرب من دجيل.

(سُلّيْ وسَلّيري)[1]، فخندق عليه، ووضع المسالح وأذكى العيون والحرس، والناس على راياتهم ومواقفهم، وأبواب الخندق محفوظة، فكان الخوارج إذا أرادوا بياته وغِرّته، وجدوا أمراً محكماً، فيعودون من حيث أتوا، فلم يقاتلهم إنسان كان أشدَّ عليهم منه؛ وقد حاول الخوارج مهاجمة معسكر المهلّب ليلاً، فلم تنجح محاولتهم، لأنّ أصحاب المهلّب كانوا على تعبية وحذر[2].

وهاجم المهلّب الخوراج بـ (سُلّى وسَلّيري)، فاقتتل الطرفان قتالًا شديداً، وصبر الفريقان عامة النهار؛ ثم رجع كل قوم إلى معسكرهم.... واستمرت المعركة بين الطرفين ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث حمل الخوارج على جيش المهلّب: حمل رجل من الخوارج على رجل من رجال المهلّب فطعنه، فحمل عليه المهلّب فطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، فضعضعوا الناس[3] فانهزموا حتى بلغت الهزيمة البصرة وخاف أهلها السباء. في هذا الموقف الحرج، أسرع المهلّب حتى سبق المنهزمين إلى مكان مرتفع، ثم نادى: «إليّ عباد الله!»، فثاب إليه جماعة من قومه، وثابت إليه سرية من عُمان، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف أكثرهم من الأزد قومه، فخطبهم قائلًا: «أما بعد. فإنّ الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهْزَمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلّة.... إني لجماعتكم لراضٍ، وإنكم أنتم لأهل الصبر وفرسانُ أهل المصر.... وما أحبّ أنّ أحداً ممن انهزم معكم، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلّا خَبالًا، عزمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم، فإنهم الآن آمنون؛ وقد خرجت خيلهم في

---

(١) سلى وسليرى: موضعان بالأهواز، انظر الكامل للمبرد (٣/١٧٨) ومعجم البلدان (٥/١١٨).

(٢) ابن الأثير (٤/٧٧) والطبري (٤/٤٧٩)، وانظر الكامل للمبرد (٣/١٧٨).

(٣) الكامل للمبرد (٣/١٧٩).

طلب إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم...» وأقبل المهلّب راجعاً برجاله، فما شعرت الخوارج إلّا والمهلّب يقاتلهم في جانب عسكرهم، فقتل المهلّبُ أمير الخوارج وكثيراً من أصحابه، وغنم معسكرهم. وأقبل مَنْ كان يطارد المنهزمين من أهل البصرة راجعاً، وكان المهلّب قد وضع لهم خيلًا ورجالًا على طريق عودتهم تختطفهم وتقتلهم، مما اضطر الخوارج على الانسحاب إلى (كَرْمَان)[1] بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال[2]؛ وبذلك قلب المهلّب هزيمته الماحقة إلى نصر مبين... فكتب إليه أمير البصرة يهنئه بنصر الله قائلًا: «... ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة وذا الرياسة؛ فاستدم الله بشكره يتمم نعمه؛ والسلام». وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه أيضاً[3].

وكان المنهزمون من جيش المهلّب قد وصلوا البصرة، فذكروا أنّ المهلّب قد أصيب، فهمّ أهل البصرة بالنزوح إلى البادية... حتى أتاهم كتاب المهلّب بظفره، فأقام الناس وتراجع مَنْ كان قد نزح منهم؛ فعند ذاك قال الأحنف بن قيس: «البصرة بَصْرَةَ المهلّب»[4].

وأقام المهلّب بعد هذه المعركة بالأهواز، حيث بقي هناك حتى جاء مُصْعَب بن الزبير البصرة، بعد عزل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عنها[5].

---

(١) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٤١)، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها في المسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠)، وكرمان بفتح الكاف وربما كسرت.

(٢) الطبري(٤/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) وابن الأثير (٤/ ٧٧ ـ ٧٨) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٢)، وانظر سرح العيون (١٠٣).

(٣) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٢).

(٤) الكامل للمبرد (١٨٤).

(٥) الطبري (٤/ ٤٨١).

ثالثاً: واستمر المهلب[1] على قتال الخوارج في أيام مصعب وفي أيام خلفه على البصرة حمزة بن عبد الله بن الزبير، فلما أعاد عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً إلى العراق أميراً، أراد مصعب أن يولي المهلّب بلاد (الموصل) و (الجزيرة) و (إرمينية) ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان، فكتب إليه وهو بفارس في القدوم عليه، فاستخلف المهلّب على عمله ابنه المغيرة، ووصّاه بالاحتياط ثم قدم البصرة، فعزله مصعب عن حرب الخوارج وبلاد فارس، وولّاه الموصل والجزيرة وإرمينية، فعاث الخوارج من بعد المهلّب في الأرض فساداً: لا يمروّن بقرية بين أصفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا مَنْ فيها[2]، فشاور مصعب الناس، فأجمع رأيهم على المهلّب، فقال أمير الخوارج قَطَرِيّ بن الفُجاءة: «إن جاءكم المهلّب فرجل لا يناجزكم حتى تناجزوه، ويأخذ منكم ولا يعطيكم، فهو البلاء الملازم والمكروه الدائم»[3]

وخرج المهلّب من البصرة يريد الخوارج، فلما أحسّ به قَطَرِيّ بن الفُجاءة أمير الخوارج قصد (كَرْمان)، فأقام المهلّب بالأهواز، فكرَّ قَطَرِيّ عليه وقد استعدّ واستعدّ المهلّب أيضاً، فحاربهم المهلّب واضطرهم على الانسحاب إلى (رامَ هُرْمِز)[4] مندحرين[5].

وأرسل مصعب إلى المهلّب يستشيره، وقيل: بل أحضره عنده في أمر حماية العراق من تهديد عبد الملك بن مروان الذي سار بجيوشه إلى العراق، فقال المهلّب لمصعب: «اعلم أنّ أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك

---

(١) ابن الأثير (٤/ ١٠٩)، وانظر الطبري (٤/ ٥٧٩) والكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٢) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨).
(٣) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٨).
(٤) رام هرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود. وهرمز أحد الأكاسرة؛ فكأنّ هذه اللفظة مركبة معناها: مقصود هرمز أو مراد هرمز. وهي مدينة مشهورة بنواحي الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢١) والمسالك والممالك (٦٤).
(٥) الكامل للمبرد (٣/ ١٩٢).

وكاتبهم، فلا تبعدني عنك»، فقال مصعب: «إنّ أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إليّ ألّا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر..»، فعاد إلى قتال الخوارج[1].

رابعاً: وقتل عبد الملك مصعباً، وكان المهلّب يقاتل الخوارج بـ (سولاف)، فبلغ قتل مصعب الخوارج قبل المهلّب[2]، فلما استقر عبد الملك بالكوفة بعد قتل مصعب استعمل خالد بن عبد الله القسري على البصرة، فجعل المهلّب على خراج الأهواز وسيّر أخاه عبد العزيز بن عبد الله القسري إلى قتال الخوارج، فسار الخوارج إليه وهزموه[3].

وعلم عبد الملك بخبر هذه الهزيمة فكتب إلى عامله على البصرة خالد بن عبد الله: «أما بعد. فقد قدم رسولك في كتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة مَن هزم وقتل مَن قتل، وسألت رسولك عن مكان المهلّب فحدّثني أنه عامل لك على الأهواز، فقبّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلّب إلى جنبك يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها: ابنها وابن أبنائها.... أرسل إلى المهلّب يستقبلهم، وقد بعثت إلى بِشْر[4] أن يمدّك بجيش من أهل الكوفة، فإذا أنت لقيت عدوّك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلّب وتستشيره فيه...»[5]، فكان المهلّب نعم المشير على خالد بن عبد الله في قتاله الخوارج[6].

---

(١) ابن الأثير (٤/١٢٥ ـ ١٢٦).
(٢) الطبري (٥/١٥) وابن الأثير (٤/١٣١ ـ ١٣٢) والكامل للمبرد (٣/١٩٣).
(٣) الطبري (٥/١٦) وابن الأثير (٤/١٣٢).
(٤) يريد بشر بن مروان أخا عبد الملك بن مروان الذي كان على الكوفة حينذاك.
(٥) الطبري (٥/١٧ ـ ١٨) وابن الأثير (٤/١٣٣).
(٦) انظر التفاصيل في الطبري (٥/١٨ ـ ١٩) وابن الأثير (٤/١٣٣).

خامساً: ولما عزل عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله من البصرة واستعمل مكانه بِشْر بن مروان. وجمع له المصرين: البصرة والكوفة، أمره أن يبعث المهلّب إلى حرب الخوارج[1]، فسار المهلّب حتى نزل (رام هُرْمزِ) حيث أصبح قائداً عاماً على جيشي الكوفة والبصرة[2].

سادساً: وتولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق، فعلم أنّ أكثر جيش أهل الكوفة قد رجعوا إليها بعد سماعهم بموتِ بِشر بن مروان، فقال الحجاج في خطابه الافتتاحي المشهور الذي ألقاه على أهل الكوفة بعد وصوله إليها مباشرة: «.... وقد بلغني رفضكم المهلّب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين، وإني أُقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة أيام إلّا ضربت عنقه وأنهبت داره...»، ثم دعا العرفاء وقال لهم: «ألحِقوا الناس بالمهلّب وأتوني بالبراءة بموافاتهم، ولا تغلقنّ أبواب الجسر ليلًا ونهاراً حتى تنقضي هذه المدة»، فخرج الناس وازدحموا على الجسر، وخرج العرفاء إلى المهلب وهو: بـ (رام هرمز)، فوافاه جند الكوفة هناك[3]... ثم كتب الحجاج إلى المهلّب: «أما بعد. فإن (بِشْراً) رحمه الله استكره نفسه عليك وأراك غناءه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك، فأرني الجد في قتال عدوك، ومَن خفته على المعصية ممن قِبَلك فاقتله.... إلخ»[4]، وبذلك أعطى الحجاج للمهلّب منتهى الصلاحية في قتل العصّاة، مما يدلّ على منتهى ثقة الحجاج بالمهلّب، فكان جواب المهلّب للحجاج: «ليس قِبَلي إلّا مطيع ونادم على ذنبه، وإنّ الناس إذا خافوا العقوبه كبروا الذنب، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يأسوا من العفو أكفرهم ذلك....

---

(١) ابن خلدون (٣/ ٤٠) والطبري (٥/ ٣٦) وابن الأثير (٤/ ١٤١)، وانظر الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٠).

(٢) ابن الأثير (٤/ ١٤١).

(٣) الطبري (٥/ ٤١) و (٥/ ٤٤) وابن الأثير (٤/ ١٤٥ ـ ١٤٦) وانظر ابن خلدون (٣/ ٤١)

(٤) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٣).

فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة، فإنما هم فرسان أبطال أرجو أن يقتل الله بهم العدو»[1]، وهذا منتهى الدفاع عن المعيّة لإعطائهم فرصة جديدة لإثبات إخلاصهم وحسن نياتهم وهذا منتهى العفو عند المقدرة.

ج ـ في أرض فارس[2] وكرمان:

أولاً: وأرسل الحجاج إلى المهلّب وإلى عبد الرحمن بن مِخْنَف الذي كان على جيش أهل الكوفة يأمرهما بمناهضة الخوارج، فزحفوا إليهم وقاتلوهم، فانهزم الخوارج إلى (كَازَرون)[3]؛ فسار المهلّب وابن مِخْنف حتى نزلوا بهم.

وخندق المهلّب على نفسه وقال لابن مخنف: «إن رأيت أن تخندق عليك، فافعل»؛ فقال ابن مخنف لأصحابه «نحن خندقنا سيوفنا»، فأتى الخوارج المهلّب ليبيتوه فوجدوه قد تحرّز فمالوا نحو ابن مِخْنَف، فوجدوه لم يخندق، فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه، فنزل وقاتل فقتل[4]. وفي رواية: أَنّ الخوارج جعلوا بإزاء المهلّب مَن يشغله وانصرفوا بجندهم إلى عبد الرحمن بن مِخْنَف، فلما رآهم قد قصدوه نزل ونزل معه القراء وقومه، فحملت عليه الخوارج، فقاتلهم قتالاً شديداً، فانكشف الناس عنه وبقي في عصابة من أهل البصرة ثبتوا معه، فقتل عبد الرحمن مع مَن قُتل من رجاله[5].

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٢) فارس: بلاد فارس، حدودها من الشرق كرمان ومن الغرب كور الأهواز وأصبهان ومن الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان وبعض حدود أصبهان، ومن الجنوب البحر العربي. انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (٦٧) ومعجم البلدان (٦/ ٣٢٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٣٢).

(٣) كازرون: مدينة بفارس بين البحرين وشيراز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٠٦).

(٤) الكامل للمبرد(٣/ ٢٠٤) وابن الأثير (٤/ ١٥٠) والطبري (٥/ ٤٦ ـ ٤٧).

(٥) الطبري (٥/ ٤٧ ـ ٤٨) وابن الأثير (٤/ ١٥١ ـ ١٥٢).

ثانياً: وبعث الحجاج إلى عسكر عبد الرحمن بن مخنف عَتّاب بن وَرْقاء وأمره أن يسمع للمهلّب، فساءه ذلك ولكنه لم يجد بداً من إطاعته، فجاء إلى العسكر وقاتل الخوارج وأمره إلى المهلّب.

وجرى بين عَتّاب والمهلّب ذات يوم كلام أغلظ كلّ منهما لصاحبه، فأرسل عتاب إلى الحجاج يشكو المهلّب ويسأله أن يأمره بالعودة إليه، فبعث إليه الحجاج: «أن اقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلّب»؛ فأقام المهلّب بـ (سابور)[1] يقاتل الخوارج نحو سنة[2] قتالًا شديداً، وكانت (كرمان) بيد الخوارج و (فارس) بيد المهلب، فضاق على الخوارج فكأنهم لا يأتيهم من فارس مادة، فخرجوا حتى أتوا (كرمان) فتبعهم المهلّب حتى نزل بـ (كرمان)، فقاتلهم قتالًا شديداً وانتصر عليهم، فصارت (فارس) كلّها بيد المهلّب، فكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يترك بيد المهلّب (فَسَا)[3] و (دَارَا بْجِرْد)[4] وكورة (إِصْطَخْر)[5] تكون معونة له على الحرب[6].

ثالثاً: ووجّه الحجاج البَراء بن قَبِيْصَة إلى المهلّب يستحثّه في مناجزة

---

(١) سابور: كورة واسعة مدينتها سابور، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٧٠ - ٧١)، وهي كورة مشهورة بأرض فارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٤).

(٢) الطبري (٥/ ٤٨ - ٤٩) وابن الأثير (٤/ ١٥١)، وانظر الكامل للمبرد (٣/ ٢١٠ - ٢١١).

(٣) فسا: كلمة أعجمية، وعندهم تلفظ: بسا بالباء، ومعناها في كلامهم: الشمال من الرياح. وهي مدينة بفارس أنزه مدينة بها، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي من أكبر مدن ولاية (دارا بجرد)، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٦٧) ومعجم البلدان (٦/ ٣٧٥).

(٤) دارا بجرد: ولاية بفارس سميت باسم مدينة بهذا الاسم، وتحتوي على مدن كثيرة تفاصيلها في المسالك والممالك (٧٠)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦) والمسالك والممالك (٦٧ - ٧٦) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٨٨).

(٥) إصطخر: بلدة بفارس وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٧٥).

(٦) الطبري(٥/ ١٢٠) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).

الخوارج، فأخرج المهلّب بنيه: كل ابنٍ له في كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم، وجاء البراء بن قَبيصة فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشدّ قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار... فجاء البَراء بن قَبيصة إلى المهلّب فقال: «لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس! أنت والله المعذور»، فرجع المهلّب بالناس حتى إذا كان عند العصر خرج إلى الخوارج بالناس وببنيه في كتائبهم، فقاتلوهم كقتالهم أول مرة[1]. ثم انصرف البراء إلى الحجاج بعذر المهلب[2].

واستمر المهلّب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهراً أخرى[3]، ثم كتب إلى الحجّاج: «إني منتظر منهم إحدى ثلاث: موت ذريع[4]، أو جوع مضر، أو اختلاف من أهوائهم»[5].

د ـ الحرب خدعة:

وطالت الحرب بين المهلّب وبين الخوارج، ورأى اتفاق أهوائهم وثباتهم، فعلم أنه لا يظفر إلّا إذا وقع الاختلاف بينهم[6].

وكان في عسكر الخوارج حدّاد يسمى (أبزن) يصنع نصالًا مسمومة يرمي بها أصحاب المهلّب، فوجّه المهلّب رجلًا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر الخوارج وقال له: «ألْقِ الكتاب في العسكر واحذر على نفسك»، وكان في الكتاب إلى الحداد (أبزن): «أما بعد، فإنّ نصالك قد

---

(1) الطبري(٥/ ١٢٠ ـ ١٢١) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).
(2) الطبري(٥/ ١٢١).
(3) الطبري(٥/ ١٢١) وابن الأثير (٤/ ١٦٩).
(4) موت ذريع: موت فاش.
(5) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٧)، وانظر رواية أخرى عن نص كتاب المهلب للحجاج في الطبري (٥/ ١٢١).
(6) سرح العيون (١٠٥).

وصلت إلينا، وقد وجّهت إليك بألف درهم، فاقبضها وزدنا من هذه النِّصَال»؛ فوقع هذا الكتاب إلى قَطَرِيّ بن الفُجاءة أمير الخوارج، فدعا (أبزن) وقال: «ما هذا الكتاب!؟»، فقال: «لا أدري!»، فقال قطري: «فما هذه الدراهم!؟»، فأمر به فقتل! فجاءه عبد ربه الصغير وكان من كبار الخوارج فقال: «قتلت رجلًا على غير بيّنة ولا تبين أمره!»، فقال قطري: «فما هذه الدراهم؟!»؛ قال: «يجوز أن يكون أمره كذباً ويجوز أن يكون حقاً!». قتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما يراه صلاحاً وليس للرعية أن تعترض عليه»، فتنكرّ له عبد ربه في جماعة معه، ولكنهم لم يفارقوه[1].

وبلغ ذلك المهلّب، فدسّ إلى قطري رجلًا نصرانياً وقال له: «إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك»، ففعل النصراني ذلك، فقال له قطري: «إنما السجود لله»، فقال النصراني: «ما سجدت إلّا لك»، فقال له رجل من الخوارج: «قد عبدك من دون الله»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فقال قطري: «إنّ هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم. فما ضرّ عيسى شيئاً»، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر قطري ذلك عليه وقال: «قتلت ذمياً!!»، فاختلفت الكلمة وزاد اختلافهم وفارق بعضهم قطرياً[2].

وأخيراً بعث إليهم المهلّب رجلًا يسألهم عن شيء تقدّم به إليه، فأتاهم الرجل فقال: «أرأيتم لو أنّ رجلين خرجا مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟»، فقال

---

(١) سرح العيون (١٠٥ ـ ١٠٦) وانظر ابن الأثير (٤/ ١٧٠) وفيه ورد اسم: عبد ربه الصغير باسم: عبد ربه الكبير، وقد ورد اسمه: عبد ربه الكبير في الطبري (٥/ ١٢١) أيضاً.

(٢) سرح العيون (١٠٦) وابن الأثير (٤/ ١٧٠)، والآية الكريمة: **﴿إنكم وما تعبدون﴾** في سورة الأنبياء (٢١: ٩٨).

بعضهم: «أما الميت فهو من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجزيها»، وقال قوم آخرون: «بل هما كافران حتى يجيزا المحنة»، فكثر الخلاف بينهم[1] وفارق بعضهم قطرياً ثم ولّوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطرياً وبقي مع قطري منهم نحو ربعهم أو خمسهم، ثم اقتتلوا فيما بينهم نحواً من شهر، فكتب المهلّب إلى الحجاج بذلك، فكتب الحجاج إلى المهلّب يأمره أن يقاتلهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا، فكتب المهلب إلى الحجاج: «إني لست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتلون بعضهم بعضاً وينقص بعضهم عدد بعض، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقّقَ بعضهم بعضاً؛ فأناهضهم حينئذ وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة إن شاء الله والسلام»، فكفّ عنه الحجاج وتركهم المهلّب يقتتلون شهراً لا يحرِّكهم، ثم إنّ قطرياًخرج بمن اتبعه نحو (طَبرِسْتَان)[2] وبايع الباقون عبد ربه الكبير الذي أقام بـ (كرمان)، فقاتلهم المهلّب قتالًا شديداً مستمراً حتى قال المهلّب: «ما مرَ بي مثل هذا»[3]، فانتصر عليهم وهزم الخوارج وكثر القتلى فيهم، وكان فيمن قتل عبد ربه الكبير مع أربعة آلاف قتيل، ولم ينج من الخوارج إلّا القليل، وأخذ عسكرهم وما فيه[4]؛ فكتب الحجاج إلى المهلّب يشكره ويأمره أن يولي (كرمان) من يثق إليه ويجعل فيها مَن يحميها ويقدم إليه، فاستعمل على (كرمان) ابنه يزيد بن المهلّب وسار إلى الحجاج، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال: «يا أهل العراق! أنتم عبيد المهلب»[5].

---

(١) سرح العيون (١٠٦).

(٢) طبرستان: بلدان كثيرة واسعة يشملها هذا الاسم، وطبرستان معروفة بمازندران وهي مجاورة لجيلان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٧) والمسالك والممالك (١٢٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٣).

(٣) الطبري (٥/ ١٢٢) وابن الأثير (٤/ ١٧٠)، وانظر اليعقوبي (٣/ ٢١).

(٤) الطبري (٥/ ١٢٢) وابن الأثير (٤/ ١٧٠).

(٥) ابن الأثير (٤/ ١٧١) والكامل للمبرد (٣/ ٢٢٥)، وانظر سرح العيون (١٠٧).

أما قطري بن الفجاءة فقد قضى عليه الحجاج بسهولة في منطقة (طبرستان) بعد أن أصبح ضعيفاً، وبذلك حمى المهلّب البصرة من الخوارج بعد أن جلا أهلها عنها[1] وطهّر منهم منطقة البصرة والأهواز وفارس ومكران طبرستان بعد حرب ضروس خاض المهلّب غمارها ضد الخوارج تسع عشرة سنة[2].

٣ ـ الفاتح:

ضمّ عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين للهجرة خراسان وسِجْسَتان[3] إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلّب على خُراسان بعد فراغه من قتال الخوارج[4].

وقطع المهلّب سنة ثمانين الهجرية (٦٩٩م) نهر (بَلْخ)[5] على رأس جيش تعداده ثمانية آلاف رجل[6]، فحاصر مدينة (كِشْ) فأتاه ابن عم ملك

---

(١) الإصابة (٦/٢١٦) الاستيعاب (٤/١٦٩٢) وفيات الأعيان (٤/٤٣٣) والمعارف (٣٩٩) وشذرات الذهب (١/٩١).

(٢) سرح العيون (١٠٧) وفي الإصابة (٦/٢١٦): أنه قاتل تسع سنين، وهذا خطأ، فقد كان المهلب من أشهر من يقاتل الخوارج أيام عبد الله بن الزبير سنة خمس وستين للهجرة، انظر ابن الأثير (٤/٧٦)، وانتهى من قتالهم سنة سبع وسبعين للهجرة، انظر ابن الأثير (٤/١٧١)، ومن الواضح أنه قاتلهم أيام عبد الله بن الزبير، إذ إنّ الخوارج ظهروا في أيام علي بن أبي طالب، وكان المهلب يومها من رجال علي بن أبي طالب المعروفين بحنكتهم العسكرية.

(٣) سجستان: اسم منطقة واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧) والمسالك والممالك (١٣٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١).

(٤) الطبري (٥/١٢٤) والابن الأثير (٤/١٧٣) وابن خلدون (٣/٤٦)، وانظر اليعقوبي (٣/٢١) ووفيات الأعيان (٤/٤٣٤).

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، وهي من أجل مدن خراسان وأكثرها خيراً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٦٣).

(٦) كانت مقدمته مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل، وكان قسمه الأكبر مؤلفاً من خمسة آلاف رجل، انظر ابن الأثير (٤/١٧٥) والطبري (٥/١٣٥) وابن خلدون (٣/٤٦).

(الخُتَّل)[1] ودعاه إلى غزو (الختل)، فوجّه معه ابنه يزيد، فحاصر يزيد قلعة ملك الختل، فصالحوه على فدية حملت إليه، ثم رجع إلى المهلب.

ووجه المهلب ابنه حبيباً، فوافى صاحب (بُخَارى)[2] فنزل جماعة من العدو قرية، فسار إليهم بجيشه المؤلف من أربعة آلاف رجل، فقتلهم وأحرق القرية، فسميت تلك القرية باسم: المحترقة، ثم رجع حبيب إلى أبيه.

وأقام المهلب بـ (كش) سنتين، فقيل له: لو تقدمت إلى ما وراء ذلك، فقال: «ليت حظي من هذه الغزاة سلامة هذا الجند وعودهم سالمين».

واتهم المهلّب وهو بـ (كش) قوماً من مضر، فحبسهم بها، فلما رجع أطلقهم، فكتب إليه الحجاج: «إن كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت بإطلاقهم، وإن كنتَ أصبتَ بإطلاقهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم»، فكتب المهلب: «خفتهم فحبستهم، فلما أمنتهم خلّيتهم»

وأخيراً صالح المهلّب أهل (كش) على فدية يأخذها منهم[3]، ثم عاد إلى (مَرْوُ)[4].

الإنسـان:

١ ـ كان المهلّب من التابعين[5]، فقد ولد عام الفتح[6] الذي كان سنة

---

(١) الختّل: كورة واسعة كثيرة المدن فيما وراء النهر (نهر جيحون)، انظرالتفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠١).

(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، وهي مدينة قديمة نزهة كثيرة الخيرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٨٢).

(٣) الطبري (٥/ ١٣٩ ـ ١٤٠) وابن الأثير (٤/ ١٧٥) وابن خلدون (٣/ ٤٦).

(٤) مرو: أشهر مدن خراسان، وهما مروان؛ مرو الروذ ومرو الشاهجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢) و (٨/ ٣٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ١٢٩) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٦/ ٢١٦).

(٦) الإصابة (٦/ ٢١٦) وشذرات الذهب (١/ ٩١) والعبر (١/ ٩٣).

ثمان الهجرّية[1] (٦٢٩م) ومات سنة اثنتين وثمانين الهجريّة[2] (٧٠١م) بقرية يقال لها (زَاغُول)[3] من أعمال (مرو الروذ) في ولاية (خُراسان).

ولما مات رثاه الشعراء وأكثروا، وفي ذلك يقول نَهَار بن تَوْسِعة التميمي الشاعر المشهور[4]:

ألا ذَهبَ الغزوُ المقرِّب للغِنى[5] ... ومات الندى والجودُ بعد المهلّب

أقاما بـ (مرو الرّوذ) رهنى ضريحه ... وقد غُيِّبَا عن كلِّ شرقٍ ومغربِ

إذا قيل: أي الناس أولى بنعمة ... على الناس؟ قلناه ولم نتهيّب

أباح لنا سهل البلاد وحَزْنَها ... بخيل كأرسال القطا المتسرِّب

يعرِّضها للطعن حتى كأنما ... يجلِّلها بالأرجُوان المُخَضّب

تُطيف به قحطان قد عَصبت به ... وأحلافها من حيّ بكرٍ وتَغْلِب

وَحَيّا مَعَدٍ عُوّذٌ بلوائه ... يُفدّونه بالنفس والأم والأب

فأي نوع من الرجال كان المهلب حتى يترك موته في نفوس الناس هذا الأثر الفاجع، وحتى يترك بين رجالات العرب المسلمين هذا الفراغ الهائل؟

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٨١) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣٤) وسيرة ابن هشام (٤/ ٣) وعيون الأثر (٢/ ١٦٣).

(٢) الطبري (٥/ ١٦١) وشذرات الذهب (١/ ٩٠) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧) وابن خلدون (٣/ ٥٢) والإصابة (٦/ ٢١٧). أما في طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٠) والمعارف (٤٠٠) والاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥)، فقد جاء فيها: إنّ وفاته كانت سنة ثلاث وثمانين الهجرية.

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وانظر الاستيعاب (٤/ ١٦٩٣) والمعارف (٤٠٠). وقد وردت في وفيات الأعيان (راغول) وهو خطأ مطبعي، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٦٨).

(٤) الطبري (٥/ ١٦٢) وانظر وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وابن الأثير (٤/ ١٨٣).

(٥) في ابن الأثير (٤/ ١٨٣) ورد صدر هذا البيت كما يلي: ألا ذهب المعروف والعز والغنى.

٢ ـ كان يُقال: «ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مِسمع[١] بمحبته للعشيرة، وقُتَيْبَة بدهائه، وساد المهلّب بهذه الخلال جميعها»[٢]

وكان سيداً جليلًا نبيلًا[٣] خطيباً شجاعاً[٤] فقيهاً[٥]، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، فلم يكن عند المهلّب مال: كان إذا عُزل استقرض[٦]، مما يدلّ على أنه كان كريماً كرم من لا يخاف الفقر. ومن كرمه، أنه أقبل يوماً من بعض غزواته، فتلقته امرأة فقالت له: «أيها الأمير! إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم!»، فضحك المهّلب وقال: «قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كلّ أحد يفي لك به». ووقف له رجل فقال: «أريد منك حُوَيْجَه»، فقال المهلب: «أطلب لها رُجَيْلًا»، يعني أنّ مثلي لا يسأل إلّا حاجة عظيمة[٧].

ولما هزم قطري بن الفجاءة أمير الخوارج، دخل عليه المغيرة[٨] وأنشده[٩]:

أمسى العباد لعمري لاغياثَ لهم   إلّا المهلّبُ بعد الله والمطرُ

---

(١) مالك بن مسمع بن سيار: من بكر بن وائل، أدرك النبيّ ﷺ، وكان سيِّد ربيعة في زمانه مقدماً رئيساً، وفيه يقول حصين بن المنذر:
حياة أبي غسان خير لقومه   لمن كان قد قاسى الأمور وجربا
وكان مالك أنبه الناس.. قال رجل لعبد الملك بن مروان: «لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف، لا يسألونه فيم غضب»، فقال عبد الملك: «وهذا وأبيك السؤدد»، ولم يل شيئاً قط. وقد مات سنة ثلاث أو أربع وسبعين هجرية بالبصرة، وعقبه كثير، انظر الإصابة (٦/ ١٦٤) والمعارف (٤١٩).

(٢) سريح العيون (١٠٢).

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).

(٤) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).

(٦) الطبري (٥/ ١٣٥).

(٧) سرح العيون (١٠٧)، وكان المهلّب يوصي خدمه أن يقللوا من الماء ويكثروا من الطعام عندما يكون ضيوفه على خوانه، حتى لا يملأ الضيوف بطونهم من الماء، وحتى يملأوها من الطعام، انظر كتاب البخلاء للجاحظ (١٣٣).

(٨) هو المغيرة بن حبناء، انظر أخباره في الأغاني (١١/ ٣١٥ ـ ٣٣٢).

(٩) انظر القصيدة كاملة في الأغاني (١١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

هـذا يـجـود ويـحـمـي عـن ديـارهـم   وذا يـعـيـش بـه الأنـعـام والـشـجـر

قال: «هذا والله هو الشعر»، وأمر له بعشرين ألفاً[١].

ومن كلامه: «عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفضاله». وتذاكروا عنده الثياب فقال: «أحسن ثيابكم ما رأيتموه على غيركم». وكان كثيراً ما يأمر بصلة الرحم والمكيدة في الحرب[٢].

وكان حليماً، ومن أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلًا يقول: «هذا الأعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم»، فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: «لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية»[٣]، وكان قد فقئت عينه بسمرقند[٤].

وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدلّ على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل؛ من ذلك قوله: «الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لاحببت أن تكون لي أُذُنٌ أسمع بها ما يقال فيَّ غداً إذا مِتّ»[٥].

وقيل يوماً للمهلّب: «ما خير المجالس؟»، فقال: «ما بَعُدَ فيه مدى الطَرْف وكثر فيه فائدة الجليس[٦]». وقال مرة: «العيش كله في الجليس الممتع»[٧]، وقال يوماً: «أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلا أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه»[٨]

---

(١) سرح العيون (١٠٧).

(٢) سرح العيون (١٠٧)، وفي رغبة الآمل من كتاب شرح الكامل (٥/ ١٣٠): أن المهلب قال: «العجيب لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه».

(٣) سرح العيون (١٠٧).

(٤) كتاب المحبر (٢٦١) و (٣٠٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤) وفيه أيضاً: وقيل إنّ المهلب قلعت عينه بالطالقان، وكذلك في البلاذري (٤٠١).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥).

(٦) رغبة الآمل (١/ ٢٠٤).

(٧) رغبة الآمل (٣/ ٦٠).

(٨) رغبة الآمل (٦/ ١٠٥).

وقال المهّلب لبنيه: «يا بَنِّي! تباذلوا تحابوا، فإنّ بني الأم يختلفون فكيف بنو العَلات؟ إن البِرَّ يُنَسِئُ في الأجل ويزيد في العدد، وإنّ القطيعة تورث القلة وتعقب النار بعد الذلة، واتّقوا زلّة اللِّسان، فإنّ الرجل تزلّ به رجله فينتعش، ويزلّ لسانه فيهلك؛ وعليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة، فإنّ القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظَفر فقد سَعِد، وأن ظُفِر به لم يقولوا فرَّ»[1]. وأوصى ولده يزيد حين استخلفه على خراسان من جملة ما أوصاه: «يا بني! استعقل الحاجب، واستظرف الكتب؛ فإنّ حاجب الرجل وجهه، وكاتبه لسانه»[2].

وحين حضرته الوفاة، دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: «أفترونكم كاسريها مجتمعة؟» قالوا: «لا!»، فقال: «أفترونكم كاسريها متفرقة؟»، فقالوا: «نعم!»، قال: «فهكذا الجماعة[3]، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإنّ صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإنّ القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا واجمعوا أمركم ولا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللِّسان، فإنّ الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدوّ الرجل ورواحه إليكم تذكرة له؛ وآثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإنّ الرجل من العرب تَعده العِدَة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من

(١) البيان والتبيين (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، وبنو المهلب هم: المغيرة ويزيد وقبيصة ومدرك وحبيب ومحمد والمفضل.
(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥).
(٣) الطبري (٥/ ١٦١) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٣٥) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧) وابن الأثير (٤/ ١٨٣).

الشجاعة، وإذا كان اللِّقاء نزل القضاء، فإن أخذَ الرجلُ بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمِد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم»[1].

٣ ـ وكان المهلب شاعراً مُقِلًا، ومن شعره[2].

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي	وفيها بحمد الله عن تلك ما ينسي
إذا جاء أمر الله أحيا حيولنا	ولا بد أن تعمى العيون لدى الرمس

ومن شعره أيضاً[3].

إنا إذا أنشأت لنا نِعَم	قالت لنا أنفس أزدية عودوا
لا يوجد الجود إلّا عند ذي كرم	والمال عند لئام الناس موجود

لهذه المزايا النادرة التي كانت في المهلّب، ولمزاياه العسكرية التي سنذكرها عند ذكر مزايا قيادته، ولأنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بضرورة الطاعة والتمسك بالجماعة[4]، لهذه الأسباب مجتمعة كان المهلب موضع ثقة الخلفاء الذي تولّوا أمر المسلمين كافة والأمراء الذين تولوا أمر البصرة والعراق، جميعاً، على الرغم من اختلاف نزعات وميول هؤلاء الخلفاء والأمراء، فكان موضع ثقة علي بن أبي طالب ومعاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير والأحنف بن قيس والحجاج بن يوسف الثقفي؛ ذلك لأن المهلب لم يل ولاية قط طالباً لها، إنما كان يولى لحاجتهم إليه: عقد له عليّ بن أبي طالب حين انهزمت الأزد يوم الجمل، وتولى قتال الخوارج بعد أن كانوا هزموا العساكر وغلبوا على البلاد[5]. لقد

---

(١) الطبري (٥/ ١٦١ ـ ١٦٢) وابن الأثير (٤/ ١٨٣).

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٣) سرح العيون (١٠٨).

(٤) انظر الطبري (٥/ ١٦١) وابن الأثير (٤/ ١٨٣) حول ما جاء في وصية المهلب لبنيه من التمسك بالطاعة والجماعة.

(٥) الإصابة (٦/ ٢١٦).

كان شعار المهلّب في إدارته وقيادته ينطبق على وصيته لبنيه: «إذا ولِّيتم فلينوا للمحسن واشتدّوا على المريب»[1]. وكان شعاره التمسك بالطاعة والجماعة، فلا يثير الفتن ولا يعمل على إثارتها ولا يشارك في قوله أو عمله من يثيرونها مادام يرى أنّ القوة في الطاعة والجماعة، وأنّ الوهن في الخلاف والتفرّق.

فقد كتب عبد الرحمن بن الأشعث الكندي - حين بايعه الناس على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق - إلى المهلّب بخلع الحجّاج ويدعوه إلى مساعدته، فبعث المهلّب بكتاب عبد الرحمن إلى الحجاج[2].

وكتب المهلّب إلى ابن الأشعث يقول: «أما بعد! إنك وضعت رجلك يا ابن محمد في غراز طويل الغيّ على أمة محمد ﷺ: فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها؛ فإن قلت: أخاف الناس على نفسي، فالله أحقّ أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرِّضها لله في سفك دم ولا استحلال محرم، والسلام»[3]. ثم كتب إلى الحجاج: «أما بعد! فإنّ أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من علٍ ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره. وإنّ لأهل العراق شدّة[4] في أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردّهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ويشموا أولادهم، ثم واقفهم عندها فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله»؛ فلما قرأ الحجاج كتاب المهلّب قال: «فعل الله به وفعل، لا والله ما إليَّ نظر، ولكن لابن عمه نصح» يعني عبد الرحمن بن الأشعث[5].

---

(١) رغبة الآمل (١١٦/٣).
(٢) ابن الأثير (٤/ ١٧٥).
(٣) الطبري (٥/ ١٤٩).
(٤) وردت: شدة في ابن الأثير (٤/ ١٧٩)، أما في الطبري (٥/ ١٤٩) فقد وردت: شرة وهي الحرص الشديد.
(٥) الطبري (٥/ ١٤٩) وابن الأثير (٤/ ١٧٩)، وانظر ابن خلدون (٣/ ٤٨).

ولكنّ الحجاج راجع كتاب المهلّب بعد مدة من الزمن وبعد نشوب معارك طاحنة بين جيش الحجّاج وجيش عبد الرحمن بن الأشعث، فعلم نصيحة المهلّب[1] وقال: «لله درّه! أيّ صاحب حرب هو!! هو أشار علينا بالرأي، ولكنا لم نقبل»[1].

ولقد كان المهلّب رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني، لذلك قال أبو إسحاق السبيعي عنه: «ما رأيت أميراً خيراً من المهلب»[2].

ولهذه المزايا كانت له منزلة خاصة عند الخلفاء والأمراء من النادر أن يرقى إليها غيره. قدم يوماً على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بالحجاز والعراق، وهو يومئذ بمكة، فخلا به عبد الله يشاوره، فدخل عليه عبد الله بن صَفْوان بن أُمية بن خلف القُرَشِيّ الجُمَحِي فقال: «مَنْ هذا الذي شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟»، فقال: «أما تعرفه؟!»، قال: «لا»، قال: «هذا سيد أهل العراق»، قال: «فهو المهلّب بن أبي صُفرة!»[3].

ولم يكن يعاب بشيء إلّا بالكذب، وقد كان أتقى لله عز وجل وأشرف وأنبل من أن يكذب، ولكنه كان يحارب الخوارج، وقد قال النبي ﷺ: «الحرب خدعة»، فكان يعارض الخوارج بالكلمة فيوري بها عن غيرها، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد حرباً ورّى بغيرها[4].

لقد كان المهلب ثقة، وأما من عابه بالكذب فلا وجه له، لأنه كان يحتاج لذلك في الحرب يخادع الخوارج، فكانوا يصفونه لذلك بالكذب غيظاً منهم عليه[5]، إن صاحب الحرب يحتاج إلى المعاريض والحيلة، فمن

---

(١) الطبري (٥/ ١٥٠) وابن الأثير (٤/ ١٧٩).
(٢) الإصابة (٦/ ٢١٦).
(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).
(٤) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣).
(٥) الإصابة (٦/ ٢١٦).

لم يعرفها عدّها كذباً[1]، وكان المهلب فقيهاً يعلم ما جاء عن رسول الله ﷺ من قوله: «كل كذب يكتب كذباً إلّا ثلاثة: الكذب في الصلح بين الرجلين، وكذب الرجل لامرأته يَعِدُها، وكذب الرجل في الحرب يتوّعد ويتهّدد»[2].

لقد كان المهلّب ثقة ليس به بأس، وقد روى عن النبي ﷺ رواية مرسلة وروى عن بعض الصحابة وروى عنه بعض التابعين وتابعي التابعين[3].

لقد كان المهلّب من الأجواد المشهورين بالكرم والشهامة[4]، وكان طرازاً نادراً من الرجال يندر أن يجود به الدهر إلّا نادراً.

القائد:

من النادر أن يحظى قائد بإعجاب قومه وأعدائه وإطرائهم لمزاياه الحربية كما حظي المهلّب بإعجاب قومه وأعدائه به وإطرائهم له على حد سواء.

وصفه قَطَرِيّ بن الفُجاءة عدوُّ المهلّب الّلدود، فقال: «المهلّب مَنْ عرفتموه: إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر: يمدّه إذا أرسلتموه، ويرسله إذا مددتموه، ولا يبدؤكم إلّا أن تبدؤوه، إلّا أن يرى فرصة فينتهزها؛ فهو الّليث المبر[5] والثعلب الرواغ والبلاء المقيم»[6]... والفضل ما شهدت به الأعداء كما يقولون.

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢).

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، هذا الحديث رواه أحمد في مسنده (٦/ ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٥٤ و ٤٥٩ و ٤٦٠)، كما رواه الترمذي، انظر مفتاح كنوز السنة (٤١٣).

(٣) انظر التفاصيل في الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) والإصابة (٦/ ٢١٦).

(٤) تاريخ أبي الفدا (١/ ١٩٧).

(٥) الليث المبر: الغالب. يقال: أبر فلان على فلان، غلبه وقهره وعلاه.

(٦) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).

لقد كان شجاعاً ذا رأي في الحرب»[1]، وقد قال أبو إسحاق السبيعي: «لم أر أميراً أيمن نقيبة، ولا أشجع لقاء، ولا أبعد مما يكره، ولا أقرب مما يحب، من المهلّب»[2].

إنّ مفتاح مزايا قيادة المهلب هي: شجاعته أولّا، وتفكيره في إدارة الحرب بشكل رائع متميز للغاية ثانياً.

كان دائماً يوصي بالأناة والمكيدة في الحرب، فيقول: «عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة»[3]، لذلك كان دائماً، يخندق عليه، ويضع المسالح، ويذكي العيون، ويقيم الأحراس، ويحرص على بقاء رجاله على مصافهم والناس على راياتهم وأخماسهم، وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها[4]؛ وكان المهلّب يبثّ الأحراس في الأمن كما يبثهم في الخوف، ويذكي العيون في الأمصار كما يذكيها في الصحاري، ويأمر أصحابه بالتحرز ويخوفهم البيات وإن بَعُد منهم العدو، ويقول: «احذروا أن تكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا: هزمنا وغلبنا، فإنّ القوم خائفون وجلون، والضرورة تفتح باب الحيلة»[5]. ونصح أحد الرجال أحد القادة فقال: «إنّ المهلّب، كان يذكي العيون، ويخاف البيَات، ويرتقب الغفلة، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم»[6]. وكان المهلّب يوصي قادته بقوله: «خندق على نفسك فإني لا آمن عليك البيَات»[7].

بل كان المهلّب لا يَتَّكلُ في الحراسة على أحد: كان يتولى ذلك

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٦٩٢) وانظر الإصابة (٢/ ٢١٦).
(٢) شذرات الذهب (١/ ٩١).
(٣) الطبري (٥/ ١٦٢).
(٤) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٥) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٤).
(٦) الكامل للمبرد (٣/ ١٨٥).
(٧) المحبر (٢٤٥).

بنفسه، ويستعين بولده وبمن يحلّ محلهم في الثقة عنده[1]؛ فكان الخوارج ـ لشدّة حذر ويقظة المهلّب وحسابه الاحتمالات كافة ـ إذا أرادوا بيات رجال المهلّب وجدوا أمره محكماً، فلم يقاتلهم إنسان كان أشدّ عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه[2].

لقد كان حريصاً غاية الحرص على سلامة وأمن رجاله من مباغتة العدو لهم، فقد أمطرت الدنيا مطراً شديداً في إحدى الليالي، وكان بين المهلب وجيش عدوه عَقَبة[3]، فقال المهلب: «من يكفينا هذه العقبة الليلة؟»، فلم يقم أحد... فلبس المهلب سلاحه وقام إلى العقبة وأتبعه ابنه المغيرة[4].

إنه أخذ بالحزم في القتال وإعمال الرأي[5]، وكان يؤمن بمبدأ: الحرب خدعة ويؤمن بمبدأ: (فرِّق تَسُدْ)، لذلك عمل على تفريق صفوف أعدائه، وبذل في سبيل ذلك جهداً طويلاً شاقاً، فنجح في تفريقهم والقضاء عليهم.

ولم يكن الانتصار على الخوارج سهل التكاليف، فقد كانوا ذوي عقائد راسخة وشجاعة خارقة. سئل المهلّب: «ما أعجب ما رأيت من قتال الخوارج؟»، فقال: «رأيت رجلاً منهم يطعن الرجل فيمشي في الرمح إلى طاعنه وينال منه وهو يقول: وعجلت إليك ربي لترضى»[6]. وكانت الخوارج تقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلْق[7] النفيس أشدّ قتالٍ، وقد

---

(1) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٧).

(2) الطبري (٤/ ٤٧٩) وسرح العيون (١٠٣).

(3) عقبة: واحدة عقبات، وهي الجبل.

(4) الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٨).

(5) سرح العيون (١٠٣).

(6) سرح العيون (١٠٧).

(7) العلق: بالكسر النفيس من كل شيء.

سقط في بعض أيامهم رمح لرجل من قبيلة (مراد) من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل[1]. لذلك كانت مهمة المهلّب في القضاء على هذه الفتنة الداخلية صعبة للغاية.

وكان المهلّب بعيد النظر، فقد خلّف حُرَيْث بن قُطْبَة مولى خُزاعة على مدينة (كِشّ) وقال له: «إذا استوفيت الفدية فردّ عليهم الرهن»، وكان قد استرهن منهم رهناً من أبنائهم، وسار المهلّب فلما صار بـ (بلخ) كتب إلى حُرَيْث: «إني لست آمن إن رددت عليهم الرهن أن يغيروا عليك، إذا قبضت الفدية فلا تخل الرهن حتى تقدم أرض بلخ»، فقال حريث لصاحب (كش): «إن عجلت أعطيتك الرهن»، فعجل صاحب (كش) بالفدية وأخذ الرهن، فلما وصل حريث إلى المهلّب ضربه ثلاثين سوطاً عقوبة على مخالفته كتابه في الرهن[2].

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بأهمية الطّاعة والضبط، فقد اتهم قوماً من مضر حين كان يحاصر مدينة (كش) فحبسهم[3]، وكان يؤمن بضرورة الاجتماع وعدم التفرق ويوصي أولاده بهما[4]، ويحارب كلّ عوامل الفرقة والفتن[5].

وكان يحبّ رجاله ويحبونه، فكان لهم كالوالد الرؤوف، وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل[6]، وكان يدافع عن معيته دفاعاً قوياً ما داموا على الحق[7]، فكان موضع ثقتهم لهذه المزية ولمزاياه القيادية الأخرى.

---

(١) العقد الفريد (١/ ١١٢).

(٢) ابن خلدون (٣/ ٥٢). وانظر الطبري (٥/ ١٦٠) وابن الأثير (٤/ ١٨٢).

(٣) الطبري (٥/ ١٦٠) وابن الأثير (٤/ ١٨٢).

(٤) انظر الطبري (٥/ ١٦١) وابن الأثير (٤/ ١٨٣) وابن خلدون (٣/ ٥٣).

(٥) الطبري (٥/ ١٤٩).

(٦) وفيات الأعيان (٤/ ٤٤٠).

(٧) انظر دفاعه عن رجاله عند الحجاج بن يوسف الثقفي في الكامل للمبرد (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

وكان يثق ثقة مطلقة بنفسه، فلا يفسح مجالًا لقائده الأعلى أن يتدخّل في صلاحياته الخاصة ولا يريه استكانة وضعفاً ما دام يرى نفسه على الحق. كتب الحّجاج إلى المهلّب يستبطئه في مناجزة الخوارج ويستعجزه، فحبس المهلّب رسول الحجّاج أياماً حتى رأى صنع الخوارج وجلدهم وثباتهم، وكتب إلى الحجّاج يقول: «إنّ الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى، فإن أمكنتني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكني توقّفت، فأنا أدير ذلك بما يصلحه؛ وإن أردتَ مني أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان صواباً فلك وإن كان خطأ فعلي، فابعث مَن رأيت مكاني؛ والسّلام[1]»؛ . . . وهذا منتهى الاعتداد بالنفس والحرص على حرية العمل دون تدخّل من المرجع الأعلى بلا مسوّغ حتى ولو كان هذا المرجع الأعلى الحجّاج بسطوته وسيطرته وقوّة شخصيته.

وكان يؤمن بالحرب العادلة ولا يؤمن بالعدوان، فكان يوصي بنيه بقوله: «لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا نُصرتم عليهم»[2].

وكان يعرف قيمة المعلومات عن العدو وعن طبيعة الأرض التي يقاتل فيها، ويرسل الجواسيس لتزويده بتفاصيل الحالة المادية والمعنوية للعدو، حتى يقاتلهم على بيِّنة من أمره، كما فعل في إرسال الجواسيس إلى معسكر الخوارج في الأهواز[3] وكما كان يفعل تمهيداً لكل معركة يخوضها.

وكان لا يهتم بعدد الجنود بقدر ما كان يهتم بنوعيتهم، فكان يفضّل

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).
(٢) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧)، وانظر شذرات الذهب (١/ ٧٨) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥) والكامل للمبرد (١/ ٣٨).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٧٧).

العدد القليل من الشجعان المؤمنين، على العدد الكثير من المرتزقة الرعاديد[1].

وكان شعاره في الحرب: «حَم. لا يُنْصَرون»، وكان يروي عن النبي ﷺ قوله: «إن بَيَّتُوكم فليكن شعاركم: حم، لا ينصرون»[2]. وكانتُ رُكُب[3] الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب بركابه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معين أو معتمد، فأمر المهلّب فضربت الرُكُب من الحديد، فهو أول مَن اتّخذ الرُكُب من الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب[4].

وعند تطبيق أعمال المهلّب العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه كان ماهراً في (اختيار مقصده وإدامته) وعدم التحول عنه دون الحصول على النتيجة الحاسمة، وكان قائداً يحرص على مبدأ (التعرّض) وذلك بعد إكمال (تحشيد قوته) وإنجاز (أمورها الإدارية).

وكان يطبّق مبدأ (المباغتة)تطبيقاً متميِّزاً للغاية في المكان كما فعل حين خرج بقواته من الطوق الذي أحاطهم به الترك فأنقذهم من الفناء الأكيد. كما كان يباغت عدوه بالزمان، كما فعل عندما عاد إلى معسكر الخوارج في (سلى وسليري) حين كان أكثرهم يطاردون أصحاب المهلّب، وبذلك قضى على أكثر الخوارج الذين كانوا في المعسكر ومن ضمنهم أميرهم أيضاً.

وكان يحرص على (الاقتصاد بالمجهود)، وقد بذل قصاراه للمحافظة

---

(١) انظر انتخاب المهلب اثني عشر ألفًا فقط من أهل البصرة في ابن الأثير (٤/٧٦) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٢)، وانظر خطابه الذي ألقاه على ثلاثة آلاف من رجاله الذين ثبتوا بعد هزيمة رجاله الآخرين في الطبري (٤/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) وابن الأثير (٤/ ٧٧ ـ ٧٨) والكامل للمبرد (٣/ ١٧٩ ـ ١٨٢) وسرح العيون (١٠٣).

(٢) الإصابة (٦/ ٢١٦).

(٣) ركب: جمع ركاب، وهو مال يوضع فيه رجل الفارس حين يركب فرسه.

(٤) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤).

على أرواح رجاله وأموالهم وذلك بيقظته وانتباهه وحرصه سلفاً على إكمال متطلبات القتال كافة.

وكان لا يقرّ له قرار قبل أن يتأكّد من (أمن) قواته وأنها قد أعّدت ما يحول دون العدو والنيل منها مادياً ومعنوياً، ومن أجل (أمن) تلك القوات كان غالباً ما يقوم بواجبات حراستها بنفسه.

وكان لا ينفكّ يوصي على تطبيق مبدأ: (التعاون)، فكان رجاله يعملون كعائلة متماسكة بإشرافه وإشراف أولاده.

وكان يعمل على (إدامة المعنويات) بمثاله الشخصي، وبتوفير الأمن لرجاله، وبعدله وبخطبه في أحرج الأوقات، وباستئثاره بالأخطار دون رجاله.

لقد كان المهلّب يقاتل بعقله كما يقاتل بسيفه، وقد نال من عدوه بعقله ما لم ينل منه بسيفه.

وقد أعانه على إحراز انتصاراته السّاحقة على الخوارج أولاده الأبطال، فقد وقع إلى الأرض من صلبه ثلاثمائة ولد[1]. قال عبد الرحمن الكلبي عندما رأى أولاد المهلب قد ركبوا عن آخرهم لحرب الخوارج: «شدّ الله الإسلام بتلاحُقكم، فوالله لئن لم تكونوا أسباط نُبوّة إنكم لأسباط مَلْحَمَة»[2].

وقد وصفهم أحد الرجال للحجّاج فقال: «المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قَبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مُدْرِك، وعبد الملك سم ناقع، وحبيب موت زعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالمُفَضّل نجدة»، فقال الحجاج: «كيف خلّفت جماعة الناس؟» قال: «خلّفتهم بخير: قد أدركوا ما أَمَلوا وأمنوا ما خافوا»، فقال: «فكيف كان بنو المهلّب فيكم؟»، قال: «كانوا حماة السَّرْح نهاراً فإذا أَلْيَلُوا

---

(١) المعارف (٤٠٠).

(٢) البيان والتبيين (٢/ ٦٦ - ٦٧).

ففرسان البيات»، قال: «فأيهم كان أنجد؟؟»، قال: «كانوا كالحلقة المفرغة، لا يُدرى أين طرفها!!»[1].

ولما هزم المهلب قَطَرِي بن الفُجاءة أمير الخوارج، بعث مالك بن بشير بالخبر إلى الحجاج؛ فسأله الحجّاج: «كيف تركت المهلّب؟»، قال: «أدرك ما أمّلَ وأمِن ما خاف»، فقال: «كيف هو بجنده؟» فقال: «والد رؤوف»، قال: «فكيف جنده له»، فقال: «أولاد بررة»؛ فقال؛ «كيف رضاهم عنه؟»، فقال: «وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل»..... فقال: «أخبرني عن أولاد المهلّب»، فقال: أعباء القتال باللّيل، حماة السرح بالنهار»[2].

لقد كان للمهلّب قابلية فائقة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة وتصميم الخطط المعقولة العلمية، وكان شجاعاً مقداماً، ذا إرادة قوية ثابتة وشخصية قوية نافذة، وكان يتحمّل المسؤولية بلا تردد، وله نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يسبق النظر بعمق وبصيرة، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ونفسية رؤسائه ومزاياهم، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويدافع عنهم ويحبونه، له قابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيد.

كما كان يعرف مبادئ الحرب معرفة تلقائية ويطبقها ويؤمن بأهمية الضبط والطاعة، وما أصدق يزيد بن المهلب حيث يقول: «إنّا أهل بيت بورك لنا في الطّاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف»[3].

---

(١) الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٤).

(٢) العقد الفريد (١/ ٢٠١)، وانظر مروج الذهب بهامش ابن الأثير (٧/ ٨٢). وفي الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٧): قال الحجاج للمهلّب: «اذكر لي القوم الذين أبلوا، وصِفْ لي بلاءهم»، فذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدّم بنيه: المغيرة ويزيد ومدركاً وحبيباً وقبيصة والمفضل وعبد الملك ومحمداً وقال: «إنه والله لو تقدّمهم أحد في البلاد لقدّمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرّتهم»، فقال الحجاج: «صدقت وما أنت بأعلم بهم مني، وإن حضرت أو غبت... إنهم لسيوف من سيوف الله».

(٣) وفيات الأعيان (٥/ ٣٣٢).

تلك هي موجز مزايا قيادة المهلّب، فلا عجب أن يقول فيه لَقِيْط بن يَعْمَر الأيادي[1]:

وقلِّدوا أمركم لله دركمُ ... رَحب الذِراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مُتْرَفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عَضّ مكروه به خشعا

مسهّد النوم تغنيه ثغوركمُ ... يروم منها إلى الأعداء مطلعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره[2] ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا

وليس يشغله مال يثمِّرّه ... عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأي لا قحماً ولا ضرعاً

ولا عجب أن يقول فيه شاعر من الأزد[3]:

إنّ العراق وأهله لم يَخبُروا ... مثل المهلّب في الحروب فسلموا

أمضى وأيمن في اللِّقاء نَقِيبة[4] ... وأقلّ تهليلاً[5]، إذا ما أحجموا

لقد كان المهّلب قائداً متميزاً بكل ما في الكلمة من معنى.

المهلّب في التّاريخ:

يذكر التّاريخ للمهلّب بأنه أول قائد منتخب من رجالات البصرة وحكّامها وشعبها.

ويذكر له، أنه كان طرازاً نادراً بين القادة والرجال، وأنه كان قائداً إنساناً من طراز رفيع.

---

(١) ابن الأثير (٤/ ١٧١)، وانظر الكامل للمبرد (٣/ ٢٢٥).

(٢) الأشطر: جمع شطر وهو خلف الناقة وللناقة أخلاف، يقال: فلان حلب الدهر أشطره، أي اختبر ضروبه من خير وشر تشبيهاً بجلب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلاً وغير حفل.

(٣) الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

(٤) فلان ميمون النقيبة: أي منجح مظفّر في مطالبه، والنقيبة: النفس أو الطبيعة والخليفة.

(٥) التهليل: التكذيب والانهزام، انظر الكامل للمبرد (٣/ ١٧٣).

ويذكر له، أنه قضى بكفايته العالية ومقدرته العظيمة وحنكته ودهائه، على أخطر فتنة داخلية هي فتنة الخوارج، كانت تهْدِّد سلامة الدولة الإسلاميّة بالانهيار.

ويذكر له، أنه فاتح مناطق واسعة من بلاد السِّند وما وراء النهر، نشر فيها لغة العرب وعقيدة الإسلام.

ويذكر له، أنّ المناصب الرفيعة تسعى إليه، وأنه كان فوق المناصب التي يتقبلها تكليفاً لا تشريفاً.

ويذكر له، أن الخلفاء والأمراء والولاة سعوا إليه ليصاول الأخطار دونهم ويوطّد لهم الأمن والاستقرار.

رضي الله عنه القوي الأمين، المفكِّر الحكيم، العالم الفقيه، المدبِّر الحصيف، القائد الفاتح، الإنسان السوِيّ، المهلّب بن أبي صُفْرَة الأَزديّ.



محمّد بن القاسم الثّقَفِيّ
فاتح السّند[1]

ساسَ الجيوش لسبع عشرة حجّة
ياقربَ ذلك سؤدداً من مولد

(حمزة الحنفي)

نسبه وأهله:

هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحَكَم بن أبي عَقِيْل بن مَسْعود بن عامِر بن مُعَتِّب الثقفي[2]، يجتمع هو والحجّاج بن يوسف الثقفي في الحَكَم[3] بن أبي عَقِيْل.

ولي أبوه القاسم بن محمد بن الحَكَم الثقفي (البَصْرَة) للحجّاج بن يوسف الثّقفي[4]، فنشأ محمد منذ نعومة أظفاره بين الأُمراء والقادة: أبوه أمير، وابن عم أبيه الحجّاج أمير العراقَيْن، وأكثر بني عَقِيْل من ثَقِيْف قوم الحجاج أمراء وقادة؛ فنشأ محمد وترعرع في محيط ملائم لتنشئة القادة والأُمراء، وكان له استعداد فطري متميِّز، وأفاده محيطه في بناء شخصيته وتكاملها، لذلك

---

(١) السند: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٥١) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٩٤ ـ ٩٥) وتقويم البلدان (٣٤٦ ـ ٣٥١)، وهي في الوقت الحاضر تؤلِّف أكثر مناطق باكستان الغربية.

(٢) انظر معجم الشعراء (٤١٢) ووفيات الأعيان (١/ ٣٤١) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٤٨)، وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٧٨).

(٣) ابن الأثري (٤/ ٢٠٥).

(٤) جمهرة أنساب العرب (٢٦٧ ـ ٢٦٨).

ظهرت كفاياته الفذة في وقت مبكِّر من عمره وهو لا يزال في ريعان الشباب.

الفَاتـح:

١ ـ في أيام الحجّاج:

أهدى ملك جزيرة (الياقوت)[١] إلى الحجّاج نسوة مسلمات ولدن في بلاده ومات آباؤهن وكانوا تجاراً، فأراد التقرّب بهنّ، فعرض للسفينة التي كنّ فيها قوم من قراصنة (الديْبُل)[٢] وأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن ـ وكانت من بني يَرْبُوع: «يا حجّاج!».

وبلغ الحجّاج ذلك، فقال: «يالبيك!» فأرسل إلى (داهر) ملك السِّند يسأله تخلية النسوة، فقال: «إنما أخذهنّ لصوص لا أقدر عليهم»، فأغزى الحجّاج عبيد الله بن نبهان (الديبل) فقتل، فكتب إلى بُدَيْل بن طهفة البُجَلِيّ وهو بـ (عُمان) أن يسير إلى (الديبل)، فلما لقيهم نفر به فرسه، فأحاط به العدو وقتلوه[٣].

هنالك تبدّى للحجّاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ)، فردّه إليه[٤]، وعقد له على

---

(١) جزيرة الياقوت: هي جزيرة سيلان، انظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٥٧) وتاريخ الإسلام في الهند (٧٣).

(٢) الديبل: تقع بالقرب من كراجي في القوت الحاضر، وقد اندرست الآن، وكانت من أشهر المدن المقدسة في منطقتها. وهذا الاسم (الديبل) معروف حتى الآن في الباكستان، انظر تاريخ الإسلام في الهند (٧٤).

(٣) البلاذري (٤٢٣ ـ ٤٢٤)، وفي تاريخ الإسلام في الهند (٧٣ ـ ٧٤)، ورد سبب آخر لحملة الحجّاج هذه، هو: «هجرة جماعة من بني هاشم إلى السند فراراً من الحجّاج، فكتب الحجّاج إلى ملك السند يطلب منه تسليم الفارين، ولكنه لم يظفر بما يريده»، وأرجِّح ما ذكرته في المتن، نظراً لحرارة الشعور الديني حينذاك، كما أنّ الفتح الإسلامي كان لا بد أن يمتد من فارس إلى السند لنشر الإسلام في ربوعه وللإفادة من خيراته التي كانت معروفة كلّ المعرفة من العرب.

(٤) البلاذري (٤٢٤).

ثغر (السِّند)، وضمّ إليه ستة آلاف من جند أهل الشّام، وجهّزه بكلِّ ما احتاج إليه - حتى الخيوط والإبر والمال - وأمره أن يقيم بـ (شِيراز) حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له[1].

واهتمّ الحجّاج اهتماماً بالغاً في إنجاز استحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقاً، فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع في الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفِّف في الظل وقال لهم: «إذا صرتم إلى (السِّند) فإنّ الخلّ بها ضيِّق، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا»، ويقال: إنّ محمداً لما صار إلى ثغر السِّند كتب يشكو ضيق الخلِّ عليهم، فبعث الحجّاج إليه بالقطن المنقوع في الخل[2].

ومضى محمد إلى (مُكْران) فأقام بها أياماً[3]، ثم أتى (فنزبور)[4] ففتحها، ثم أتى (أرْمائيل)[5] ففتحها أيضاً[6].

وسار محمد عن (أرمائيل) بعد فتحها، فقدِم (الديبل) وهي قرب مدينة كراجي الحالية يوم جمعة، فوافته هناك سفنه التي كانت تحمل الرجال والسِّلاح والعتاد والمهمات[7]، فخندق حين نزل (الديبل) وأنزل الناس

---

(١) البلاذري (٤٢٤)، وانظر ابن الأثير (٤/ ٢٠٥) وابن خلدون (٣/ ٦٠)، وفي اليعقوبي (٣/ ٣٢): إنّ محمد بن القاسم أقام بشيراز ستة أشهر.

(٢) البلاذري (ص٤٢٤)، وفي تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٥٨): إنّ محمداً سار من (مكران) ووجهتم (الديبل) في اثني عشر ألفاً من جند الشّام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم.

(٣) في اليعقوبي (٣/ ٣٢): إنّ محمداً أقام بمكران شهراً ونحوه.

(٤) فنزبور: مدينة بين مكران والديبل كما يظهر من سير تقدم جيش محمد بن القاسم.

(٥) أرمائيل: مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند، انظر معجم البلدان (١/ ٢٠٢).

(٦) البلاذري (٤٢٤) وابن خلدون (٣/ ٦٠).

(٧) جرى إنزال المواد والمهمات في مدخل ميناء كراجي الحالي، ولا تزال الجزيرة الواقعة في مدخل الميناء تسمى: جزيرة محمد بن القاسم، حتى الآن.

منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له: العروس، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية المدربين على استخدامه، فدكّ بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد)[1]، وكان على هذا البد دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت بالمدينة[2].

وحاصر محمد (الديبل) وقاتل حماتها بشدّة، فخرجوا إليه، ولكنه هزمهم حتى ردّهم إلى البلد، ثم أمر بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة فاستباحها محمد ثلاثة أيام، ولكنّ عامل(داهر) ملك السند عليها هرب عنها سالماً[3]، فأنزل فيها محمد أربعة آلاف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بني في هذه المنطقة[4].

وسار محمد عن (الديبل) إلى (النيرون)[5]، وكان أهلها بعثوا إلى

---

(١) البد: هو المعبد، وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم (بد). والصنم بد أيضاً. انظر تاريخ الإسلام في الهند (٧٤). والبد صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة، وفي رأس المنارة دقل. انظر ابن الأثير (٤/ ٢٠٥) وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٦٠). وفي اليعقوبي (٢/ ٣٢): إن طول البد في السماء أربعون ذراعاً. والبد هو الصنم، وقيل: هو بيت الصنم.

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٠٥) والبلاذري (٤٢٤) وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٦٠).

(٣) البلاذري (٤٢٤ ـ ٤٢٥) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥) وابن خلدون (٣/ ٦٠)، وانظر اليعقوبي (٣/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٤) تاريخ الإسلام في الهند (٧٤).

(٥) نيرون: مدينة تقع على مسافة (٧٥) ميلًا عن مكران، وتعرف أيضاً باسم: نيرانكوت، وموقعها حيدر آباد السند الحالية، ويغلط بعض الكتاب، فيكتبون نون الكلمة الأولى باءاً، وينسبون إليها على ذلك العلامة البيروني، وهو خطأ شنيع، فمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هي بإقليم خوارزم انظر كتاب: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/ ٦٠)، وقد وردت خطأ في ابن الأثير (٤/ ٢٠٥) البيرون وكذلك في البلاذري (٤٢٥): أما في ابن خلدون (٣/ ٦٠) فقد وردت خطأ أيضاً باسم النيروز، وقد وردت في اليعقوبي (٣/ ٣٢): النيرون وهو الصحيح.

الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح[1]

وسار محمد عن (نيرون) وجعل لا يمرُّ بمدينة إلّا فتحها حتى عبر نهراً دون (مِهْران)[2]، فأتاه أهل (سربيدس)[3] وصالحوه ففرض عليهم الخراج وسار عنهم إلى (سهبان)[4] ففتحها، ثم سار إلى نهر (مِهْران) فنزل في وسطه، وبلغ خبره (داهر)، فاستعدّ لمجابهته[5].

وبعث محمد إلى (سدوستان)[6]، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم محمد وفرض عليها الخراج أيضاً[7].

وعبر محمد نهر (مِهران) مما يلي بلاد الملك (راسل) ملك (قصة) من الهند على جسر عقده، و (داهر) مستخف به لاهٍ عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة، فاشتدّ القتال بشكل لم يسمع بمثله! وترجّل (داهر) وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، فقال قاتل داهر[8]:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

أني فرجت الجمع غيرُ مَعرد[9] ... حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجندلًا ... متعفر الخدين غير موسّد

---

(١) البلاذري (٤٢٥) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥): وابن خلدون (٣/ ٦٠).
(٢) مهران: موضع على نهر السند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٠٩).
(٣) سربيدس: مدينة بالقرب من مهران على نهر السند.
(٤) سهبان: مدينة في منطقة سربيدس على نهر السند.
(٥) البلاذري (٤٢٥) وابن الأثير (٤/ ٢٥).
(٦) سدوستان: وقد وردت في البلاذري (٤٢٥): سدوسان ولم أجد لها ذكراً في معجم البلدان وفي كتب البلدان المتيسرة لدي.
(٧) البلاذري (٤٢٥) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥).
(٨) هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي، انظر البلاذري (٤٢٦).
(٩) معرد: عرد الرجل عن الطريق، إذا انحرف عنه.

فلما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند، ففتح (راوَر)[1] عنوة، وكان بها امرأة[2] لداهر فحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[3].

وتقدّم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا (برهمنآباد)[4] العتيقة على فرسخين من (المنصورة)[5] وكان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من أصحاب (داهر) بها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها[6].

وسار محمد يريد (الرور) و (بغرور)[7]، فلقيه أهل (ساوندري)[8] وسألوه الأمان، فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فأسلم أهلها من بعد ذلك[9].

وتقدّم نحو (بسمد)[10] وصالح أهلها على مثل صلح (ساوندري)، فسار عنها حتى انتهى إلى (الرور) وهي من مدائن السند تقع على جبل، فحاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً على ألّا يقتلهم ولا يعرض لبدِّهم (معبدهم ومقدساتهم)، وقال: «ما البد إلّا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس»، ووضع عليها الخراج وبنى بها مسجداً[11].

---

(١) راور: مدينة كبيرة بالسند، انظر معجم البلدان (٤/ ٢١٤).

(٢) هي راني باي، كانت أختاً لداهر بنى بها. انظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/ ٦١).

(٣) البلاذري (٤٢٥ ـ ٤٢٦) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥).

(٤) برهمنآباد: مدينة تقع على نهر السند بين كراجي والبنجاب، وهي مدينة لها مكانة تاريخية مرموقة في بلاد السند.

(٥) المنصورة: مدينة كبيرة يحيط بها خليج من نهر مهران، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٣٥١).

(٦) البلاذري (٢٢٦) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥) وابن خلدون (٣/ ٦٠).

(٧) الرور: ناحية بالسند تقرب من (الملتان) في الكبر، وبغرور بلد بالقرب من الرور. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٠١).

(٨) ساوندري: لم أجد لها ذكراً في كتب البلدان، والظاهر أنها مدينة في منطقة الرور.

(٩) البلاذري (٤٢٦) وابن الأثير (٤/ ٢٠٥).

(١٠) بسمد: لم أجد لها ذكراً في كتب البلدان، والظاهر أنها مدينة في منطقة الرور.

(١١) البلاذري (٤٢٦ ـ ٤٢٧) وابن الأثير (٤/ ٢٠٦).

وسار محمد إلى (السكة)[1] ففتحها، ثم عبر نهر (بَياس)[2] رافد نهر السند إلى مدينة (المُلْتان)[3]أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليه شهوراً وقاتله أهلها، فانهزموا، فحصرهم، فأتاه رجل مستأمن دلّه على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعه عليهم، فنزلوا على حكمه، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية، وسبى سدنة (البد) وهم ستة آلاف، وأصاب مالًا كثيراً جمعه في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوّة في وسطه، فسميت (الملتان): فرج[4] بيت الذهب[5]. وكان (بد) الملتان (بداً) تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحجّ إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنماً فيه هو أيوب النبي عليه الصلاة والسلام[6].

وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم، فقال: «شفينا غيضنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس (داهر)»[7].

لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين

---

(١) السكة: لم أجد لها ذكراً في كتب البلدان، والظاهر أنها مدينة في منطقة الرور.

(٢) بياس: نهر عظيم بالسند مفضاه إلى المولتان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣١٨).

(٣) الملتان: وأكثر ما يكتب: المولتان، مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، بها صنم يعظمه الهنود وتحج إليه من أقصى بلدانها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٤٦) و(٨/ ٢٠١) والمسالك والممالك للإِصطخري (١٠٣) وتقويم البلدان (٣٥١)، وهي منطقة من مناطق باكستان الغربية في الوقت الحاضر، وقد أطلق اسم المدينة على هذه المنطقة.

(٤) الفرج: الثغر.

(٥) ابن الأثير (٤/ ٢٠٦) والبلاذري (٤٢٧)، وفي اليعقوبي (٣/ ٣٣): إن محمداً حاصر الملتان حصاراً شديداً وأهلها لا يعلمون أنّ (داهر) قد قُتل، فبعث إليهم محمد بامرأة (داهر)، فقالت لهم: «إنّ الملك قد قتل، فاطلبوا الأمان».

(٦) البلاذري (٤٢٧) وابن الأثير (٤/ ٢٠٦) وابن خلدون (٣/ ٦٠ ـ ٦١)، وانظر جمل فتوح الإِسلام (٣٤٩).

(٧) البلاذري (٤٢٧) وابن الأثير (٤/ ٢٠٦) وابن خلدون (٣/ ٦٠ ـ ٦١).

الهجرية (٧٠٧م) وأربع وتسعين الهجرية[١] (٧١٢م).

٢ ـ بعد الحجاج:

مات الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراق[٢] وخُراسان وسجستان[٣] سنة خمس وتسعين الهجرية[٤] (٧١٣م)، وكان محمد بن القاسم في (الملتان)[٥] فرجع إلى (الرور) و (البغرور)، وكان قد فتحهما، فأعطى الناس ووجّه جيشاً إلى (البيْلمان)[٦]، ففتحوها صلحاً. وسأله أهل (سرشت)[٧]، وهي مغزى أهل البصرة وأهلها يقطعون في البحر يسمون: (الميد) الصلح فصالحهم. ثم أتى محمد (الكيرج)[٨] فخرج إليه (دوهر)

---

(١) انظر ابن الأثير (٤/٢٠٦)، فقد ذكر كل هذه الفتوح في حوادث هذه السنة، وقد ذكر أيضاً في (٤/٢٢١): أن محمد بن القاسم افتتح أرض الهند، وذلك في حوادث سنة أربع وتسعين الهجرية، وكذلك في الطبري (٥/٢٥٧)، مما يدل على أن فتوحات محمد بن القاسم كانت في المدّة بين سنة تسع وثمانين الهجرية وأربع وتسعين الهجرية، أما اليعقوبي في (٣/٣٢) فيذكر أنّ الحجّاج وجّه محمد بن القاسم إلى السند سنة اثنتين وتسعين الهجرية.

(٢) ابن الأثير (٤/١٤٤) والطبري (٥/٤٠) وابن خلدون (٣/٤١).

(٣) ابن الأثير (٤/١٧٢) والطبري (٥/١٣٤) وابن خلدون (٣/٤٦).

(٤) ابن الأثير (٤/٢٢٣) والطبري (٥/٢٦٤) وأبو الفدا (١/١٩٩) وشذرات الذهب (١/١٠٦) والمعارف (٣٩٨) واليعقوبي (٣/٣٤) ووفيات الأعيان (١/٣٤٧) والعبر في خبر من غبر (١/١١٢).

(٥) ابن خلدون (٣/٦٦) وانظر البلاذري (٤٢٧) وابن الأثير (٤/٢٢٣).

(٦) البيلمان: منطقة من أرض السند والهند، انظر معجم البلدان (٢/٣٤١).

(٧) سرشت: في البلاذري (٤٢٧) وردت: سرست. والظاهر إنها مدينة في منطقة البيلمان.

(٨) الكيرج: بلاد كان يحكمها الملك دوهر الذي لا تقل شهرته وعظمته وسلطانه عن ملك السند (داهر)، ولم يسلك الملك (دوهر) مسلك الملك (داهر) ولم ينصرف إلى الملذات، بل اعتنى بشؤون بلاده وكرس جهوده على الإِصلاحات والعمران، فازدهرت بلاد الكيرج في عهده وعلت شهرته.
ومدينة الكيرج هي مدينة بومباي في الوقت الحاضر، وكانت مدينة مقدّسة عند أهل البلاد، وقد اتخذها الملك دوهر عاصمة لملكه، تتميز بموقعها على البحر وبثروتها الزراعية وبحضارتها وعمرانها وكثرة سكانها ومركزها التجاري.

ملك تلك المنطقة، فقاتله محمد وانهزم (دوهر) وهرب، وقيل: بل قتل فنزل أهل المدينة على حكم محمد، فقتل وسبى[1].

وبينما كان محمد ينتقل من نصر إلى نصر، ويستعدّ لفتح مملكة (قَنوج)[2] أعظم إمارات الهند، وكانت تمتد من السند إلى (البنغال)[3]، وكان قد أوفد بعثة من رجاله إلى ملكها تدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فردّ الملك الوفد ردّاً غير كريم؛ فأخذ محمد يعدّ العدّة لفتحها، وجهّز جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان. وفي الوقت الذي أمّل فيه محمد أن يضمّ مملكة الهند الشمالية وعاصمتها (قنوج) إلى ما فتحه من بلاد الهند، إذ جاءه خبر وفاة الخليفة الأُموي الوليد بن عبد الملك بن مروان[4]، وكان سنده وسند الحجّاج بن يوسف الثقفي أيضاً وتولية سليمان بن عبد الملك عدو الحجّاج وأسرته[5]، وذلك لأنّ الوليد أراد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل بدله ابنه عبد العزيز بن الوليد، فبايعه على خلع سليمان الحجّاج؛ فولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند، وعزل محمد بن القاسم، فمات يزيد لثمان عشرة ليلة من مقدمه، فولّى سليمان خلفاً له؛ فرجع ملوك السند إلى ممالكهم[6].

لقد أنجز محمد فتح كلّ ذلك سنة خمس وتسعين الهجرية[7] (٧١٣م).

---

(١) البلاذري (٤٢٧) وابن الأثير (٤/ ٢٢٣) وابن خلدون (٣/ ٦٦).
(٢) قنوج: موضع في بلاد الهند، انظر معجم البلدان (٧/ ١٧٦).
(٣) البنغال: ولاية كبيرة من ولايات الهند والباكستان حالياً وقاعدتها: كلكتا. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٤٧).
(٤) توفي سنة ست وتسعين الهجرية. انظر الطبري (٥/ ٢٦٥) والمعارف (٣٥٩) وشذرات الذهب (١/ ١١١).
(٥) انظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/ ٦٥) وتاريخ الإسلام في الهند (٧٥).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٤) والبلاذري (٤١١) وخزانة الأدب (٣/ ٦٥٧) وسرح العيون (١٠٠).
(٧) ابن الأثير (٤/ ٢٢٤) والبلاذري (٤٢٨) وابن خلدون (٣/ ٦٦).

الإنسان:

أخذ يزيد بن أبي كبشة السكسكي أمير السند الجديد محمداً وقيّده وحمله إلى العراق، فقال محمد متمثلًا:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند محمداً، فلما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بـ (واسط)[1]، فقال محمد:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلًا مغلولا

فلرب فتية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

وقال:

ولو كنت أجمعت الفرار لوطئت ... أناث أعدّت للوغى وذكور

وما دخلت خيل السكاسك[2] أرضنا ... ولا كان من (عَك)[3] عليّ أمير

ولا كنت للعبد (المزوني)[4] تابعاً ... فيالك دهر بالكرام عثور[5]

فعذّبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل بني عَقِيْل رهط الحجّاج، حتى قتلهم؛ وكان الحجاج قد قتل آدم أخا صالح الذي كان يرى رأي أهل الخوارج[5]؛ ويقال: إنّ صالح بن عبد الرحمن عذّب محمداً

---

(١) واسط: مدينة سميت بهذا الاسم لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، بناها الحجاج بن يوسف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٧٧٨ ـ ٣٨٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٧٨ ـ ٤٨٠) وتقويم البلدان (٣٠٦ ـ ٣٠٨) والمسالك والممالك للإصطخري (٥٨) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (١١٨).

(٢) سكسك = السكاسك: هم أولاد السكاسك بن أشرس بن كندة، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٣١).

(٣) عك: قبيلة من عدنان، وهم بنو عك بن الديث من عدنان، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

(٤) المزوني: من مزينة، وهم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن أود بن طابخة بن ألياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان. انظر جمهرة أنساب العرب (٤٨٠).

(٥) البلاذري (٤٢٨) وابن الأثير (٤/٢٢٣).

فمات من العذاب[1]؛ وبذلك انتهت حياة ابن القاسم سنة ست وتسعين الهجرية[2] (٧١٤م)، إذ توفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة من هذه السنة[3]، فعزل خلفه سليمان بن عبد الملك محمد بن القاسم، وكان قد ولد سنة اثنتين وسبعين الهجرية[4] (٦٩١م)، وذلك لأنه تولى السند سنة تسع وثمانين الهجرية[5] وكان عمره حينذاك سبع عشرة سنة؛ فقد قال الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال[6]
فغدت بهم أهواؤهم وسمت به ... همم الملوك وسورة الأبطال[7]

وقال حمزة بن بيض الحنفي يرثي محمداً:

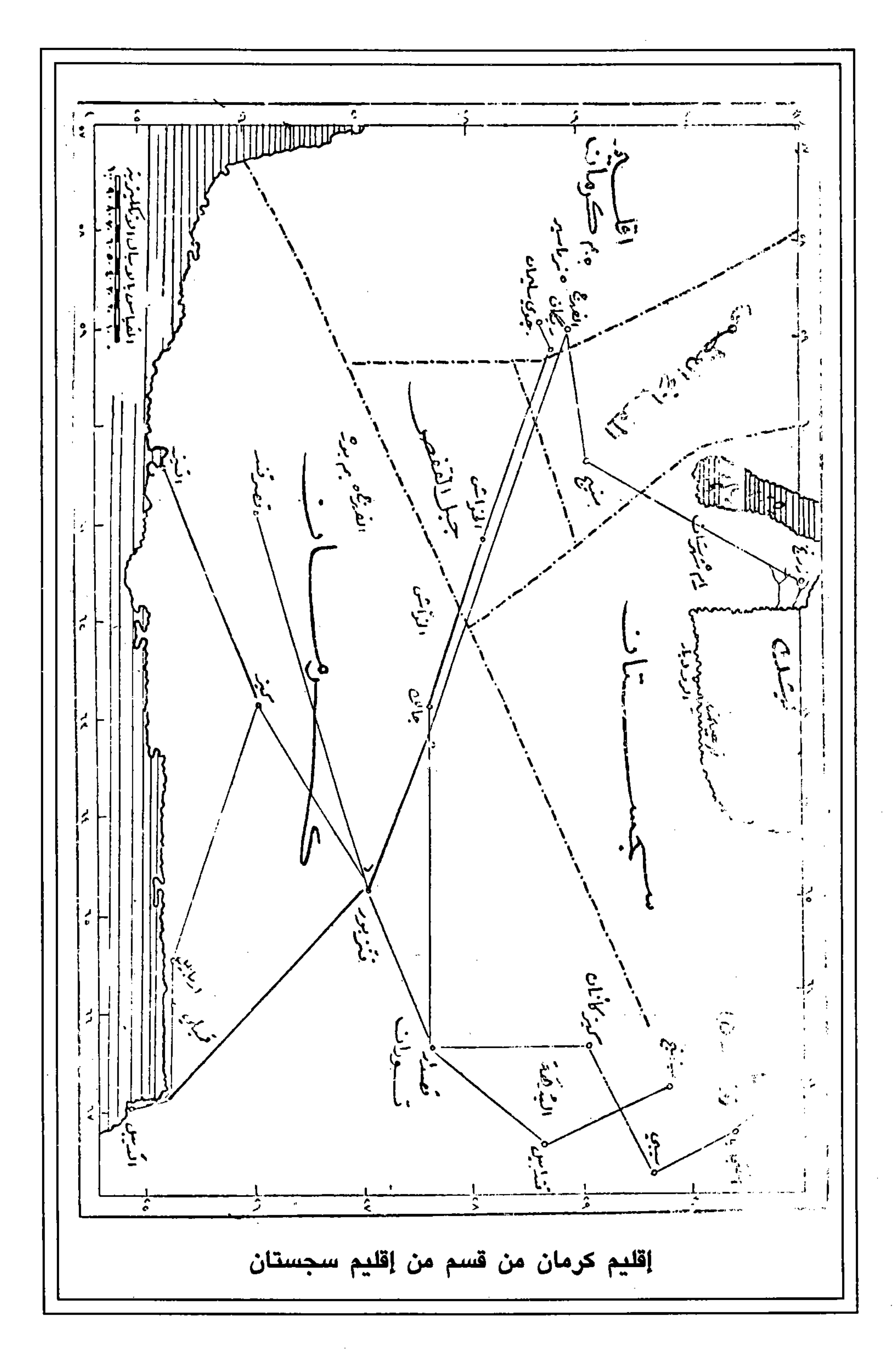
إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد[8]

وكان محمد يهتف في أعماق سجنه وفي ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعي وطاعتي ... وإني على ما فاتني لصبور
فتحت لهم ما بين (سابور)[9] بالقنا ... إلى الهند منهم زاحف ومغير

---

(١) البلاذري (٤٢٨) وابن الأثير (٤/ ٣٢٢).
(٢) معجم الشعراء (٤١٣).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٢٠٥).
(٤) الطبري (٥/ ٢٦٥) وابن الأثير (٥/ ٣) واليعقوبي (٣/ ٣٥) وشذرات الذهب (١/ ١١١) وأبو الفدا (١/ ١٩٩).
(٥) في الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢٥) إنه ولد سنة اثنتين وستين الهجرية، والصحيح ما ذكرناه.
(٦) ابن الأثير (٤/ ٢٠٥).
(٧) ابن الأثير (٤/ ٢٢٤) والبلاذري (٤٢٨)، وصدر هذا البيت كما ورد في معجم الشعراء (٢/ ٤) واليعقوبي (٣/ ٣٤) ورد كما يلي: قاد الجيوش لخمس عشر حجة.
(٨) معجم الشعراء (٤١٢).
(٩) سابور: كورة واسعة مدينتها سابور، وهي كورة مشهورة بأرض فارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠١).



إقليم كرمان من قسم من إقليم سجستان

فتحت لهم ما بين (جُرْجان)[1] بالقنا ... إلى الصين ألقى مرة وأغير
وما وطئت خيل السكاسك عسكري ... ولا كان من (عك) عليّ أمير

لقد بكى أهل السند محمداً[2] وصوره بـ (الكيرج)، فرجع ملوك السند إلى ممالكهم[3]، واضطرب السند، وأخلّ الجند الذين كانوا مع محمد بمراكزهم، فرجع أهل كل بلد إلى بلدهم[4].

بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية ويقسم بالسوية، ويغزو بالسرية؛ ولأنه نشر الإسلام في ربوعهم، فأرسل دعاته شرقاً وغرباً يجوبون البلاد التي فتحها، وكان أكثر مَن هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه.

وبكاه أهل السند من غير المسلمين، لحسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، وإطلاق حرية العبادة لهم[5]، ولحسن سياسته للبلاد المفتوحة وتدبير أمورها وتأليف قلوب أهلها، لقد كان الهنود حينذاك على حال من الفوضى والشقاق قبل محمد بن القاسم، فكانت سياسة محمد سياسة صلح وكياسة؛ ولما استتب له الأمر، وكل الأمور الإدارية للهنود نائبين عنه، وكانت سياسة الحكم العليا خيراً مما جرت به التقاليد المحلية. ومما يؤثر عنه، إنه لم يخن عهداً قطعه على نفسه، ولقد كتب له الحجّاج مرة يشيد بمزاياه العسكرية، ويمتدح له تجشّم المشاق في سبيل إسعاد الناس وتحسين أحوالهم ويثني على سياسة الحكم التي اتبعها، إذ حدّد الخراج الذي تدفعه كلّ قرية على حدة، وشجّع طبقات الشعب كافة على اتباع

(١) جرجان: مدينة كبيرة مشهورة في خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٤٨ ـ ٣٥١).
(٢) البلاذري (٤٢٨).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٢٢٢) والبلاذري (٤٠٨).
(٤) ابن الأثير (٤/ ٢٢١).
(٥) ابن الأثير (٤/ ٢٢٢).

القانون والوفاء بما يقطعون لبعضهم من عهود، فارتفعت بذلك سمعة الحكم الأدبية[1].

وكان من الطبيعي بعد ما جرى لمحمد ما جرى، أن ينتهز الفرصة من يريد استرداد ملكه، لذلك ثارت القلاقل في البلاد المفتوحة، مما اضطر والي السند الجديد إلى الحرب من جديد لاسترداد ما فتحه محمد بن القاسم من قبل[2].

لقد كان محمد إدارياً متميزاً بنى كثيراً من المساجد في الهند، وقيل: إنه أول من تولى عمارتها واختطاطها[3]، يتميّز بذكاء خارق وحنكة سياسية فذّة، وكان سخياً كريماً شهماً غيوراً وفياً صادقاً، مؤمناً صادق الإيمان، عمل جاهداً لنشر الإسلام في ربوع السند، ونجح في ذلك أعظم النجاح، لذلك كانت نهايته المفجعة وهو في عمر الورد كارثة كبرى وخسارة فادحة للمسلمين من عرب وهنود على حد سواء.

مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب، بلاؤه الرائع في توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولامهارته الفذة في القيادة والإدارة، ولا انتصاراته الباهرة في السند؛ ولكنّ آثاره الخالدة لا تموت أبداً، وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر؛ ولم يختره الله إلى جواره، إلّا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان، وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل.

أما الذين عذّبوه فقد ماتوا وهم أحياء، ولا نزال حتى اليوم نذكرمحمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزي والاشمئزاز. لقد عذّب أولئك النفر أنفسهم حين عذّبوه، وقتلوا أنفسهم حين

---

(١) انظر تاريخ الإسلام في الهند (٧٦ ـ ٧٧).
(٢) انظر تاريخ الإسلام في الهند (٧٧).
(٣) انظر معجم البلدان (٥/ ٣٢٠).

قتلوه؛ وقد غيّبوا بظلمهم الأسود جسده، ولكنهم طهّروا روحه ورفعوها إلى السماء، على حين أظهروا أجسادهم لمدة قصيرة وغيبوا أرواحهم في الظلمات.

لقد أخذوا بيده إلى الجنة، وأخذوا بأيديهم إلى النار.

القـائـد:

كان محمد بن القاسم قريب القرابة من الحجاج، فهو من أبناء عمومته كما عرفنا، وكان في ريعان شبابه حين تولى قيادة منطقة عسكرية من أخطر المناطق العسكرية، في ظروف صعبة جداً.

فهل ولّاه الحجّاج قيادة تلك المنطقة في تلك الظروف، لأنه كان من أبناء عمومته؟؟ الحق، أنّ الحجّاج، كان رجل دولة بكلِّ ما في الكلمة من معنى، فهو يضع دائماً المصلحة العامة فوق كلِّ شيء آخر؛ وكانت للحجّاج معرفة بالرجال، لا يختارهم لحسن هيئتهم ولا لكرامة أصلهم، وإنما يختارهم لغنائهم وكفايتهم[1]، فكان البارزون من قادته: المهلّب بن أبي صُفْرة الأزدي وابنه يزيد وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهِليّ، وهم ليسوا من بني عمومته، ومحمد بن القاسم الثقفي.

فما هي مزايا قيادة محمد بن القاسم التي جعلت الحجّاج يُقدم على تعيينه قائداً عاماً للسند وهو في السابعة عشرة من عمره؟

أول مزاياه البارزة، هي اهتمامه الدقيق بإنجاز استحضاراته الإدارية، ذلك الاهتمام الذي بلغ حدّ الرّوعة في تكامله وإتقانه، حتى ليمكن أن يعدّ محمد ـ بحق ـ نموذجاً حياً للقائد الفذ في تدابيره الإدارية.

لقد أنجز قبل حركته إلى السند كلّ متطلبات جيشه الإدارية، ولم ينس حتى الإبر والخيوط وحتى الخل أيضاً، وبذلك اطمأن إلى أنّ الأمور الإدارية

---

(١) انظر كتاب: الحجاج بن يوسف الثقفي ـ عبد الرزاق حميدة (١٩١).

ـ وهي مبدأ من أهم مبادئ الحرب ـ بتفاصيلها الدقيقة لا يشوبها أيّ خلل مهما يكن طفيفاً.

وكما لم ينس إحضار وسائل النقل البرية لقواته التي اتجهت براً إلى السند، فإنه لم ينس إحضار وسائط النقل البحرية لقواته التي اتّجهت بحراً إلى (الديبل) من أرض السند على الرغم من صعوبة النقل البحري بالنسبة للعرب حينذاك.

لقد كان يدرك بعمق أهمية القضايا الإدارية لنجاح كلّ جيش في مهمته، فعمل جاهداً على تذليل الصعوبات الإدارية بحرص شديد، حتى أصبح جيشه مكتفياً ذاتياً من الناحية الإدارية من كلِّ الوجوه.

وكما أدرك محمد أهمية الاستحضارات الإدارية لجيشه، أدرك أهمية نقص تلك الاستحضارات في جيش عدوِّه، فقطع الماء عن أهل (الملتان) التي امتنعت عليه شهوراً، واضطرهم بذلك على الاستسلام.

وقد أفاد محمد من المعلومات التي حصل عليها العرب المسلمون في غزواتهم السابقة للسند عن: طبيعة الأرض، وطبيعة العدو، وتسليحه، وأساليب قتاله، ومناعة أسواره التي تحيط بمدنه، فأعدّ لذلك العدّة المناسبة وجهّز رجاله بما يحتاجون إليه من مواد وتجهيزات وأرزاق وسلاح كما جهّز جيشه بالمنجنيقات لدكِّ الأسوار وبالرجال المدربين على استخدامها بكفاية وإتقان. وكان لمحمد قابلية متميزة لانتخاب الأهداف الملائمة في المجالات السوقية[١] والتعبوية[٢]، فكان اتجاهه في الفتح سليماً للغاية هدفاً سوقياً بعد هدف سوقي، مما جعل فتحه رصيناً. كما كان موفقاً في اختيار الأهداف التعبوية، فقد استهدف قصف الصنم الأكبر في (الديبل) بالمنجنيق (العروس) وحطّمه، للتأثير في معنويات المدافعين القابعين وراء أسواره، ولتزول ثقتهم

(١) السوقية: الاستراتيجية (Strategy).

(٢) التعبوية: التكتيكية (Tactics).

به، وفعلًا نجح محمد في تحطيم معنويات عدوه واضطره على تبديل خطّة دفاعه وأحدث الارتباك والفوضى بين صفوفه.

وكان محمد يثير في رجاله بواعث الإيمان الرّاسخ والعقيدة الصلبة، لتقوية معنويات جيشه وجعلهم يؤمنون بأن النصر سيكون حليفهم، وأنّ عدوّهم لا يستطيع الثبات أمامهم.

وكانت محاولات محمد في إضعاف معنويات خصمه وتقوية معنويات رجاله ناجحة جداً: فقد آمن رجاله بالنصر، واعتقد عدوّه بأنّ المجاهدين القادمين من الصحراء محاربون أشداء لا يمكن الثبات أمامهم بأيٍّ حال من الأحوال.

وكانت قيادة محمد تتميّز بالجرأة والمجازفة، فقد أقدم على التغلغل في مجاهل السند غير هيّاب ولا وجل، فكان لجرأته النادرة أثرها في جنوده، فأقدم بعضهم على مجازفات بالغة الخطورة، كما فعل المرادي من أهل الكوفة في إقدامه على تسلّق السلالم المقامة على أسوار الديبل، فأشرف على قِمّة الأسوار، فتبعه إخوانه مرددين نداءه الخالد: الله أكبر . . . الله أكبر. . . !

وكانت خطط محمد تتميّز بالمرونة، يسهل تحويرها عند تبدّل المواقف، وكمثال واقعي على مرونة خططه، الخطة التي قاد بها معركة (الديبل)، فقد عالجت تلك الخطة ثلاثة احتمالات: محاصرة المدينة فقط حتى تنفد ذخيرتها وأرزاقها فتضطر على التسليم، وقبول المعركة خارج الأسوار إذا حاول العدو الخروج من المدينة، وقبول المعركة داخل الأسوار بمحاولة نصب السلالم وتسلقها وفتح الأبواب عنوة، كما حدث فعلًا في معركة (الديبل).

وكانت قيادة محمد متميِّزة: يدير العمليّات بكفاية، ويسيطر على المعركة عند الاشتباك، ويعدّ الخطط المرنة الدقيقة، ويصدر القرارات السريعة الصائبة، وينتهز الفرص لإنزال الضربة القاضية بالعدو، ويستفيد من

الإمكانات المتيسرة كافة، ويستعمل الخدع والتضليل في إيهام الخصم... وتلك هي أهم ما تتميّز به القيادة الفذّة.

وكان بالإضافة إلى ذلك، يتّبع سياسة حكيمة في معاملة البلاد المفتوحة، فقد اعتنق قسم من الهنود قبل محمد بن القاسم الإسلام على أيدي قسم من التجار المسلمين، فوجدوه دين عدل ومساواة وسلام وتوحيد على عكس ما كانوا عليه من التفرقة ونظام الطبقات والعبودية. وقد طبّق الفاتحون تعاليم الدين الإسلامي الحنيف على البلاد التي فتحوها، فكانت خير دعاية لهم في حسن المعاملة ونشر العدل والمساواة بين الناس. وكان محمد بالذات يحرص كلّ الحرص على تطبيق المُثل العُليا للإسلام نصاً وروحاً على أهل البلاد المفتوحة، مما أدىّ إلى ازدياد عدد جنوده من الهنود المسلمين أنفسهم، الذين أسلموا رغبة في سماحة هذا الدين، فعاونوا العرب المسلمين في كثير من الأحيان معاونة حاسمة لإحراز النصر.

لقد أعلن كثير من الهنود ـ خاصة الطبقات الدنيا ـ ولاءهم للقائد العربي المسلم محمد بن القاسم، بعد أن بلغهم الكثير من تسامح هذا القائد وكرمه وكفِّه أيدي رجاله عن السلب والنهب والظلم والعدوان، فأمّنهم محمد على أنفسهم وأموالهم.

بل إنّ أحد البراهمة، دلّ محمداً ـ متطوِّعاً ـ على مكان خفي بأحد المعابد القريبة في (الملتان) كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم، فوجد محمد به من المال الكثير ما مكّنه من أن يردّ إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية.

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم في حسن معاملته للهنود وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، وإطلاق حرية العبادة لهم، أبعد الأثر في نفوس القوم، مما ساعد كثيراً على توطيد مركز المسلمين هناك[1].

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (٦٣ ـ ٦٤).

إنّ مميزات قيادة محمد بن القاسم البارزة، هي: ذكاء فائق، وشجاعة نادرة، واهتمام شديد بالقضايا الإدارية، والحصول على المعلومات، واستخدام الأسلحة المناسبة في المحل المناسب، وقابليته على اختيار الأهداف الصحيحة، ومرونة خططه ودقتها، وسرعة قراراته وصحتها، وجرأته الفائقة ومجازفته، وإيمانه العميق بالمُثُل العُليا الإسلامية وتطبيقها قولًا وعملًا، ورفع معنويات رجاله وتحطيم معنويات عدوّه، وقابليته البدنية المتميزة على تحمل المشاق والأتعاب، وسياسته الحكيمة التي اتّبعها في البلاد المفتوحة، وابتعاده عن الظلم والعدوان...

لقد كان محمد قائداً متميِّزاً.

ابن القاسم في التاريخ:

يذكر التاريخ لمحمد فتحه بلاداً شاسعة هي أكثر مناطق باكستان الغربية وقسم من مناطق الهند ونشره الإسلام في ربوعها.

إن المتجول في المناطق التي فتحها محمد بن القاسم، يجد في هذه الأيام التي تقطع بها تلك المسافات الشاسعة بوسائط النقل السريعة ومنها الطائرات، صعوبات كبيرة في تنقّله - حتى في الطائرات - لطول المسافات وسعتها، ولا يكاد يصدِّق: أنّ العرب المسلمين قطعوا تلك المسافات مشياً على الأقدام أو ركوباً على الإبل والخيول والدواب، مما يزيد في إعجابه الشديد بجهاد وجهود آبائنا التي بذلوها في الفتح لتكون كلمة الله هي العليا.

ويذكر التاريخ لمحمد سياسته الحكيمة في إدارة البلاد المفتوحة أيام الحرب والسّلام على حد سواء.

ويذكر له، أنه مات شهيداً بالتعذيب بدون أن يكون له ذنب أو تقصير.

إنه مثال للعربي في مزايا العرب الخالدة، ومثال للمسلم في مزايا الإسلام السَّمْحة.

رضي الله عن الشّهيد المظلوم، القويّ الأمين، الشاب البطل، الإداري الحازم، الأمير العادل، القائد الفاتح، محمد بن القاسم الثقفي.



أفغانستان
قبل الفتح الإِسلامي وفي أيامه

من التاريخ:

يُقصد بكلمة: (أفغانستان) بلادَ الأفغان، وقد عُرِفَت أفغانستان في التاريخ البعيد باسم: (آريان) نسبة إلى الآريين، وتعني كلمة: (آري) النبيل.

وتُعتبر أفغانستان مهد الآريين الذين هاجروا إليها من سهول (تُركستان) الغربيّة قبل الميلاد بنحو ألفي سنة، ولو أنّ بعض المؤرخين يرجع تاريخ هجرتهم إلى أكثر من أربعة آلاف سنة.

ولما استقرّ الآريون في أفغانستان، تحوّلوا بمرور الأيام من حياة الرعي والانتقال إلى حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة وبناء القرى وتعميرها، إلى أن تَمَّ لهم بناء مدينة (بَلْخ) التي عرفها العرب باسم: (أم البلاد) والتي تقع في مقاطعة: (مزار شريف) شمالي أفغانستان.

ويروي التاريخ أنّ الآريين الذين شيّدوا (بلخ)، كانوا أوّل مَن سنّ القوانين وأقام الدساتير ووضع القواعد والأسس السليمة للحضارة البشريّة، ففي الوقت الذي وصلت فيه مصر إلى قمّة مجدها، كانت (آريانا) تضع الأسس الأولى للحضارة العالمية، وكان الأمن والنظام قد وصلا فيها إلى أعلى مستوى حضاري.

ولما تكاثر سكّان (آريانا) وضاقت بهم الأرض، هاجرت قسم من القبائل الآرية متّجهة نحو الهند وغرباً نحو (فارس) ووصل قسم منها إلى أوروبا، وقد نقلوا معهم الحضارة إلى البلاد التي هاجروا إليها.

وعندما نطالع (الفيداس) الأربعة، وهي الكتب المقدّسة القديمة عند الهندوكيين، نرى أنها تحكي وتشرح حياة الآريين في (بَلْخ) عاصمة (آريانا)، ومن هذا يتّضح أنْ العقيدة الهندوكيّة نشأت أولًا في أفغانستان، ثم هاجرت إلى الهند وشاعت فيها.

وبعد ذلك ولد (زرادشت) في (بَلْخ) صاحب (أفيستا) الذي أسّس المذهب (المثنويّ) بعقيدة الخير والشر.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد، غزا الإسكندر المقدوني أفغانستان وأقام مدينتي (قُندهار) و(هراة) واستمرّ حكم اليونان بعده ما يقرب من مائتي سنة.

ولما جاء الإسكندر المقدوني إلى أفغانستان، كان معه (كلسنانْسُ) الفيلسوف المؤرِّخ ابن أخت الفيلسوف (أرسطو)، فتأسّست المدرسة اليونانيّة في أفغانستان واتّحد الفكر والفن البوذي، كما تحوّل الفن والفكر أيضاً إلى ما يسمى (إغريقو بوذيك) أي اليوناني البوذي، وقد استمرّت هذه المدرسة في أفغانستان عدّة قرون وتركت فيها آثاراً باقية.

وفي القرن الأول قبل الميلاد، تدفّقت جموع من قبيلة (كوشان) إلى أفغانستان من منطقة (تركستان) الشرقية، فقامت الإمبراطوريّة الكوشانيّة التي كان من أشهر حكّامها (كانشكا) الذي حكم في القرن الثاني الميلادي.

وكان قد ظهر(بوذا) في الهند وأسَّسَ مذهبه ومدرسته هناك، إلّا أنّ هذه المدرسة لم تنتشر تعاليمها ولم يكن لها شأن ونفوذ وصدى، إلّا بعد ما شاعت في أفغانستان واعتنقها ملوك الكوشانيين العظماء، فارتفع شأنها وذاع صيتها في البلاد المجاورة، حتى في الهند ذاتها.

وعندما قويت الدولة الساسانيّة، تقلّصت قوّة الكوشان، وتتابعت إمارات محليّة صغيرة بيد أمراء يحكمون البلاد باسم السّاسانيين.

واستمرّت هذه الإِمارات المسيطر عليها من السّاسانيين في الحكم، حتى قدم المسلمون فاتحين.

وكانت أفغانستان في عهد الساسانين تعرف باسم: (خُراسان)، ومعنى خُراسان: أرض الشمس.

أما أيام الساسانيين: قيام الدولة السّاسانية، وتنظيم دولتهم، والإِدارة المركزية التي تشمل الوزارة ورجال الدين والقضايا الماليّة، والصناعة والتجارة والمواصلات والجيش والكتّاب وموظفي الدولة وإدارة الأقاليم. والزردشتية التي هي دين الدولة والمانوية والمزدكية، وأثر الدين في الدولة، والجيش الساساني، والملوك الساسانيون، والشعب، فتجدها في مقدمة هذا الكتاب[1]، فليرجع إليها مَن شاء التعمق في تاريخ تلك الدولة في أيام ظهور الإِسلام وفي عهد الفتح الإِسلامي، فقد كانت أفغانستان قسماً من أقسام الدولة الساسانية.

وعندما اعتنق الأفغانيون الإِسلام، حطّموا الأصنام والأوثان، وتمسكوا بالدين الحنيف، وأخذوا ينشرونه في أرجاء أفغانستان والهند وما وراء النهر، وحملوا مشعله شرقاً وغرباً، فأصبحوا من أخلص دعاة الإِسلام، وكان لهم تاريخ مجيد في نشر الإِسلام وبخاصة في الهند وإيران وفيما وراء النهر[2].

لقد أثر الإِسلام في الأفغان تأثيراً عميقاً، فأصبحوا من المتمسكين بالإِسلام وتعاليمه ولا يزالون، فكانت أفغانستان من حصون الإِسلام القوية في ماضيها وحاضرها، وستبقى كذلك في مستقبلها بإِذن الله.

---

(١) قادة فتح بلاد فارس (١١ ـ ٨٠)، وأعدنا نشرها في مقدمة هذا الكتاب، لصلتها بفتح أفغانستان.

(٢) انظر كتاب أفغانستان (١٦ ـ ١٨) وكتاب أفغانستان (مواطن الشعوب الإسلاميّة في آسيا) ـ (٣٣ ـ ٣٥) وكتاب هرات (تاريخها وآثارها ورجالها) ـ (٩).

طبيعة أفغانستان:

١ ـ الموقع:

تقع أفغانستان في قلب آسيا في منطقة بعيدة عن البحار، تمتدّ على رقعة واسعة من الأرض تبلغ مساحتها (٦٥٠,٠٠٠) كيلو متر مربّع، تشكِّل السفوح الغربيّة لتلك الجبال الشّامخة التي تشغل وسط آسيا، فيتكوّن معظم سطحها من مرتفعات، خلا بعض المساحات التي تشمل قسماً من المناطق الغربية في الشمال الغربي والجنوب الغربي.

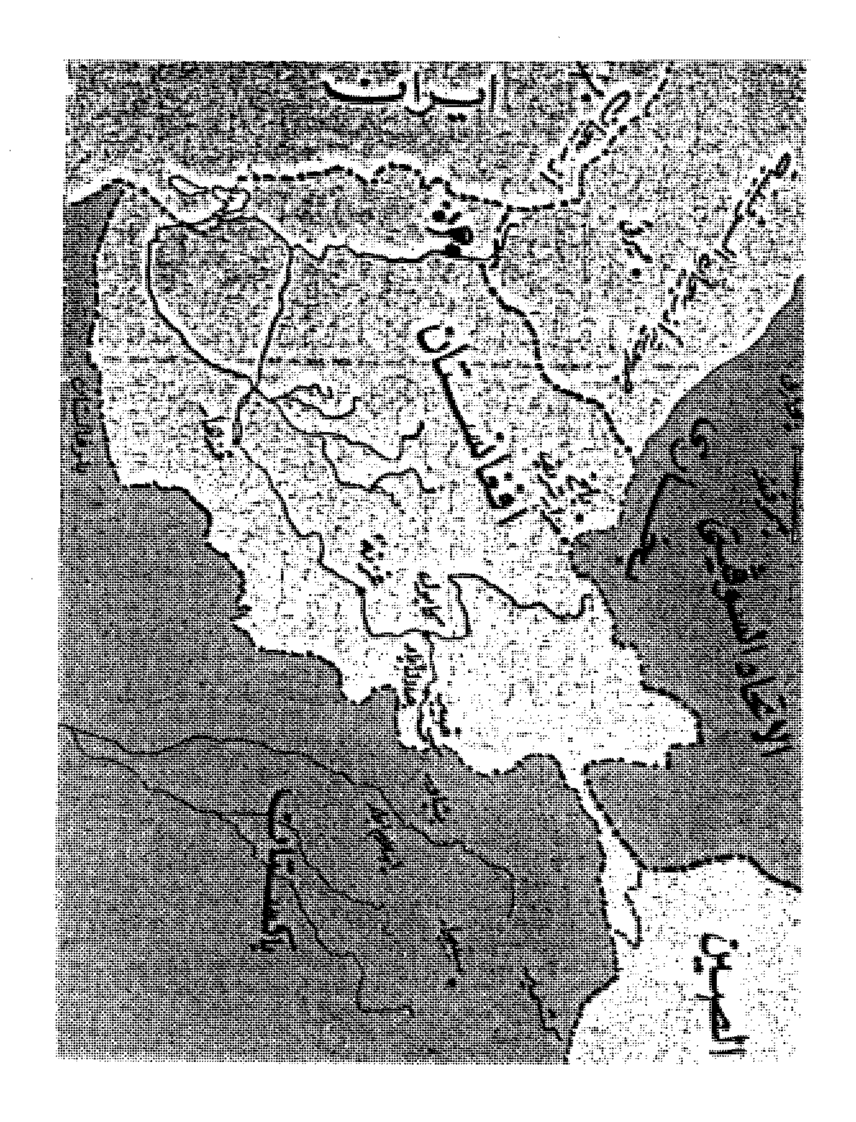
وتشكِّل أفغانستان القسم الشرقي من هضبة (إيران). وتغلب الصفة الجبلية على سطحها، ويكون الميل العام من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

وتبدأ المرتفعات في الشمال الشرقي بهضبة (بامير) التي تشكِّل عقدة تتفرّع منها السلاسل الجبلية الشامخة، ويبلغ متوسِّط ارتفاعها (٣٠٠٠م ـ ٣٦٠٠م)، ولكنها تصل في بعض قممها إلى (٦٠٥٤م) داخل أفغانستان، وتشكِّل مناطق الحدود بينها وبين تركستان وكشمير وباكستان والتيبت، وتغطي الثلوج قممها معظم أيام السنّة.

٢ ـ الجبال:

أ ـ جبال هندكوش:

تمتد باتجاه الجنوب الغربي، لتشغل أكثرية أرض أفغانستان، حيث تصل إلى مقربة حدود (إيران) ويستمر هذا الامتداد على طول (٥٧٥ كم)، وتكون مرتفعة في الشرق إذ يصل ارتفاعها إلى (٥٣٣٤م)، بينما تنخفض في الغرب فلا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠٠م). وتنساب الأنهار منها في جميع الاتجاهات على شكل أودية وشعاب، حتى أنّ كلمة: (هندكوش) تعني جبال الأنهار. وقد جزّأتها هذه السيول إلى عدّة سلاسل، يطلق عليها أسماء مختلفة.



خريطة أفغانستان

ب ـ جبال سليمان:

تتفرّع من هضبة (بامير) وتتّجه جنوباً، وتشكّل الحدود بين أفغانستان وباكستان، وتتألّف من سلاسل متقاربة تخترقها أودية عميقة، ويصل أعلى ارتفاع لها إلى (٤٧٦١م) في قمة (سيكرام) على الحدود بين الدولتين في جنوبي شرقي مدينة (كابُل)، ومن أشهر ممراتها: ممر (خَيْبَر) الذي يمرّ فيه نهر (كابُل) ويصل بين مدينتي (كابُل) في أفغانستان و(بيشاور) في باكستان.

٣ ـ السهول:

تمتد السهول شمالاً في مناطق ضيِّقة قريبة من مجرى نهر (جيحون) الذي يشكِّل الحدود بين تركستان وأفغانستان، ولا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠م) وتؤول إليها المياه المنحدرة من جبال (هندكوش) ويصل بعضها إلى نهر (سيحون)، بينما يغيض أكثرها في رمال المنطقة.

وتوجد أيضاً سهول في الغرب حول مدينة (هَراة) وعلى مجرى نهر (هاري رد) في مجراه الأوسط كما توجد سهول في الجنوب الغربي قليلة الارتفاع وأكثرها انخفاضاً على حدود إيران، حيث تنتشر المستنقعات، وتعتبر هذه الأقسام صحاري سوى ما كان منها على مجرى نهر (هلمند).

٤ ـ المُنَاخ:

تقع أفغانستان ضمن المنطقة المعتدلة، سوى أجزاء صغيرة تقع ضمن الصحاري الحارة، ولما كانت أفغانستان منطقة داخليّة بعيدة عن البحار والمحيطات، لذا فمناخها قاري شديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاءً، وإن كانت الحرارة تختلف بين المرتفعات والمناطق المنخفضة، حيث تعتدل الحرارة صيفاً في الجبال، فتكون هضابها ومرتفعاتها مصايف جميلة، أما في الشتاء فشديدة البرد، وكثيراً ما تنخفض درجات الحرارة إلى (٢٠°) درجة مئوية دون الصفر وتكون مكلّلة بالثلوج. أما المناطق المنخفضة فصيفها حار لاهب تزيد درجة الحرارة فيه على (٤٥°) درجة مئويّة، وينام الناس على أسطحة المنازل طلباً للنسمات العليلة المعتدلة التي هي نسيم الجبال، تخلّصاً

من الحر الشديد والجو الخانق داخل البيوت. وأكثر المناطق حرارة هي المناطق الجنوبية الغربيّة، وفي الشتاء يعمّ الاعتدال، وتهبط في هذا الفصل القبائل من الجبال.

وتهبّ الرياح الموسميّة على جبال (سليمان) في الصيف لا تتعدّاها، وتحمل معها الأمطار، أما بقيّة المناطق فتهبّ عليها الرياح الشمالية الشرقيّة الجافّة التي تأتي من مناطق قاريّة.

وفي الشتاء تصل إلى البلاد الرياح الغربيّة التي تحمل بعض الرطوبة من البحر الأبيض المتوسّط رغم بعده، فتسبّب هطول بعض الأمطار، وتتساقط في المرتفعات على شكل ثلوج بسبب شدّة البرد، كما تتعرّض الأجزاء الشمالية من البلاد للرياح الباردة الشديدة البرد، فتسبّب تلك اللفحات القارصة وتنشر الصَّقيع.

وأفغانستان بسبب بعدها عن البحار، فهي قليلة الأمطار، وأكثرها ما يهطل على المرتفعات في الشرق والشمال الشرقي، حيث تبلغ الكميّات الهاطلة من الأمطار هناك (٣٨٠مم) في السنة. وأقلّ المناطق مطراً هي المناطق الواقعة في الجنوب الغربي، ويبلغ ما يهطل عليها من مطر (٥٠مم) فقط في السنة. والمعدّل العام للمطر هو (٢٥٠مم) في السنة، ولكن هذه الكميّة تتفاوت من سنة إلى أخرى.

وتتميّز سماء أفغانستان بالصحو في معظم أيام السنة، فالصيف دائم الصحو، وأكثر أيام الشتاء صافية السماء وأقلّها غائمة، وتسطع الشمس الدافئة في أغلب الأحيان.

٥ ـ المياه:

الأنهار في أفغانستان قليلة، وبخاصة الأنهار الدائمة الجريان، بسبب قلّة الأمطار، والأنهار الجارية ضئيلة المياه، تجري في بطون الوديان على شكل خيوط من الماء سببها ذوبان الثلوج الدائمة. ولكن عدد الأودية كثير،

معظمها يجفّ أغلب أيام السنة لقلة المطر. وهي تمتلئ بالمياه إثر زخّات المطر، وتفيض في فصل الربيع وأوائل فصل الصيف لذوبان الثلوج بسبب ارتفاع درجات الحرارة، وتشحّ فيما عدا ذلك لشدّة الحرارة التي تؤدي إلى زيادة التبخّر وقلّة التغذية والاستفادة ببعض ما يجري فيها للري.

ومن أهم هذه الأنهار:

أ - نهر جيحون:

ينبع من هضبة (بامير) ويجري في الشمال، ويشكِّل الحدود بين أفغانستان وتركستان مسافة (٦٣٠كم)، ويتلقى تغذيته من ثلوج (بامير) والجبال المشرفة على واديه سواء من جبال (هندكوش) من الجنوب أم مرتفعات تركستان من الشمال، ويصبّ في بحيرة (خوارزم) مشكِّلًا جزيرة واسعة (دلتا)، وكان فيما مضى يصبّ في بحر الخزر (قزوين)، ويبلغ طوله (٢٢٤٠كم)، ويفيض في أيام الربيع.

ومن الجدير بالذكر، أنّ البلاد الواقعة وراءه أطلق عليها المسلمون اسم: بلاد ما وراء النهر، نسبة إليه.

ومن المدن المشهورة التي تقع على هذا النهر مدينة (تِرْمِذ)، وهي على حدود أفغانستان ضمن جمهورية الأُزبك.

ب - نهر هلمند:

يبدأ مجراه الأعلى من المرتفعات الوسطى من جبال (كوه بابا) من غربي مدينة (كابُل)، كما تتدّفق إليه المياه التي تَنساب من الجبال الجنوبيّة لجبال (هندكوش) والسفوح الغربيّة للمرتفعات الشرقيّة عبر روافد كثيرة وأودية عديدة. واتجاه النهر نحو الجنوب الغربي ثم نحو الغرب، وأخيراً يتّجه نحو الشمال ليصبّ في بحيرة (سيستان) على الحدود الأفغانية - الإِيرانية.

ويبع طوله (١١٢٠كم)، ويروي وفروعه منطقة تزيد مساحتها على ثلث المساحة العامة لأفغانستان، وتقع في الجنوب الغربي من البلاد.

جـ ـ نهر خاش:

تنحدر مياهه من جبال (تيماني) ويتّجه نحو الجنوب الغربي، ويصب ما يفيض من مياهه في منخفض (سيستان).

د ـ نهر فرح:

تنحدر مياهه من جبال (تيماني) ويمرّ بمدينة (فرح)، ويصبح بعدها جافاً، ولا تجري المياه في واديه إلّا بعد زخّات المطر الشديد، ويبلغ طوله (٦٤٠كم)، ويصب في منخفض (سيستان).

هـ ـ نهر هاروت:

يجري في الغرب، ويصب في منخفض (سيستان).

و ـ نهر هاري:

يجرى في الغرب، ويمتدّ إلى أواسط البلاد، وتقع في حوضه مدينة (هَراة)، ويستمر في اتجاهه الغربي حتى يصل إلى حدود (إيران)، ثم بين (تركستان) و(إيران)، وأخيراً تغيض مياهه في رمال (تركستان).

ومن المدن الواقعة على هذا النهر مدينة (سرخس) عند انعطاف الحدود الإِيرانية نحو الغرب وتقع ضمن (تركستان).

ويصل طول هذا النهر إلى (١٠٠٠كم) تقريباً منها في (أفغانستان) نحو (٦٥٠كم) والباقي في (تركستان).

كما كانت مدينة (بيهق) تقع في مجراه الأسفل، حيث تزول مياهه قريباً منها، وتقع هذه المدينة في (تركستان)، وقد اندثرت اسماً، حيث لم يطلق اسمها على ما بُني على أنقاضها.

ز ـ نهر مورغاب:

ينبع من شمالي جبال (هندكوش) ومن أواسط البلاد، ويتّجه نحو الغرب، وتقع عليه مدينة (مرو) عاصمة (خُراسان).

جـ ـ نهر كابُل:

ينبع من وسط البلاد، ويتّجه شرقاً، فيمرّ بمدينة (كابُل)، ويجتاز ممر

(خيبر) ويدخل (باكستان)، فيمر بمدينة (بيشاور)، وبعدها يرفد نهر (السِّند) عند مدينة (أوتوك).

يبلغ طوله نحو (٦٠٠ كم)، ويعتبر من أهم الأنهار الأفغانية، لفوائده الكبرى ولاستمرار تدفّق مياهه.

السكّان:

١ ـ البوشتن Pushtuns:

يشكِّلون ٦٠٪ من مجموع السكّان، وهم خليط من العناصر التركيّة والإِيرانيّة، ويجتمعون في المناطق الواقعة جنوبي جبال (هندكوش)، كما يتواجدون في المناطق الواقعة شماليها، وهم يعملون في الزراعة كما يمتهنون الرعي، ويتميّزون بالقامة الطويلة ولون البشرة الأسمر والشعر الأسود المتموِّج، وقد اعتادوا تحمل المشاق بسبب طبيعة بلادهم ووعورة جبالها. وتقيم بعض قبائلهم في باكستان، وقد فصلت الحدود الاصطناعيّة بين أفغانستان وباكستان هذه القبائل بعضها عن بعض فجزّأتها، ويعرفون في باكستان باسم: قبائل (الباتان).

ومن أشهر فروع (البوشتن) في أفغانستان: (الغلزة) وهم من فرع الجنوب، وبسبب ميل لون هؤلاء إلى البياض، فقد ظنّ بعضهم أنهم مجموعة خاصة تختلف عن (البوشتن).

٢ ـ الطاجيك:

وهم عناصر إيرانيّة، يتمّيزون بالقامة المتوسطة، ويسكنون الوديان العليا من إقليم (باداخشان) وفي السهول العليا في وسط البلاد حتى الغرب، حيث يعمرون السهول الغربية حول مدينة (هراة)، ويشكِّلون ٣٠٪ من السكّان، ويعملون في الزراعة والصناعة والتجارة.

٣ ـ الأتراك:

وهم امتداد لسكّان تركستان الغربيّة، حيث نجد الأوزبك الذين يشكِّلون ٥٪ من مجموع سكّان أفغانستان، والتركمان وهم يقيمون على

الضفة الجنوبيّة لنهر جيحون، والقرغيز الذين ينتقلون في هضبة (بامير) ويرعون الأغنام والماعز وحيوانات الياك. وبالقرب من هذه القبائل يقيم (القوزاق) أيضاً، وهم من هذه المجموعة من القبائل.

٤ ـ الهزارة:

وقد انحدروا من أصل مغولي، وعددهم قليل نسبياً، وموطنهم المرتفعات الوسطى، ويعملون في الرعي والزراعة.

٥ ـ البالوخ:

وهم في الجنوب، والقليل منهم يقيمون في أفغانستان، وأكثرهم يقيم في إقليم (بلوخستان) من باكستان، وهو إقليم مجاور لأفغانستان، ويطلق عليهم: البالوج أو البالوش.

المدن:

١ ـ كابُل:

تقع على النهر المسمى باسمها: (نهر كابل)، وهي قسمان: القسم الشرقي وهو المدينة القديمة، والقسم الغربي وهو المدينة الحديثة.

٢ ـ هَراة:

تقع على نهر (هريرود)، ولعلها اسمها مشتق منه، وتقع في المنطقة الغربية حيث تنتشر السهول.

وهي مدينة أثرية قديمة، من أمهات مدن (خُراسان)، تبعد عن (كابُل) بنحو (١٠٤٢كم) وترتفع عن سطح البحر بنحو (١٩٢٠م)، يصلها بقندهار وسِجِسْتَان وكابل طريق معبّد، وتتصل من الجهة الشمالية بباذغيس ومرو الروذ وجوزجان.

٣ ـ قُنْدُهار:

تقع على مجرى أحد فروع نهر (هلمند) قريبة من الحدود الباكستانية.

٤ ـ مزار شريف:

مدينة قديمة في الشمال، وهي مركز مقاطعة (بلخ).

٥ ـ بَلْخ:

مدينة تاريخية قديمة، كانت عاصمة مملكة (إيريانا) القديمة، وكانت تحمل اسم: (باكتريا)، وتقع إلى الغرب من مدينة (مزار شريف) وعلى مسافة مائة كيلو متر منها تقريباً.

٦ ـ غزنة:

مدينة تاريخية قديمة، تقع جنوبي غربي مدينة (كابُل) على بُعد مائة وخمسين كيلومتر منها، وهي على طريق المواصلات بين (كابُل) و(قندهار).

٧ ـ طالقان:

بلدتان، إحداهما بخراسان بين (مرو الروذ)، و(بلخ)، بينها وبين (مرو الروذ) ثلاث مراحل، وهي أكبر مدينة بطخارستان، ويقال لها: (طالقان مرو الروذ). والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأنهر، ويقال: لها: (طالقان قزوين).

٨ ـ فارِياب:

مدينة مشهورة بخُراسان من أعمال (جوزجان) قرب (بلخ) غربي (جيحون)، وتعرف اليوم مقاطعة بهذا الاسم، ومركزها مدينة (ميمنة)، وهي (ميمنة جوزجان).

٩ ـ جوزجان:

اسم كورة واسعة من كور (بلخ) بخُراسان، بين (مرو الروذ)، و(بلخ)، ومن مدنها (فارياب).

وتوجد اليوم مقاطعة تحمل هذا الاسم إلى الشرق من مقاطعة (فارياب).

١٠ ـ مرو:

مدينة قديمة، وهما مدينتان: الأولى باسم: (مرو الشاهجان) وهي مرو العظمى أشهر مدن (خُراسان) وقصبتها، وهي الآن في خراسان التي تقع في الاتحاد السوفياتي. أما مرو الثانية فهي (مرو الروذ) وهي مدينة صغيرة بالنسبة إلى (مرو الشاهجان) وقريبة منها، بينهما خمسة أيام، وتقع على نهر (مورغاب) في حدود أفغانستان وداخلها على حدود تركستان.

وتقدر المسافة بين هاتين المدينتين بنحو مائتي وخمسين كيلومتر.

١١ ـ طخارستان:

هي المنطقة الأفغانية التي تقع شرقي مدينة (بلخ)، وهي بلاد جبليّة.

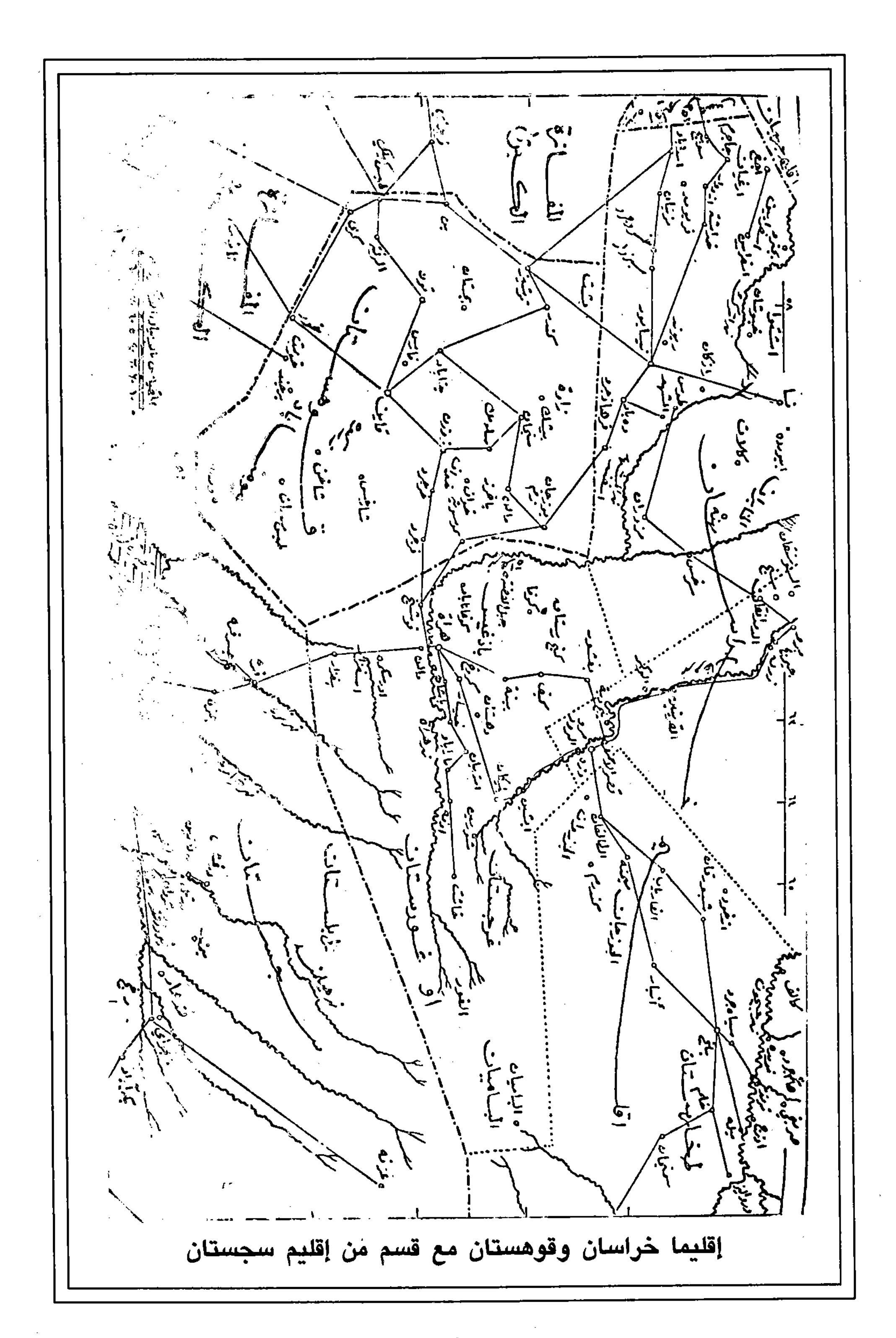
فتح أفغانستان:

١ ـ المعركة الحاسمة:

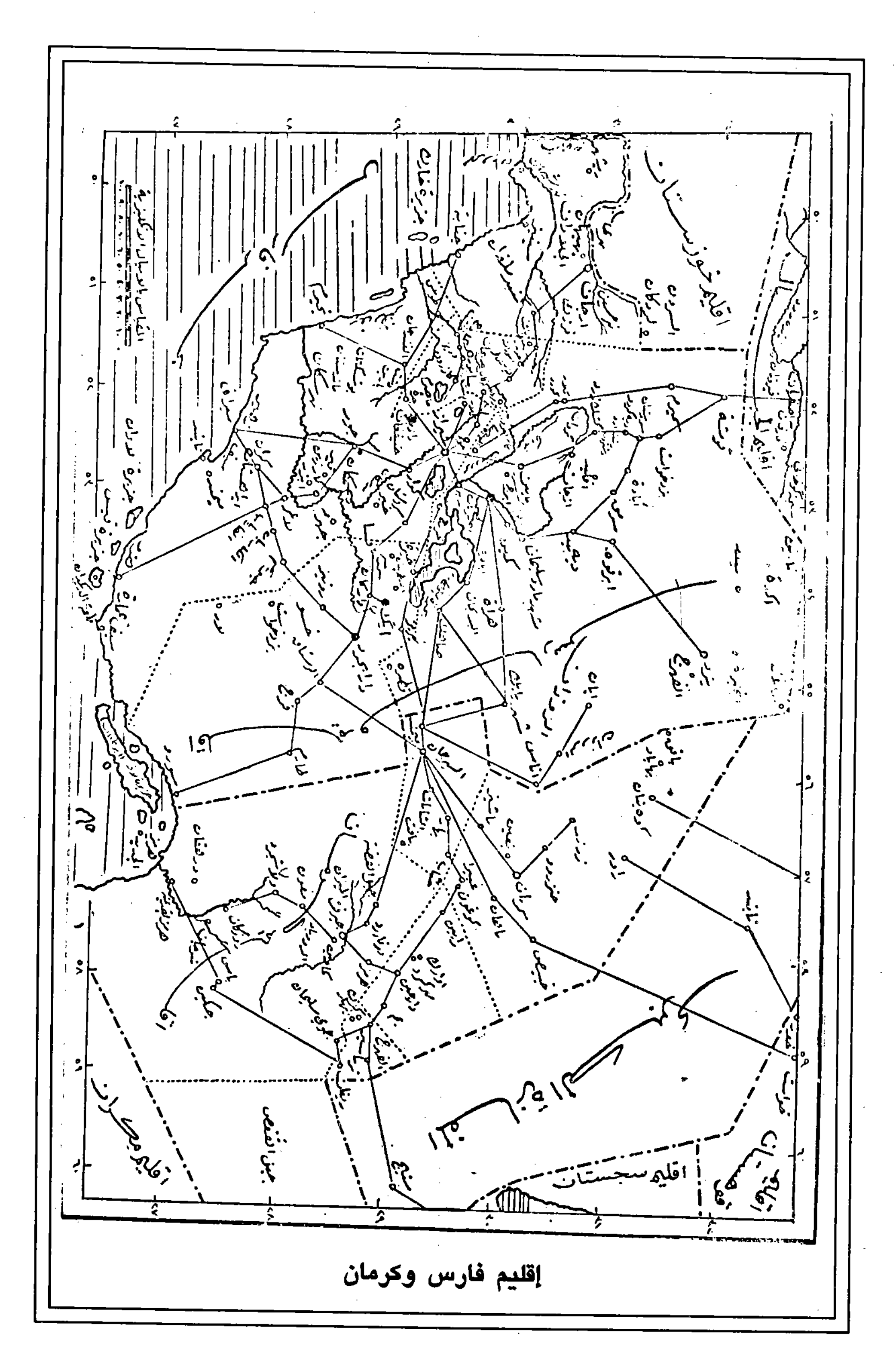
خاض المسلمون معركة (نَهاوند) بقيادة نُعْمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين الهجرية (٦٤٢م)، وهي إحدى المعارك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة وبين الإِمبراطوريّة الساسانيّة من جهة أُخرى، ففتحت هذه المعركة الحاسمة للمسلمين أبواب فارس والمشرق الإِسلامي ومنها أفغانستان، لذلك أطلق المسلمون على هذه المعركة بحق اسم: فتح الفتوح.

وبدأت بعد هذه المعركة الحاسمة معارك استثمار الفوز، وهي معارك محلية قاتل فيها قسم من جيوش المسلمين جيوش الحكّام المحليين، فعقد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بيده سبعة ألوية لسبعة قادة، عهد إليهم بالانسياح في المناطق الخاضعة للحكم الساساني والتي تحكم باسم حكّام فارس.

وكان من بين هذه الجيوش جيشان اتّجها نحو المنطقة التي تسمى



إقليما خراسان وقوهستان مع قسم من إقليم سجستان



إقليم فارس وكرمان

اليوم: أفغانستان، الأول بقيادة الأحنف بن قيس التميمي[1] ووجهته (خُراسان)، والثاني بقيادة عاصم بن عاصِم التميمي[2] ووجهته (سِجِسْتان).

أ ـ فتح الأحنف:

تقع (خُراسان) بين هضبة (إيران) وسفوح جبال (هندكوش) وتلال بلاد (ما وراء النهر)، وهي اليوم ضمن ثلاث دول: أفغانستان ومن مدنها (هراة) و(بَلْخ)، وإيران ومن مدنها (نيسابور)، وتركستان التي تخضع اليوم للسيطرة الروسيّة ومن مدنها (مرو الشاهجان) حاضرة (خراسان) كلِّها في أيام الأحنف.

وقد شهد الأحنف قبل أن يتوجّه لفتح (خُراسان) فتح (نَهاوند) مع أهل البصرة الذين جاءوا مدداً وعليهم أبو موسى الأشعري[3]، فلما انصرف أبو موسى من (نهاوند) وفتح (قُم) وجّه الأحنف إلى (قاشان)، ففتحها عنوة ثم لحق بأبي موسى الأشعري.

وبعد أن أنجز الأحنف متطلبات قوّاته القتاليّة كافة وأكمل حشدها، سار لفتح (خُراسان) سنة ثماني عشرة الهجريّة (٦٣٩م)، وفي قول سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م).

وسار الأحنف على رأس جيشه حتى دخل (خُراسان) من (الطَبَسَيْن)[4]، فافتتح (هَراة) عنوة واستخلف عليها.

وسار نحو (مرو الشاهجان)، فكتب (يزدجرد) وهو في (مرو الرّوذ)

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢١٧ ـ ٢٤٦).
(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٧٩ ـ ٢٨٩).
(٣) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٧٨ ـ ١٩١).
(٤) طبس: مدينة في بريّة بين نيسابور وأصبهان وكرمان، وهما طبسان: طبس كيلكي وطبس مسينان، ويقال لهما: الطبسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٦).

إلى خاقان ملك الترك وإلى ملك (الصُّغْد) وإلى ملك (الصِّين) يستمدّهم.

وخرج الأحنف من (مرو الشاهجان) بعد أن وصلته إمدادات (الكوفة)، فسار نحو (مرو الرّوذ)، وقدّم أهل (الكوفة) إلى (بَلْخ) وأتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في (بَلْخ) فهزموه، فما لحق الأحنف بأهل الكوفة إلّا وقد فتح الله عليهم.

وتتابع أهل (خراسان) ممن شذّ أو تحصّن على الصلح فيما بين (نيسابور) إلى (طخارستان)[1] ممن كان في مملكة كسرى. أما الأحنف، فعاد إلى (مرو الرّوذ) فنزلها، واستخلف على (طخارستان).

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بفتح (خراسان)، فقال عمر عن الأحنف: «هو سيِّد أهل المشرق المسمّى بغير اسمه»، ولكنّ عمر قال: «لَوَدِدْتُ أني لم أكن بعثت إلى (خُراسان) جنداً، ولَوَدِدْتُ أنه كان بيننا وبينها بحر من نار»، وخشي عمر أن يتقدّم الأحنف بجنوده إلى ما وراء (خراسان) من أرض المشرق، كما خشي أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فيتغلغلوا شرقاً، فكتب إلى الأحنف يقول: «أما بعد! فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأيِّ شيءٍ دخلتم على (خراسان)، فداوموا على الذي دخلتم به يَدُمْ لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضّوا».

لقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يُسَوِّغه، فقد اتّسعت رقعة الفتح في المشرق، فشملت أرض فارس كلّها، وقد طالت خطوط المواصلات كثيراً، وتوزّعت قوات المسلمين في أرجاء الشام ومصر والعراق وفارس، وقد دلّت الحوادث من بعدُ، أنّ عمر كان حصيف الرأي بعيد

---

(١) طخارستان: المنطقة الأفغانية التي تقع شرقي مدينة (بلخ)، وهي بلاد جبلية.

النظّر، فقد سار خاقان ملك الترك في جنده، ويزدجرد معه، فعبروا النهر إلى (بَلْخ)، واضطروا جند الكوفة أن يتراجعوا منها إلى (مرو الروذ). وكان الأحنف قد خرج بقوّاته ليلًا من المدينة وعسكر خارجها، وفي الصباح جمع الناس وقال لهم: «إنكم قليل، وإنّ عدوّكم كثير، فلا يهولنّكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين. ارتحلوا من مكانكم هذا، فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم، وقاتلوهم من وجه واحد»، وكانت قوات الأحنف تقدّر بعشرين ألفاً: عشرة آلاف من أهل الكوفة، وعشرة آلاف من أهل البصرة.

وأقبل الترك، فكانوا يناوشون المسلمين نهاراً ويتنحّون عنهم ليلًا، فخرج الأحنف بنفسه طليعة لأصحابه، حتى كان قريباً من معسكر خاقان الترك، فلما تنفّس الصبح، خرج فارس من الترك بطوقه، وضرب بطبله، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف وهو يقول:

إنّ على كلِّ رئيس حقّاً   أن يخضب الصَّعدة أو تَنْدَقَا
إنّ لنا شيخاً مُلَقّى   سيف أبي حفص الذي تَبَقّى[1]

وخرج فارس تركي ثان، فأورده الأحنف حتفه بطعنة نجلاء، وهو يرتجز:

إنّ الرئيس يَرْتَبي ويطلع   ويمنعُ الخُلّاء أما أربعوا[2]

وخرج فارس تركي ثالث، فأورده الأحنف مورد صاحبيه وهو يرتجز:

جرْي الشموس ناجزاً بناجز   محتفلًا بجريه مشارز[3]

---

(١) الصعدة: الرمح، أو آلة جارحة أصغر من الحربة. ملقى: طريح، ويقصد به الشهيد.
(٢) يرتبي: يصعد الرابية. الخلاء: جمع خلى، وتميم تقول: خلا فلان على اللّبن واللحم، إذا لم يأكل معه شيئاً ولا خلط به. ربع بالمكان: أقام.
(٣) الشموس: الفرس تمنع ظهرها. مشارز: الشدة والصعوبة والقوّة.

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره، وأعدّ رجاله للقتال، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم، لأنّ مقامهم طال دون جدوى، ولأنهم تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح، ولأن أملهم بالنصر كان ضعيفاً، ولأنهم اطمأنوا إلى أنّ المسلمين لن يعبروا إليهم النهر تنفيذاً لأمر الخليفة عمر بن الخطّاب.

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة عن (بَلْخ) وانضموا إلى الأحنف بـ (مرو الرّوذ)، قد فصل بقوة فارسيّة من (بلخ) إلى (مرو الشاهجان)، فحصر المسلمون بها واستخرج خزائنه من موضعها.

وعلم يزدجرد بانسحاب خاقان إلى (بلخ) وعزمه على الانسحاب من فارس كلِّها إلى بلاده، فأراد أن يحمل خزائنه ويلحق بخاقان حليفه، فقال له أهل فارس: أيّ شيءٍ تريد أن تصنع؟! فقال: «أُريد اللّحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين!»، فقالوا: مهلًا! إنّ هذا رأي سوء، فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا، وأنّ عدواً يلينا في بلادنا أحبّ إلينا مملكة من عدوٍ يلينا في بلاده، ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم!! فأبى عليهم وأبوا عليه، فقالوا: فدع خزائننا نردّها إلى بلادنا ومَن يلينا ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها! فخالفهم يزدجرد وأصرّ على رأيه، فخرجوا إليه وثاروا به وقاتلوه وحاشيته واستولوا على خزائنه، ففرّ فيمن معه إلى (بَلْخ)، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها، فتابع فراره حتى بلغ (فَرْغانة) عاصمة الترك، فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: «أقيموا بمكانكم ودعوهم».

وأقبل أهل فارس على الأحنف، فصالحوه وعاهدوه ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله، فسار الأحنف بجند الكوفة من (مرو الرّوذ) إلى (بَلْخ) فأنزلهم بها، ثم عاد إلى مقر قيادته في (مرو الرّوذ).

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما بالفتح، وبعث إليه بالأخماس، فجمع عمر الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ عليهم، وقال في خطبته: «ألا إنّ الله قد أهلك ملك المجوسيّة وفرّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم. ألا وإنّ الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوّله، فقوموا في أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تتبدَلوا ولا تتغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتى إلّا من قِبَلكم»، فكان فتح الأحنف لخراسان النذير الصّادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان ونشر رايات الإِسلام في تلك البلاد[1].

ب ـ فتح عاصم:

بعد فتح (نهاوند)، قرّر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يدفع قوّات المسلمين إلى سائر أنحاء فارس، فعقد بنفسه سبعة ألوية لسبعة قادة عهد إليهم بالانسياح في أرض فارس كلِّها كما ذكرنا، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواء (سِجِستان) دفعه إلى عاصِم بن عمرو التميمي، وأمَره على رأس جيش من البصرة، ثم أمدّه بأهل الكوفة بقيادة عبد الله بن عمير.

وسجستان ولاية كبيرة واسعة تشمل اليوم: منطقتي (راجستان) و(سيستان) ومن مدنها (قُنْدُهار) و (زَرَنْج)، ويقع منها اليوم في إيران، وهو غربي (سيستان).

وعسكر عاصم بالقرب من البصرة، حتى أكمل حشد قواته وأنجز متطلباتها الإِدارية ثم توجّه نحو هدفه (سِجستان)، وهي أعظم من (خُراسان)

---

(۱) انظر تفاصيل فتح الأحنف في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (۲۲۰ ـ ۲۲٦).

وأبعد فروجاً، يقاتل أهلها القندهار والترك وأمماً كثيرة، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة، وكلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم، وأنّ اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته.

والتقى عاصم بحُماة (سِجستان) على تخوم بلادهم، فلم يثبتوا للمسلمين، بل انسحبوا إلى (زَرَنْج) عاصمة ولاية (سِجستان)، فحاصرهم المسلمون فيها وبثّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة كلِّها، ولما أيقنَ المحاصَرون أنّ طول الحصار يضرّ بمصالحهم ومصالح إقليمهم ولا يجديهم نفعاً، طلبوا الصّلح على أن تكون مزارع (سِجستان) حمىً لا يطؤها المسلمون، وبذلك فتحت ولاية (سجستان) ودخلت ضمن البلاد الإِسلامية.

استعادة فتح أفغانستان:

١ ـ جهاد عبد الله بن عامر[1]:

أ ـ استعادة فتح خُراسان:

لما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقض أهل (خُراسان) وغدروا، فلما استعاد عبد الله بن عامِر فتح (فارس) غزا (خُراسان) وبعث على مقدمته الأحنف بن قيس التميمي، فأتى (الطَبْسَيْن) وهما حصنا وبابا (خُراسان)، فصالحه أهلها. وقدَّم ابن عامِر الأحنف إلى (مُهُسْتَان)، فهزم الفرس وفتحها عَنْوَة.

وبعث ابن عامِر يزيد الجرشِيّ أبا سالم بن يزيد إلى رستاق (زَام) من (نيسابور)، ففتحه عنوة، كما فتح (باخَرْز) من أعمال (نيسابور)، وفتح أيضاً (جُوَيْن) من أعمال (نَيْسَابور).

---

(١) انظر التفاصيل في سيرة: عبد الله بن عامِر التي تأتي وشيكاً، وفيها تفاصيل مواقع الأماكن والمدن الواردة في الفتح واستعادة الفتح.

وفتح ابن عامِر (بُشْت) من (نيسابور) وافتتح (خَواف) و(أَسْفَرايين) و(أرْغِيان) من (نيسابور). ثم أتى (أَبْرَشَهْر) وهي مدينة (نيسابور) فحصر أهلها، وكان على كلِّ ربع رجلٌ موكّلٌ به، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان، على أن يُدْخل المسلمين المدينة، فأجيب إلى ذلك، فأدخلهم المدينة ليلًا، ففتحوا له الباب، فتحصّن مرزبانها الأكبر في حصنها ومعه جماعة، وطلب الصلح والأمان على جميع (نيسابور).

وسيّر ابن عامر جيشاً إلى (نَسَا) و(أبِيْوَرْد) فافتتحهما صلحاً، ثمّ سيّر سرية إلى (سَرْخَسْ)، فقاتلت أهلها الذين طلبوا الصلح والأمان بعد ذلك، فأُجيبوا إليه.

وأتى مرزبان (طُوْس) ابن عامر، فصالحه على (طوس).

وسيّر ابن عامر جيشاً إلى (هَرَاة)، فبلغ مرزبانها ذلك، فسار إلى ابن عامر وصالحه على (هَرَاة) و(بَاذَغِيْس) و(بُشَنْج).

ووجّه ابنُ عامِر الأحنفَ بن قيس إلى (طَخَارِستان)، فصالح أهل رستاق الأحنف بعد حصارهم واستعاد فتح (مَرْو الرُّوذ) صلحاً بعد قتال.

والتقى الأحنف بأهل (طخارستان) الذين جمعوا له أهل (الجُوْزجان) و (الطَالَقَان) و(الفارِياب) ومَن حولهم خلق كثير، فانهزم الفرس وحلفاؤهم بعد قتال شديد، كما فتح الأحنف (الطالقان) صلحاً، ثم سار إلى (بَلْخ) فصالحه أهلها.

وتمّ ذلك سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ب ـ استعادة فتح سِجِسْتَان:

فتحت (سِجِسْتَان) في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فنقض أهلها بعده.

فلما توجّه ابن عامر إلى (خُراسان)، سيّر إليها من (كِرْمان) الربيع بن زياد الحارثِيّ، فقطع المفازة حتى أتى حصن (زَالِق)، فأغار على أهله في يوم مهرجان (أحد أعياد الفُرس) وأخذ الدهقان فافتدى نفسه.

ثم أتى بلدة (كَرْكَوَيْه) فصالحه أهلها.

وسار إلى (زَرَنْج)، فنزل على مدينة (روشت) بقرب (زرنج)، فقاتله أهلها، فأصيب رجال من المسلمين، ثمّ انهزم الأعاجم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وأتى الربيع (نَاشِروذ) ففتحها، ثمّ أتى (شَرْواذ) فغلب عليها. وسار منها إلى (زَرَنج) فحاصرها وقاتل أهلها، فبعث إليه أبرويز مرزبانها يستأمنه ليصالحه، فأُجيب إلى ذلك.

وسار الربيع منها إلى (سَنَارُوذ) فعبره وأتى (قَرْنِيْن)، فقاتله أهلها وظفر بهم، ثم عاد إلى (زرنج).

واستعمل ابن عامر على (سجستان) بعد الربيع عبد الرحمن بن سَمُرَة، فسار إليها وحصر (زرنج) التي أخرج أهلها عاملهم وامتنعوا، فصالحه مرزبانها.

وغلب عبد الرحمن على ما بين (زرنج) و(كِشّ) من ناحية الهند، وغلب من طريق ناحية (الرُخَّج) على ما بينه وبين بلاد (الدَاور)، فلما انتهى إلى بلاد (الدَاور) حصرهم في جبل (الزُوْر) ثم صالحهم. ودخل على (الزور) وهو صنم من ذهب له عينان ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: «دونك الذّهب والجوهر، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضرّ ولا ينفع».

وفتح عبد الرحمن (كابُل) و(زابُلِسْتَان) وهي ولاية (غَزْنَة)، ثم عاد إلى (زرنج) فأقام بها.

وهكذا استعاد ابن عامر فتح (سجستان) وفتح لأول مرة قسماً من أفغانستان وتم ذلك سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

٢ - جهاد الأحنف بن قيس:

نكث أهل فارس العهد بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فلما استعاد عبد الله بن عامِر فتح بعض أرض فارس في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه، غزا (خُراسان) وعلى مقدمته الأحنف، فأتى (الطَبَسَيْن) وهما حصنان وبابا (خُراسان)، فصالحه أهلهما، فسار إلى (قُهْستان)، فلقيه أهلها، فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم، فقدم عليها عبد الله بن عامر وصالح أهلها.

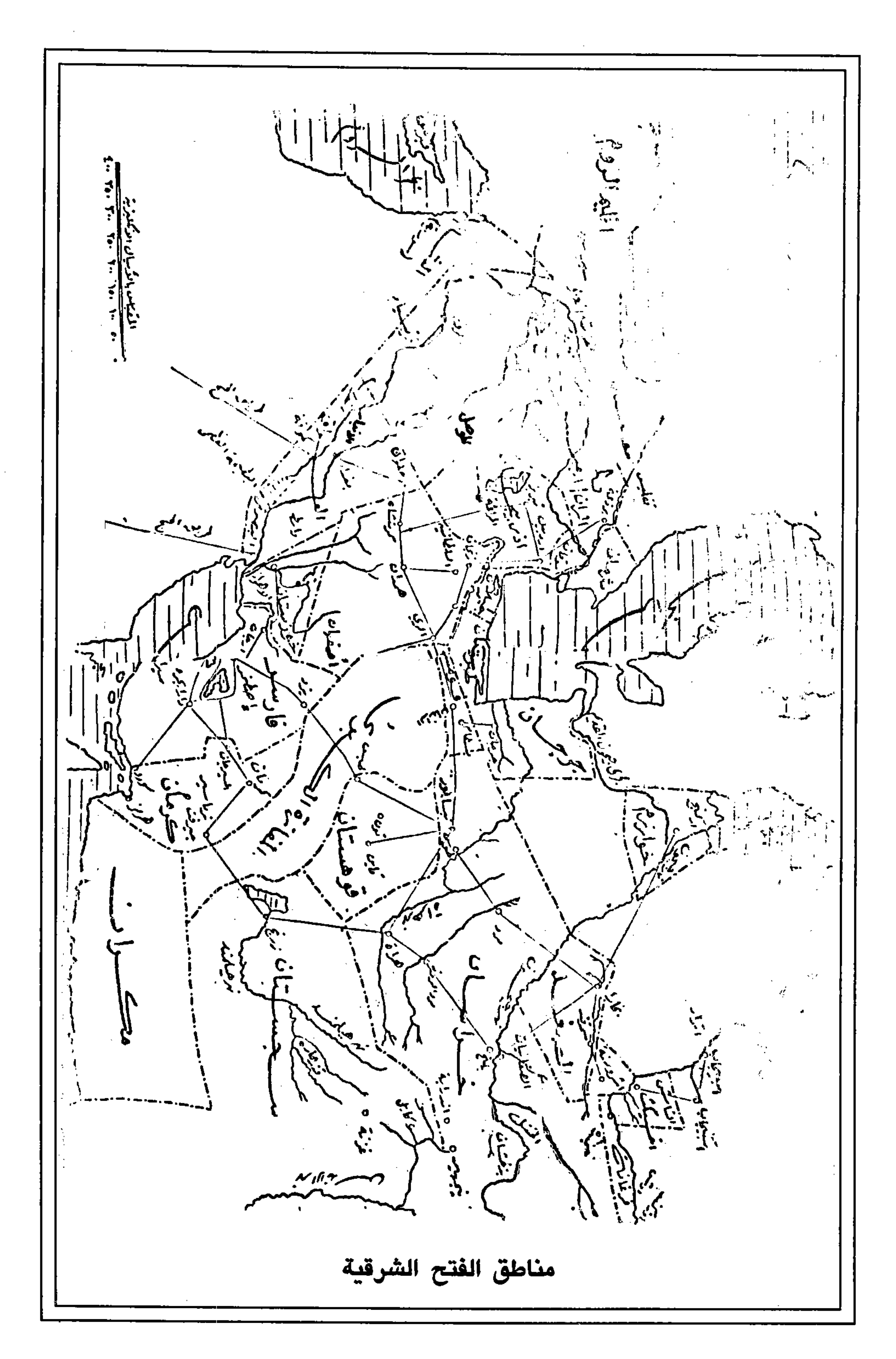
ووجّه عبد الله بن عامر الأحنف إلى (طخارستان)، فأتى الموضع الذي يقال له: قصر الأحنف، وهو حصن (مرو الرّوذ)، فصالح أهله بعد حصارهم على ثلاثمائة ألف درهم.

ومضى الأحنف إلى (مرو الرّوذ)، فصالح أهلها بعد قتال شديد. وسيّر الأحنف سرية إلى (بغ)[1]، فاستولت على الرستاق وصالحت أهله.

وجمع للأحنف أهل (طخارستان)، فاجتمع أهل (الجوزجان) و(الطالقان) و(الفارياب) ومَن حولهم، فبلغوا ثلاثين ألفاً، وجاءهم أهل (الصَغانيان) وهم من الجانب الشرقيّ من نهر (جيحون)، فالتقوا بالمسلمين، وجرى قتال شديد بين الطرفين، فانهزم الفرس وحلفاؤهم، فطاردهم المسلمون وألحقوا بهم خسائر فادحة بالأرواح.

---

(١) بغ: ويقال لها: بغشور، وهي بليدة بين (هراة) و(مرو الرّوذ).



مناطق الفتح الشرقية

ولحق قسم من العدو (بالجوزجان)، فوجّه إليهم الأحنفُ الأقرعَ بن حابِس التَّمِيمِيّ في خيل، وأوصى قومه بني تَمِيْم بقوله: «يا بني تَمِيْم! تحابّوا وتباذلوا تعدل أموركم، وابدؤا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلّوا يسلم لكم جهادكم»، فسارع الأقرع ولقي العدو (بالجوزجان)، فكانت بالمسلمين جولة، ثمّ عادوا فهزموا عدوّهم وفتحوا (الجوزجان) عنوة.

واستعاد الأحنف فتح (الطالقان) صلحاً، وفتح (الفارياب)، ثم سار إلى (بَلْخ) وهي مدينة (طخارستان)، فصالحه أهلها أيضاً.

وسار إلى (خوارزم)[١] وهي على نهر (جيحون)، فلم يقدر عليها، فاستشار أصحابه، فأشاروا عليه بالعودة إلى (بَلْخ).

وهكذا استعاد الأحنف (خُراسان) ثانية، وكان ذلك سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[٢].

٣ ـ جهاد الربيع بن زياد الحارثي:

نقض أهل (سِجستان) بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فلما توجّه عبد الله بن عامِر إلى (خراسان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، سيّر إليها من (كرمان) الربيع بن زياد الحارثيّ، فسار إليها حتى نزل (الفِهْرج) التي تقع بين (فارس) و(أصبهان) ومعدودة من أعمال (فارس) ثمّ من أعمال كورة (إصطخر)، ثم قطع المفازة وهي خمسة وسبعون فرسخاً، فأتى رستاق (زالق) من نواحي (سجستان)،

---

(١) خوارزم: اسم إقليم وهو منقطع عن (خراسان) وعما (وراء النهر)، وتحيط به المفاوز من كلِّ جانب، وحدّها متّصل بحد (الغزية) فيما يلي الشمال والغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر، وهي على جانبي نهر (جيحون)، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٦٨) ومعجم البلدان (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٢٦ ـ ٢٢٨).

فأغار على أهله في يوم (مهرجان) وهو عيد من أعياد الفرس، وأسر دهقان (زالق)، فافتدى نفسه، فحقن الربيع دمه وصالحه على أن يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد (فارس) و(كرمان).

ثمّ أتى الربيع قرية يقال لها: (كَرْكَوَيْه) على خمسة أميال من (زالق)، فصالحوه، ولم يقاتلوه.

ونزل الربيع رستاقاً يقال له: (هيسون) وهو رستاق بين (زالق) و(زَرَنْج)، فأقام له أهل النزلة وصالحوه على غير قتال.

وعاد الربيع إلى (زالق)، وأخذ الأدلّاء منها إلى (زَرَنْج)، وسار حتى نزل (هِنْدَمَنْد) وهو نهر مدينة (سجستان)، وعبر جيشه وادياً يترع منه يقال له: (نُوق)؛ وأَتى (دوشت) وهي مدينة بينها وبين (زرنج) ثلثا ميل، فخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالًا شديداً، فأصيب رجال من المسلمين، ولكنّ المسلمين كرّوا عليهم حتى اضطروهم إلى اللّجوء إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة.

وسار الربيع إلى (ناشروذ) ناحية بسجستان، فقاتل أهلها وظفر بهم، ثم مضى منها إلى (شرواذ) في (سجستان) فغلب عليها وأصاب بها بعض السّبي.

وحاصر الربيع (زَرَنْج) بعد أن قاتله أهلها، فبعث إليه (أبرويز) مرزبانها يستأمنه ليصالحه، فصالحه على ألف وصيف، مع كِل وصيف جام من ذهب، فدخل المسلمون (زَرَنْج).

وانتقل الربيع بعد ذلك إلى (سناروذ) وهو نهر (سجستان)، فعبره وأتى (قِرْنِيْن) وهي قرية من قرى (سجستان)، فقاتله أهلها، ولكنه ظفر بهم.

وعاد الربيع إلى (زرنج)، فأقام بها سنتين، ثم أتى عبدَ الله بن عامِر، واستخلف بها رجلًا من بني الحارث بن كعب، فأخرجه أهل (زرنج) وأغلقوها.

وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً، وسبى في ولايته هذه أربعين ألف نسمة، وكان كاتبه الحسن البصري رضي الله عنه.

ولما صار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، عزل عبد الرحمن بن سَمُرَة عن (سجستان) وولّاها الربيع، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١م)، فأظهره الله على الترك.

وبقي الربيع على (سجستان) إلى أن مات المُغِيْرَة بن شُعْبَة وهو أمير على الكوفة وذلك سنة خمسين الهجرية (٦٧٠م)، فولىّ معاويةُ زيادَ بن أبي سفيان الكوفة مع البصرة، وجمع له العِراقَيْن.

وعزل زياد بن أبي سفيان الربيعَ عن (سِجستان) وبعثه إلى (خُراسان) أميراً سنة إحدى وخمسين الهجرية (٦٧١م)، وسيّر معه خمسين ألفاً بعيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة، فأسكنهم دون النهر (نهر جيحون) في (خراسان)، فلما قدمها غزا (بَلْخ) ففتحها صلحاً، وكانت قد أغلقت أبوابها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس التميمي.

وفتح (قُهِسْتَان) عنوة، وقتل مَن بناحيتها من الأتراك، فبقي منهم (نيزك طرخان) ملك الترك، فقتله قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلِيّ في ولايته.

وهكذا استطاع الربيع استعادة فتح (سجستان) و(خراسان).

٤ ـ جهاد عبد الرحمن بن سَمُرَة[١]:

أ ـ لما استعمل عثمان بن عفّان رضي الله عنه عبد الله بن عامِر سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩م) على (البصرة) وجمع له الجندين: جند البصرة وجند فارس، استعمل ابنُ عامر عبد الرحمن بن سمرة على

---

(١) انظر سيرته المفصلة التي ترد وشيكاً في هذا الكتاب، وفيها تفاصيل مواقع الأماكن والمدن الواردة في جهاده.

(سِجِسْتان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م)، وذلك بعد انتقاض ونكث أهل (سجستان) بالمسلمين وإخراجهم عامل المسلمين عليهم قسراً.

وسار عبد الرحمن إلى (سجستان) على رأس جيش حتى أتى (زَرَنْج) فحصرها، فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف.

ثمّ غلب عبد الرحمن على ما بين (زرنج) و(الكِش) من ناحية الهند، كما غلب من ناحية (الرُخَّج) على ما بينه وبين بلاد (الداوَر) حصرهم في جبال (الزور) ثمّ صالحهم.

ودخل على (الزور) وهو صنم من ذهب له عينان ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: «دونك الذهب والجوهر، وإنما أردت أن تعلم أنه لا يضر ولا ينفع».

وسار عبد الرحمن قُدماً، حتى فتح (بُسْت) و(كابُل) و(زابُلِسْتان) وهي ولاية (غَزْنَة)، ثم عاد إلى (زرنج) فأقام بها، حتى اضطرب أمر عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر اليَشْكُرِيّ وانصرف، ولكن أهلها أخرجوا أُمَيْر بن أحمر وامتنعوا.

ب ـ واضطرب أمر (سجستان) وأفغانستان في أيام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لأن المسلمين كانوا في شغل شاغل عن الجهاد والفتح، كلّ طاقاتهم تذهب بدداً في الاقتتال بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فلما استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، استعمل عبد الله بن عامِر على (البصرة)، فولى ابن عامر عبد الرحمن (سجستان).

وأتاها عبد الرحمن سنة ثلاث وأربعين الهجرية (٦٦٣م)، فكان يغزو البلد قد كفر أهله، فيفتحه عَنْوَة أو يصالح أهله، حتى بلغ (كابُل) فحصرها أشهراً، وكان يقاتلهم ويرميهم بالمنجنيق، حتى ثلم سورها ثلمة عظيمة، فبات عليها عباد بن الحُصَيْن يطاعن المشركين المدافعين عن (كابُل) حتى أصبح دون أن يقدر أولئك المدافعون على سد تلك الثغرة.

وخرج أهل (كابُل) في الغد إلى العراء يقاتلون المسلمين، فضرب عبد الله بن خازم فيلًا كان معهم، فسقط على باب المدينة الذي خرجوا منه، فلم يستطع أهل (كابُل) أن يغلقوه، فدخل المسلمون المدينة عنوة بعد هزيمة أهلها.

وسار عبد الرحمن إلى (بُسْت) ففتحها عنوة.

وسار إلى (رَزان)، فهرب أهلها وغلب عليها.

وسار إلى (خُشَّك) فصالحه أهلها.

ثم أتى (الرُّخَّج) فقاتله أهلها أيضاً، ولكنه ظهر بهم، ففتحها.

وسار إلى (زابلستان) وهي (غزنة) وأعمالها، فقاتله أهلها وكانوا قد نكثوا، ففتحها أيضاً.

وعاد إلى (كابُل) وقد نكث أهلها، ففتحها، كما فتح مدينة (نَسَف) أيضاً.

وهكذا استعاد عبد الرحمن فتح (سجستان) و(أفغانستان)، وكان قد غزا (خُراسان) وفتح بها فتوحاً كما ذكرنا.

٥ ـ جهاد الأقرع بن حابس:

أ ـ في سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م)، أو سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م) عاد الأحنف بن قيس إلى مدينة (مَرُو الرُّوذ) بعد أن انتصر على أعدائه انتصاراً باهراً، فلحق قسم من أعدائه (بالجُوْزَجان)، فوجّه إليهم الأقرع على خيل.

وسار الأقرع فلقي العدو بالجوزجان، فكانت بالمسلمين جولة، ثم عادوا وفتحوا (الجوزجان) عنوة.

ب ـ ويبدو أنّ (الجوزجان) انتقضت، فسيّره عبد الله بن عامر على رأس جيش إلى (الجوزجان)، فأصيب بالجوزجان هو والجيش، فقضى هناك

شهيداً سنة ثلاث وثلاثين الهجرية أو سنة أربع وثلاثين الهجرية أو سنة خمس وثلاثين الهجرية.

عبرة معارك الفتح واستعادة الفتح:

كانت معركة (نهاوند) بين المسلمين من جهة وبين الإمبراطورية الفارسية من جهة أخرى، من المعارك الحاسمة في التاريخ العسكري بعامة وتاريخ الفتح الإِسلامي بخاصة.

وكان من نتائج هذه المعركة الحاسمة، فتح أبواب المشرق الإِسلاميّ للفاتحين المسلمين، كما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق للفاتحين، وفتحت معركة اليرموك الحاسمة أبواب بلاد الشام للفاتحين، وفتحت معركة بابليون الحاسمة أبواب مصر للفاتحين.

وكانت هذه المعركة معركة سَوْقِيَّة، لأنها كانت معركة بين أكبر حشد للدولة الإِسلامية وبين أكبر حشد للإِمبراطورية الساسانية، فهي بين جيشي دولتين في حشدها الرئيس لا بين جيشين محليين في حشد محدود.

وهي معركة سوقية، لأنّ نتائجها أثّرت في حاضر ومستقبل الإِمبراطورية الساسانية في البلاد والمناطق التي كانت تسيطر عليها في المشرق، فانتهى دورها القيادي في تلك البلاد إلى الأبد.

وهي معركة سوقية حاسمة، لانهيار القوّات الساسانية الضارية أمام ضربات المسلمين القاصمة، فأصبحت فلولاً بقيادات فرعيّة متفرقة لا بقيادة رئيسة موحّدة.

وبعد معركة (نهاوند) الحاسمة، توزّعت القوّات الإِسلامية التي قاتلت موحّدة في هذه المعركة تحت لواء واحد وبقيادة واحدة، إلى سبعة ألوية بقيادة سبعة قادة، لكل قائد من القادة السبعة هدف محدّد وواجب معيّن، فخاض كلّ قائد معركة من معارك استثمار الفوز، وهي معارك تعبويّة،

قاتلت القواتُ المحليّة بقيادة حكّامها المحليين فيها الفاتحين القادمين من بعيد بقيادة القادة المرءوسين.

وقد لاقى الفاتحون مقاومة تعبوية تغلّبوا عليها بسهولة ويسر في أغلب الأوقات، ولكنّ البلاد المفتوحة نقضت واستعادت السيطرة على بلادها في الأوقات التي شغل الفاتحون بالاضطرابات الداخليّة والفتن المحليّة، لا لأنّ قوّات البلاد المفتوحة أصبحت قويّة متفوِّقة، بل لأنّ الفاتحين تفرّقت كلمتهم وأصبحت سيوفهم على أنفسهم لا على أعدائهم.

وحين استطاع الفاتحون القضاء على الاضطرابات والفتن الداخليّة المحلية، استعادوا البلاد المفتوحة بسهولة ويسر أيضاً، بمعارك تعبويّة هي معارك استثمار الفوز، دون أن يخوض المسلمون معركة حاسمة سَوْقِيّة أخرى.

ولكنّ معارك الفتح لم تكن سهلة التكاليف، بل صادف المسلمون في كثير منها مقاومة شديدة، وتكبّدوا فيها خسائر فادحة بالأرواح، وجرى فتح بعض المناطق والمدن عنوة.

وكان لتلك المقاومة أسباب كثيرة، لعلّ أهمها: مناعة البلاد الطبيعية كوعورة الجبال وسعة الصحاري وتعدّد الأنهار، ومناعة المدن الاصطناعية، كالقلاع والحصون والأسوار.

كما أنّ من الأسباب، تفوّق المقاومين من أهل البلاد على الفاتحين عَدَداً وعُدَاداً، فقد كان قسم من حكّام تلك المناطق يحتفظون بجيش قوي، يدافعون به عن بلادهم حين يكون الأكاسرة أقوياء، ويقاومون جيش كسرى حين تضعف السلطة المركزية، فهم غالباً مع كسرى القويّ وعلى كسرى الضعيف.

فلما انهارت السلطة المركزية بعد معركة (نهاوند) الحاسمة، بقيت مقاومات السلطات المحلية، التي تتناسب تناسباً طرديّاً مع قوّة جيوش تلك السلطات ومناعة مناطقها الطبيعية والاصطناعيّة.

ومن تلك الأسباب، الدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد: دفاع الحكّام عن سلطتهم، ودفاع الحكّام والشعوب عن عقائدهم وتقاليدهم.

كما أنّ طول خطوط مواصلات المسلمين، وتغلغلهم بعيداً عن قواعدهم الرئيسة وقواعدهم الأماميّة والمتقدمة، ساعد أعداءهم على مقاومتهم بشدة وعنف في بعض الأحيان.

والحق أنّ تغلغل المسلمين بالعمق بعيداً عن قواعدهم، في بلاد بعيدة غاية البعد عن بلادهم، وسط شعوب غريبة عنهم في لغاتها وعقائدها وتقاليدها، يمكن اعتباره مغامرة من أخطر المغامرات في تاريخ الفتوح، ومن الصعب تسويغ تلك المغامرة إلّا بتأثير العقيدة الإِسلاميّة المنشئة البنّاءة في نفوس المسلمين وعقولهم معاً، فاستسهلوا من أجلها كلّ صعب، وتحمّلوا في سبيلها كلّ تضحية، وتغلبوا بها على العقبات والأهوال.

وإلّا، فكيف نسوّغ اندفاعهم الخطير وتغلغلهم العميق، بقوات قليلة جداً بالنسبة لقوّات أعدائهم، لو لم تكن العقيدة الراسخة هي التي يغامرون ويندفعون ويضحّون بأرواحهم من أجلها وفي سبيلها؟

لقد حمل الفاتحون الإِسلام إلى الأمم بالفتح، ولم يحملوهم عليه بالفتح.

ودخلت الأمم والشعوب في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً، فأصبح للمغلوبين ما للفاتحين وعليهم ما عليهم.

وقد أدّى انتشار الإِسلام في الأمم والشعوب التي فُتحت بلادُها إلى تصاعد قوّة الفاتحين، لأنّ المسلمين الجدد أصبحوا أعواناً للفاتحين على أعدائهم، ولكن بقي الفاتحون هم العمود الفقري في الدفاع عن البلاد المفتوحة وفي صياغة مكاسب الفتح، فهم القوّة الضاربة الأصليّة، بينما أصبح المسلمون الجدد القوّة الفرعيّة المساعدة، لذلك نقضت البلاد

المفتوحة في حالات تفكّك أواصر الفاتحين الأصليين، على الرغم من وجود المسلمين الجدد وثباتهم على الإِسلام.

وانتشار الإِسلام في المغلوبين، يفسِّر لنا سهولة عودة الفاتحين إلى البلاد التي سبق فتحها واستعادتها ثانية إلى حظيرة الدولة الإِسلامية، فقد كان استعادة تلك البلاد والمناطق بفضل انتشار الإِسلام أسهل بكثير وأسرع من فتحها لأول مرة.

وحين بدّل الفاتحون ما بأنفسهم، وتخلّوا عن عقيدتهم الراسخة أو تهاونوا في تطبيقها، بقيت البلاد المفتوحة إسلاميّة بفضل انتشار الإِسلام في ربوعها، ولا تزال تلك البلاد إسلاميّة حتى اليوم، ذلك لأنّ الفتح الإِسلامي كان فتح مبادئ لا فتح سيوف.

والقول بأنّ البلاد المفتوحة انهارت أمام الفاتحين المسلمين لضعف قوّاتها الضاربة، يعوزه الدليل التاريخيّ والدليل الواقعي، فقد فتح الإِسكندر المقدوني تلك البلاد كما ذكرنا، فأين هو فتحه، وماذا أبقى من آثار، وكم استمرّ في تلك البلاد؟

وفي الوقت الذي كان فتح الإِسكندر سحابة صيف، لأنه فتح قوّة وبطش، بقي الفتح الإِسلامي فتحاً مستداماً حتى اليوم، وسيبقى واضح المعالم بارز الأثر ما بقي التاريخ، لأنه فتح مبادئ، والمبادئ تبقى، وغيرها يزول.

ومن الواضح أن المؤرخين ـ ومعظمهم من الأجانب وممن نقل عنهم من المسلمين دون تمحيص ـ يحاولون ما استطاعوا التقليل من أهمية انتصار المسلمين على الإِمبراطورية الساسانية لا حبّاً بالفُرس ولكن كرهاً للعرب والإِسلام، فالعوامل التي قضت على الفرس بالهزيمة كائنة ما كانت، ليست هي العوامل التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة، لأنّ استحقاق دولة للزوال لا ينشى لغيرها حقّ الظهور والنّصر والبقاء.

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفُرس لأنهم عرب وكفى، فقد كان في بلاد الفرس عرب كثيرون يديْنون لهم بالولاء والطّاعة، وينظرون إليهم نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين وأمضى سلاحاً وأقرب إلى ساحات القتال من أولئك النازحين إليهم من الجزيرة العربيّة.

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين، وهم كذلك أوفر في العَدَد والسِّلاح، وأغنى بالخيل والإبل والأموال.

بل إنّ الفئة القليلة من العرب المسلمين، انتصروا على الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين، في عهد الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ومن بعده أيام الرِدَّة وأيام الفتح الإسلامي الأول في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

فهي نصرة عقيدة لا مِراء، جاءت لتبقى، وقد بقيت فعلًا.

تلك هي عبرة فتح أفغانستان واستعادة فتحه ما أحرانا أن نستوعبها استيعاباً كاملًا، ونأخذ منها الدروس لحاضرنا ومستقبلنا عرباً ومسلمين.



قادة فتح أفغانستان

١ ـ عبد الله بن عامر بن كُرَيْز العَبْشَمِيّ.

٢ ـ الأحنف بن قيس التميمي.

٣ ـ الربيع بن زياد الحارثيّ.

٤ ـ عبد الرحمن سَمُرة العَبْشَمِيّ.

٥ ـ عاصم بن عمرو التميمي.

٦ ـ الأقرع بن حابس التميميّ.



عبد الله بن عامر بن كُرَيْز القُرَشِيّ العَبْشَمِيّ
فاتح أرض فارس[1] وخُرَاسان[2] وكِرْمَان[3] وسِجِسْتَان ثانية وفاتح أفغانستان[4]

«ابن عامر سيد فتيان قريش غير مدافع»

(علي بن أبي طالب)

نسبه وأهله:

هو عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن

---

(١) أرض فارس: يحدها من الشرق كرمان ومن الغرب كور خوزستان وأصبهان ومن الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان وبعض حدود أصبهان ومن الجنوب بحر فارس، وهي خمس كور: أوسعها كورة عرصة وأكثرها مدناً ونواحي كورة إصطخر، وكورة أردشير خرّة ومدينتها جور وفيها مدن أكبر من جور مثل شيراز وسيراف، وكورة دارابجرد وكورة أرّجان وكورة سابور. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٦٧) وانظر أيضاً معجم البلدان (٦/ ٣٢٤).

(٢) خراسان: بلاد واسعة تتاخم العراق العجمي من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها، وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم إيران. من أمهات مدنها: نيسابور وهراة ومرو وبلخ. التفاصيل في المسالك والممالك (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).

(٣) كرمان: يحدها من الشرق أرض مكران ومفازة ما بين مكران والبحر، ومن الغرب أرض فارس ومن الشرق مفازة خراسان وسجستان ومن الجنوب بحر فارس. انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٩٧) ومعجم البلدان (٧/ ٢٤١).

(٤) أفغانستان: كلمة فارسية معناها بلاد الأفغان. بلاد واسعة يحدها شمالاً بلاد تركستان وجنوباً بلوخسان وشرقاً السند وغرباً هضاب خراسان الفارسية. انظر التفاصيل في المستدرك على معجم البلدان (١/ ٣٣١).

عبد مناف بن قَصَيّ القُرَشِيّ العَبْشَمِيّ. وهو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأن أم عثمان هي أروى بنت كُرَيزْ، وأمها وأم عامر بن كريز هي أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ[1].

أبوه هو عامر بن كريز وكان مضعوفاً، فأُتي به عبد المطلب فمسّه فقال: «وعظام هاشم! ما في عبد مناف أحمق منه!!»[2]، وقد أسلم يوم الفتح وبقي إلى خلافة عثمان وقدم البصرة على ابنه عبد الله وهو يومئذ واليها لعثمان بن عفان[3].

وأمه هي دَجاجة بنت أسماء بن الصَّلْت السلمية[4].

لقد كان كريم الجَدَّات والعمَّات والخالات، كما يقول عنه أبو موسى الأشعري.

التابعي[5]:

ولد عبد الله بمكة بعد الهجرة بأربع سنين (٦٢٥م)، فلما كان عام عمرة القضاء سنة سبع وقدم رسول الله ﷺ مكة معتمراً، حُمل إليه ابن عامر وهو ابن ثلاث سنين، فحنكه فتلمظ وتثاءب[6]، فعوّذه النبي ﷺ وقال: «هذا يشبهنا»[7]، ذلك لأنّ أم عامر بن كريز هي بنت عبد المطلب جد النبي ﷺ. وقيل لما أُتي بعبد الله إلى النبي ﷺ قال: «هذا أشبه بنا منه بكم»[8].

---

(١) الإصابة (٥/ ٦١) وأسد الغابة (٣/ ١٩١) والاستيعاب (٣/ ٩٣١).

(٢) المعارف (٣٢٠).

(٣) المعارف (٣٢٠).

(٤) الإصابة (٥/ ٦١) وأسد الغابة (٣/ ١٩١) والاستيعاب (٣/ ٩٣١).

(٥) التابعي: هو مَنْ لقي أحد صحابة رسول الله ﷺ مؤمناً ومات على الإسلام.

(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤ ـ ٤٥) وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠) عن تاريخ مولده.

(٧) أسد الغابة (٣/ ١٩١)، وفي الإصابة (٥/ ٦١): «هذا أشبهنا»، وفي الاستيعاب (٣/ ٣٩١): «هذا شبهنا».

(٨) الاستيعاب (٣/ ٩٣٢).

لقد روى عبد الله عن النبي ﷺ، ولكنه لم يسمع منه ولم يحفظ عنه[1]، فهو من الطبقة الأولى من التابعين من أهل المدينة المنورة[2].

المجاهد:

١ ـ استعادة فتح أرض فارس:

لما ولي عثمان بن عفان الخلافة أقرَّ أبا موسى الأشعري على البصرة أربع سنين كما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم عزله عثمان وولى البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر وهو ابن خمس وعشرين سنة[3]، وقد استعمله عثمان على البصرة سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩م)[4].

وكان أهل فارس قد انتقضوا ونكثوا بالمسلمين وقتلوا أميرهم، فبلغ الخبر عبد الله بن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس، فالتقوا (بإصْطَخْر)[5] واشتدّ القتال؛ فانهزم الفرس[6]، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وفتحت (إصْطَخْر) أبوابها عنوة للمسلمين.

وأتى ابن عامر (دَارَابِجْرد)[7] وقد غدر أهلها ففتحها، وسار إلى مدينة (جُورْ)[8] وحاصرها ففتحها أيضاً[9].

---

(١) الاستيعاب (٣/ ٩٣٢) والإصابة (٥/ ٦١).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٥) واليعقوبي (٢/ ١٤٣) والطبري (٣/ ٣١٩).

(٤) أسد الغابة (٣/ ١٩١) والإصابة (٥/ ٦٢) والبلاذري (٣١١) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٦٧) وابن الأثير (٣/ ٣٨).

(٥) إصطخر: بلد بفارس، وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٧٥).

(٦) الطبري (٣/ ٣٢٠) وابن الأثير (٣/ ٣٨) والبلاذري.

(٧) دارا بجرد: ولاية بفارس، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦) والمسالك والممالك (٧٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٨٨).

(٨) جور: مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخاً، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٤٦).

(٩) البلاذري (٣٨١) وابن الأثير (٣/ ٣٨).

وعاد ابن عامر إلى (إِصْطَخْر) وقد نكث أهلها وقتلوا عامله عليهم، ففتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتدّ القتال عليها ورميت بالمجانيق[1].

وقيل: إنّ أهل (إِصْطَخْر) لما نكثوا عاد إليها ابن عامر قبل وصوله إلى (جُوْر) ففتحها عنوة وعاد إلى (جُور) فأتى (دَارَابْجِرْد) ففتحها وكانت منتقضة أيضاً[2].

وبذلك استعاد ابن عامر فتح أرض فارس كلها[3].

٢ ـ استعادة فتح خُراسان:

لما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقض أهل (خُرَاسَان) وغدروا، فلما استعاد ابن عامر فتح (فارس) غزا (خُراسان) وبعث على مقدمته الأحنف بن قيس التميمي[4]، فأتى (الطَّبْسَيْن)[5] وهما حصنا وبابا (خُراسان)، فصالحه أهلها؛ وقدّم ابن عامر الأحنف إلى (قُهُسْتان) فهزم الفرس وفتحها عنوة.

وبعث ابن عامر يزيد الجرشي أبا سالم بن يزيد إلى رستاق (زَام)[6] من نيسابور ففتحه عنوة كما فتح (بَاخَرْز)[7] من أعمال (نيسابور)، وفتح أيضاً (جُوَيْن)[8] من أعمال (نيسابور).

---

(١) البلاذري (٣٨٢) وابن الأثير (٣/ ٣٨).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٣٨) والبلاذري (٣٨٢).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦) والمعارف (٣٢١).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢١٧ ـ ٢٤٦).

(٥) طَبَس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان، وهما طبسان: طبس كيلكي وطبس مسينان ويقال لهما: الطبسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٦).

(٦) قهستان: تعريب كوهسان ومعناه موضع الجبال. ولاية بين هراة ونيسابور، انظر معجم البلدان (٧/ ١٨٧).

(٧) زام: أحد كور نيسابور المشهورة، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٦٩).

(٨) جوين: اسم كورة جليلة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور، انظر معجم البلدان (٣/ ١٨١).

ووجّه ابن عامر الأسود بن كلثوم العَدَوِيّ من عَدِي الرباب إلى (بَيْهق)[1] وهو رستاق من نيسابور، فدخل حيطان أهله من ثلمة كانت فيه ودخلت معه بعض قوات المسلمين، فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتى قتل ومن معه، فقام بأمر الناس بعده أدهم بن كلثوم فظفر وفتح (بيهق).

وفتح ابن عامر (بُشتْ)[2] من نيسابور وافتتح (خَواف)[3] و (أسْفَرايين)[4] و (أرْغِيَان)[5] من نيسابور، ثم أتى (أَبْرَشَهرْ)[6] وهي مدينة نيسابور فحصر أهلها، وكان على كل ربع رجل موكّل به، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على أن يُدْخِل المسلمين المدينة، فأجيب إلى ذلك فأدخلهم ليلًا ففتحوا الباب، فتحصّن مرزبانها الأكبر في حصنها ومعه جماعة وطلب الصلح والأمان على جميع نيسابور، فصالحه المسلمون.

وسيّر ابن عامر جيشاً إلى (نَسَا)[7] و (أَبِيْوَرد)[8] فافتتحها، صلحاً، ثم سيّر سرية إلى (سَرْخَسْ)[9] فقاتلت أهلها الذين طلبوا الصلح والأمان بعد ذلك فأجيبوا إليه.

---

(١) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة العمران والبلدان وهي من نواحي نيسابور، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٤٦).

(٢) بشت: بلد بنواحي نيسابور، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٨٥).

(٣) خواف: مدينة بخراسان بقرب نسا كبيرة آهلة، انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد (٣٦٤).

(٤) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جُرْجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٢٨).

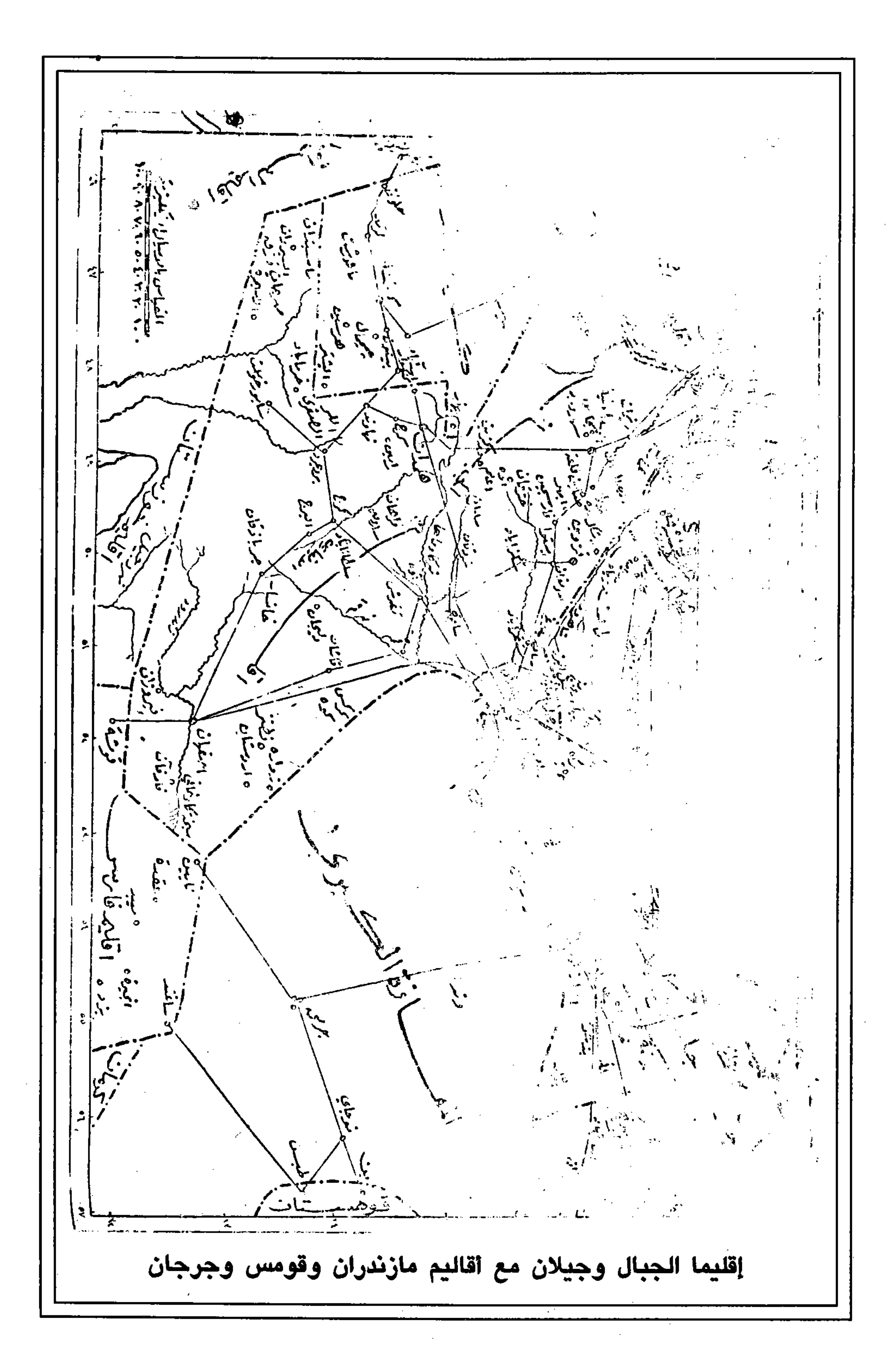
(٥) أرغيان: كورة من نواحي نيسابور، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٩٤).

(٦) أبرشهر: هي نيسابور، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٧٤).

(٧) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٨٢).

(٨) أبيورد: مدينة بخراسان قرب سرخس. انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٩).

(٩) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٦٥).



إقليما الجبال وجيلان مع أقاليم مازندران وقومس وجرجان

وأتى مرزبان (طُوْس)[1] ابنَ عامر فصالحه على (طوس).

وسيّر ابن عامر جيشاً إلى (هراة)[2] فبلغ مرزبانها ذلك، فسار إلى ابن عامر وصالحه على (هراة) و (بَاذَغِيْس)[3] و (بُشَنْج)[4].

ووجّه ابن عامر الأحنف بن قيس التميمي إلى (طَخَارسْتان)[5]، فصالح أهل رستاق الأحنف بعد حصارهم واستعاد فتح (مَرْوْ الرُّوذ)[6] صلحاً بعد قتال. والتقى الأحنف بأهل (طخارستان) الذين جمعوا له أهل (الجُوْزْجَان)[7] و (الطَّالَقَان)[8] و (الفَارِياب)[9] ومن حولهم خلق كثير، فانهزم الفرس وحلفاؤهم بعد قتال شديد، كما فتح الأحنف (الطالقان)

---

(١) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٧٠).

(٢) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥١) والمسالك والممالك (١٤٩).

(٣) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣١).

(٤) بوشنج: بليدة نزيهة خصبة من نواحي هراة بينهما عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٠٤).

(٥) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون وطخارستان السفلى غربي جيحون أيضاً، إلّا أنها أبعد من بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١) والمسالك والممالك (١٥٦).

(٦) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، بينهما خمسة أيام، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢) والمسالك والممالك (١٥٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٥٥).

(٧) الجوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٦٧) والمسالك والممالك (١٥٣).

(٨) الطالقان: بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢).

(٩) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان، قرب بلخ غربي جيحون، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٢٨).

صلحاً، ثم سار إلى (بَلْخ) فصالحه أهلها[1].

وهكذا استعاد ابن عامر فتح خراسان[2] كافة.

٣ ـ استعادة فتح كِرْمَان:

لما سار ابن عامر إلى خراسان، استعمل مجاشع بن مسعود السلمي على (كِرْمَان): وكان أهلها قد نكثوا وغدروا، ففتح (بِيْمَنْد)[3] واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً، ثم أتى (الشِّيْرجان)[4] وهي مدينة كرمان وأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون فقاتلهم وفتحها عنوة. كما فتح (جِيْرَفْت)[5] عنوة أيضاً. ثم أتى (القُفْص)[6] وقد تجمع له خلق كثير من الأعاجم، فقاتلهم وظفر بهم[7].

وهكذا استعاد ابن عامر فتح ولاية كِرْمان.

٤ ـ استعادة فتح سِجِسْتَان وفتح أفغانستان:

فتحت سِجِسْتان في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنقض أهلها بعده، فلما توّجه ابن عامر إلى (خُراسان) سيّر إليها من (كِرْمَان) الربيع بن

---

(١) انظر تفاصيل استعادة فتح خراسان في ابن الأثير (٣/ ٤٧ ـ ٤٩) والبلاذري (٣٩٤ ـ ٣٩٩)، وانظر الطبري (٣/ ٣٥٥ ـ ٣٦٠).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦) والمعارف (٣٢١).

(٣) بيمند: وهو ميمند، بلد بكرمان، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٤٢).

(٤) الشيرجان: قصبة كرمان، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٢٢) والمسالك والممالك (٩٨). وقد ورد اسمها في ابن الأثير (٣/ ٤٩) السيرجان.

(٥) جيرفت: مدينة بكرمان كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان وأنزهها وأوسعها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٨٩) والمسالك والممالك (٩٩)، وقد ذكرها الإصطخري بضم الراء بينما ذكرها ياقوت الحموي بفتحها وقد أخذنا بذلك.

(٦) القفص: ورد اسمها كذلك في ابن الأثير (٣/ ٤٩)، وفي البلاذري (٣٨٣)، وهي (قفس) بالسين المهملة وأكثر ما يتلفظ به غير أهله بالصاد، وهو اسم أعجمي، وهو اسم جبل من جبال كرمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٣٤).

(٧) انظر ابن الأثير (٣/ ٤٩) والبلاذري (٣٨٣).

زياد الحارثي، فقطع المفازة حتى أتى حصن (زَالِق)[1]، فأغار على أهله في يوم مهرجان(أحد أعيادهم) وأخذ الدهقان فافتدى نفسه، ثم أتى بلدة (كَرْكَوَيْه)[2] فصالحه أهلها. وسار إلى (زَرَنْج)[3]، فنزل على مدينة (روشت) بقرب (زرنج) فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين، ثم انهزم الأعاجم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وأتى الربيع (نَاشِرُوذ)[4] ففتحها، ثم أتى (شَرْوَاذ)[5] فغلب عليها. وسار منها إلى (زَرنَج) فحاصرها وقاتل أهلها، فبعث إليه أبرويز مرزبانها يستأمنه ليصالحه، فأُجيب إلى ذلك. وسار الربيع منها إلى (سَنَارُوذ)[6] فعبره وأتى (قَرْنَيْن)[7] فقاتله أهلها وظفر بهم ثم عاد إلى (زرنج).

واستعمل ابن عامر على (سجستان) بعد الربيع عبدَ الرحمن بن سَمُرَة بن حبيب بن عبد شمس، فسار إليها وحصر (زرنج) التي أخرج أهلها عاملهم وامتنعوا، فصالحه مرزبانها.

وغلب عبد الرحمن على ما بين (زرنج) و (كِشّ) من ناحية الهند،

---

(١) زالق: من نواحي سجستان وهو رستاق كبير فيه قصور وحصون، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٦٩).

(٢) كركويه: مدينة من نواحي سجستان فيها بيت نار معظم عند المجوس، راجع معجم البلدان (٧/ ٢٤١).

(٣) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٨٥) والمسالك والممالك (١٣٩).

(٤) ناشروذ: ناحية بسجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٣٧).

(٥) شرواذ: ناحية بسجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٥٧).

(٦) سناروذ: اسم نهر سجستان ويجري على فرسخ من سجستان، ويتشعب منه أنهار كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٤١).

(٧) قرنين: قرية من رستاق نيسك من نواحي سجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٦٦).

وغلب من طريق ناحية (الرُّخَّج)[1] على ما بينه وبين بلاد (الدَاور)[2]، فلما انتهى إلى بلاد (الدَاور) حصرهم في جبل (الزُوْر)[3] ثم صالحهم. ودخل على (الزُوْر) وهو صنم من ذهب له عينان ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان: «دونك الذهب والجوهر، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضرّ ولا ينفع». وفتح عبد الرحمن (كَابُل)[4] و (زابُلِسْتان)[5] وهي ولاية (غَزْنَة)، ثم عاد إلى (زرنج) فأقام بها[6].

وهكذا استعاد ابن عامر فتح (سجستان) وفتح لأول مرة بلاد أفغانستان.

الإنسان:

ظهر ابن عامر لأول مرة على مسرح الحياة العامة في سياسة الدولة الإسلامية بعد توليه البصرة، فقد عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما عنها، فلما سمع أبو موسى بتولية ابن عامر خلفاً له على البصرة قال: «يأتيكم غلام خرّاج ولاّج، كريم الجدات والخالات والعمات،

---

(١) رخج: مدينة كبيرة من نواحي كابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٤١).

(٢) داور: ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية (رخج) و(بست) والغور والدوار من ناحية السند، انظر معجم البلدان (٤/ ٢٨)، وقد وردت هذه الكلمة بلفظ: الدوار في البلاذري (٣٨٦) ووردت بلفظ: الدوان في ابن الأثير (٣/ ٥٠) والصحيح ما ذكرناه.

(٣) الزور: هكذا ورد في البلاذري (٣٨٦) وهو جبل في بلاد الداور من أرض السند أطلق عليه اسم صنم بهذا الاسم من ذهب مرصع بالجواهر، انظر معجم البلدان (٤/ ٤١٤).

(٤) كابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى، وهي ولاية ذات مروج كبيرة بين الهند وغزنة.

(٥) زابلستان: كورة واسعة قائمة بذاتها جنوبي بلخ وطخارستان، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٦٥).

(٦) غزنة: هكذا يتلفظ بها العامة والصحيح: غَزْنِيْن، ويعرّبونها فيقولون جزنة، ويقال لمجموع بلادها زابلستان، وغزنة قصبتها. وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨٩).

يجمع له (يريد عثمان) الجندين»[1]. وقال عنه أيضاً: «قد أتاكم فتى من قريش كريم الأمهات والعمّات والخالات، يقول بالمال فيكم هكذا... هكذا...»[2].

وأتى ابن عامر أبا موسى بعد قدومه البصرة فقال: «يا أبا موسى! ما أحد من بني أخيك أعرف بفضلك مني! أنت أمير البلد إن أقمتَ، والموصول إنْ رحلتَ». فقال أبو موسى: «جزاك الله يا ابن أخي خيراً»، ثم ارتحل إلى الكوفة[3].

ولما أنجز ابن عامر استعادة فتح فارس وكرمان وسجستان وخراسان، قال له الناس: ما فتح لأحد ما فتح عليك! فقال: «لا جرم! لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا»، فأحرم بعمرة من (نيسابور) فلما قدم على عثمان لامه على إحرامه من خُراسان قائلا: «ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرم منه الناس»[4]، ولامه على تغريره النسك[5].

وكان ابن عامر رجلًا سخياً وصولًا لقومه ولقرابته محبباً فيهم رحيماً[6]. عند قدومه المدينة من طريق عودته من مكة أرسل إلى علي بن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة، فلما جاءته قال: «الحمد لله! إنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا!!»، فبلغ ذلك عثمان، فقال لابن عامر: «قبَّح الله رأيك! أترسل إلى عليّ بثلاثة آلاف درهم؟!» فقال: «كرهت أن أُغْرِق ولم أدر ما رأيك»، قال عثمان: «فأَغْرِق»، فبعث إلى عليّ بعشرين ألف درهم

---

(١) الطبري (٣/ ٣٢١) وابن الأثير (٣/ ٣٨)، وقد جمع له عثمان جند البصرة وجند فارس.

(٢) نسب قريش (١٤٧ ـ ١٤٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٥).

(٤) الطبري (٣/ ٣٥٩) وابن الأثير (٣/ ٤٩).

(٥) الإصابة (٥/ ٦٢) وفي طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦) أن عثمان كتب إليه يقول له: «تعرّضت للبلاء».

(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٥) وتأريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣١٠).

وما يتبعها، فراح عليّ إلى المسجد فانتهى إلى حلقته وهم يتذاكرون صِلات ابن عامر هذا الحي من قريش، فقال علي عن ابن عامر: «هو سيد فتيان قريش غير مدافع».

وتكلّمت الأنصار فقالوا: أبَتِ الطُّلَقاء إلّا عداوة، فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر وقال: «أبا عبد الرحمن! قِ عرضك ودارِ الأنصار فألسنتهم ما قد علمت!»، فأفشى فيهم الصِّلات والكسي فأثنوا عليه، فقال له عثمان: «انصرف إلى عملك»، فانصرف والناس يقولون: قال ابن عامر... وفعل ابن عامر... فقال: «إذا طابت الكسبة زكت النفقة»[1].

وارتج على ابن عامر يوماً بالبصرة يوم عيد أضحى، فمكث ساعة ثم قال: «والله لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً... مَنْ أخذ شاة من السوق فثمنها عليّ»[2].

وعلى الرغم من أنه كان غنياً جداً، إذ كان له (النباج)[3] الذي يقال له: نباج ابن عامر، وله (الجُحْفَة)[4] وله بستان ابن عامر (بَنَخْلة)[5] على ليلة من مكة، وله آثار في الأرض كثيرة[6]، إلّا أنه كان أحد الأجواد[7] الذين يجودون بمالهم الخاص وبمال المسلمين على حد سواء.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦ ـ ٤٧)، وانظر الإصابة (٥/ ٦٢) وأسد الغابة (٣/ ١٩١).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠).
(٣) النباج: منزل لحجاج البصرة يقال له نباج بني عامر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٤٣).
(٤) الجحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٦٢).
(٥) نخلة: موضع بالحجاز قريب من مكة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٥).
(٦) نسب قريش (١٤٨)، وفي المعارف (٣٢١): أنه حفر الحفير، ثم حفر السمينة واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيه، واتخذ بعرفات حياضاً ونخلًا.
(٧) الاستيعاب (٣/ ٩٣٣).

والحق أنه لم يكن يتحرج من (الجود) بأموال المسلمين وتوزيعها على الناس، كما كان يتحرّج السلف الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يجمع أمواله حتى من المصادر التي كان يتحرج منها أولئك السلف الصالح من الصحابة، فقد قدم أهل خراسان هدايا كثيرة من دراهم ودنانير وداوب وأواني وثياب وغير ذلك إلى الأحنف بن قيس التميمي أميرهم، فحمل الأحنف هذا المال إلى ابن عامر وأخبره عنه، فقال ابن عامر: «خذه يا أبا بحر فهو لك!»، فقال: «لا حاجة لي فيه»، فأخذه ابن عامر! قال الحسن البصري: «فضمّه القرشي وكان مضماً»[1].

ولم يزل ابن عامر على البصرة إلى أن قتل عثمان بن عفان، وكان قد قمع حركات مفرقي الصفوف ومثيري الفتن بإبعاد رؤوسهم إلى الشام بأمر من عثمان. وهو الذي اتخذ السوق للناس بالبصرة، فقد اشترى دوراً وهدمها وجعلها سوقاً[2]. وهو الذي شقّ نهر البصرة[3]، وهو أول من اتّخذ الحياض بِعَرفَة وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء فذلك جارٍ إلى اليوم[4].

ولما استعتب عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه أن يقر ابن عامر بالبصرة لتحببه إليهم وصلته هذا الحي من قريش[5]. وقد جمع عثمان عماله يشاورهم في أمره وما طُلب إليه وما بلغه عنهم، فقال له ابن عامر: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمّرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلّا نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه»[6].

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥٨) وابن الأثير (٣/ ٤٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧) وأسد الغابة (٣/ ١٩١).
(٣) الاستيعاب (٣/ ٩٣٣). وفي المعارف (٣٢١): أنه شق نهرين.
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧) والإصابة (٥/ ٦٢) وأسد الغابة (٣/ ١٩١).
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧ ـ ٤٨).
(٦) الطبري (٣/ ٣٧٣)، وتجمّر الناس في المغازي: تحبسهم في ثغر من ثغور العدو.

ولما نشب الناس في أمر عثمان بعث ابن عامر جيشاً من البصرة، فساروا حتى إذا كانوا بأدنى بلاد الحجاز لقوا رجلًا فسألوه: ما الخبر؟ فقال: قُتِل عثمان!!... فعاد الجيش إلى البصرة[1].

وسَار ابن عامر بعد مقتل عثمان بما كان عنده من الأموال إلى مكّة، فوافى بها طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين وهم يريدون الشام، فقال لهم: «لا، بل ائتوا البصرة فإِنّ لي بها صنائع، وهي أرض الأموال وبها عدد الرجال... والله لو شئت ما خرجت منها حتى أضرب بعض الناس ببعض»، فأجمع رأيهم على المسير إلى البصرة، فأقبل ابن عامر، فلما كان من أمر وقعة الجمل ما كان، جاء عبد الله بن عامر إلى الزبير فأخذ بيده فقال: «أبا عبد الله! أنشدك الله في أمة محمد، فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً»، ولحق بالشام حتى نزل دمشق[2].

ولكن ابن عامر لم يشهد معركة (صِفِّين)[3] مع معاوية بن أبي سفيان، فقد لحق بالشام ولكنه لم يأت معاوية وخاف يوماً كيوم الجمل، فبعث إليه معاوية أن يأتيه وألحّ عليه، فكتب ابن عامر: «أما بعد! فإِني أخبرك أني أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة وأنا أقول: إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها، وإن فرّ الناس لم يفر الزبير، وإن غدر الناس لم يغدر مروان؛ فغضبت عائشة، ورجع الزبير، وقتل مروانُ طلحةَ، وذهب مالي بما فيه، والناس أشباه، واليوم كأمس، فإن أتبعتني هواي وإلّا أرْتَحِلُ عنك والسّلام»[4]... وهذا يدلّ على ميوله السلمية وندمه على ما كان منه يوم الجمل، لذلك لم يسمع له ذكر في معارك معاوية ضد علي بن أبي طالب.

ولما بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان وسلّم إليه الأمر، قال

---

(1) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٨) والطبري (٣/ ٣٧٢).

(2) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٨)، وانظر قصة عودة ابن عامر إلى البصرة في ابن الأثير (٣/ ٨١).

(3) الإصابة (٥/ ٦٢) وأسد الغابة (٣/ ١٩٢).

(4) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ٨٨ ـ ٨٩).

ابن عامر لمعاوية: «إنّ لي بالبصرة أموالًا عند أقوام، فإن لم تولِّني البصرة ذهبتْ»، فولاه البصرة ثلاث سنين[1] ثم عزله عنها؛ وكان سبب عزله، أنه كان حليماً كريماً ليناً لا يأخذ على أيدي السفهاء، ففسدت البصرة في أيامه، فشكى ذلك إلى زياد بن أبي سفيان فقال له: «جرِّد السيف»، فقال له: «إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي»، فلما علم معاوية بأمر البصرة أراد عزل ابن عامر، فأرسل إليه يستزيره، فجاء إليه فعزله بالحسنى وزوجه ابنته هنداً استرضاء له[2].

لقد كان كثير المناقب[3]: شريفاً سخياً وصولًا لرحمه، فيه رِفْقٌ بالرعية[4]، وكان شهماً غاية الشهامة، فقد زوجه معاوية ابنته هنداً، فكانت أبرّ شيء به وأنها جاءته يوماً بالمرآة والمشط، وكانت تتولى خدمته بنفسها، فنظر في المرآة فالتقى وجهه وجهها، فرأى شبابها وجمالها ورأى الشيب في لحيته قد ألحقه بالشيوخ، فرفع رأسه إليها فقال: «الحقي بأبيك!»، فانطلقت حتى دخلت على أبيها فأخبرته، فقال: «وهل تطلّق الحُرّة؟!»، قالت: «ما أتى من قبلي»، وأخبرته الخبر، فأرسل إليه فقال: «أكرمتك بابنتي فرددتها عليّ؟!»، فقال: «أخبرك على ذلك: إنّ الله مَنّ عَلَيَّ بفضله وخلقني كريماً لا أُحبّ أن يتفضّل عليّ أحد! وإنّ ابنتك أعجزتني مكافأتها بحسن صحبتها لي، فنظرت فإذا أنا شيخ وهي شابة، ولا أزيدها مالًا إلى مالها ولا شرفاً إلى شرفها، فرأيت أن أردّها إليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف!»[5].

---

(١) أسد الغابة (٣/ ١٩٢) وانظر الاستيعاب (٣/ ٩٣٣) وطبقات ابن سعد (٥/ ٩٢) واليعقوبي (٢/ ١٩٣)، وفي ابن الأثير (٣/ ١٦٦): أنّ معاوية ولاه البصرة وجعل إليه خراسان وسجستان.

(٢) الطبري (٤/ ١٦١ ـ ١٦٣) ابن الأثير (٣/ ١٧٥).

(٣) نسب قريش (١٤٨).

(٤) تأريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠).

(٥) نسب قريش (١٤٩).

وكان إدارياً ناحجاً، وكان يقول: «لو تُرِكْتُ لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة»[1].

وقد مدحه الشعراء لمزاياه، قال زياد الأعجم فيه[2]:

أخ لك لا تراه الدهر إلّا	على العِلّات بَسّاماً جواداً
أخ لك ما مودته بِمَزْقٍ[3]	إذا ما عاد فقر أخيه عادا
سألناه الجزيل فما تلكّا	وأعطى فوق مُنْيَتِنَا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عُدنا	فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً ما رجعتُ إليه إلّا	تبسَّم ضاحكاً وثنى الوسادا

وقد روى حديثاً واحداً عن رسول الله ﷺ[4]، ولم يكن فقيهاً في الدين، لذلك أحرم من نيسابور! وكان مترفاً يتناول أفخر الطعام ويرتدي أفخر الثياب، فهو أوّل من لبس الخَز بالبصرة: لبس جبة دكناء فقال الناس: لبس الأمير جلد دب! ثم لبس جبة حمراء فقالوا: لبس الأمير قميصاً أحمر![5].

ولد ابن عامر بمكة بعد الهجرة بأربع سنين (٦٢٥م) وتوفي سنة تسع وخمسين للهجرة[6] (٦٧٩م) بمكة قبل وفاة معاوية بسنة واحدة[7]، فقال معاوية حين سمع نعي ابن عامر: «يرحم الله أبا عبد الرحمن! بمن نفاخر وبمن نباهي؟؟![8]»، وقد دفن بعرفات وعقبه كثير[9]، إذ ولد اثني عشر

---

(١) المعارف (٣٢١).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٩٣٣).

(٣) المزق: قابلة للتمزيق.

(٤) الإصابة (٢/ ٦٢) والاستيعاب (٣/ ٩٣٢) والمعارف (٣٢١).

(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٧) وأسد الغابة (٣/ ١٩١).

(٦) ابن الأثير (٣/ ٢٠٦) وتأريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠) والمعارف (٣٢١).

(٧) المعارف (٣٢١) وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٩)، وقد توفي معاوية سنة ستين للهجرة. انظر الطبري (٤/ ٢٣٩) وابن الأثير (٤/ ٢).

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٩).

(٩) المعارف (٣٢١).

رجلًا وست نسوة[1]!!

لقد كان الذين سبقوه من الصحابة أفضل منه، ولكنه كان أفضل ممن أتى بعده!.

القائد:

إذا كان هناك مجال للطعن في أعمال ابن عامر الإدارية، فإنّ أعماله العسكرية كانت بحق مفخرة من مفاخر العرب المسلمين في أيامه وحتى اليوم، فقد استعاد فتح خُراسان وبلاد فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهي أعمال غزنة[2]، فقال الناس في أيامه ولا يزالون يقولون حتى اليوم: «ما فتح لأحد ما فتح على ابن عامر»[3].

فما هي مزايا قيادته التي جعلته يتبوأ هذا المركز الرفيع في تاريخ الفتح؟

كان شجاعاً[4] ميموناً[5] قُتل كسرى يزدجرد في ولايته[6]، وكان وصولًا لقومه ولقرابته محبّباً فيهم رحيماً، ربما غزا فيقع الحمل فينزل بنفسه فيصلحه![7]... فيه رفق بالرعية[8].

تلك هي بعض مزايا قيادته: شجاع، ميمون، وصول، محبوب، رحيم، يساوي نفسه برجاله ولا يترفع عنهم ويشاركهم في السراء والضراء.

وكان في ريعان الشباب في أوج قوته البدنية فيتحمّل مشاق الحرب والسفر، وكان معتداً بشخصيته عارفاً لقيمتها، ذكياً، ذا إرادة حديدية، تلك

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٤).
(٢) أسد الغابة (٣/ ١٩١).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٩) والطبري (٣/ ٣٥٩).
(٤) الإصابة (٥/ ٤٩) والطبري (٣/ ٣٥٩).
(٥) الإصابة (٥/ ٦٢) وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٥) وتأريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠).
(٦) أسد الغابة (٣/ ١٩١).
(٧) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠).
(٨) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٠٠).

الصفات التي تجعل من يتحلّى بها موضع ثقة رجاله ورؤسائه على حد سواء.

وكان سريع القرار صحيح الخطط، يُقْدِم أولًا على معالجة قوة العدو الضاربة، حتى إذا حطّمها وانتصر عليها بادر إلى تفريق رجاله على الأهداف الثانوية لمعالجتها، كي يستفيد من الوقت فلا يدع للعدو وقتاً كافياً لإعادة تحشّد قواته وإعادة الكرة!!

والحق أنّ ابن عامر كان يتمتّع بحاسة سوقية متميِّزة تعينه على ضرب قوات العدو الأصلية في الوقت والمكان المناسبين، فإذا قضى عليها سهل على رجاله الآخرين القضاء على قوات العدو الثانوية بسهولة ويسر... وسبيله أي ذلك حشد قواته للمعركة الحاسمة، فإذا انتصر فيها فرّق تلك القوات لاستثمار الفوز في اتجاهات مختلفة وفي وقت واحد!

لقد كان يقدِّر قيمة الوقت الحيوية في الحرب، فلا يبدِّد وقته سدى... إنه قائد كان يعمل بعقله ويحارب بسيفه ويستفيد من الوقت، لذلك استطاع استعادة فتح بلاد شاسعة جداً ما كان ليستطيع استعادتها بدون خططه العسكرية البارعة وقيادته الحكيمة واستفادته من الوقت. كما فتح بلاداً شاسعة جداً ما كان ليستطيع فتحها بأقل الخسائر الممكنة وبأقل وقت ممكن بدون مبادرته لمغالبة الوقت الضروري لاستعداد عدوه، واضعاً نصب عينيه أبرع الخطط الحربية للقضاء بسرعة على خصمه.

لقد كان ابن عامر قائداً عبقرياً بكل معنى الكلمة.

ابن عامر في التاريخ:

يذكر التاريخ لابن عامر مزاياه المثالية الرفيعة ومقدرته الإدارية المتميِّزة وقابليته الفذة على الإنشاء والإعمار!

ويذكر له استعادته فتح مناطق واسعة من فارس وخراسان وكرمان وسجستان وفتحه معظم بلاد الأفغان.

رضي الله عن القائد الإنسان، البطل الفاتح، الإداري الحازم، التابعيّ الجليل، عبد الله بن عامر القرشي العبشمي.

الأحنَف بن قيس التَّمِيمِيّ
فَاتح قَاشَان[1] وَخُراسَان

«هو سيد أهل المشرق، المسمى بغير اسمه»

(عمر بن الخطاب)

نسبه وأهله:

هو أبو بَحْر الأحْنَف بن قيس بن معاوية بن حُصَيْن بن حَفْص بن عُبَادَة التَّمِيْمِيّ[2]، واسمه الضَحّاك وقيل: صَخْر[3]. وأمه حَبَّة بنت عمرو بن قُرْطَ البَاهِلِيَّة[4]، كان أخوها الأخطل بن قُرْط من الشجعان، وقد قال الأحنف مفَاخراً بخاله هذا: «ومَن له خال مثل خالي؟!»[5].

وكان أبو الأحنف يكنى: أبا مالك، قتله بنو مازن في الجاهلية[6]، أما جده معاوية بن حُصَيْن فقد قتله الفارس المشهور عنترة بن شداد العَبْسِيّ[7].

---

(١) قاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع (قم)، وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخاً، انظر معجم البلدان (٧/ ١٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٣٢).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٢١٧) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).

(٣) أسد الغابة (١/ ٥٥) والإصابة (١/ ١٠٢) والاستيعاب (٢/ ٧١٥).

(٤) الإصابة (١/ ١٠٣)، وفي المعارف (٤٢٣). إن أمه هي: حبى بنت عمرو بن ثعلبة من بني أود من باهلة، ويقال: حبى بنت قرط.

(٥) المعارف (٤٢٣) وجمهرة أنساب العرب (٢١٢).

(٦) المعارف (٤٢٣).

(٧) وفيات الأعيان (٢/ ١٩١).

وعم الأحنف يقال له: المُتَشَمِّس بن معاوية، يفضل على الأحنف في حلمه، وعم الأحنف الأصغر هو صَعْصَعَة بن معاوية كان سيد بني تميم في خلافة معاوية بن أبي سفيان[1].

وكان للأحنف ولد يقال له: بحر، وبه يكنى، وقد مات وانقطع عقبه[2]، لذلك لا عقب للأحنف[3].

لقد ورث الأحنف الشجاعة والحلم عن آبائه وأخواله فيما ورثه عنهم من مزايا وخلال.

إسلامه:

أدرك الأحنف النبيُ ﷺ ولم يره[4]، وقد أسلم على عهد النبيّ ﷺ كما أسلم قومه بإشارته[5]، فقد بعث النبيّ ﷺ رجلًا من بني ليث إلى بني سعد رهط الأحنف، فجعل يعرض عليهم الإسلام، فقال الأحنف: «إنه يدعو إلى خير ويأمر بخير[6]» وفي رواية، أنّ الأحنف قال لقومه: «إنه ليدعوكم إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق، وينهاكم عن ملائمها»، فأسلموا وأسلم الأحنف[7]، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «اللّهم اغفر للأحنف»، فكان الأحنف بعد ذلك يقول: «فما شيء أرجى عندي من ذلك»[8]، كما دعا له حين قدم عليه وفد تميم فذكروه له[9].

---

(١) المعارف (٤٢٤).
(٢) وفيات الأعيان (٢/ ١٩١).
(٣) المعارف (٤٢٥).
(٤) أسد الغابة (١/ ٥٥) والاستيعاب (٢/ ٧١٥ ـ ٧١٦).
(٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٧٨).
(٦) انظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٠).
(٧) المعارف (٤٢٣) ووفيات الأعيان (٢/ ١٨٦).
(٨) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٠) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٣ ـ ٩٤) وأسد الغابة (١/ ٥٥) والإصابة (١/ ١٠٣).
(٩) الاستيعاب (٢/ ٧١٥ ـ ٧١٦).

كان الأحنف يقول: «بينا أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان بن عفّان، إذ لقيني رجل من بني ليث فأخذ بيدي، فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. فقال: تذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك بني سعد، فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه، فقلت أنت: إنك لتدعو إلى خير، وما أسمع إلا حسناً. قال: فإني ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اللّهم اغفر للأحنف»[1].

ولم يفد الأحنف على النبيّ ﷺ، ولكنه وفد على عمر ابن الخطاب[2]، رضي الله عنه، فقال رجل من المهاجرين: «يا أمير المؤمنين! إنّ هذا - يعني الأحنف - الذي كفّ عنّا بني مُرَّة حين بعثنا رسول الله ﷺ في صدقاتهم، وقد كانوا همّوا بنا»[3]، وهذا موقف مشرف للأحنف في الدفاع عن الإسلام ودعاته.

وقد ثبت الأحنف على إسلامه حين ارتدّ قومه بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وقد أتى هو وعمه المتشمِّس بن معاوية مُسَيْلمة الكذاب ليسمعا منه، فلما خرجا قال الأحنف: «كيف تراه؟!»، فقال: «أراه كذاباً»[4]، ولا أشكُّ أن ثباته على عقيدته في أيام الرِدَّة - وهي أيام المحنة الكبرى لتلك العقيدة - كان ذا تأثير حاسم في قومه وفي ثبات كثير من تميم على الإسلام أمام تيار الردة الجارف، مما سهّل على المسلمين القضاء على فتنة المرتدين وإعادة وحدة شبه الجزيرة العربية إلى ما كانت عليه أيام الرسول الكريم.

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٧٨).
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٧٨).
(٣) ذكر أخبار أصبهان (١/ ٢٢٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١٠).
(٤) المعارف (٤٢٤).

جهاده:

١ - قبل الفتح:

طوّق الفرس قوات العَلاء بن الحَضْرَمِيّ في (الأَهواز)، فتحرّج موقف المسلمين هناك تحرّجاً شديداً، فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عُتْبَة بن غزوان رضي الله عنه يأمره بإنفاذ جيشٍ كثيف إلى فارس لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمي، فأرسل عُتْبَة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصِم بن عمرو التميمي وعَرْفَجَة بن هَرْثَمَة البارِقي والأحنف بن قيس عليهم أبو سَبْرة بن أبي رُهْم، فأنقذ هذا الجيش قواتَ العلاء بن الحضرمي وعاد إلى البصرة[١].

ولما تولى أبو موسى الأشْعَرِيّ البصرة، أوفد الأحنف مع بعض رجالات البصرة إلى عمر بن الخطاب فاحتَبسه حولًا كاملًا، ثم قال له: «هل تدري لم حبستك؟ إنّ رسول الله ﷺ خوّفنا كلّ منافق عليم، ولست منهم إن شاء الله». قال الأحنف: «قدمت على عمر بن الخطاب، فاحتبسني عنده حولًا فقال: يا أحنف قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلّا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإنّا كنّا نتحدّث، إنما هلّك هذه الأمة كلّ منافق عليم» وكتب عمر إلى أبي موسى: «أما بعد. فأدن الأحنف وشاوره واسمع منه»[٢]، فشهد مع أبي موسى الأشعري الذي كان على أهل البصرة فتح (تُسْتَر[٣]) وقدم على عمر بفتحها[٤]، حيث أرسله

---

(١) الطبري (٣/١٧٨) وابن الأثير (٢/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) طبقات ابنِ سعد (٧/٩٤). وانظر تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي (٨٧) وتهذيب ابن عساكر (٧/١١) وذكر أخبار أصبهان (١/٢٢٥). وفي ابن الأثير (٢/٢١٠): أن عتبة بن غزوان الذي كان أول أمير على البصرة هو الذي أوفد الأحنف إلى عمر بن الخطاب.

(٣) تستر: أعظم مدينة بخوزستان، وهو تعريب: شوشتر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٨٦) والمسالك والممالك للإصطخري (٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٠).

(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/١٠) وذكر أخبار أصبهان (١/٢٢٤).

أبو سبرة بن أبي رهم الذي كان القائد العام إلى عمر بن الخطاب مع أنس بن مالك وأرسل معهما (الهُرمزان)، فسأل عمر الوفد قائلًا: «لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة، فلهذا ينتقضون بكم»، وكان يشير إلى انتقاض الهرمزان بعد صلحه مع المسلمين، فقال الأحنف: «يا أمير المؤمنين. إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وإنَ ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلّا بانبعاثهم وغدرهم، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس»، فقال عمر: «صدقتني والله!»، وأذن في الانسياح في بلاد فارس[1].

٢ ـ الفاتح:

عرف عمر الأحنف معرفة شخصية، فرأى منه عقلًا وديناً[2]، كما برز مجاهداً في ميدان القتال، لذلك دفع له لواء (خُراسان) حين أذن في الانسياح في بلاد فارس سنة سبع عشرة الهجرية[3] (٦٣٨م).

وشهد الأحنف قبل أن يتوجّه لفتح (خُراسان) فتح (نَهَاوند) مع أهل البصرة الذين جاءوا مدداً وعليهم أبو موسى الأَشْعَرِي[4]، فلما انصرف أبو موسى من نهاوند وفتح (قُم)[5]، وجّه الأحنَف إلى (قاشان) ففتحها عَنْوَة ثم لحق بأبي موسى الأشعري[6].

---

(١) الطبري (٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥) وابن الأثير (٢/ ٢١٣).
(٢) أسد الغابة (١/ ٥٥).
(٣) الطبري (٣/ ١٨٩) وابن الأثير (٢/ ٢١٤) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٩).
(٤) ابن الأثير (٣/ ٦).
(٥) مدينة تذكر مع قاشان، وهي مدينة مستحدثة إسلامية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٥٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٤٢).
(٦) البلاذري (٣١٠) وجمع فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ـ (٣٤٦).

وبعد أن أنجز الأحنف استحضارات قواته للقتال كافة وأكمل تحشّدها، سار لفتح (خراسان) سنة ثماني عشرة الهجرية (٦٣٩م) وفي قول بعضهم سنة اثنتين وعشرين الهجرية[1] (٦٤٢م).

لقد التجأ (يزدجرد) آخر أكاسرة الفُرْس بعد هزيمة الفُرس في معركة (جلُولاء) إلى (الرَّيْ)، ثم قصد (أصْبَهان)، ثم منها إلى (كِرْمَان)، ثم قصد (خُراسان)، فأتى (مَرُو)[2] فنزلها وبنى بها بيتاً للنار، فدان له من فيها من الفرس، فكاتب (الهرمزان) وأثار أهل فارس وأهل الجبال، فنكثوا العهد؛ فلما قضى المسلمون على مقاومات الفرس في تلك المناطق، جاء دور (خراسان)، فسار الأحنف على رأس جيشه حتى دخل (خراسان) من (الطَبسَين)[3] فافتتح (هَراة)[4] عَنْوة واستخلف عليها، وسار نحو (مرو الشاهجان)[5]، فكتب (يزدجر) وهو في (مرو الرّوذ)[6] إلى خاقان ملك الترك وإلى ملك (الصُّغد)[7] وإلى ملك الصين يستمدهم.

---

(١) الطبري (٣/ ٢٤٤) وابن الأثير (٣/ ١٢).

(٢) مرو: أشهر مدن خراسان وأقدمها وأكثرها خيراً، ويوجد (مَرْوَان) تثنية مرو: مرو الشاهجان ومرو الروذ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٤٧) ومعجم البلدان (٨/ ٣٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٥٦).

(٣) طبس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان، وهما: طبسان: طبس كيلكي وطبس مسينان ويقال لهما: الطبسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٦).

(٤) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥١) والمسالك والممالك (١٤٩).

(٥) مرو الشاهجان: أشهر مدن خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٣).

(٦) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، بينهما خمسة أيام، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٢) والمسالك والممالك (١٥٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٥٥).

(٧) الصُّغد: ولاية كبيرة قصبتها سمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢) والمسالك والممالك (١٧٧ ـ ١٧٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٣)، وأهل الأقليم يسمّون: الصّغد أيضاً.

وخرج الأحنف من (مرو الشاهجان) بعد أن وصلته إمدادات أهل الكوفة، فسار نحو (مرو الروذ) فلما سمع (يزدجرد) سار عنها إلى (بَلْخ).

ونزل الأحنف (مرو الروذ)، وقدّم أهل الكوفة إلى (بلخ) وأتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في (بَلْخ) فهزموه، فما لحق الأحنف بأهل الكوفة إلّا وقد فتح الله عليهم.

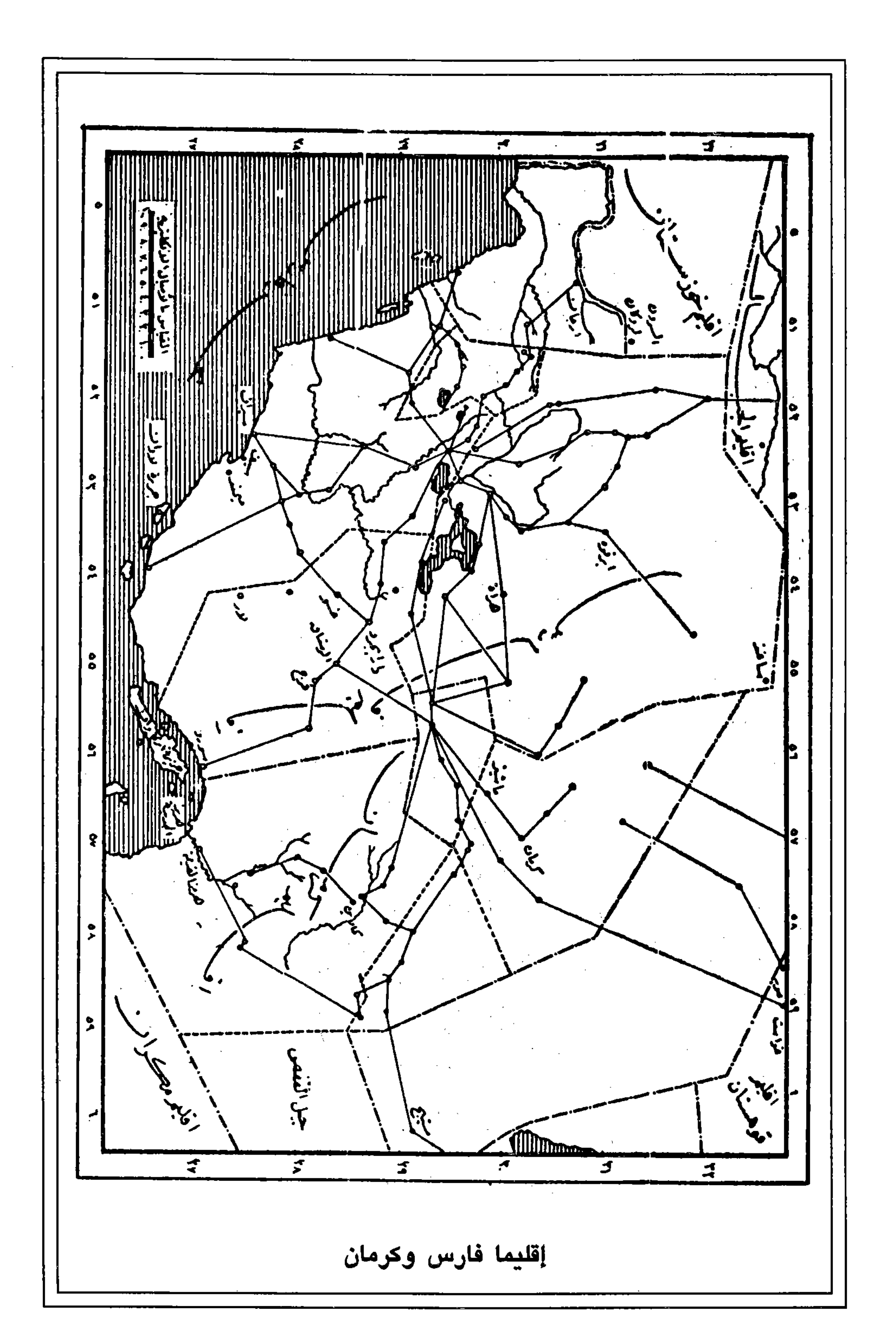
وتتابع أهل (خُراسان) ممن شذّ أو تحصّن على الصلح فيما بين (نَيْسَابور)[1] إلى (طَخَارِسْتَان) ممن كان في مملكة كسرى، أما الأحنف فعاد إلى (مرو الروذ) فنزلها واستخلف على (طخارستان) رِبْعِيّ بن عامر التميمي[2].

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح (خُراسان)، فقال عمر عن الأحنف: «هو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه»، ولكن عمر قال: «لوددِت أني لم أكن بعثت إلى خراسان جنداً، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار»، وخشي أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض الشرق، كما خشي أن تأخذ المسلمين نشوةُ الظفر فيتغلغلوا شرقاً، فكتب إلى الأحنف يقول: «أما بعد، فلا تجوزنّ النهر، واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضُّوا!»، ويريد بالنهر نهر: جَيحْون.

---

(١) نيسابور: مدينة عظيمة في خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٥٦) والمسالك والممالك (١٤٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٧٣).

(٢) ربعي بن عامر التميمي: صحابي جليل كان عمر بن الخطّاب أمد به المثنى بن حارثة الشيباني، وكان من أشراف العرب، وكان على مجنبة هاشم بن عتبة عند عودة جيش العراق من أرض الشام بعد اليرموك، كما شهد (نهاوند)، وولاه الأحنف طخارستان، راجع الإصابة (٢/ ١٩٤).



إقليما فارس وكرمان

لقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يسوِّغه، فقد اتسعت رقعة الفتح في الشرق، فتناولت أرض فارس كلّها، وقد طالت خطوط مواصلات المسلمين كثيراً وتوزّعت قوّاتهم في أرجاء الشّام والعراق وفارس؛ وقد دلّت الحوادث من بعد، أنّ عمر كان حصيف الرأي بعيد النظر، فقد سار خاقان الترك في جنده ويزدجرد معه، فعبروا النهر إلى (بَلْخ) واضطروا جند الكوفة أن يتراجعوا منها إلى (مرو الروذ)، ومن (بلخ) تقدمت قوات خاقان وحلفائه باتجاه الأحنف في (مرو الروذ)، وكان الأحنف قد خرج بقواته ليلًا من المدينة وعسكر خارجها، وفي الصباح جمع الناس وقال لهم: «إنكم قليل وإنّ عدوكم كثير، فلا يهولنّكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصَّابرين. ارتحلوا من مكانكم هذا، فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد»[1]؛ وكانت قوة الأحنف تقدّر بعشرين ألفاً: عشرة آلاف من أهل الكوفة وعشرة آلاف من أهل البصرة.

وأقبل الترك، فكانوا يناوشون المسلمين نهاراً ويتنحون عنهم ليلًا، فخرج الأحنف بنفسه ليلة طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من معسكر خاقان الترك، فلما تنفسّ الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبله، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف وهو يقول:

إنّ على كلِّ رئيس حقّاً   أنْ يخضب الصَّعدة أو تندقّا

---

(١) في الطبري (٣/٢٤٦) وابن الأثير (٣/١٤) وفيه: وخرج الأحنف ليلًا يتسمع، هل يسمع برأي فينتفع به، فمر برجلين ينقيان علفاً: إما تبناً أو شعيراً، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل، فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد، رجونا أن ينصرنا الله. فرجع الأحنف وعمل بهذه الفكرة الصائبة.

إنّ لنا شيخاً بها ملقى سيف أبي حفص الذي تبقّى[1]

وخرج فارس تركي ثان، فأورده الأحنف حتفه بطعنة نجلاء وهو يرتجز:

إنّ الرئيس يرتبي ويطلع ويمنع الخلّاء أما أربعوا[2]

وخرج فارس تركي ثالث، فأورده الأحنف مورد صاحبيه وهو يرتجز:

جري الشموس ناجزاً بناجز محتفلًا في جريه مشارز[3]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره وأعدّ رجاله للقتال، ولكن الترك آثروا العودة إلى ديارهم، لأنّ مقامهم طال دون جدوى، ولأنهم تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح، ولأن أملهم بالنصر كان ضعيفاً، ولأنهم اطمأنوا إلى أنّ المسلمين لن يعبروا إليهم النهر تنفيذاً لأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة من (بَلْخ) وانضموا إلى الأحنف بمرو الروذ قد فصل في قوة فارسية من (بلخ) إلى (مرو الشاهجان)، فحصر المسلمين بها واستخرج خزائنه من موضعها.

وعلم يزدجرد بانسحاب خاقان إلى (بلخ) وعزمه على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده، فأراد أن يحمل خزائنه ويلحق بخاقان حليفه، فقال

(١) الصعدة: الرمح أو آلة جارحة أصغر من الحربة. ملقى: طريح ويقصد به الشهيد. والمعنى: واجب كل أمير أن يقاتل حتى يدمي رمحه أو يتحطم من شدة القتال، ثم يتذكر الشهيد أبا حفص الثاوي هناك، انظر تاج العروس (٢/٣٩٨).

(٢) يرتبي: يصعد الرابية، الخلاء: جمع خلى، وتميم تقول: خلا فلان على اللبن واللحم إذا لم يأكل معه شيئاً ولا خلط به. ربع بالمكان: أقام، يريد: إن واجب الرئيس أن يتحمل عبء الدفاع عن رجاله وحمايتهم.

(٣) الشموس: الفرس تمنع ظهرها. مشارز: الشدة والصعوبة والقوة. يعني: أنه يزج نفسه بالحرب بقوة واندفاع كما تندفع الفرس الشموس لا تلوي على شيء في جريها القوي الشديد.

له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع؟! فقال: «أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين»، فقالوا: مهلاً! إنّ هذا رأي سوء، فإنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هُولاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا، وإنّ عدواً يلينا في بلادنا أحبّ إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده، ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم!!.. فأبى عليهم وأبوا عليه، فقالوا: فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومَن يليها ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها!. فخالفهم يزدجرد وأصرَّ على رأيه؛ فخرجوا إليه وثاروا به وقاتلوه وحاشيته واستولوا على خزائنه، ففرّ فيمن معه إلى (بلخ)، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها، فتابع فراره حتى بلغ (فَرْغانَة)[1] عاصمة الترك، فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: «أقيموا بمكانكم ودعوهم».

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله، فسار الأحنف بجند الكوفة من (مرو الروذ) إلى (بَلْخ) فأنزلهم بها ثم عاد إلى مقر قيادته في (مرو الروذ).

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالفتح وبعث إليه بالأخماس، فجمع عمر الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ عليهم، وقال في خطبته: «ألا إنّ الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم. ألا وإنّ الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون؛ واللَّهُ بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله، فقوموا في أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تتبدلوا ولا تُغيِّروا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني

---

(١) فرغانة: اسم مدينة واسم ولاية أيضاً، وهي ولاية واسعة بما وراء نهر جيحون متاخمة لبلاد تركستان. وهنا يقصد مدينة فرغانة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٤٦) المسالك والممالك (١٦٦) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٣٥).

لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلِكم»[1]، فكان فتح الأحنف لخراسان النذير الصادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان ونشر رايات العرب المسلمين في تلك البلاد[2].

٣ ـ استعادة فتح خُراسان:

نكث أهل فارس العهد بعد عمر بن الخطاب[3]، فلما استعاد عبد الله بن عامر فتح بعض أرض فارس في أيام عثمان بن عفان، غزا خراسان[4] وعلى مقدمته الأحنف، فأتى (الطَبَسين) وهما حصنا وبابا خراسان فصالحه أهلهما، فسار إلى (قُهُستان)[5] فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجاهم إلى حصنهم، فقدم عليها عبد الله بن عامر وصالح أهلها[6].

ووجه ابن عامر الأحنف إلى (طخارستان)، فأتى الموضع الذي يقال له: قصر الأحنف، وهو حصن (مرو الروذ) وله رستاق[7] عظيم يعرف

---

(١) انظر تفاصيل قصة فتح خراسان في الطبري (٣/ ٢٤٤ ـ ٢٥٠) وابن الأثير (٣/ ١٣ ـ ١٥).

(٢) فتحت خراسان سنة اثنتين وعشرين الهجرية، انظر الطبري (٣/ ٢٤٤) وابن الأثير (٣/ ١٣) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٦٤)، وذلك لأن انسياح المسلمين في ولايات فارس جرى بعد معركة (نهاوند) التي كانت سنة إحدى وعشرين الهجرية، ولم يكن بإمكان المسلمين التغلغل بهذا العمق قبل معركة (نهاوند) الحاسمة التي قضت على القوات الضاربة المهمة للفرس، لذلك أطلق العرب بحق على معركة (نهاوند) اسم: فتح الفتوح.

(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٧).

(٤) البلاذري (٣٩٤).

(٥) قهستان: في البلاذري (٣٩٤) ورد اسمها: قوهستان. كذلك في معجم البلدان (٧/ ١٨٧) والمسالك والممالك (١٥٤): تعريب كوهستان ومعناه موضع الجبال، لأنّ كوة هو الجبل بالفارسية، وهي ولاية بين هراة ونيسابور، وانظر آثار البلاد وأخبار العباد (٣٤١).

(٦) ابن الأثير (٢/ ٤٧)، وفي البلاذري: أن الأحنف استعاد فتح قوهستان عنوة، ويقال: بل ألجأهم إلى حصنهم، ثم قدم عليها ابن عامر، فطلبوا الصلح فصالحهم على ستمائة ألف درهم. وانظر تاريخ ابن خلدون (٢/ ١٣٢).

(٧) الرستاق: مجموعة القرى.

برستاق الأحنف[1]، فحصر الأحنف أهله، فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم، ومضى الأحنف إلى (مرو الروذ) فصالح أهلها بعد قتال شديد، وسيَّر الأحنف سرية فاستولت على رستاق (بَغ)[2] وصالحت أهله[3].

وجمع له أهل (طخارستان)، فاجتمع أهل (الجُوزْجَان)[4] و (الطالقان)[5] و (الفارِياب)[6] ومَن حولهم، فبلغوا ثلاثين ألفاً، وجاءهم أهل (الصغانيان)[7] وهم من الجانب الشرقي من نهر جَيْحون، فالتقوا وقاتل قتالاً شديداً، فانهزم الفرس وحلفاؤهم، فطاردهم المسلمون وألحقوا بهم خسائر فادحة بالأرواح[8].

ولحق قسم من العدو (بالجوزجان) فوجّه إليهم الأحنف الأقرعَ بن حابِس التميمي[9] في خيل، وأوصى قومه بني تميم بقوله: «يا بني تميم!

---

(١) البلاذري (٣٩٦ ـ ٣٩٧).

(٢) بغ: ويقال لها: بَغْشور، وهي بليدة بين هراة ومرو الروذ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) وآثار البلاد وأخبار العباد (٣٢٩).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٨) والبلاذري (٢٩٧).

(٤) الجوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٦٢) والمسالك والممالك (١٥٣).

(٥) الطالقان: بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢).

(٦) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ غربي جيحون، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٢٨).

(٧) الصغانيان: ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦١).

(٨) الطبري (٣/ ٣٥٦) وابن الأثير (٣/ ٤٨) والبلاذري (٣٩٧) وانظر البدء والتاريخ (٥/ ١٩٨).

(٩) الأقرع بن حابس التميمي: وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم، وقد حسن إسلامه.
شهد حرب اليمامة مع خالد بن الوليد، وشهد مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل، وشهد مع خالد حرب أهل العراق وفتح الأنبار واستعمله عبد الله بن عامر على=

تحابّوا وتباذلوا تعدل أموركم، وابدؤا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلُّوا يسلم لكم جهادكم»، فسارع الأقرع ولقي العدو بالجوزجان؛ فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا عدوهم وفتحوا الجوزجان عَنْوَة[1].

واستعاد الأحنف فتح (الطالقان) صلحاً وفتح (الفارياب)، ثم سار إلى (بلخ) وهي مدينة طخارستان فصالحه أهلها أيضاً، فسار إلى (خُوارِزْم)[2] وهي على نهر جَيْحون، فلم يقدر عليها، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالعودة إلى بلخ[3].

وهكذا استعاد الأحنف فتح خُراسان ثانية[4]، وقد أنجز ذلك سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م).

= جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش وذلك في زمن عثمان بن عفان، ولكنه تغلب على العدو في النهاية.
كان شريفاً في الجاهلية والإسلام، واسمه الأصلي: فراس، وإنما قيل له: الأقرع، لقرع كان برأسه. انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٧/٢٧) والإصابة (١/٥٨) وأسد الغابة (١/١٠٧) والاستيعاب (١/١٠٣)، وانظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب.

(١) الطبري (٣/٢٥٧ ـ ٢٥٨) وابن الأثير (٢/١٨) والبلاذري (٣٩٨).

(٢) خوارزم: اسم إقليم، وهو منقطع عن خراسان وعما وراء النهر، وتحيط به المفاوز من كل جانب، وحدّها متصل بحد الغزيّة فيما يلي الشمال والمغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر، وهي على جانبي نهر جيحون ومدينتها في الجانب الشمالي في جيحون، انظر التفاصيل في الممالك والمسالك (١٦٨) ومعجم البلدان (٢/٤٧٤).

(٣) الطبري (٣/٣٥٨) وابن الأثير (٣/٤٩) والبلاذري (٣٩٨) واليعقوبي (٢/١٤٤) وجمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة ـ لابن حزم (٣٤٨) وتهذيب ابن عساكر (٧/١٢).

(٤) أنجز الأحنف إعادة فتح خراسان سنة إحدى وثلاثين الهجرية، انظر الطبري (٣/ ٣٥٨) وابن الأثير (٣/٤٩) وتاريخ أبي الفدا (١/١٦٨).

الإنسان:

١ ـ حياته:

ذكرنا في أول الحديث في سيرته: إسلامه وجهاده، وكان بالإضافة إلى ما ذكرناه، من سادات التابعين وأكابرهم[١]، وسيداً مطاعاً في قومه[٢] وسيد أهل البصرة[٣].

وفد على عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وكان موضع ثقتهما وتقديرهما، ولما تولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة وقصدت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها البصرة، كتبت إليه وإلى أمثاله من رجالات البصرة وأقامت (بالحُفَيْر)[٤] تنتظر الجواب[٥]، وكان الأحنف قد بايع عليّاً بالمدينة بعد مقتل عثمان. وكان الأحنف حينذاك في طريق عودته من الحج، ولكنه اعتزل الفريقين في معركة (الجمل) ومعه زهاء ستة آلاف من قومه، وبقي مع أصحابه بالجَلْحَاء[٦] على فرسخين من البصرة.

فقد قصد الأحنف كلّاً من عائشة وطلحة والزبير عند وصولهم البصرة، فقال لهم: «والله لا أقاتلكم ومعكم أمّ المؤمنين، ولا أقاتل ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمرتموني ببيعته، ولكن أعتزل»، فأذنوا له في ذلك.

ولما قدم علي بن أبي طالب البصرة، أتاه الأحنف فقال: «إنّ قومنا

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٦) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٧٨) وتاريخ الإسلام (٣/ ١٢٩).
(٢) تاريخ الإسلام (٣/ ١٢٩) والبداية والنهاية (٨/ ٣٢٦) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١١).
(٣) الإصابة (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ٥٥).
(٤) الحفير: موضع بين البصرة ومكة، وهو أول منزل من البصرة لمن يريد مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٠٣).
(٥) ابن الأثير (٣/ ٨٢).
(٦) الجلحاء: موضع على فرسخين من البصرة، وهي غير الجلحاء الوارد ذكرها في معجم البلدان (٣/ ١٢١).

بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً قتلت رجالهم وسبيت نساءهم» فقال علي: «ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحلّ هذا إلّا لمن تولّى وكفر، وهم قوم مسلمون»، فقال الأحنف: «اختر مني واحدة من اثنتين: إما أن أقاتل معك، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف»، فقال علي: اكفف عنا عشرة آلاف سيف»، فرجع الناس ودعاهم إلى القعود واعتزل بهم[1].

والظّاهر أنّ هناك أسباباً أخرى لاعتزال الأحنف، فقد تأثر لمقتل عثمان بن عفان، وكان يرى أنّ الإقدام على قتله جريمة لا تغتفر لما قدّمه عثمان من خدمات جليلة للإسلام. قال الأحنف: «خرجنا حجّاجاً، فقدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فبينا نحن في منازلنا نضع رحالنا، إذ أتانا آت فقال: إنّ الناس قد اجتمعوا في المسجد وفزعوا. فانطلقنا فإذا الناس مجتمعون على نفر في وسط المسجد، وإذا علي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقّاص، فإنّا كذلك إذ جاء عثمان بن عفان عليه ملاءة[2] صفراء قد قنّع بها رأسه[3]، فقال: أههنا علي؟ أههنا طلحة؟ أههنا الزبير؟ أههنا سعد؟ قالوا: نعم. قال: فإني أنشدكم بالله الذي لا إله إلّا هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال: «من يبتاع مربد[4] بني فلان غفر الله له». فابتعته بعشرين ألفاً أو بخمسة وعشرين ألفاً، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته: فقال: «اجعلها في مسجدنا وأجره لك». قالوا: اللّهم نعم. قال: فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يبتاع (بئر رُوْمَة)[5] غفر الله له»، فابتعته بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت قد ابتعتها بكذا وكذا، فقال: «اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك». قالوا:

---

(١) الطبري (٣/٥٠٩ ـ ٥١٠) وابن الأثير (٣/٩٤).

(٢) الملاءة: الإزار والريطة.

(٣) قنع رأسه: أي ألقى على رأسه لدفع الحر أو غيره.

(٤) مربد: موضع يجعل فيه التمر لينشف.

(٥) بئر رومة: بئر في عقيق المدينة، وهي التي اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤).

اللّهم نعم!.. قال: فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أنَّ رسول الله ﷺ نظر في وجوه القوم فقال: «مَن جهَّز هؤلاء غفر الله له» - يعني جيش العُسْرة - فجهّزتهم حتى ما يفقدوا عقالاً ولا خطاماً! قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد.. اللّهم اشهد..» وهذا سبب من أسباب اعتزال الأحنف[1] معركة (الجمل)[2].

لقد كان الأحنف في حرج شديد من قتال أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ: طلحة والزبير، ولكنه كان يرى أنّ علياً على الحق وأنه مسؤول عن إسناده[3]، لذلك آثر استرضاء الطرفين: فاعتزل وقعة (الجمل) ولكنه شهد مع علي بن أبي طالب وقعة (صِفّين)[4].

قال الأحنف لعلي: «يا أمير المؤمنين! إنه إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل، فلن ينصروا عليك غيرك. وقد عجبوا ممن نصرك يومئذ، وعجبوا اليوم ممن خذلك؛ لأنهم شكُّوا في طلحة والزبير ولم يشكوا في عمرو ومعاوية...»، فقال علي: «اكتب إلى قومك» فكتب الأحنف إلى بني سعد، فلما انتهى كتابه إليهم ساروا بجماعتهم حتى نزلوا الكوفة[5].

وقال لعلي قبل معركة (صِفّين): «لم نقاتل القوم لنا ولك. إنما قاتلناهم لله، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله، فإنك أولى بالحق وأحقّنا بالتوفيق، ولا أرى إلّا القتال!»[6].

---

(١) سنن الإمام النسائي-(٢/ ١٢٤)، وانظر حاشية السندي على النسائي على هامش سنن النسائي (٢/ ١٢٤)، وانظر أيضاً الطبري (٣/ ٥١٠).
(٢) الإصابة (١/ ١٠٢) وأسد الغابة (١/ ٥٥) ووفيات الأعيان (٢/ ١٨٦) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٧٤) والإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ٧١).
(٣) انظر الطبري (٣/ ٥١٣) حول رأي الأحنف في إسناد علي بن أبي طالب.
(٤) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧) والإصابة (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ٥٥) ووفيات الأعيان (٢/ ١٨٦) وتاريخ الإسلام (٣/ ١٢٩).
(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ٨٦ - ٨٧).
(٦) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ١٢٣).

ولما استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان دخل عليه الأحنف يوماً، فقال له معاوية: «والله يا أحنف! ما أذكر يوم صفين إلّا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة!»، فقال الأحنف: «والله يا معاوية! إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإنّ السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها. وإنّ تدْن من الحرب فتراً نَدْنُ منها شبراً، وإن تمش إليها نهرول إليها!»، ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه، فقالت: «يا أمير المؤمنين! مَن هذا الذي يتهدّد ويتوعّد؟!»، قال: «هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم، لا يدرون فيم غضب»[1].

تولى خراسان في أيام عمر بن الخطاب وفي أيام عثمان بن عفان، وأخباره كثيرة، وقد ولد ملتصق الأليتين حتى شق[2]، كما ولد وهو أحنف الرجل، فكانت أمه ترقصه وتقول:

والله لولا حَنَفٌ في رجله　　ما كان في الحي غلام مثله[3]

وكان يطأ على وحشي رجله، ولذا قيل له: الأحنف[4]. وكان أعور ذهبت عينه عندما فتح (سَمَرْقَنْدْ)، وقيل: بل ذهبت عينه بالجدري. وكان متراكب الأسنان، صغير الرأس، مائل الذقن[5]، قصيراً دميماً له بيضة واحدة[6]، ناتئ الوجنة باخع العينين[7]، خفيف العارضين[8]، وكان ثَطّاً ـ يعني كوسجاً ـ وكان رهطه يقولون: «وددنا أننا اشترينا للأحنف لحية بعشرة آلاف»[9].

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧) وشذرات الذهب (١/ ٢٨).
(٢) وفيات الأعيان (٢/ ١٩١).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٣).
(٤) الأحنف: المائل. ووحشي الرجل: ظهرها. والحنف في الرجل: أن تُقبل كل واحدة منهما بأبهامها على صاحبتها.
(٥) وفيات الأعيان (٢/ ٢٩١).
(٦) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١١).
(٧) باخع العينين: منخسف العينين.
(٨) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٣) والمعارف (٥٧٨).
(٩) ألف باء للبلوي (٢/ ٣٤٣).

وكان يهتم بزيّه فيرتدي مطرف خز وعمامة من خز[1]، وكان صديقاً لمُصعب بن الزبير فوفد عليه بالكوفة ـ ومصعب يومئذ وآل عليها ـ فتوفي الأحنف عنده بالكوفة سنة سبع وستين الهجرية[2] (٦٨٦م) عن سبعين سنة[3]، أي أنه ولد سنة ثلاث قبل الهجرة (٦١٩م) وصلّى عليه مصعب بن الزبير ومشى راجلًا بين رجلي نعشه بغير رداء، وقال في تأبينه: «هذا سيد أهل العراق»[4]، وقال أيضاً: «اليوم ذهب الحزم والرأي»[5]. ودفن (بالثَوِيَّة)[6] عند قبر زياد بن أبي سفيان[7].

مزاياه:

أ ـ مزاياه العامة:

كان الأحنف موضع ثقة الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم، فما هي المزايا التي جعلته يستحوذ على ثقة غيره به؟

لقد كان من البيوتات التي تفخر بها البصرة، وكان في البصرة ستة ليس بالكوفة مثلهم أحدهم الأحنف[8]، وكان ثقة مأموناً[9]، أحد الحكماء

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٧).

(٢) الإصابة (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ٥٥) والاستيعاب (٢/ ٧١٦) وابن الأثير (٤/ ١٠٩) وقيل: إنه توفي سنة إحدى وسبعين، وقيل سبع وسبعين، وقيل ثمان وستين، انظر وفيات الأعيان (٢/ ١٩١)، وقيل سنة اثنتين وسبعين، انظر شذرات الذهب (١/ ٧٨).

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ١٩١).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٧١٦).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٣).

(٦) الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٨).

(٧) وفيات الأعيان (٢/ ١٩١) والاستيعاب (٢/ ٧١٦) والمعارف (٤٢٤) وزياد بن أبي سفيان هو والي العراقين لمعاوية بن أبي سفيان.

(٨) ابن الفقيه (١٩٠) نقلًا عن كتاب: الجاحظ (١٥٧) للدكتور شارل بلات ترجمة إبراهيم الكيلاني.

(٩) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٣).

الدهاة العقلاء[1]، عاقلًا حكيماً ذا دين وذكاء وفصاحة[2]، وكان سيد قومه موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم[3]، يُضرب بحلمه المثل[4]، وكان سيداً شريفاً مطاعاً مؤمناً عليم اللِّسان[5].

تلك هي بعض مزايا الأحنف، فلا عجب أن يقول الشاعر في وصفه:

إذا الأبصار أبصرتِ ابنَ قيس ظَلَلْنَ مهابةً منه خشوعا

وأن يقول عنه خالد بن صَفْوان: «كان الأحنف يفرّ من الشرف، والشرف يتبعه»[6]، وقال هشام بن عبد الملك لخالد هذا: «أخبرني عن الأحنف»، فقال: «إن شئت يا أمير المؤمنين أخبرتك عنه بثلاث، وإن شئت بثنتين، وإن شئت بواحدة»، قال: «فأخبرني عنه بثلاث»، فقال: «كان لا يحسد، ولا يجهل، ولا يدفع الحق، إذا نزل به خضع لذلك». فقال: «أخبرني عنه بثنتين»، فقال: «كان يفعل الخير ويحبّه. ويتوقّى الشر ويبغضه»، قال: «فأخبرني عنه بواحدة»، فقال: «كان من أعظم الناس سلطاناً على نفسه»[7].

إنه بلغ بهذه المزايا الرفيعة درجة عالية في نفوس الناس واستحوذ على منتهى ثقة الناس بإنسان، فما هي شواهد تلك المزايا الرفيعة في الأحنف؟..

ب ـ حلمه:

كان الأحنف حليماً يضرب بحلمه المثل. سئل عن الحلم: ما هو؟

(١) أسد الغابة (١/ ٥٥).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٧١٦).
(٣) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٦).
(٤) الإصابة (١/ ١٠٣).
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٦).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٣).
(٧) شذرات الذهب (١/ ٧٨) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٣) والعقد الفريد (٩/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) مع اختلاف باللفظ واتفاق بالمعنى.

فقال: «الذل مع الصبر». وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: «إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور!». وكان يقول: «وجدت الحلم أنصر لي من الرجال». وكان يقول: «ما تعلّمت الحلم إلّا من قيس بن عاصِم المِنْقَرِيّ[1]، لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأتي بالقاتل مكتوفاً يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى! ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت: نقصت

---

(١) قيس بن عاصم المنقري: قدم في وفد بني تميم على النبي ﷺ وذلك في سنة تسع الهجرية، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا سيد أهل الوبر».
كان حليماً مشهوراً بالحلم، ومن حلمه أنه كان قاعداً بفناء داره وبيده سيفه يحدِّث قومه، إذ أتي برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك! فما قطع كلامه ولا تغيّر لونه، فلما أتمّ كلامه التفت إلى ابن أخيه فقال: «يا ابن أخي! بئس ما فعلت! أثمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك»، ثم قال لابن عم له آخر: «قم يا بني فوارِ أخاك وحل كتاف ابن عمك، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة».
وكان قيس قد حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية وقال في ذلك:

رأيت الخمر طالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً ... ولا أشفي بها أبداً سقيماً
ولا أعطي بها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديماً
فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنبهم بها الأمر العظيما

ومن جيد شعره:

إن امرؤ لا يعتري خلقي ... دنس يدنِّسه ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجود أعفة لسن
لا يفطنون بعيب جارهم ... وهم لحسن جواره فطن

وكان لحلمه وورعه وعقله موضع ثقة أبي بكر الصديق، سأله مرة عن المثنى بن حارثة الشيباني قال: «هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني».
ولما حضرته الوفاة، دعا بنيه فقال: «يا بني! احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني إذا أنا متّ فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيسفه الناس كباركم وتهونون عليهم. وعليكم بإصلاح الحال، فإنه منبه لكريم ويستغنى به عن اللئيم، فإنها آخر كسب الرجل»، انظر الإصابة (٥/ ٢٨٥) وأسد الغابة (٤/ ٢١٩) والاستيعاب (٣/ ١٢٩٤).

عددك وأوهنت عضدك وأشمتّ عدوك وأسأت بقومك. خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديّته فإنها غريبة! ثم انصرف القاتل وما حلّ قيس حبوته ولا تغيَّر وجهه»[1].

وقال رجل للأحنف: «علِّمني الحلم يا أبا بحر!». فقال: «هو الذل يا ابن أخي، أفتصبر عليه؟!». وقال: «لست حليماً ولكنني أتحالم»[2].

ومن أخبار حلمه، أنّ رجلًا شتمه فسكت عنه، وأعاد الرجل فسكت عنه، وأعاد فسكت عنه، فقال الرجل: «والهفاه! ما يمنعه من أن يردّ عليّ إلّا هواني عنده»[3].

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّه، فقال الأحنف: «يا هذا! إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف، لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره»[4].

وكان يقول: «مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وربّ غيظ قد تجرّعته مخافة ما هو أشدّ منه»[5].

ولكنّ حلمه كان حلم القوي القدير لا حلم العاجز الضعيف، فقد قاتل في بعض المواطن قتالًا شديداً، فقال له رجل: «يا أبا بحر! أين الحلم؟!»، فقال: «عند الحي»[6].

جـ ـ عقله:

كان الأحنف عاقلًا راجح العقل، قال مرة: «مَن كان فيه أربع خصال

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨) وانظر البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧).
(٢) العقد الفريد (١/ ٢٨٧).
(٣) عيون الأخبار (١/ ٢٨٣).
(٤) عيون الأخبار (١/ ٢٨٧).
(٥) عيون الأخبار (١/ ٢٨٤).
(٦) عيون الأخبار (١/ ١٨٥)، وعند الحي: يعني بها تركته في الدار كما نقول.

ساد قومه غير مدافع: من كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه»[1]. وقال: «العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير رفيق»[2].

وقال: «ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي» وكان إذا ذكر عنده رجل قال: «دعوه يأكل رزقه ويأتي عليه أجله»[3].

وشكا ابن أخيه وجع الضرس فقال: «ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد»[4].

وقال: «ما نازعني أحد فوقي إلّا عرفت له قدره، ولا كان دوني إلا رفعت قدري عنه، ولا كان مثلي، إلّا تفضلت عليه»[5].

ومما يدلّ على رجاحة عقله، أنه دخل على معاوية فأشار إلى الوسادة وقال له: «اجلس»، فجلس الأحنف على الأرض، فقال له معاوية: «وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوسادة؟»، فقال: «يا أمير المؤمنين! إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المِنْقَرِيّ ولده أن قال: لا تَغْشَ السلطان حتى يَملَّك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسى أن يأتي مَن هو أولى بذلك المجلس منك، فتقام له، فيكون قيامك زيادة له ونقصاً عليك، وحسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله أن يأتي مَن هو أولى بذلك المجلس مني»؛ فقال معاوية: «لقد أوتيت تَمِيْم الحكمة مع دقة حواشي الكلام»[6].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٧).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢١).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦).
(٥) ذكر أخبار أصبهان (٣/ ١٣٢).
(٦) البيان والتبيين (١/ ٧٧).

وكان يقول: «فيّ ثلاث خصال ما أقولهن إلّا ليعتبر معتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يدخلاني بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم أدعَ إليه - يعني الملوك - وما حللت حبوتي إلى ما يقوم الناس إليه». ويقول: «ألا أدلكم على المحمدة بلا مزرية؟ الخلق السجيح والكف عن القبيح. ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ الخلق الدنيّ واللسان البذي!» ويقول: «ما خان شريف، ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن»[1].

د - علمه:

كان عالماً ثقة مأموناً قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغِفَارِيّ [2]، وروى عنه الحسن البصري وعُرْوَة بن الزبير وغيرهما[3]، وقد كان من الفقهاء البارزين في أيام معاوية بن أبي سفيان[4].

هـ - حكمته:

كان حكيماً ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة. سئل عن المروءة فقال: «أدب بارع ولسان قاطع»، وسئل عن المروءة أيضاً، فقال: «التقى والاحتمال»، ثم أطرق ساعة وقال:

وإذا جميل الوجه لم ... يأت الجميل فما جماله؟!
ما خير أخلاق الفتى ... إلّا تقاه واحتماله

وسئل عنها فقال: «العفّة في الدين، والصبر على النوائب، وبر الوالدين، والحلم عند الغضب، والعفو عند المقدرة».

---

(1) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧) والكامل للمبرد (١/ ٨٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٣) والإصابة (١/ ١٠٣) والبداية والنهاية (٨/ ٣٢٧). وفي تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٠): أنه روى عن عمر وعثمان وعلي والعباس وابن مسعود وأبي ذر الغفاري.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٠) وتاريخ الإسلام (٣/ ١٢٩).
(٤) اليعقوبي (٢/ ٢١٤).

وقال: «رأس الأدب آلة المنطق، ولا خير في قول إلّا بفعل، ولا في منظر إلّا بمَخْبر، ولا في مال إلّا بجود، ولا في صديق إلّا بوفاء، ولا في فقه إلّا بورع، ولا في صدقة إلّا بنيَّة»[1].

وقال: «أحْيِ معروفك بإماتة ذكره»[2]. وقال: «ما ادّخرت الآباء للأبناء ولا أبقَت الموتى للأحياء، أفضل من اصطناع معروف عند ذوي الإحسان والأدب». وقال: «كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عُرف به»[3]. وقال: «جنِّبوا مجلسنا الطعام والنساء، فإني لأبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه»[4]. وقال: «الزم الصحة يلزمك العمل»[5]. وقال: «رب ملوم لا ذنب له»[6]. وقال: «السؤدد مع السَّواد» يريد: من لم يَطِر له اسم على ألسنة العامة بالسؤدد، لم ينفعه ما طار له في الخاصة[7].

و ـ بلاغته:

كان فصيحاً مفوّهاً[8]. خطب مرة فقال: بعد حمد الله والثّناء عليه: «يا معشر الأزد وربيعة! أنتم أخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصّهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحبّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرف شنآن حسد صدوركم ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم»[9].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٩ ـ ٢٠).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧).
(٣) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٧) والكامل للمبرد (١/ ٣٧).
(٤) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٨).
(٥) البيان والتبين (٢/ ٩٩).
(٦) البخلاء للجاحظ (٣٤٧).
(٧) العقد الفريد (١/ ٢٩١).
(٨) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١٣٠).
(٩) العقد الفريد (٢/ ٣٨٨)، وانظر الكامل للمبرد (١/ ٩٧) والشانىء: المبغض.

وقال: «ولا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم - أي حافظت على زيِّها - وتقلّدت السيوف - يريد الامتناع عن الضيم - ولم تعدّ الحلم ذلّاً ولا التواهب فيما بينها ضيعة»[1].

لقد كان حاضر البديهة قويّ الحجّة منطقياً. جاء الأحنف إلى قوم يتكلّمون في دم، فقال: «احكموا!» فقالوا: «نحكم بديتين!» فقال: «ذلك لكم». فلما سكتوا قال: «أنا أعطيكم ما سألتم، غير أني قائل لكم شيئاً: إنّ الله عزّ وجلّ قضى بديّة واحدة، وإنّ النبيّ ﷺ قضى بديّة واحدة، وأنتم اليوم طالبون وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلّا بمثل ما سننتم لأنفسكم!»، فقالوا: نردّها دية واحدة[2].

وأراد رجل أن ينتقص من قدر الأحنف عندما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عن الأحنف: «هذا والله السيِّد... هذا والله السيِّد»، فقال ذلك الرجل: «يا أمير المؤمنين! إنه ليس هناك، وأمه باهلية»، فقال عمر: «هو خير منك»، فقال الأحنف:

أنا ابن الباهلية أرضعتني ... بثدي لا أجد ولا وخيم
أغضّ على القذى أجفان عيني ... إلى شر السفيه إلى الحليم[3]

وسمع الأحنف رجلًا يقول: «ما أبالي أمدحت أم ذممت»، فقال له: «لقد استرحتَ من حيثُ تعب الكرام»[4].

ز - دهاؤه:

كان الأحنف من دهاة العرب. قال الأحنف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، يبدي رأيه في أبي موسى الأشعري ممثل علي

---

(1) الكامل للمبرد (1/ 120).
(2) وفيات الأعيان (2/ 188).
(3) أجد: عظم. وخيم: ثقيل بين، انظر العقد الفريد (1/ 188).
(4) وفيات الأعيان (2/ 188).

في التحكيم: «يا أمير المؤمنين! إنّ أبا موسى الأشعري رجل يماني، وقومه مع معاوية، فابعثني معه، فوالله لا يحلّ لك عقدة إلا عقدت لك أشدّ منها، فإن قلت: إني لست من أصحاب الرسول ﷺ، فابعث ابن عباس وابعثني معه»[1].

ح - إيثاره:

كان الأحنف يحبّ لغيره ما يحبّه لنفسه، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير والمعروف ويقنع هو برضى نفسه الرضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير. أوفد أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب وفداً من أهل البصرة وفيهم الأحنف، فلما قدموا عليه، تكلّم كل رجل بخاصة نفسه - وكان الأحنف في آخر القوم - فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يا أمير المؤمنين! إنّ مفاتح الخير بيد الله، وإنّ إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة، وإنّا نزلنا سبخة ملتفة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها: ناحيتها من قِبل المشرق البحر الأجاج، ومن قبل المغرب الفلاة، فليس لنا زرع ولا ضرع، تأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مرى النعامة، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق[2] ولدها كما يربق العنز، تخاف بادرة العدو وأكل السبع، فألّا ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا»، فزاد عمر في عطائهم، وأمر عامله على البصرة فأجرى لهم نهراً من دجلة على ثلاثة فراسخ إلى شمالها[3].

وعرض عمر على الأحنف جائزة، فقال: «يا أمير المؤمنين! والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات والعشيات للجوائز، وما حاجتي إلّا حاجة مَن

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/ ١٣١).
(٢) ربقه: جعل رأسه في الربقة، وهو حبل تشد به البهم.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١١) والعقد الفريد (١/ ١٩١) مع اختلاف في اللفظ، وانظر ابن الأثير (٢/ ٢١٠).

خلفي»، فزاده ذلك عند عمر خيراً[١].

وقدم وفد أهل العراق على معاوية بن أبي سفيان وفيهم الأحنف، فخرج الآذن فقال: «إنّ أمير المؤمنين يعزم عليكم ألّا يتكلّم أحد إلّا لنفسه»، فلما دخلوا إليه قال الأحنف: «لولا عزيمة[٢] أمير المؤمنين لأخبرته أنّ دافَّة دفَّت[٣] ونازلة نزلت ونائبة نابت ونابتة نبتت، كلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه»، فقال معاوية: «حسبك يا أبا بحر! فقد كفيت الغائب والشّاهد»[٤].

وكان يشعر بشعور (المجموع) ولا يقتصر على شعوره (الفردي). قيل له: كيف سوّدك قومك وأنت أرذلهم خلقة؟! فقال: «لو عاب قومي الماء ما شربته»[٥].

ط ـ أمانته:

كان الأحنف أميناً غاية الأمانة. لما سار إلى (خُوارِزْم) استعمل على (بَلْخ) ابن عمه أسيد بن المتشمس ليأخذ من أهلها ما صالحوه عليه. وانصرف الأحنف إلى (بلخ) وقد قبض ابن عمه ما صالحوه عليه مع هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عمه لهم: «هذا ما صالحناكم عليه؟!» فقالوا: لا!! ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطف به، قال: «وما هذا اليوم؟» فقالوا: المهرجان[٦]، فقال: «ما أدري ما هذا، وإني لأكره أن أردّه، ولعلّه من حقي ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر»، فقبضه وقدم الأحنف فأخبره فسألهم عنه، فقالوا مثل ما

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢).
(٢) عزيمته: أمره بعدم التكلم لغائب.
(٣) دافة دفت: جانحة مستأصلة ظهرت ونجمت.
(٤) البيان والتبيين (٢/ ٩٣).
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢).
(٦) المهرجان: أحد أعياد الفرس.

قالوا لابن عمه، فقال: «آتي به الأمير»، فحمله إلى عبد الله بن عامر فأخبره عنه فقال: «اقبضه يا أبا بحر، فهو لك»، فقال الأحنف: «لا حاجة لي فيه»[1].

لقد كان يتحرّج حتى من الهدايا، وكان يكتفي بعطائه وبسهمه من الغنائم أسوة بأي رجل من رجال المسلمين، وقد جاءه رجل يوماً يسأله، فقال: «إنما لي سهم وما فيه فضل عني، وإنما لفرسي سهمان وما فيهما فضل عن فرسي»[2].

لقد كان كالموظف النزيه، يضطر إلى الاقتصاد ليعيش عيش الكفاف، حتى إنه جبر يد عنز[3]، ومع ذلك كان جواداً[4] حسب إمكاناته، فلم يبق له جوده ديناراً ولا داراً.

ي - أناته:

كان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عمل إلّا بعد أن يحسب له ألف حساب. قيل له: يا أبا بحر! إنّ فيك أناة شديدة، فقال: «قد عرفت من نفسي عجلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتي إذا حضرت حتى أغيبِّها في حفرتها، وابنتي إذا خطبها كفيئها حتى أزوجه»[5].

ك - ورعه:

كان الأحنف مؤمناً ورعاً قوي الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته[6]، وبسط حمايته القوية

(١) الطبري (٣/٣٥٨) وابن الأثير (٣/٤٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/٩٦).
(٣) البخلاء للجاحظ (٢٥)، وفعل ذلك اقتصاداً.
(٤) البداية والنهاية (٨/٣٢٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٧/٩٦).
(٦) شذرات الذهب (١/٧٨).

الأمينة على الدعاة الأولين[1]، وثبت على عقيدته عندما ارتدّ أكثر قومه وأكثر العرب بعد وفاة النبيّ ﷺ[2]، وجاهد للدفاع عنها ونشرها حقّ الجهاد وأبلى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصري عنه: «ما رأيت شريف قوم أفضل منه»[3]. قال الأحنف: «حبسني عمر بن الخطاب عنده بالمدينة سنة، يأتيني كلّ يوم وليلة، فلا يأتيه عني إلّا ما يحبّ»[4]، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمري ـ وما أصعبه وأدقّه من اختبار ـ معه كتاباً إلى الأمير على البصرة يقول: «الأحنف سيد أهل البصرة»[5]، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يشاور الأحنف ويسمع منه[6]، وقال عنه: «هو مؤمن عليم اللِّسان»[7] وقال له عمر بعد أن حبسه حولًا عنده: «يا أحنف! قد بلوتك وخبرتك، فلم أر إلّا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة. وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك»[8]. وقال له عمر: «ويحك يا أحنف! لما رأيتك ازدريتك، فلما نطقتَ قلت: لعله منافق عليم اللِّسان، فلما اختبرتك حمدتك»[9].

لقد كان رجلًا صالحاً كثير الصّلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلي ويبكي حتى الصباح، وكان يضع إصبعه في المصباح ويقول: «حسْ يا أحنف! ما حملك على كذا! ما حملك على كذا؟!»، ويقول لنفسه: «إذا لم تصبر على المصباح، فكيف تصبر على النار الكبرى»[10]، وقيل له:

---

(١) ذكر أخبار أصبهان (١/ ٢٢٤).
(٢) المعارف (٤٢٤).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧) وشذرات الذهب (١/ ٧٨) وتاريخ الإسلام (٣/ ١٣١) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).
(٤) ذكر أخبار أصبهان (١/ ٢٢٤).
(٥) أسد الغابة (١/ ٥٥) ويومها كان أمير البصرة أبا موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٢).
(٧) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧).
(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).
(٩) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١١).
(١٠) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٧) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).

إنك تكثر الصوم وإنّ ذاك يرقّ المعدة، فقال: «إني أعدّه لسفر طويل»[1].

واستُعمل الأحنف على (خُراسان)، فلما أتى فارس أصابته جنابة في ليلة باردة فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دماً، فوجد الثلج، فكسره واغتسل[2].

وكان قلّ ما خلا إلّا دعا بالمصحف، وكان النظر في المصاحف خلقاً في الأولين[3]. وكان من دعائه: «اللّهم إن تغفر لي فأنت أهل ذاك، وإن تعذبني فأنا أهل ذاك»[4]. ومن دعائه: «اللّهم هبْ لي يقيناً تهوِّن به عليّ مصيبات الدنيا»[5].

ومرّت به جنازة فقال: «رحم الله مَن أجهد نفسه لمثل هذا اليوم»[6]. وكان يقول: «عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين! كيف يتكبر؟»[7].

وجاءه كتاب من عند الملك يدعوه إلى نفسه فقال: «يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام! والله لودِدت أنّ بيني وبينهم جبلًا من نار: من أتاني منهم احترق فيه، ومن أتاهم منّا احترق فيه»، وكان يكره أن يصلي في المقصورة وأن يتخطى رقاب الناس قبل خروج الإمام يوم الجمعة[8].

وبلّغ رجلان الأحنف أنّ النبيّ ﷺ دعا له، فسجد[9] شكراً لله، وكان نقش خاتمه: نعبد الله[10].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٦١) وطبقات ابن سعد (٧/ ٩٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١٣٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).
(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٦) والبداية والنهاية (٨/ ٣٢٧).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦).
(٧) ذكر أخبار أصبهان (٣/ ١٣٢).
(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٦ ـ ٩٧).
(٩) الإصابة (١/ ١٠٣).
(١٠) الطبري (٣/ ٣٥٦).

ل ـ شخصيته:

تلك هي المزايا الشخصية التي استحوذ بها الأحنف على ثقة الناس به وحبهم وتقديرهم له، هذه المزايا التي تجعل من يتحلّى بها شخصية قوية نافذة يندر وجودها بين الناس في كلّ زمان ومكان، وقلّما يجود بها الدهر إلّا نادراً.

كان صادق القول يرى الكذب خصلة لا تليق بالكريم. قدم على عمر ابن الخطاب وفد جند البصرة وفيهم الأحنف، وكان الفرس قد انتقضوا على المسلمين، فتحّدث عمر إلى وفد البصرة ثم وجّه الكلام إلى الأحنف يقول: «إنك عندي مصدّق، وقد رأيتك رجلًا، فأخبرني: أأن ظلمت الذمة، المظلمة نفروا أم لغير ذلك؟»، فأجابه الأحنف: «بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب. . .» فقال عمر: «فنعم إذاً. انصرفوا إلى رحالكم»[1].

لقد كان حريصاً على تكامل شخصيته، يبتعد بها عما يسيء إليها من قريب أو بعيد، فكان يقول: «ليمنعني من كثير من الكلام مخافة الجواب»[2].

كان قوي الشخصية حقاً، لا يخاف أحداً ما كان على الحق. ذكر عمر بن الخطاب بني تميم فذمَّهم، فقام الأحنف وقال: «يا أمير المؤمنين! ائذن لي فأتكلم»، قال: «تكلم!»، فقال الأحنف: «إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذم، وإنما هم من الناس، فمنهم الصالح والطالح»، فقال عمر: «صدقتِ»، فقام رجل من تميم واستأذن عمر بالكلام، فقال له: «اجلس، فقد كفاكم سيدكم الأحنف»[3].

وروي أنّ معاوية بن أبي سفيان لما نصب ولده (يزيد) لولاية العهد، أقعده في قبّة حمراء، فجعل الناس يسلّمون على معاوية ثم يميلون إلى

---

(١) الطبري (٣/ ١٧٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).

يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع إلى معاوية فقال: «يا أمير المؤمنين! اعلمْ أنك لو لم تولِ هذا أمور المسلمين لأضعتها»، والأحنف جالس، فقال له معاوية: «ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟!»، فقال: «أخاف الله إن كذبتُ، وأخافكم إن صدقْتُ»، فقال معاوية: «جزاك الله عن الطّاعة خيراً»، وأمر له بألوف، فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فذم معاوية وابنه، فقال له الأحنف: «أمسك عليك، فإنّ ذا الوجهين خليق ألّا يكون عند الله وجيهاً»[1].

وحضر الأحنف مجلس معاوية، وكان عنده بعض وجوه الناس، فدخل رجل من أهل الشام وقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علي بن أبي طالب، فأطرق الناس وتكلم الأحنف، فقال: «يا أمير المؤمنين! إنّ هذا القائل لو يعلم أنّ رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتقِ الله ودَعْ عنكَ علياً. فقد لقي ربه وأفرد في قبره، وكان والله الميمونة نقيبته العظيمة مصيبته»، فقال معاوية: «يا أحنف! لقد أغضيت العين على القذى، فأيم الله لتصعدنّ المنبر ولتلعننه طوعاً أو كرهاً»، فقال الأحنف: «أو تعفيني، فهو خير لك». فألحّ عليه معاوية، فقال الأحنف: «أما والله لأنصفنك في القول!»، فقال معاوية: «وما أنت قائل؟» قال: «أحمد الله بما هو أهله، وأصلي على رسوله وأقول: أيها الناس! إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً. ألا وإنّ علياً ومعاوية اختلفا، فاقتتلا، وادّعى كل منهما أنه مبغي عليه! فإذا دعوت فأمِّنوا... ثم أقول: اللّهم العن أنت وملائكتك ورسلك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية. اللّهم العنهم لعناً كثيراً!!.. أمِّنوا رحمكم الله... يا معاوية أقوله ولو كان فيه ذهاب روحي». فقال معاوية: «إذن نعفيك من ذلك»[2].

---

(١) وفيات الأعيان (٢/١٨)، وانظر شذرات الذهب (١/٧٨) وطبقات ابن سعد (٧/٩٥) والكامل للمبرد (١/٣٨).
(٢) تاريخ أبي الفدا (١/١٩٥ ـ ١٩٦).

وكان زياد بن أبي سفيان في مدة ولايته (العِراقَيْن) كثير الرعاية للأحنف، فلما مات زياد وتولى مكانه ولده عبيد الله بن زياد تغيّرت منزلة الأحنف عند الأمير الجديد، وصار يقدّم عليه من لا يساويه ولا يقاربه.

وجمع عبيد الله أعيان العراق وفيهم الأحنف، وتوجّه بهم إلى الشام للسّلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: «أدخلهم إليّ أولًا على قدر مراتبهم عندك»، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، فكان آخر مَن دخل الأحنف!..

ورآه معاوية، وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدّمه وسيادته، فقال له: «إليَّ يا أبا بحر!»، فتقدّم إليه، فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة.

وأخذ أهل العراق في شكر عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: «لِمَ لا تتكلم يا أبا بحر؟!»، فقال: «إن تكلّمت خالفتهم»، فقال لهم معاوية: «اشهدوا عليّ أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، فقوموا وانظروا في أمير أوليه عليكم، وترجعون إليّ بعد ثلاثة أيام».

وخرجوا من عند معاوية، وكان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم مَن عيَّن الإمارة لغيره، وسعوا في السر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك!

واجتمعوا بعد انقضاء ثلاثة أيام ـ كما قال معاوية ـ والأحنف معهم، فدخلوا عليه، فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولًا وحادثه ساعة، ثم قال: «ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟» فجعل كلّ واحد يذكر شخصاً! وطال حديثهم في ذلك، وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدّث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: «لم لا تتكلّم يا أبا بحر؟»، فقال الأحنف: «إنْ وليّت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسدّ مسدّه، وإنْ وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك».

ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله مَن ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم، فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: «أشهدوا على أني أعدت عبيد الله إلى ولايته»، فكل منهم ندم على عدم ترشيح عبيد الله للإمارة ثانية، وعلم معاوية أنّ شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه بل كما جرت العادة في حق المتولي؛ فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية، خلا بعبيد الله وقال له: «كيف ضيّعت مثل هذا الرجل؟! - يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدّمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرّجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف مَن يتخذه الإنسان عوناً وذخراً»؛ فلما عادوا إلى العراق، أقبل عبيد الله على الأحنف وجعله بطانته وصاحب سره.

تلك هي شخصية الأحنف: يعزل أمير العِراقَيْن ويعيده إلى منصبه وهو ساكت!!

القائد:

أول ما يلاحظ في الأحنف، مزاياه الرفيعة التي جعلته موضع ثقة رؤسائه وحبهم، وموضع ثقة مرؤوسيه وحبهم أيضاً.

وكان لذكائه اللماح وسعة إدراكه وسرعة بديهته ومنطقه الرائع السليم، أثر عظيم عليهم على قابلية الأحنف في إعداد الخطط العسكرية الصحيحة الناجحة وإعطاء القرارات السريعة الصائبة، كما كان لشجاعته الشخصية وإقدامه أثر كبير في وضع تلك الخطط والقرارات في حيِّز التنفيذ.

لقد كان يبذل قصارى جهده في إعداد خططه العسكرية وإعطاء قراراته، فكان يستشير رجاله ويأخذ بالرأي السديد، ولا يقتصر على استشارة ذوي الرأي، بل يتجول سراً في الليل بين عامة رجاله يتسمّع أحاديثهم، فإذا وجد رأياً سديداً يبدونه فيما بينهم، سارع إلى العمل به، لا يهمه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء!

وإذا كان هناك ما يتميز به الأحنف في القيادة، فإنه كان يقاتل عدوه بسيفه وبعقله معاً، فقد كان على جانب عظيم من الشّجاعة والإقدام، حتى أنه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ويؤثرهم بالراحة والأمن؛ كما كان على جانب عظيم من الدهاء، فيوفّر بدهائه على قواته كثيراً من الجهود والمشقات.

كما أنه كان يتميز بقابليته التعبوية الفذة، وهذا يفسر لنا كيف استطاع قهر أعدائه الكثيرين بقواته القليلة، كما كان يتميز في نفس الوقت بقابليته السوقية (الاستراتيجية)، ولعل آراءه الصائبة التي أبداها لعمر بن الخطاب في انسياح المسلمين في أرض فارس دليل ملموس على قابليته السوقية.

كما أنه كان يتميز بصراحته النادرة مع قواته، فقد كان يحذّرهم العدو ويذكر لهم قوته ويذكّرهم بضعفهم بالنسبة لقوة عدوهم، ولكنه يعود ليذكّرهم بأن الفئة القليلة الصابرة تغلب الفئة الكثيرة التي لا صبر لها على القتال، وصراحته هذه قلّ أن يتحلّى بها قائد في الحرب، خاصة قواد الحروب القديمة، ذلك لأن مثل هذه الصراحة قد تؤثر على المعنويات وتؤدي إلى انهيارها.

وكان يتميز بقدرته الفذة على انتخاب مواقع القتال المناسبة لقواته ـ تلك المواقع التي تساعد قواته القليلة على دحر قوات عدوه الكثيرة، فكان يحاول أن يجد لرجاله ساحة قتال تحميهم من الخلف وتحمي أجنحتهم حتى يقاتلوا في اتجاه واحد مطمئنين إلى حماية مؤخرتهم وأجنحتهم.

تلك هي مزاياه الشخصية التي تميزت بها قيادة الأحنف على غيره من القادة، فلا عجب أن يفتح خُراسان ـ وهي منطقة فتح واسعة نائية منيعة ـ بقوات قليلة لا يكاد العقل يصدق اليوم أنها استطاعت فتح خراسان في أيام عمر واستطاعت استعادة فتحها في أيام عثمان، وكان لقيادة الأحنف المتزنة الواعية الحصيفة الفضل الأكبر في فتح خراسان مرتين.

وعند تطبيق أعمال الأحنف العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه

كان (يختار مقصده ويديمه) فهو دائماً يعرف ما يريد ويسعى جاهداً للحصول عليه من أقصر الطرق وبأقل الخسائر المادية والمعنوية.

كما كان قائداً (تعرضيّاً) لم يلجأ إلى (الدفاع) إلا لكي يعدّ العدة ليستأنف (التعرّض) بقوة وعزم. وكان يؤمن (بالمباغتة) ويطبقها خاصة بالمكان كما فعل في انتخابه مواضع دفاعية مناسبة سهلت عليه القضاء على هجمات العدو. كما كان لا يقدم على تنفيذ خطة من خططه العسكرية قبل أن ينجز (تحشيد قوته) من الناحيتين المادية والمعنوية وفي المكان والزمان الجازمين.

وكان يحرص غاية الحرص على (الاقتصاد بالجهود)، فلا يستخدم غير القوة المناسبة للواجب المطلوب، وهذا أدّى إلى عدم تكبد قواته خسائر لا مسوِّغ لها.

وكان يهتمّ كثيراً بشروط (الأمن)، فيوفِّر الحماية لوقاية قواته ومواصلاتها من المباغتة. فلم يستطع عدّوه أن يباغت قوات العرب المسلمين أبداً، وقد باغت العرب المسلمون عدّوهم أكثر من مرّة!

وكان (التعاون) هدف الأحنف في كلِّ معاركه، ذلك لأن هدف جميع قواته سواء كانت من الكوفة أم من البصرة واحد، هو القضاء على مقاومة عدوهم المشترك، وحماية حريّة نشر الإسلام في بلاده.

وكان (يديم معنويات) رجاله ويسهر على تأمين (الأمور الإدارية) لهم، كل ذلك جعل الفئة القليلة التي كان يقودها تقهر الفئة الكثيرة بإذن الله.

لقد كان الأحنف قائداً فذّاً متميزاً.

الأحنف في التاريخ:

يذكر الناس للأحنف حلمه الذي يضرب به المثل.

ولكن التاريخ يذكر للأحنف إلى جانب حلمه مزاياه العالية الأخرى، تلك المزايا التي لا تقل أهمية وروعة عن حلمه.

كما يذكر له أنه فاتح خراسان وموطد أركان الإسلام في أرجائها.

لقد كان الأحنف إماماً في الحلم، ولكنه كان ـ كما يذكر له التاريخ ـ إماماً في الفقه، إماماً في البلاغة، إماماً في الدهاء، إماماً في الأمانة، إماماً في قوة شخصيته، إماماً في رجاحة عقله، إماماً في شدة ورعه، إماماً في خلقه الرفيع، وبالإضافة إلى كل ذلك كان إماماً في عبقرية قيادته.

لقد كان رجلًا في أمة، وأمة في رجل... إنه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

رضي الله عن القوي الأمين، الحليم الورع، الفقيه الألمعي، الإداري الداهية، القائد الفاتح، الأحنف بن قيس التَّمِيْمِيّ.

الرّبيع بن زيَاد الحَارِثي[1]
فَاتح بَيروذ[2] وَمَناذِر[3] مِنَ الأهواز
وفَاتح سِجِستان[4] وَخُراسَان ثانية

«رجل... إذا كان في القوم أميراً، فكأنه ليس بأمير،
وإذا كان في القوم ليس بأمير، فكأنه أمير»

(عمر بن الخطاب)

الصحابيّ:

لا نعلم متى أسلم الربيع بن زياد الصحابي الحارِثيّ، ولكنه كانت

---

(١) هو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد وهو مذحج، انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٦ ـ ٤١٧) والإصابة (٢/ ١٩٥)، وفي الاستيعاب (٢/ ٤٨٨): الربيع بن زياد بن الربيع، وفي أسد الغابة (٢/ ١٦٤)؛ الربيع بن زياد بن الربيع الحارثي، وقال غيره: الربيع بن زياد بن أنس بن الديان... انتهى ما ورد في أسد الغابة. ونسبه الأول هو الأصح، لإجماع أكثر المصادر عليه. واسم الديان: يزيد، انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٦) وأسد الغابة (٢/ ١٦٤).

(٢) بيروذ: ناحية بين الأهواز ومدينة الطيب، وهي كبيرة بها نخل كثير، حتى أنهم يسمونها: البصرة الصغرى. ويقال: إنها كانت قصبة كورة قديماً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٣٠)، ومدينة الطيب: مدينة بين واسط وبين الأهواز، انظر تقويم البلدان (٣١٤) والمشترك وضعاً (٢٩٨).

(٣) مناذر: هما بلدتان بنواحي الأهواز: مناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٦٠).

(٤) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة، يحيطها من الشرق مفازة بين مكران وأرض السند وشيء من عمل الملتان، ومما يلي الغرب خراسان وشيء من عمل الهند، ومما يلي الشمال أرض الهند، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان، انظر المسالك والممالك للإصطخري (١٢٩) ومعجم البلدان (٥/ ٣٧).

له صحبة[1]، وقد تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانوا في عهده لا يولّون إلّا الصحابة[2].

كما لا نعرف له جهاداً تحت لواء الرسول القائد عليه الصلاة والسّلام، لذلك فقد نال الربيع شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد في غزوات النبيّ ﷺ.

جهاده:

١ ـ كان عمر بن الخطاب قد عهد إلى أبي موسى الأشعري أن يسير برجاله متغلغلًا في الأهواز، وذلك لحماية منطقة البصرة من تحرشات الفرس أولًا، ولكي لا يؤتى المسلمون من خلفهم ثانياً، وحتى لا تكون منطقة الأهواز ميداناً لتحشد الجيوش الفارسية وحلفائهم مما يهدد سلامة العراق أخيراً.

ولكن أبا موسى أبطأ في إرسال جيوشه إلى كور الأهواز، فلما وصلت خيوله إلى تلك الكور كان الوقت المناسب قد فات، فتجمَّع في (بِيْروذ) جمع عظيم من الأكراد وغيرهم.

وخرج أبو موسى الأشعري من البصرة متوجهاً نحو (بيروذ) في رمضان، وكان قد توافى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد ليكيدوا العرب المسلمين وليصيبوا منهم عورة ولم يشكوا في واحدة من اثنتين!

والتقى أبو موسى بحشود العدو بين نهر (تِيْرَى)[3]، و (مناذر)، فقام

(١) أسد الغابة (٢/ ١٦٤) والاستيعاب (٢/ ٤٨٨).
(٢) الإصابة (٢/ ١٩٤) و (١/ ٢٠٩) و (٤/ ٢٣٥)... إلخ.
(٣) تيري: بلد من نواحي الأهواز، والنهر الذي باسم البلد حفره أردشير الأصغر ابن بابك. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٤٠) و (٨/ ٣٨٠).

المهاجر بن زياد الحارثي[1] وقد تحنَّط واستقتل[2]، فعزم أبو موسى على الناس فأفطروا، فتقدم المهاجر وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل، فاشتد جزع الربيع على أخيه المهاجر.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري وهو محاصر أهل (بيروذ) يأمره أن يخلّف عليها ويسير إلى (السُّوْس)[3]، فخلّف الربيع بن زياد[4]، ففتح الله عليه (بيروذ) من نهر تيري، وأخذ ما معهم من السبي[5]، كما فتح (مناذر) عنْوة، فصارت (مناذر) الكبرى و (مناذر) الصغرى في أيدي المسلمين[6]، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية[7] (٦٣٨م).

٢ ـ وكانت (سِجِسْتان) قد فتحت أيام عمر بن الخطاب، فتحها عاصم بن عمرو التميمي ولكن أهلها نقضوا من بعده، فلما توجّه

---

(١) المهاجر بن زياد الحارثي: أخو الربيع بن زياد الحارثي، في صحبته نظر، شهد مع أخيه معركة (بيروذ) تحت لواء أبي موسى الأشعري، فأراد أن يشري نفسه وكان صائماً، فقال الربيع لأبي موسى: «إنّ المهاجر عزم على أن يشري نفسه وهو صائم»، فقال أبو موسى: «عزمت على كل صائم أن يفطر أو لا يخرج إلى القتال»، فشرب المهاجر شربة ماء وقال: «قد أبررت عزمة أميري، والله ما شربتها من عطش»، ثم راح في السلاح فقاتل حتى استشهد، فأخذ أهل مناذر رأسه ونصبوه على قصرهم بين شرفتين، وله يقول القائل:

وفي مناذر لما جاش جمعهم ... راح المهاجر في حل بإجمال
والبيت بيت بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

وقد استشهد سنة سبع عشرة الهجرية، انظر أسد الغابة(٤/ ٤٣٣) والاستيعاب (٤/ ١٤٥٤) وفيه: إنه قتل سنة تسع عشرة الهجرية، وانظر البلاذري (٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٢) الطبري (٣/ ٢٥٨) وابن الأثير (٣/ ١٨).

(٣) السوس: بلدة بالأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧١).

(٤) البلاذري (٣٧١).

(٥) الطبري (٣/ ٢٥٨) وابن الأثير (٣/ ١٨).

(٦) البلاذري (٣٧١).

(٧) أسد الغابة (٣/ ١٦٤).

عبد الله بن عامر إلى (خُراسان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية[1] سيَّر إليها من (كِرْمان) الربيع بن زياد، فسار إليها حتى نزل (الفِهرج)[2]، ثم قطع المفازة[3] وهي خمسة وسبعون فرسخاً، فأتى رستاق (زالق)[4]، فأغار على أهله في يوم (مهرجان)[5] وأسر دهقانه فافتدى نفسه، فحقن الربيع دمه وصالحه على أن يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد فارس وكرمان.

ثم أتى الربيع قرية يقال لها: (كَرْكَوَيْه)[6]، على خمسة أميال من (زالق)، فصالحوه ولم يقاتلوه.

ونزل الربيع رستاقاً يقال له: (هيسون)[7]، فأقام له أهله النزل وصالحوه على غير قتال.

وعاد الربيع إلى (زالِق) وأخذ الأدلاء منها إلى (زَرَنْج)، وسار حتى نزل (هِنْدَمنْد)[8] وعبروا وادياً يترع منه يقال له: (نوق)[9]، وأتى

---

(١) ابن الأثير (٣/٤٩)، وفي البلاذري (٣٨٥): أن ذلك كان سنة ثلاثين الهجرية.
(٢) الفهرج: بلدة بين فارس وأصبهان معدودة من أعمال فارس ثم من أعمال كورة اصطخر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٤٠٦).
(٣) المفازة: الصحراء المهلكة.
(٤) زالق: من نواحي سجستان، وهو رستاق كبير فيه قصور وحصون... انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٦٩)، وزالق: حصن بينه وبين سجستان خمسة فراسخ. انظر البلاذري (٣٨٥).
(٥) مهرجان: عيد من أعياد الفرس.
(٦) كركويه: مدينة من نواحي سجستان، فيها بيت نار معظَّم عند المجوس، انظر معجم البلدان (٧/٢٤١).
(٧) هيسون: لم أجد له ذكراً في معجم البلدان، والظاهر أنه رستاق زالق وزرنج.
(٨) هندمند: اسم نهر مدينة سجستان. انظر معجم البلدان (٨/ ٤٨٢).
(٩) نوق: في معجم البلدان (٨/٣٢٧) وردت: نوقات، وهي محلة بسجستان، وأهل سجستان يقولون: نوها، فعرِّبت كما ترى.

(دوشت)[1]، فخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالًا شديداً، فأصيب رجال من المسلمين، ولكن المسلمين كروا عليهم حتى اضطروهم إلى اللجوء إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة.

وسار الربيع إلى (ناشروذ)[2]، فقاتل أهلها وظفر بهم، ثم مضى منها إلى (شرواذ)[3] فغلب عليها وأصاب بها بعض السبي.

وحاصر الربيع (زَرنْج) بعد أن قاتله أهلها، فبعث إليه (أبرويز) مرزبانها يستأمنه ليصالحه فأمر بجسد من أجساد القتلى فوضع له وجلس عليه، واتكأ على آخر وأجلس أصحابه على أجساد القتلى، فلما رآه المرزبان هاله، فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب، فدخل الربيع مدينة (زرَنْج).

وأتى بعد ذلك الربيع (سَنَاروذ)[4]، وهو واد، فعبره. وأتى (قرِنين)[5] فقاتله أهلها، ولكنه ظفر بهم.

وكان هذا إعادة الفتح سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وعاد الربيع إلى (زرنج) فأقام بها سنتين، ثم أتى عبد الله بن عامر واستخلف بها رجلًا من بني الحارث بن كعب، فأخرجوه أهل (زرنج) وأغلقوها.

---

(١) دوشت: مدينة بينها وبين زرنج ثلثا ميل، انظر البلاذري (٣٨٥).
(٢) ناشروذ: ناحية بسجستان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٣٧).
(٣) شرواذ: ناحية بسجستان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٥٧).
(٤) سناروذ: اسم نهر سجستان، ويجري على فرسخ من سجستان، تشعب منه أنهار كثيرة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٤١).
(٥) قرنين: قرية من رستاق نيشك من نواحي سجستان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٦٦)، وقد وردت في البلاذري (٣٨٦): القريتين، وهذا تصحيف. ونيشك: كورة من كورسجستان، تشتمل على قرى كثيرة. انظر معجم البلدان (٨/ ٣٥٩).

وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً، وسبى في ولايته هذه أربعين ألف نسمة، وكان كاتبه الحسن البصري[1].

٣ ـ ولما صار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، عزل عبد الرحمن بن سَمُرة عن (سِجِسْتان) وولّاها الربيع[2]، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين الهجرية[3] (٦٦١م)، فأظهره الله على الترك. وبقي أميراً على (سجستان) إلى أن مات المغيرة بن شُعبة وهو أمير على الكوفة[4]، وذلك سنة خمسين الهجرية (٦٧٠م)[5]، فولى معاوية زياد بن أبي سفيان الكوفة مع البصرة، وجمع له العراقَيْن[6].

٤ ـ وعزل زياد بن أبي سفيان الربيع عن (سِجِسْتان) وبعثه إلى (خُراسان) أميراً سنة إحدى وخمسين الهجرية، وسيَّر معه خمسين ألفاً بعيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة. فأسكنهم دون النهر (نهر جيحون) في (خُراسان)، فلما قدمها غزا (بَلْخ) ففتحها صلحاً، وكانت قد أغلقت أبوابها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس التَّمِيْمِي. وفتح (قُهِسْتَان) عَنْوَة وقتل مَن بناحيتها من الأتراك، فبقي منهم (نيزك طرخان) ملك الترك، فقتله قتيبة بن مسلم الباهلي في ولايته[7].

وهكذا استطاع الربيع أن يشيع الأمن والاستقرار في ربوع (خراسان) وأعادها إلى بلاد الإسلام.

---

(١) البلاذري (٣٨٥ ـ ٣٨٦)، وانظر ابن الأثير (٣/ ٤٩) وفيه: أن الربيع أقام بزرنج سنة واحدة، فكانت ولاية الربيع سنة ونصف.
(٢) الاستيعاب (٢/ ٤٨٨) وأسد الغابة (٢/ ١٦٤).
(٣) ابن الأثير (٣/ ١٦١) والطبري (٤/ ١٢٦) وشذرات الذهب (١/ ٥٢) والعبر (١/ ٤٧).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٤٨٨).
(٥) قادة فتح العراق والجزيرة (٤٠٥).
(٦) الاستيعاب (٢/ ٤٨٨).
(٧) ابن الأثير (٣/ ١٩٤)، وانظر البلاذري (٤٠٠) وأسد الغابة (٢/ ١٦٤).

الإنسان:

١ ـ كان الربيع آدم[١] أفوهَ[٢] طويلًا[٣]، وفي رواية: أنه أبيض خفيف اللحم خفيف الجسم[٤]، له صحبة وليست له رواية، وقد أدرك أيام النبي ﷺ ولم يقدم المدينة إلّا في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٥].

٢ ـ كان عاملًا لأبي موسى الأشعري على البحرين[٦]، وقد وفد يومئذ على عمر فقال له: «ما أقدمك؟»، فقال: «قدمت وافداً لقومي»، فأذن عمر للمهاجرين والأنصار والوفود، فتقدم الربيع قال: «يا أمير المؤمنين! والله ما وليت هذه الأمة إلا ببلية ابتليت بها، ولو أنّ شاة ضلّت بشاطئ الفرات لسئلت عنها يوم القيامة»، فانكب عمر يبكي ثم رفع رأسه وقال: «ما اسمك؟»، فقال: «الربيع بن زياد». وله مع عمر أخبار كثيرة. فكتب عمر إلى أبي موسى أن يقره على عمله[٧]، وهذا دليل على صراحته وقوته في الحق.

وعن الربيع بن زياد، أنه وفد على عمر فأعجبته هيئته، فشكى عمر وجعاً به من طعام يأكله، فقال: «يا أمير المؤمنين! إنّ أحقّ الناس بمطعم طيب وملبس لين ومركب وطيء لأنت»[٨]، مما يدل على إقدامه دون تردد على إبداء رأيه الصريح الواضح، وإعلان ما يعتقده دون مواربة.

والظاهر أنّ أبا موسى الأشعري ولّاه فتح (بيروذ) قبل توليته

---

(١) آدم: اشتدت سمرته، فهو آدم وهي أدماء، جمعها: أدم.
(٢) أفوه: انفرجت شفتاه عن أسنانه.
(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ١٦٠).
(٤) البلاذري (٣٨٦).
(٥) الإصابة (٢/ ١٩٥).
(٦) الإصابة (٢/ ١٩٥).
(٧) الإصابة (٢/ ١٩٥).
(٨) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي (٧٧).

(البحرين)، لأن أبا موسى تولى البصرة سنة سبع عشرة الهجرية[1]، فولى الربيع فتح(بيروذ) من تلك السنة، مما يدل على أن أبا موسى ولى الربيع البحرين بعد ذلك، أي حوالي سنة ثمان عشرة الهجرية.

٣ ـ وتولى سجستان وخراسان كما أسلفنا، فأعادهما إلى الطاعة وأشاع فيهما الأمن والاطمئنان، مما يدل على أنه كان إدارياً حازماً.

قال زياد بن أبي سفيان عن الربيع: «ما كتب قط إلا في اختيار منفعة أو دفع مضرة»[2]، مما يدل على حرصه على المصلحة العامة وتكريس حياته كلها لهذه المصلحة.

٤ ـ وكان الربيع إذا سار في موكب، فلا تتقدم دابته على دابة من إلى جانبه، ولا تمس ركبته ركبة من إلى جانبه[3]، مما يدل على تمسكه الشديد بآداب رفقة الطريق، وانعدام الأنانية والتكبر والعلو في نفسيته.

قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحابه: «دلوني على رجل، إذا كان في القوم أميراً، فكأنه ليس بأمير، وإذا كان في القوم وليس بأمير، فكأنه أمير»، فقالوا: «ما نعرف إلا الربيع بن زياد الحارثي»، فقال عمر: «صدقتم»[4]، وهذا يدل على تواضعه الجم حين يكون أميراً، واعتداده بنفسه حين لا يكون، وظهور فضله على غيره في الحالتين، فهو شخصية بارزة بدون إمارة، والإمارة لا تزيده إلّا تواضعاً.

ولا بد أنّ تكون عوامل كثيرة كوّنت شخصية الربيع اللّامعة المتميزة، وجعلتها موضع إجماع الناس على احترامها، ولعل من هذه العوامل تمسُّك

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٢٠٩).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٤٨٨).
(٣) أسد الغابة (٢/ ١٦٤).
(٤) الإصابة (٢/ ١٩٥).

الربيع بمبادئه، واستعداده الكامل للتضحية من أجلها، وإعلانه قولة الحق مهما تكن الظروف والأحوال.

كتب إليه زياد بن أبي سفيان: «إنّ أمير المؤمنين معاوية كتب يأمرك أن تحرز[1] الصفراء والبيضاء وتقسم ما سوى ذلك»، فكتب الربيع إلى زياد: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين!»، ونادى في الناس أن: «اغدوا على غنائمكم»، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين[2]، وهذا يدل على تمسكه الشديد بأهداب الشريعة السمحاء وعدم الإذعان لما يخالفها.

٥ - توفي الربيع في خراسان سنة ثلاث وخمسين الهجرية[3] (٦٧٢م)، وقد سأله عمر بن الخطاب حين قدم عليه حوالي سنة ثمان عشرة الهجرية عن سنِّه، فقال: «خمس وأربعون»[4]، أي أنه ولد سنة سبع وعشرين قبل الهجرة (٥٩٥م)، فيكون عمره يوم مات ثمانين سنة قمرية.

وقد ذكر أن سبب موته، هو أنه دعا الله أن يميته بعد أن كتب إلى زياد: «وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين»، ومبادرته إلى تقسيم الغنائم بين أهلها غير مكترث لأمر معاوية ولا لأمر زياد، فدعا الله أن يميته فما جمع حتى مات[5]، وهذا دليل على جزعه الشديد من بدء الانحراف عن تعاليم الإسلام.

وفي رواية، أنه لما أتاه مقتل حجر بن عَدِي[6]، قال: «اللَّهم إن

---

(١) أحرز: حاز. يقال: أحرز ماله، ادخره لوقت الحاجة.
(٢) أسد الغابة (٢/ ١٦٤) والإصابة (١/ ١٩٥).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦١) والبلاذري (٤٠١).
(٤) الإصابة (٢/ ١٩٥).
(٥) الإصابة (٢/ ١٩٥) وأسد الغابة (٢/ ١٦٤).
(٦) حجر بن عدي: هو حجر بن عدي الكندي، يكنى: أبا عبد الرحمن، وفد إلى النبي ﷺ فأسلم، وشهد القادسية، وشهد الجمل وصفين مع علي بن أبي طالب. قتله معاوية سنة ثلاث وخمسين الهجرية، انظر التفاصيل في المعارف (٣٣٤) والإصابة (١/ ٣٢٩) وأسد الغابة (١/ ٣٨٥) والاستيعاب (١/ ٣٢٩) وطبقات ابن سعد (٦/ ٢١٧ - ٢٢٠).

كان للربيع عندك خير، فاقبضه»، فلم يبرح من مجلسه حتى مات[1]، وكان قد ذكر مقتل حجر بن عدي فأسف عليه وقال: «لا تزال العرب تقتل صبراً بعده، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً، ولكنها أقرت فذلت»، فمكث بعد هذا الكلام جمعة ثم خرج يوم الجمعة في ثياب بياض، فقال: «أيها الناس! إني قد مللت الحياة، وإني داع بدعوة فأمِّنوا»، ثم رفع يده بعد الصلاة وقال: «اللَّهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك عاجلًا»، وأمَّن الناس، فخرج فما توارت ثيابه حتى سقط، فحمل إلى بيته[2]. وكان قد أسف على حجر بن عدي حين سمع بمقتله، فقال: «والله لو ثارت العرب له لما قتل صبراً، ولكن أقرّت العرب فذلَّت»[3]. ومهما يكن من أمر، فإنّ كلّ ذلك يدل على شدة ورعه واستنكاره لكل ظلم، وإنه لا ينسى أصدقاءه في ساعة محنتهم ويدافع عنهم أعظم الدفاع.

٦ ـ كان الربيع متواضعاً خيِّراً[4]، وكان ورعاً تقياً نقياً خائفاً الله ملتزماً بحدود أوامره ونواهيه. يكفي أن نعلم أنّ الحسن البصري كان كاتبه بـ (خراسان)[5]. لم يشترك في الفتنة الكبرى بقلبه ولا بلسانه ولا بسيفه وكان صريحاً واضحاً، وإدارياً حازماً، يعمل للمصلحة العامة وحدها، ولا نعرف أنه جمع الأموال والعقار طيلة حياته العامة، فقد عاش فقيراً ومات فقيراً، ولكنه أرضى ضميره فكان أغنى الأغنياء.

إنه مثال رفيع للمؤمن الحق وللخلق الكريم...

---

(١) أسد الغابة (٢/ ١٦٤).

(٢) الطبري (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧) وابن الأثير (٣/ ١٩٥).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٦١).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ١٥٩) وأسد الغابة (٢/ ١٦٤).

(٥) المعارف (٤٤١).

القائد:

كان الربيع أول من أمر الجند بالتناهد[1]، وذلك لتقوية معنوياتهم وإذكاء روح التعاون فيما بينهم.

والظّاهر من حروبه، أنه كان قائداً يجيد فن الحصار، والحصار لا يجيده إلّا القائد المدرّب الذي يتحلّى بالضبط المتين، والذي يتميّز بالحذر واليقظة فلا يفسح المجال لعدوه أن يستفيد من المصادر الخارجية لإدامة قواته المحصورة بالمواد التموينية وبالأسلحة والعتاد وبالقضايا الإدارية الحيوية الأخرى، وبذلك يقوى على إطالة أمد الحصار. كما أنّ القائد الصبور هو الذي ينجح في مغالبة عدوه في الحصار، لإجباره على الاستسلام.

وعبوره المفازة بجيوشه، دليل آخر على شدة ضبطه وصبره، كما أنه دليل على تحمله المشاق دون كلل ولا ملل، كما أنه دليل على تشبعه بروح (المباغتة) أهم مبادئ الحرب، فقد سلك طريقاً لا يتوقع العدو سلوكها، وبذلك باغت عدوه بالمكان والزمان.

لقد استطاع الربيع أن يتغلّب على أعدائه الكثيرين بجيشه القليل نسبياً إلى جانب جيش عدوه، وهذا دليل على معرفته أساليب القتال وتطبيقه مبادئ الحرب بكفاية.

وكان لأخلاقه الكريمة وماضيه المجيد أثر حاسم في تعلّق رجاله به وثقتهم التي لا حدود لها بشخصه، كما كان لذلك أثر حاسم في تعلّق رؤسائه به وثقتهم الكاملة بتصرفاته، لذلك أوكل له رؤساؤه أمر معالجة أصعب الجبهات في أصعب الظروف، فاستطاع بحنكته وبعد نظره التغلب على تلك الصعاب.

---

(١) التناهد: نهض بعضهم إلى بعض للمحاربة. انظر ما جاء عن الربيع حول التناهد في البلاذري (٤٠٠).

بل إنه كان موضع ثقة حتى أعدائه، مما جعل الأمور تستتب في (سجستان) و (خراسان) في أيامه وتنتقض من بعده، مما يدل على أن حربه كانت حرباً عادلة وفقاً لتعاليم الإسلام في الحرب.

لقد كان الربيع قائداً متميِّزاً.

الربيع في التاريخ:

يذكر التاريخ للربيع فتحه مناطق واسعة من الأهواز، واستعادته مناطق أوسع في (سجستان) و (خراسان).

ويذكر له إيمانه العميق، ونكرانه ذاته، وخلقه القويم.

رضي الله عن القائد الفاتح، الإداري الحازم، القوي الأمين، الفارس البطل، الأمير الإنسان، والإنسان الأمير، الربيع بن زياد الحارثي.

عبدَ الرحمن بنُ سَمُرةَ القرشِيّ العَبْشَمِي
فاتح الأفغان[1]

الصّحابيّ:

أسلم أبو سعيد عبد الرحمن بن سَمُرَة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف يوم فتح مكة[2] المكرمة، وصحب النبيّ ﷺ، وروى عنه[3] أربعة عشر حديثاً[4].

كان اسمه: عبد كلال، وقيل: عبد كلول، وقيل عبد الكعبة، فغيّره النبيّ ﷺ وسماه: عبد الرحمن[5].

قال النبيّ ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من مسألة وُكّلت إليها، وإن أُعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها. وإذا حلفت على أمرٍ ورأيت غيره خيراً منه، فكفِّر عن يمينك وائتِ الذي هو خير»[6].

---

(١) الأفغان: بلاد واسعة، يحدها من الشمال تركستان، ومن الجنوب بلوخستان، ومن الشرق السند، ومن الغرب هضاب خراسان، انظر التفاصيل في المستدرك على معجم البلدان (١/ ٣٣١).

(٢) الإصابة (٤/ ١٦١) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٧) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩٠) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٣١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧)، وانظر جمهرة أنساب العرب (٧٤).

(٣) الاستيعاب (٣/ ٨٣٥) وأسد الغابة (٣/ ٩٧) والإصابة (٤/ ١٦١) ونسب قريش (١٥٠).

(٤) أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد ـ ملحق بجوامع السيرة (٢٨٤).

(٥) الإصابة (٤/ ١٦١) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩٠)، وانظر المعارف (٣٠٤).

(٦) أسد الغابة (٣/ ٩٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٢١) والمعارف (٣٠٤) والبلاذري (٣٨٨).

شهد غزوة (مؤتة)[1] التي كانت في جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م)، كما شهد تحت لواء النبيّ ﷺ غزوة (تَبوك)[2] التي كانت في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م)، وبذلك نال شرف الصحبة وشرف الجهاد وتحت لواء القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

جهاده:

١ ـ شهد عبد الرحمن فتوح العراق[3]، وأبلى في ذلك أعظم البلاء، مما جعله محط آمال الفاتحين قادة ورجالًا.

ولما استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز سنة تسع وعشرين الهجرية[4] (٦٤٩م) على (البصرة) وجمع له الجندين: جند البصرة وجند فارس، استعمل عبدُ الله بن عامر عبدَ الرحمن بن سمرة على (سِجْستَان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية[5] (٦٥١م)، وذلك بعد انتقاض ونكث أهل (سِجْستَان) بالمسلمين وإخراجهم عامل المسلمين عليهم قسراً[6].

وسار عبد الرحمن إلى (سِجْستَان) على رأس جيشه حتى أتى (زَرَنج) فحصرها، فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف. ثم غلب عبد الرحمن على ما بين (زرنج) و (الكِشّ) من ناحية الهند، كما غلب من ناحية (الرخّج)[7] على ما بينه وبين بلاد (الداوَر)[8] حصرهم في جبال

---

(١) تهذيب التهذيب (٦/ ١٩١)، ومؤتة: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٠) وانظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٨).
(٢) الإصابة (٤/ ١٦١).
(٣) الإصابة (٤/ ١٦١).
(٤) أسد الغابة (٣/ ١٩١) والإصابة (٥/ ٦٢) وتاريخ أبي الفدا (١/ ١٦٧).
(٥) انظر حوادث سنة إحدى وثلاثين الهجرية في ابن الأثير (٣/ ١٢٩).
(٦) البلاذري (٣٨٦)، وانظر ابن خلدون (٢/ ١٠١٥) وابن الأثير (٣/ ١٢٩).
(٧) الرخج: مدينة كبيرة من نواحي كابل، انظر معجم البلدان (٤/ ٢٤١).
(٨) الداور: جاءت في ابن الأثير (٣/ ١٢٩): الداون، وجاءت في ابن خلدون (٢/ ١٠١٥): الدادين، وهذا تصحيف. والداور: ولاية واسعة من أرض السند ذات بلدان وقرى، مجاورة لولاية (رخج) و (بست) والغور، وانظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٨).

(الزور)[1] ثم صالحهم. ودخل على (الزور) وهو صنم من ذهب له عينان ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: «دونك الذهب والجوهر، وإنما أردت أن تعلم أنه لا يضر ولا ينفع»[2].

وسار عبد الرحمن قُدماً، حتى فتح (بُست)[3] و (كابُل)[4] و (زابُلِسْتَان)[5] وهي ولاية (غَزْنَة)[6]، ثم عاد إلى (زرنج)، فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمد اليَشْكُرِيّ وانصرف، ولكنّ أهلها أخرجوا أُمَير بن أحمر وامتنعوا[7].

٢ ـ واضطرب أمر (سجستان) والأفغان في أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[8]، لأنّ المسلمين كانوا في شغل شاغل عن الجهاد والفتح، كلّ طاقاتهم تذهب بدداً في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فلما استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان استعمل عبد الله بن عامر على البصرة، فولّى ابن عامر عبد الرحمن (سجستان). وأتاها عبد الرحمن وعلى شرطته عباد بن الحُصَيْن، ومعه الأشراف:

---

(١) الزور: جبل في بلاد الداور من أرض السند، أطلق عليه اسم صنم بهذا الاسم، انظر معجم البلدان (٤/ ٤١٤) وقد وردت في ابن الأثير (٣/ ١٢٩): الزوز، وهذا تصحيف.

(٢) البلاذري (٣٨٦) وابن الأثير (٣/ ١٢٩) وابن خلدون (٢/ ١٠١٥).

(٣) بست: مدينة من أعمال كابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٧٠).

(٤) كابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى، وهي ولاية ذات مروج كبيرة بين الهند وغزنة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٠١).

(٥) زابلستان: كورة واسعة قائمة بذاتها جنوب بلخ وطخارستان، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٦٥).

(٦) غزنة: هكذا يتلفظ بها العامة، والصحيح: غزنين، ويعربونها فيقولون: جزنة. ويقال لمجموع بلادها: زابلستان، وغزنة قصبتها. وغزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨٩).

(٧) البلاذري (٣٨٦) وابن الأثير (٣/ ١٢٩) وابن خلدون (٢/ ١٠١٥).

(٨) البلاذري (٣٨٧).

عمرو بن عبيد الله بن مَعْمَر[1] وعبد الله بن خازم السلمي وقطريّ بن الفجاءة والمهلب بن أبي صُفْرة[2]، وذلك سنة ثلاث وأربعين الهجرية[3] (٦٦٣م)، فكان يغزو البلد قد كفر أهله، فيفتحه عنوة أو يصالح أهله، حتى بلغ (كابل)، فحصرها أشهراً، وكان يقاتلهم ويرميهم بالمنجنيق حتى ثلم سورها ثلمة عظيمة، فبات عليها عباد بن الحُصَين يطاعن المشركين المدافعين عن(كابل) حتى أصبح دون أن يقدر أولئك المدافعون على سد تلك الثغر. وخرج أهل (كابل) في الغد إلى العراء يقاتلون المسلمين، فضرب عبد الله بن حازم فيلًا كان معهم، فسقط على باب المدينة الذي خرجوا منه، ولم يستطع أهل (كابل) أن يغلقوه، فدخل المسلمون المدينة عنوة[4] بعد هزيمة أهلها[5].

وسار عبد الرحمن إلى (بُسْت)، ففتحها عنوة. وسار إلى (رزَان)[6]، فهرب أهلها وغلب عليها. ثم سار إلى (خُشّك)[7]، فصالحه أهلها. ثم أتى (الرُّخّج) فقاتله أهلها أيضاً، ولكنه ظفر بهم وفتحها. وسار إلى (زابلستان) وهي (غزنة) وأعمالها، فقاتله أهلها أيضاً، وكانوا قد نكثوا، ففتحها أيضاً. وعاد إلى (كابل) وقد نكث أهلها، ففتحها[8]. وفتح عبد الرحمن مدينة (نَسف)[9] أيضاً[10].

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٤٣٦).

(٢) البلاذري (٣٨٨) والاستيعاب (٣/ ٨٣٥) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٣٦) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨). أما في الاستيعاب (٣/ ٨٣٥)، فيذكر أنه تولى سجستان سنة اثنتين وأربعين الهجرية.

(٤) البلاذري (٣٨٨).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٤٣٦).

(٦) رزان: يظهر أنها مدينة في منطقة كابل، ولم أعثر على ذكرها في معجم البلدان.

(٧) خشك: اسم بلدة من نواحي كابل، انظر معجم البلدان (٣/ ٤٤٢).

(٨) البلاذري (٣٨٨) وابن الأثير (٣/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧) وابن خلدون (٣/ ١١ ـ ١٢).

(٩) نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٨٦).

(١٠) ابن خلدون (٣/ ١٢).

وهكذا استعاد عبد الرحمن فتح (سجستان) والأفغان[1] وكان قد غزا (خُراسان) وفتح بها فتوحاً[2].

الإنسان:

تولى عبد الرحمن (سجستان) مرتين: الأولى في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد استعمله عليها عبد الله بن عامر سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١م)، وبقي على (سجستان) حتى اضطرب أمر عثمان سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٥٥م).

وتولى (سجستان) مرة ثانية في أيام معاوية بن أبي سفيان، وقد استعمله عليها عبد الله بن عامر سنة ثلاث وأربعون الهجرية (٦٦٣م) وبقي على (سجستان) حتى عزله معاوية عنها سنة ست وأربعين الهجرية[3] (٦٦٦م).

وهكذا كان مجموع ما حكم (سجستان) سبع سنين: أربع سنين في مدة حكمه الأولى، وثلاث سنين في مدة حكمه الثانية.

ومع ذلك ترك أثراً طيباً في نفوس سكان (سجستان)، فقد سئل شيخ من أهلها عن سيرة عمالهم فيهم، فقيل له: «مَنْ كان أفضلهم في أعينكم؟»، فقال: «عبد الرحمن بن سمرة»[4].

هذا بالإضافة على ما تركه عبد الرحمن من أثر عظيم في الفتوح.

وقد عاد عبد الرحمن إلى البصرة بعد عزله عن (سجستان) فتوفي بها

---

(١) دول الإسلام للذهبي (١/ ٢٦) والاستيعاب (٣/ ٨٣٥) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨) ونسب قريش (١٥٠) ومجمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٤٨).

(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ١٩١).

(٣) أسد الغابة (٣/ ٢٩٨) والإصابة (٤/ ١٦٢).

(٤) أنساب الأشراف (٥٠٤).

سنة خمسين الهجرية[١] (٦٧٠م). وقيل سنة إحدى وخمسين الهجرية[٢] (٦٧١م) وصلّى عليه زياد بن أبي سفيان[٣]، وله عقب: سبعة أولاد من الذكور[٤].

روى عن النبي ﷺ أربعة عشر حديثاً كما ذكرنا، كما روى عن مُعاذ بن جبل[٥]، وروى عنه عبد الله بن عباس وسعيد بن المُسَيَّب ومحمد بن سيرين وعبد الرحمن بن أبي ليلى والحسن البصري وغيرهم[٦].

تنسب إليه سكة البصرة، وكان متواضعاً يضرب المثل للناس بأعماله لا بأقواله، ومن الأمثلة على ذلك أنه إذا كان اليوم المطير لبس برنساً وأخذ المسحاة وكنس الطريق[٧].

وكان ورعاً تقياً نقياً ميموناً وفياً كريماً، وقد بنى له غلمانه الذين قدم بهم من سبي (كابل) مسجداً في قصره بالبصرة على بناء (كابل)[٨].

والظاهر أنه اعتزل الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فلم يرد له ذكر في معاركها الحربية والسياسية. لذلك اختاره معاوية واختار معه عبد الله بن عامر الذي اعتزل الفتنة الكبرى أيضاً وأوفدهما في سفارة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) دول الإسلام للذهبي (١/ ٢٦) والبلاذري (٣٨٨) وابن الأثير (٣/ ٤٧١) والإصابة (٤/ ١٦١)، وانظر طبقات ابن سعد (٧/ ١٤) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٣١).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٨٣٥) وانظر الإصابة (٤/ ١٦١) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٣١).

(٣) البلاذري (٣٨٨).

(٤) جمهرة أنساب العرب (٧٤).

(٥) الأصابة (٤/ ١٦١) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩١).

(٦) الإصابة (٤/ ١٦١) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٨) والاستيعاب (٣/ ٨٣٥) وتهذيب التهذيب (٦/ ١٩١).

(٧) أسد الغابة (٣/ ٢٩٨).

(٨) البلاذري (٣٨٨).

ليفاوضاه في تسليم الخلافة إلى معاوية، فوافق الحسن على ذلك، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين الهجرية[1] (٦٦١م).

لقد كان عبد الرحمن داعية سلام ووئام بين المسلمين، لذلك بقي على الحياد في أيام الفتنة الكبرى حتى جمع الله شمل المسلمين.

وكان إدارياً حازماً، وأبرز من تولّى سجستان وأفضلهم.

القائد:

أهم ما تتميز به قيادة عبد الرحمن، هي: سرعة القرار، وسرعة التنفيذ، وسرعة الحركة.

لقد استعاد فتح (سجستان) مرتين وفتح الأفغان التي كان الأقدمون يعتبرونها جزءاً من (خراسان) واستعاد فتحها بعد انتقاضها. و (سجستان) والأفغان مناطق شاسعة منيعة ليس من السهل فتحها أو استعادة فتحها بقوات قليلة نسبياً وفي وقت قصير.

إنه قائد متميز بدون شك، وكانت عقيدته الراسخة وإيمانه العميق وشجاعته النادرة وإقدامه الثابت أركاناً أساسية لقيادته.

هذا بالإضافة إلى عقليته المتزنة وشخصيته القوية وإرادته الصلبة وماضيه الناصع المجيد في الجهاد وخدمة الإسلام وتجربته الطويلة في الحروب.

لقد تهيأت له أسباب ومزايا القيادة: طبع موهوب، وعلم مكتسب، وتجربة عملية في القتال، لذلك حالف النصر راياته، فكان من القادة الذين لم يذوقوا طعم الهزيمة في حياتهم القتالية.

إنه من الطراز الرفيع للقادة العرب المسلمين في الصدر الأول للإسلام وفي أيام الفتح الإسلامي المجيدة.

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٤٠٤ ـ ٣٠٥).

عبد الرحمن في التاريخ:

يذكر عبد الرحمن، كلما ذكر فتح (سجستان) والأفغان، وذكر رسوخ الإسلام في هذين البلدين الكبيرين.

لقد ثبتت الأفغان بخاصة أمام تيارات الغزاة الجارفة في مختلف العصور، وكان الأفغان من بين الممالك القليلة التي حافظت على استقلالها أمام تيارات الاستعمار الغربي والشرقي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ولا يزال الأفغان ثابتاً أمام تيار الاستعمار الشرقي والغربي على الرغم من موقعه الجغرافي الحساس بين الهند وإيران من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة أخرى.

لقد ثبت الأفغان لأسباب ثلاثة: عقيدة أهله الراسخة، وبطولتهم النادرة، ووعورة بلادهم.

وقد كان عبد الرحمن من أوائل مَنْ نشر الإسلام في تلك الربوع.

كما أنّ بطولة شعب الأفغان ووعورة أرضه تزيد في إعجابنا بقيادة عبد الرحمن، لأنه استطاع أن يفتح الأفغان بقوات قليلة نسبياً ووقت قصير.

رضي الله عن القائد الفاتح، الصحابي الجليل، عبد الرحمن بن سُمُرَة القُرَشي العبشمي.

عَاصِم بن عَمْرو التَّمِيْمِيّ
فَاتِح سِجِسْتان

إسلامه:

أسلم عاصم بن عمرو التَّميمي في السنة التاسعة الهجرية مع قومه بني تَمِيْم[1]، فكان إسلامه بعد غزوة (تَبُوك) آخر غزوة قادها الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسَّلام بنَفسه، لذلك فقد نالِ عاصم شرف الصُّحبة،[2] إذ كانوا لا يولّون القيادة إلّا للصحابة[3]، ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

جهاده:

١ ـ قبل القادسية:

قاتل عاصم تحت لواء خالد بن الوليد في حروب أهل الرِدَّة، فأبلى فيها بلاءً استحق من أجله تقدير خالد فوجَّهه أمام قواته على رأس قوة من المسلمين إلى العراق[4] كما سرّح غيره من القادة.

وقاتل عاصم بقيادة خالد في العراق، فقتل في معركة (المَذَار)[5]

---

(١) الطبري (٢/ ٣٧٧).
(٢) الإصابة (٤/ ٦) والاستيعاب (٢/ ٧٨٤).
(٣) الإصابة (١/ ٣٠٩) و (٢/ ١٩٤).
(٤) الطبري (٢/ ٥٥٤).
(٥) المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤٣٣).

أحد قادة الفرس البارزين[1]. وكان ذلك سنة اثنتي عشرة الهجرية (٦٣٣م). وبعد فتح (الحِيْرة)، قاتل عاصم مع خالد في معركة (الأَنْبار)[2] و (عين التَّمْر)[3] و(دُوْمَة الجَنْدَل)[4]. وفي معركة (دُوْمَة الجندل) بعث خالد عاصماً على رأس مفرزة من الفرسان لأسر أكيدر بن عبد الملك أحد أمراء (دومة الجندل) البارزين، فنجح عاصم في أسره وسلَّمه إلى خالد، فقتله[5] جزاء غدره بالمسلمين، وكان ذلك سنة اثنتي عشرة الهجرية (٦٣٣م) أيضاً.

وعندما طوّق خالد حصن (دومة الجندل) لم يتّسع الحصن لكل المدافعين عنه، فبقي بعضهم خارجه، فقال عاصم لقومه بني تميم: «يا بني تميم! حلفاؤكم (كَلْب) آسروهم وأجيروهم، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها» ففعلوا. وكانت وصية عاصم هذه سبباً لنجاة بني كَلْب من القتل، لأن خالداً دعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلا أسارى بني كلب، فإنّ عاصماً وبني تميم قالوا: «قد أمَّنّاهم»، فأطلقهم لهم خالد[6]، مما يدلّ على وفاء عاصم لأصدقائه في أيام محنتهم.

ولما وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالداً إلى أرض الشّام، أراد أن يستصحب عاصماً معه كما أراد استصحاب جميع صحابة رسول الله ﷺ، فاحتجّ المُثَنّى بن حارِثة الشَّيْبَانِيّ قائلًا: «والله ما أرجو النصر إلّا بهم»؛ فلما

---

(١) الطبري (٢/ ٥٥٧).
(٢) الأنبار: هي مدينة الفلوجة الحالية واقعة غرب بغداد على الفرات. راجع التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٤٠).
(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له «شفاثة». راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٥٣).
(٤) دومة الجندل: حصن على سبعة مراحل من دمشق يقع بين دمشق وبين المدينة. راجع معجم البلدان (٤/ ١٠٦).
(٥) الطبري (٢/ ٥٧٨).
(٦) الطبري (٢/ ٥٧٩) وابن الأثير (٢/ ١٥٢).

رأى خالد ذلك أعاضه حتى رضي، وكان عاصم ضمن الذين تركهم إرضاء للمثنى[١]. وما كان خالد ليترك مثل عاصم في العراق مختاراً، ولكنه اضطر إلى ذلك اضطراراً، بعد أن استصحب معه القَعْقَاع بن عمرو أخا عاصم، حتى يُرْضي المثنى من جهة وحتى ينفِّذ أمر أبي بكر الصدِّيق في استصحاب نصف الصّحابة وترك نصفهم مع المثنى[٢] من جهة ثانية.

وقاتل عاصم بعد خالد تحت لواء أبي عُبَيْد بن مسعود الثقفي قائداً لقومه بني تميم، فوجّهه بعد معركة (كَسْكَر) إلى نهر (جُوْر) فهزم الفرس[٣]؛ وفي معركة (الجسر) التي استشهد فيها أبو عبيد وركبهم الفرس فأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف شهيد بين غريق وقتيل، حمى المثنى بن حارثة الشيباني وعاصم مع أشجع أبطال المسلمين الانسحاب حتى عقدوا جسراً فعبر المسلمون عليه وعبر المثنى وعاصم وأصحابه في آثارهم[٤]، وبذلك أنقذ عاصم والمثنى ورجالهما أرواح كثير من المسلمين.

وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م).

وقاتل عاصم بعد استشهاد أبي عبيد تحت لواء المثنى: استخلفه على الناس حين خرج على رأس مفرزة من الفرسان[٥]. وفي معركة (البُوَيْب)[٦] كان عاصم يقود (المُجَرَّدَة)[٧]، وهو واجب لا يعهد به إلّا لفارس مقدام.

---

(١) الطبري (٢/ ٥٧٩).

(٢) الطبري (٢/ ٦٠٥) وابن الأثير (٢/ ١٥٦).

(٣) الطبري (٢/ ٦٣٧). ونهر جور نهر بين الأهواز وميسان. انظر معجم البلدان (٨/ ٣٣٩).

(٤) الطبري (٢/ ٦٤٠).

(٥) الطبري (٢/ ٦٤٤) وابن الأثير (٢/ ١٦٩).

(٦) البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق، يأخذ ماءه من الفرات. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣١٠).

(٧) الطبري (٢/ ٦٤٥)، والمجردة: هي القطعات الراكبة أمام المقدمة وكانت من الفرسان.

ولما انهزم الفرس أمام المسلمين في هذه المعركة، كان عاصم أحد القادة الذين قاموا بالمطاردة، فكان أوّل مَن دخل حصن الفرس في (ساباط)[١] هو عاصم[٢]، وكان لتغلغله العميق في أرض الفرس أثر بالغ على تحطيم معنويات الفرس ورفع معنويات العرب.

وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م) أيضاً.

٢ ـ في القادسية:

كان عاصم أثناء مسير الاقتراب إلى موضع القادسية قائداً للسّاقة،[٣] وكان المسلمون قبل معركة القادسية يحتاجون إلى المواد الغذائية، وكانت هذه المواد ضرورية لهم، إذ أنّ الجندي الذي لا يأكل لا يقاتل، لذلك أرسل سعد بن أبي وقاص عاصماً إلى (مَيْسان)[٤] في غارة غنمَ فيها بعض الماشية، فأتى بها إلى سعد، فقسمها على الناس، فأخصبوا أياماً[٥].

وقبيل معركة القادسية جرت مفاوضات بين سعد وبين كسرى يزدجرد، فأرسل سعد رجالًا من العرب لهم منظر ومهابة، ولهم آراء واجتهاد، وكان من بين هؤلاء عاصم[٦]. وفي نهاية المفاوضات غضب كسرى على المفاوضين العرب، فقال لرجاله: «ائتوني بوقر من تراب، واحملوه على أشرف هؤلاء»، فتقدّم عاصم ليحمل عن أصحابه التراب قائلًا: «أنا أشرفهم... أنا سيد هؤلاء»، ثم حمل التراب على عنقه وخرج إلى راحلته فركبها، وأخذ التراب معه وقال لسعد: «أبشر! فوالله لقد أعطانا الله أقاليد

---

(١) ساباط: وتسمى ساباط كسرى، وهي مدينة بالقرب من المدائن، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢).

(٢) الطبري (٢/ ٦٥٣).

(٣) الطبري (٣/ ٩) وابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٤) ميسان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط، قصبتها ميسان، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٢٤).

(٥) انظر تفاصيل القصة في الطبري (٣/ ١٤) وابن الأثير (٢/ ١٧٥).

(٦) انظر تفاصيل المفاوضات في الطبري (٣/ ١٥) وابن الأثير (٢/ ١٧٥).

ملكهم»[1]، وكانت نتيجة تلك المفاوضات نصراً معنوياً للمسلمين على الفرس، إذا قال كسرى: «ما كنت أرى أنّ في العرب مثل رجال رأيتهم دخلوا عليّ!! ما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جواباً منهم»[2].

وأرسل سعد مائة فارس فأغاروا على ما بين النهرين. وبلغ (رستم) قائد الفرس الخبر، فأرسل إليهم خيلًا، ولما علم سعد بأنّ خيله توغلت بعيداً وأنها أصبحت في خطر داهم، بعث عاصماً وجابر الأسدي[3]، فلقيهم عاصم وخيل الفرس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم، فلما رأته الفرس هربوا، ورجع المسلمون بالغنائم والفتح[4].

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس في معركة القادسية، برز عاصم في اليوم الأول من أيامها بروزاً جعله سيد الموقف بدون منازع: كان أحد ذوي الرأي والنجدة الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال، فقام عاصم في (المجرَّدَة) ورجالها أول مَن يلاقي العدو، وقال يخاطبهم: «إنّ هذه البلاد قد أحلّ الله لكم أهلها، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلون والله معكم إن صبرتم وصدقتموه الضرب والطعن... إلخ»[5]. ووقف خطيباً في آخرين قائلًا: «يا معاشر العرب! إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم لأعيان العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكوننّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، ولا تُحْدِثوا اليوم أمراً تكونون فيه شيناً على العرب غداً»[6]. ثم خرج عاصم للقتال وهو يرتجز، فطارد رجلًا من العجم فهرب منه، فطارده حتى دخل

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١٧٦).

(٢) الطبري (٣/ ١٩).

(٣) جابر الأسدي: ذكر سيف في الفتوح أن سعد بن أبي وقاص أمَّره على بعض السرايا في قتال القادسية وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة، راجع الإصابة (١/ ٢٢٥).

(٤) الطبري (٣/ ٢٧) وابن الأثير (٢/ ١٧٧).

(٥) الطبري (٣/ ٤٤).

(٦) الطبري (٣/ ٤٦).

في صفوف الفرس، فالتقى بفارسي معه بغلة، فترك الفارسي بغلته وهرب، فاستاقها عاصم وسلّمها إلى سعد ثم عاد إلى موقفه.

وزحف المسلمون، فحملت فيلة الفرس على الميمنة والميسرة، فحادت خيول المسلمين وأحجمت، وبقي المشاة يقاتلون وحدهم بدون إسناد الفرسان لهم... في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم وقال له: «يا معشر بني تميم! ألستم أصحاب الإبل والخيل! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟!»، فقال عاصم: «بلى والله!»، ثم نادى عاصم الرماة من قومه وأعطاهم واجب رمي الفيلة لإسناد جماعة آخرين من تميم أمرهم بقطع أحزمة سروج الفيلة ومذنباتها. وخرج عاصم يشرف على تنفيذ خطته هذه ويحمي الرماة وجماعة قطع الأحزمة، وأقبل رجاله على الفيلة فأخذوا بأذنابها وقطعوا وضنها[1] فارتفع عواؤها وألقت بركبانها، فنفّس عن بني أسد وبَجِيْلة بعد أن قُتل من أسد وحدها يومذاك أكثر من خمسمائة رجل[2].

لقد كان عاصم في ذلك اليوم بحق عادية الناس وحاميهم[3].

أما في اليوم الثاني، فقد وصل القعقاع أخو عاصم مع إمداداته، وبذلك اجتمعا ليتعاونا على حمل ثقل القتال على كاهليهما.

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية، أعادت فيلة الفرس هجومها الكاسح، فسأل سعد جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مَقَاتِلها، فقالوا: إنها مشافرها وعيونها؛ فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو وقال لهما: «أكفياني الفيل الأبيض»، وكانت الفيلة كلها آلفة له وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمّين وتقدما في خيل ورجل من تميم، وقالا لرجالهما: اكتنفوه لتحيِّروه! ثم حملا فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل

---

(١) الوضن: جمع وضين، وهو بطان عريض من جلد منسوج.
(٢) الطبري (٣/ ٥٠).
(٣) الطبري (٣/ ٥٠).

الأبيض، فتراجع الحيوان وطرح سائسه ودلى مشفره، فضربه القعقاع بالسيف فرمى بمشفره[1]؛ ووقع الفيل لجنبه، فقتلا من معه من الفرس[2]. كما وجه سعد بطلين من بني أسد هما الحمال[3] والربيل[4] إلى الفيل الأجرب، ففقآ إحدى عينيه وضربا مشفره، وكان هذان الفيلان أشدّ الفيلة ضراوة، وكانت الفيلة كلها تتبعهما في الهجوم كما تتبعهما في الفرار أيضاً؛ فلما اندفع الفيل الأجرب ووثب إلى النهر اتبعته الفيلة كلها وألقت ركبانها عن ظهورها وتخطت الماء وولت مدبرة ولم تعقب[5].

وأخذ أبطال المسلمين يديمون زخم الهجوم ويضيِّقون الخناق على الفرس وكان أبرز هؤلاء الأبطال عاصم الذي حمل على العدو. . . وزحفت الصفوف حتى لحقت بهؤلاء الأبطال الذين فتحوا ثغرات عميقة في صفوف القوات الفارسية[6]. واستقبل المقاتلون الليل، فمضوا قُدماً في هجومهم بعد صلاة العشاء، فهزم عاصم ليلة (الهرير) قائد الفرس الذي كان بإزائه وسحق قواته[7].

وانتهت معركة القادسية بنصر المسلمين، وكان لما بذله عاصم من جهد مشرف في جهاده نصيب أي نصيب في هذا النصر!

وصدق من قال عنه: كانت له في القادسية مقامات محمودة وبلاء حسن[8].

---

(١) الطبري (٣/ ٦٢) والإصابة (٥/ ٢٤٥).
(٢) الطبري (٣/ ٦٢) وابن الأثير (٢/ ١٨٥).
(٣) حمال بن مالك الأسدي: ذكر سيف في الفتوح، أنّ سعد بن أبي وقاص أمره على الرجل حين توجه إلى العراق كما أنه هاجم الفيل الأجرب، راجع الإصابة (٢/ ٣٦).
(٤) الربيل الأسدي: جاء ذكره في الطبري: أن سعد بن أبي وقاص أمره أن يهاجم الفيل الأجرب في اليوم الثالث من أيام القادسية، راجع الطبري (٣/ ٦٣) وابن الأثير (٢/ ١٨٥).
(٥) الطبري (٣/ ٦٣) وابن الأثير (٢/ ١٨٥).
(٦) الطبري (٣/ ٦٦).
(٧) الطبري (٣/ ٦٦).
(٨) الإصابة (٤/ ٦) والاستيعاب (٢/ ٧٨٤).

وكان ذلك سنة أربع عشرة الهجرية (٦٣٥م).

٣ ـ في فتح المدائن[١]:

قرّر سعد أن يعبر النهر بقواته لفتح المدائن، وكان لا بدّ له من قوة كافية تعبر النهر أولاً لاحتلال رأس جسر في الجانب الثاني من النهر، وبذلك تحمي عبور قوات القسم الأكبر من قوات المسلمين.

وعبور النهر ـ خاصة بالنسبة للقوات المتقدمة الأمامية ـ لا يخلو من صعوبة بالغة إذا كانت القوات العابرة تحسن السباحة ولديها وسائط عبور جيدة، فكيف بالعرب رجال الصحراء وهم لا يحسنون السباحة ولا تحسنها خيلهم، إذ حتى الخيل تحتاج إلى التدريب الطويل على السباحة كما هو معروف!!

قال سعد: «من يبدأ ويحمي لنا الفراض[٢] حتى نلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من الخروج؟؟»... فتطوع عاصم وتطوع معه ستمائة من أهل النجدة، فأمَّر سعد عاصماً عليهم، فساروا حتى إذا بلغوا شاطئ دجلة، قال عاصم لأصحابه: «مَن ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر، فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟»، فانتدب له ستون فارساً، وهم الذي أطلق عليهم اسم (كتيبة الأهوال)، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكور، ليكون أساس العوم على الخيل، ثمّ تقدّمهم هو إلى حافة النهر وهو يقول للذين تردّدوا: «أتخافون من هذه النطفة؟!»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾. ثم دفع فرسه واقتحم

---

(١) المدائن: عاصمة الأكاسرة الساسانية وغيرهم، فكل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها فسميت بالمدائن، واسمها بالفارسية: توسفون، وعربوه على الطيسفون، وإنما سماها العرب: المدائن، لأنها سبع مدائن بين كل مدينة وأخرى مسافة قريبة أو بعيدة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤١٢) ويطلق عليها اليوم اسم سلمان باك وفيها قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وهي على دجلة بالقرب من بغداد. وانظر المسالك والممالك (٦٠).

(٢) الفراض: جمع فرضة، وهي موضع في الجهة المقابلة من النهر.

النهر، واقتحم زملاؤه معه، فلما رآهم الفرس بعثوا فرسانهم، فاقتحموا النهر أيضاً، فلقوا عاصماً ورجاله في وسط النهر، فقال عاصم: «الرماح! الرماح! اشرعوها وتوخّوا العيون؛ فالتقوا، فاطعنوا»، فولّى الفرس ولحقهم المسلمون، فقتلوا أكثرهم، ومن نجا منهم صار أعور من الطعن[١]، فكانت كتيبة الأهوال أوّل مَن دخل (المدائن)، وعلى رأسها البطل حقاً عاصم بن عمرو التميمي[٢].

إنّ عبور عاصم ورجاله نهر دجلة، يعتبر عملًا عسكرياً رائعاً فذاً يقف العقل والقلب معاً أمامه وقفة إكبار وإعجاب، وهو بدون شك أثر من آثار الإيمان العميق بالقضاء والقدر، وأنّ النفس لن تموت إلّا بأجلها، وكان لهذا الإيمان أكبر الأثر في الفتح الإسلامي أيام الخلفاء الراشدين.

وقد حدث ذلك سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م).

٤ ـ في البصرة وفارس:

تحرك عُتْبَة بن غَزْوان إلى منطقة البصرة بعد فراغ سعد بن أبي وقّاص من معارك (جَلُولاء)[٣] و(تِكْرِيْت)[٤] والموصل في ثمانمائة رجل من بينهم بعض بني تميم[٥]، فكان عاصم مع جيش عتبة، إذ جاء ذكره مع الجيش الذي بعث به عتبة لإنقاذ جيش العلاء بن الحَضْرَمي الذي أحيط به في فارس، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م)[٦]، لذلك فإنّ عاصماً

---

(١) الطبري (٣/ ١٢٠) وابن الأثير (٢/ ١٩٨)، والآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ١٤٥).

(٢) الطبري (٣/ ١٢٣).

(٣) جلولاء: نهر من أنهر السواد يمتد إلى يعقوبا، وهي أيضاً اسم مدينة كانت مسورة بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، راجع معجم البلدان (٣/ ١٢٩).

(٤) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة وهي غربي دجلة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٩٩).

(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٦) وفي الطبري (٣/ ٩٠): أن عدد رجاله كانوا خمسمائة.

(٦) الطبري (٣/ ١٧٨) وابن الأثير (٢/ ٢٠٨).

شهد معارك عتبة بن غزوان في جنوبي العراق في منطقة البصرة وفي فارس كافة، وهي المعارك التي طهّرت جنوبي العراق وقسماً من أرض فارس من القوات الفارسية.

٥ ـ الفاتح:

بعد فتح نهاوند[١]، قرّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدفع قوات المسلمين إلى سائر أنحاء فارس، فعقد بنفسه سبعة ألوية لسبعة قادة، عهد إليهم بالانسياح في أرض فارس كلها، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواء (سِجِسْتَان) دفعه إلى عاصم وأمَّره على رأس قوة من أهل البصرة؛ ثم أمد عمر هؤلاء القادة بأهل الكوفة، فأمدّ عاصماً بعبد الله بن عُمَيْر؛ فعسكر عاصم قريباً من البصرة حتى أكمل تحشّد قواته وأنجز استحضاراتها الإدارية؛ ثم تحرك إلى هدفه (سِجِسْتَان)، وهي أعظم من (خُراسان) وأبعد فروجاً، يقاتل أهلها القندهارَ والترك وأمماً كثيرة[٢]، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة[٣]، كلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم، وأنّ اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته.

والتقى عاصم بحُماة سِجستان على تخوم بلادهم، فلم يثبتوا للمسلمين بل انسحبوا إلى (زَرَنج) عاصمة ولاية سجستان، فحاصرهم المسلمون فيها وبثّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة كلها. ولما أيقن المحاصَرون أنّ طول الحصار يضرّ بمصالح إقليمهم ولا يجديهم نفعاً، طلبوا الصلح على أن تكون مزارع سجستان حمى لا يطؤها المسلمون[٤]، وبذلك فتحت ولاية سجستان ودخلت ضمن البلاد الإسلامية.

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢٩).

(٢) الطبري (٣/ ٢٥٦).

(٣) معجم البلدان (٥/ ٣٧).

(٤) الطبري (٣/ ٢٥٦) وابن الأثير (٣/ ١٧)، أما البلاذري في (٣٨٥) فيذكر أن الذي فتح سجستان هو الربيع بن زياد الحارثي أرسله لفتحها عبد الله بن عامر في خلافة=

وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين الهجرية (٦٤٣م).

الشاعر[١]:

كان عاصم أحد الشعراء الفرسان[٢]، قضى عمره في ساحات القتال، فلا بد أن يكون شعره معبراً عن أحاسيسه فارساً مجاهداً.

وإليك نماذج من شعره.

قال يصف فتح الحيرة[٣]:

صبحنا الحيرة الروحاء خيلًا ... ورَجْلًا فوق أثباج الركاب

حضرنا في نواحيها قصوراً ... مشرفة كأضراس الكلاب

وقال: يصف مطاردته للفرس بعد معركة (النمارِق)[٤]:

لعمري وما عمري عليّ بهين ... لقد صبَّحت بالخزي أهل النمارق

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... يجوسونهم ما بين دُرتا وبارق[٥]

قتلناهم ما بين مرج مسلح ... وبين الهوافي من طريق البذارق

وقدّم الدهاقين[٦] إلى أبي عبيد آنية فيها أطعمة فارسية، فلم يأكل منه شيئاً حتى علم أنهم قرّبوا مثله لأصحابه، فقال عاصم[٧]:

= عثمان بن عفان. وإنني أرجح رواية الطبري، لأن المناطق المحيطة بسجستان كافة فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما أن طبيعة الحركات العسكرية وتسلسل حوادث الفتح يؤيدان أن سجستان فتحت في عهد عمر لا في عهد عثمان. ولكن سجستان انتقضت بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستعاد عبد الله بن عامر فتحها في أيام عثمان بن عفان، وقد أورد البلاذري استعادة فتحها ولم يورد فتحها الأول... ومن هنا جاء الاختلاف بين الطبري والبلاذري.

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم العين المتلّوة بالألف/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) الإصابة (٤/ ٦).

(٣) انظر معجم البلدان (٣/ ٣٧٦).

(٤) النمارق: موضع قريب من الكوفة، وانظر هذه الأبيات في الطبري (٢/ ٦٣٦).

(٥) درتا وبارق: موضعان قريبان من النمارق القريبة من الكوفة.

(٦) الدهاقين: جمع دهقان، وهو زعيم فلاحي العجم وزعيم الأقليم.

(٧) الطبري (٢/ ٦٣٩).

صبحنا بالبقايس رهط كسرى صبوحاً[1] ليس من خمر السواد
صبحناهم بكل فتى كَمي وأجرد سابح من خيل عاد

فهم يفخرون بأطعمتهم الشهية، والعربي يفخر بالأبطال من الفرسان.

قال في فتح دُومَة الجندل:

إني لكافٍ حافظٌ غيرُ خاذِلٍ عَشِيّة دَلّاها وديعةُ في اليمِّ
فخلَّيْته والقومَ لمّا رأيتهُمْ بدُومةَ يحشون الدماق من الغمِّ
وأَنْعَمْتُ نُعْمَى فيهمُ لعشيرتي حِفَاظاً على ما قد يزنى بني رُهْمِ

ورُهم: بطن من بكر بن وائل من العدنانية.

وقال في ذكر ورود السّواد من أرض العراق ومقامه به، وعدَد الأيام التي قبلها:

جلبنَا الخيلَ والإبِلَ المَهَارَى إلى الأعْراضِ أعْراضِ السّواد
ولم يُرَ مِثْلُنا صبراً ومجداً ولم يُرَ مثْلُنا شَخَّاب هادِ
شحَنّا جانبَ المِلْطاطِ منّا بجمع لا يزولُ عن البعاد
لزِمْنَا جانِبَ المِلْطَاطِ حتى رأينا الزَّرْعَ يقمع للحصاد
لنأتي معشراً أَلَبُوا علينا إلى الأنبارِ أنبارِ العياد
لنأتي معشراً قُصُفاً أقاموا إلى ركنٍ يعضّل بالوراء

وفي اليوم الأول من أيام القادسية، خرج عاصم مرتجزاً بقوله[2]:

قد علمت بيضاء صفراء اللّبب مثل اللّجين إذ تغشّاه الذهب
إني امرؤ لا من يعنِّيه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

وقال يصف كيف أجاز المسلمون أمان عبد من عبيدهم لأهل (جُنْدَيْسَابُور)[3] بهذه الأبيات[4]:

---

(١) الصبوح: هو الشرب بالغداة.
(٢) الطبري (٣/ ٤٨).
(٣) جنديسابور: مدينة بخوزستان، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٤٩).
(٤) معجم البلدان (٣/ ١٥٠).

لعمري لقد كانت قرابة (مُكْنف)[1]	قـرابـةَ صـدق لـيـس فـيـهـا تَـقَـاطُـعُ
أجـارهـم مـن بـعـد ذُلّ وقِـلّـةٍ	وخـوفٍ شـديـدٍ والـبـلاد بـلاقِـع
فـجـاز جـوار الـعـبـد بـعـد اخـتـلافـنـا	وردّ أمـوراً كـان فـيـهـا تَـنَـازُعُ
إلى الركن والوالي المصيب حكومةً	فـقـال بـحـقٍ لـيـس فـيـه تـخـالُـع

هذه نماذج من شعره تعبِّر تعبيراً صادقاً عن هواه العميق بالحرب وخلق الفروسية، فهو كأخيه القعقاع شاعر الفرسان أو فارس الشعراء.

الإنسان:

تولى عاصم بعد فتح سجستان إدارة هذه المنطقة الشاسعة وعمل على توطيد الأمن والنظام فيها، وذلك لأن القادة الفاتحين كانوا يتولّون إدارة المناطق التي يفتحونها، ولكن هل بقي طويلًا والياً على سجستان أم عاد إلى البصرة؟ وما هي أعماله بعد فتح سجستان؟ ذالك ما لا نعرفه، لأن المؤرخين سكتوا عنه سكوتاً مطبقاً.

وقد توفي عاصم سنة تسع وعشرين الهجرية[2] (٦٤٩م).

لقد كان وفياً غاية الوفاء، يستأثر بالغُرم دون أصحابه، ويؤثرهم بالغُنم، وكان ذكياً ألمعيّ الذكاء، مفاوضاً لبقاً يؤثّر في الذين يفاوضهم ويضطرهم على احترامه وتقديره، خطيباً بليغاً يهزّ المشاعر، شاعراً تهزه الحرب فيتغنى بها وتستهويه الفروسية فيصفها في شعره وصف العاشق الولهان.

---

(١) مكنف: اسم عبد من عبيد المسلمين، فقد حاصر المسلمون مدينة جنديسابور، فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تفتح، فأرسل المسلمون: أن ما خبركم؟ فقالوا: إنكم رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء. فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يدعى «مكنفاً» كان أصله من جنديسابور هو الذي كتب لهم الأمان. فكتبوا بذلك إلى عمر فأمر بإمضائه، فانصرف المسلمون عنهم.

(٢) الطبري (٣/٣٢٠) وابن الأثير (٣/٣٨) وقد ذكر الزركلي في الطبعة الثانية في الأعلام (٤/١٤): «إنه توفي بعد سنة (١٥هـ)»، ووفاته هي في سنة (٢٩هـ) كما وردت في الطبري وابن الأثير.

وكان شهماً غيوراً مضيافاً، مؤمناً ورعاً صادق القول والعمل، محباً للخير، شريفاً في قومه في الجاهلية وفي الإسلام.

لقد سوّدته مزاياه قبل أن يسوده نسبه... لقد كان رجلًا!

القائد:

كان عاصم شجاعاً إلى حد البطولة النادرة، مقداماً لا يهمه أوقَعَ على الموت أم وقع الموت عليه، وكان موضع ثقة قواته ورؤسائه، كما كان محبوباً منهم جميعاً، وكان يبَادلهم ثقة بثقة وحباً بحب، وكان سريع القرار صائبه، يتحمل المسؤولية كاملة. له نفسية لا تتبدل، وشخصية نافذة قوية، وماضٍ مشرف مجيد.

وكان يعتمد على سرعة الحركة في معاركه، ولا يقدم على عمل عسكري إلا بموجب خطة واضحة مدروسة، وكان يطبق مبدأ (المباغتة) بشكل واضح، كما كان يعمل دائماً على رفع معنويات رجاله بمثاله الشخصي وبأقواله وخطبه، وكان يحرص على تطبيق مبدأ (التعرّض) في حروبه، فكانت معاركه كلها (تعرضيّة)، لذلك فهو مثال للقائد التعرضي الذي لم يدافع أبداً.

لقد كان النصر يسير في ركابه، وانتصاراته تعود - فيما أرى - إلى خمسة عوامل: قابليته المتميِّزة في وضع الخطط المناسبة، وشجاعته الشخصية الفائقة، وسرعة حركته في أثناء المعركة، وتطبيقه مبدأ (المباغتة)، وتشبُّعه بروح التعرض.

عاصم في التاريخ:

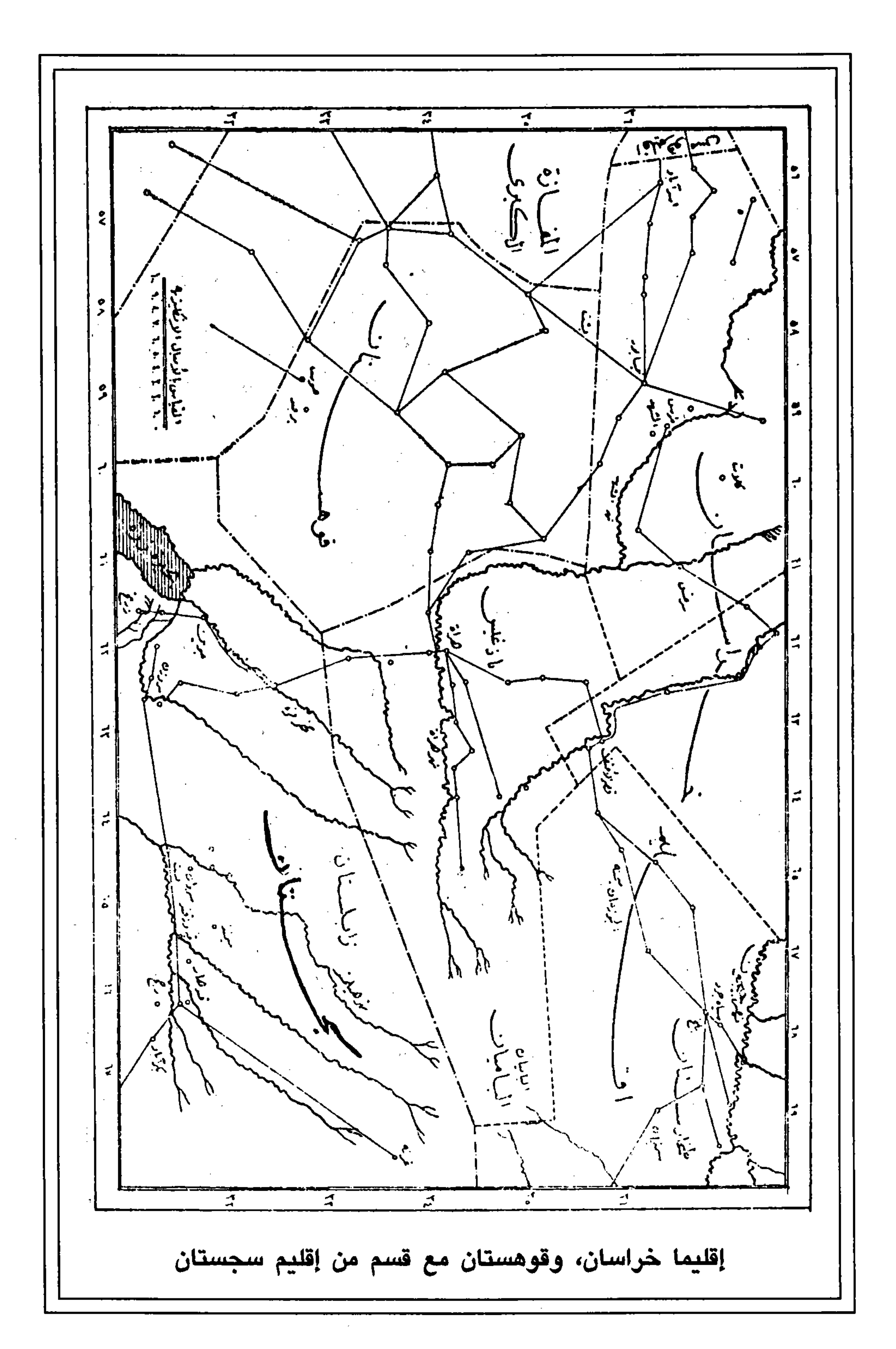
يذكر التاريخ لعاصم موقفه الرّائع في القادسية، واندفاعه الصّاعق في عبور دجلة لفتح (المدائن)، ويذكر له فتحه لولاية سِجِسْتان.

لقد كان لموقفه الرائع في القادسية أثر حاسم في انتصار المسلمين على الفُرس في هذه المعركة الحاسمة، وربما يذكر رجال قلائل من أصحاب الأيام حين يذكر عاصم في أيام القادسية عدا اليوم الأول من أيام القادسية، فقد استأثر عاصم بالفضل الأول في تحطيم هجوم الفيلة الكاسح، ذلك الهجوم الذي كان متوقعاً منه أن يحطم صفوف المسلمين.

أما اندفاعه في عبور نهر دجلة إلى (المدائن) على رأس كتيبة الأهوال، فأمره عجب كلّه؛ ولست أعرف أحداً من القادة يشاركه في هذا الفضل العظيم الذي كان من نتائجه فتح (المدائن) عاصمة كسرى.

ولا تزال منائر سجستان رافعة رؤوسها شامخة، ولا يزال الإسلام يجمع سكان سجستان عبر القرون... ترى! هل تذكره سجستان اليوم؟.

رضي الله عن القائد البطل، الصحابي الجليل، عاصم بن عمرو التميمي.



إقليما خراسان، وقوهستان مع قسم من إقليم سجستان

الأقرع بن حابِس التَّمِيْمِيّ
فاتح الجُوزَجان[1]

نسبه وأيامه الأولى:

هو: الأقرع بن حابِس بن عِقال بن محمَّد بن سُفْيان بن مُجَاشِع بن دارِم[2] بن حَنْظَلَة بن مالِك بن زَيْد مَناة بن تَمِيْم التَّمِيْمِيّ[3] المُجاشِعيّ الدَّارميّ وأُمّه: فطيمة بنت حوى بن سفيان بن مجاشع[4].

واسم الأقرع: فِراس، ولقِّب: الأقرع بقرع كان برأسه[5]، وكان أعرج، فهو من ذوي العاهات[6].

كان شريفاً في الجاهليّة[7] رئيساً على قومه، مجوسياً[8]، وكان حكماً

---

(١) الجوزجان: اسم للناحية، وهي كورة واسعة من كورة (بَلْخ) بخُراسان تقع بين (مُرو الرُّذ) و (بَلْخ)، وفيها عدّة مدن، منها مدينة (الجوزجان) التي أطلق اسمها على الكورة، وبين مدينة (بلخ) والجوزجان تسعة عشر فرسخاً، وهي ناحية كثيرة الخصب، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٥٣) ومعجم البلدان (٣/ ١٦٧) وتقويم البلدان (٤٤٤ و٤٤٧).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٣٠) وطبقات خليفة بن خياط (١٧٨).

(٣) الاستيعاب (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ١٠٧).

(٤) الإصابة (١/ ٥٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٤)، وانظر طبقات خليفة بن خياط (١٧٨) حول أمّه.

(٥) أسد الغابة (١/ ١٠٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٤) والمعارف (٥٧٩) والبداية والنهاية (٧/ ١٤١).

(٦) المعارف (٥٧٩).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٤) والاستيعاب (١/ ٥٨).

(٨) المعارف (٦٢١) والإصابة (١/ ٥٨) وابن الأثير (١/ ٥٨٧).

في الجاهلية[1]: يقضي بين الناس، ويفصل بين المتخاصمين، ويحكم بالعدل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وقد مارس الأقرع في جاهليته الغزو لغرض السّلب والنهب، إذ خرج وأخوه في بني مُجاشِع من تميم وهما يريدان الغارة على بَكر بن وائل، فلقيهم بِسْطَام بن قَيْس الشَّيْبَانِيّ[2] وعِمْران بن مُرَّة[3] في بني وائل (بزُبالة)[4]، فاقتلوا قتالًا شديداً، ظفرت فيه بَكْر وانهزَمت تميم، وأُسر الأقرعُ وأخوه وهما: الأقرعان، وناس كثير. وافتدى الأقرعان نفسيهما من بسطام وعاهداه على إرسال الفداء، فأطلقهما، فبعُدا ولم يرسلا شيئاً[5].

هكذا كان الأقرع في الجاهلية مثالًا حيّاً لرئيس القبيلة العربي: انحراف في الدين، وممارسة للغارات، ومقارعة للأخصام، ومنازلة للشجعان، ومصاولة للأقران، وغدر إذا سمحت الظروف.

وفي غياب العقيدة السليمة، ذهبت مزايا الأقرع وأمثاله أدراج الرياح، وطفت على الماء السيئات وبرزت وسادت، كأن المزايا لا وجود لها، ولا تأثير لها في المجتمع الجاهلي إلّا في حدود ضيِّقة للغاية، فالعقيدة السليمة هي التي تشيع الانسجام الفكري بين الأفراد والجماعات وتؤدي إلى التعاون المثمر والضبط والنظام.

ولكن رغم ما كان الأقرع وأمثاله يعانونه في مثالب الجاهلية، فقد كان

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٨١) والإصابة (١/ ٥٨) والمحبّر (١٨٣) و (١٣٤).

(٢) هو بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد الشيباني، انظر تفاصيل نسبه في جمرة أنساب العرب (٣٢٦).

(٣) هو عمران بن مرّة بن الحَارث بن مرّة، كان رئيساً، انظر تفاصيل نسبه في جمهرة أنساب العرب (٣٢٥).

(٤) زبالة: قرية عامرة بطريق مكة من الكوفة بين واقصة والثعلبيّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٧٣).

(٥) ابن الأثير (١/ ٦٠١).

بحق شخصية لامعة في محيطه ومجتمعه، ولم يكن رجلًا مغموراً بلا غد، بل سيِّداً مطاعاً[1]، وأحد الرؤساء[2].

الصّحابيّ:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة على رأس جيش المسلمين يريد فتح مكة، فلحقه الأقرع بـ(السُّقْيا)[3]، وسار مع الجيش فشهد فتح مكة وحُنَيْناً وحصار الطائف تحت لواء الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام[4].

وانصرف النبيّ ﷺ من الطّائف إلى (الجِعْرانة)[5]، وأتاه هناك وفد هَوازِن مُسْلِمِيْن راغبين، فخيّرهم رسول الله ﷺ بين عِيالهم وأبنائهم وبين أموالهم، فاختاروا عيالهم وأبناءهم، فأمر رسول الله ﷺ أن يُكَلِّموا المسلمين في ذلك. وقال النبي ﷺ: «وما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم»، وقال المهاجرون والأنصار: أما ما كان لنا، فهو لرسول الله ﷺ. وامتنع عُيَيْنة بن حِصْنٍ[6] والأقرع عن أن يردّا عليهم ما وقع لهما من الفَيْء، وساعدهما قومهما، وامتنع العبَّاس بن مِرْدِاس السُّلَمِيّ[7]، فطمع أن يساعده قومه، فأبوا وقالوا: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فردّ على (هوازن) نساءهم وأبناءهم، وعوّضَ من لم تَطِبْ نفسه بترك نصيبه أعواضاً رضوا بها، وكان عدد سبي (هوازن) ستة آلاف إنسان[8].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٢).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٤١).

(٣) السُّقيا: قرية جامعة من عمل (الفُرْع) بينهما تسعة عشر ميلًا، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٩٤)، وهي قرية على طريق المدينة المنورة ـ مكّة المكرّمة، وانظر الطبري (٣/ ٥٢) حول التحاق الأقرع بالنبيّ ﷺ بالسُّقيا، وانظر ابن الأثير (٢/ ٢٤٢) أيضاً.

(٤) الاستيعاب (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ١٠٩) والإصابة (١/ ٥٨).

(٥) الجعرانة: هي ماء بين الطّائف ومكة وهي إلى مكة أقرب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٠٩).

(٦) انظر سيرته في: أسد الغابة (٤/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٧) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣/ ١١٢ ـ ١١٤).

(٨) جوامع السيرة (٢٤٤ ـ ٢٤٥) وانظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٥) والطبري (٣/ ٨٧).

لقد كان إحجام الأقرع وغيره عن ردِّ السبي لهوازن بعد تنازل النبي ﷺ عن حصَته وحصّة ذوي قرباه ورغبته في أن يفعل المسلمون ما فعله، دليلًا على أنّ نعرة الجاهلية كانت لا تزال هي السائدة على الأقرع وقومه الذين معه، فلم يكن حينذاك منضبطاً ولا ملتزِماً.

ومن الأدلة على عدم انضباطه والتزامه حينذاك، أنّ النبي ﷺ قَسَمَ الأموال بين المسلمين، ثم أعطى نصيبه من الخمس المؤلفة قلوبهم ومنهم الأقرع مائة بعير(١)، فتألف المؤلفة قلوبهم بهذا العطاء ووكل المؤمنين حقاً إلى إيمانهم(٢)، وكان الأقرع يومئذ من المؤلفة قلوبهم(٣)، وهم جماعة من قادة العرب والأعراب ومن رؤسائهم، لهم كلمة مسموعة وأثر في أتباعهم، إذا أسلموا انقاد إليهم أتباعهم، وإن أحجموا أحجم أتباعهم.

وقد أسلم الأقرع في شهر رمضان من سنة ثمان الهجرية (٦٢٩م)، سنة فتح مكّة، وكان تقسيم الغنائم في شوال سنة ثمان الهجرية، ويبدو أنّ مضيّ شهرين على إسلام الأقرع وأمثاله لم يؤثر فيهما التأثير المطلوب، فالتفاضل في الإسلام بالتقوى وحدها لا بالنسب والحسب والنشّب كما كان التفاضل في الجاهليّة.

وبمرور الوقت، حسن إسلام الأقرع(٤)، كما حسن إسلام المؤلفة قلوبهم من أمثاله.

وفي سنة تسع الهجرية (٦٣٠م)، قدم وفد بني تَمِيْم ومعهم الأقرع

---

(١) جوامع السيرة (٢٤٦) والبدء والتاريخ (٢٣٨/٤) وسيرة ابن هشام (١٤٣/٤) وعيون الأثر (١٩٤/٢).

(٢) جوامع السيرة (٢٤٨) وسيرة ابن هشام (١٤٤/٤).

(٣) الإصابة (٥٨/١) وانظر أسماء المؤلفة قلوبهم في المعارف (٣٤٢) وانظر تاريخ ابن خياط (٥٣/١).

(٤) الإصابة (٥٨/١).

وعُيَينَة بن حِصْن الفزاريّ[1] في وفد عظيم، وكان الأقرع وعُيَيْنَة قد شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحُنَيْناً وحضرا الطّائف، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم. ودخل وفد بني تميم المسجد، فنادوا رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات، أَنْ اخرج إلينا يا محمّد! فآذى ذلك رسول الله ﷺ، وخرج إليهم[2].

وفي رواية: أنّ الأقرع هو الذي نادى رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات، وقال: أيضاً: «يا محمّد! إنّ حمدي زَيْن، وإنّ ذمي شَيْن»، فقال رسول الله ﷺ: «ذلكم الله سبحانه»[3].

وخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقالوا: نحن ناس من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك! فقال النبي ﷺ: «ما بالشّعر بُعِثْنا، ولا بالفخار أُمرنا، ولكن هاتوا!»[4].

وقال الأقرع لشاب من تيميم[5]: «قم يا فلان، فاذكر فضلك وفضل قومك»[6].

وقام خطيب وفد بني تَميم، فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفَضْل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عَدَداً، وأيسره عُدَّةً، فَمَن مثلُنا في الناس! ألسنا برءوس الناس وأُلي فضلهم! فمن يفاخرنا فليعدِّد مثل ما عدّدنا، وإنّا

---

(١) انظر تفاصيل أسماء الوفد في الطبري (٣/ ١١٥) وابن الأثير (٢/ ٢٨٧) وابن خلدون (٢/ ٨٢٤ ـ ٨٢٥).
(٢) الطبري (٣/ ١١٥) وابن الأثير (٢/ ٢٨٧) وسيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٣) أسد الغابة (١/ ١٠٧) والإصابة (١/ ٥٨).
(٤) أسد الغابة (١/ ١٠٧).
(٥) في الطبري (٣/ ١١٦): أن اسمه عطارد بن حاجب بن زُرارة بن عُدَس التميمي.
(٦) أسد الغابة (١/ ١٠٧).

لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعْرَف. أقول هذا لتأتونا بمثلِ قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا»، ثم جلس[1].

وقال النبيّ ﷺ لخطيبه ثابت بن قيس الخزرجيّ الأنصَاري[2]: «قُمْ فأجِبْهُ»، فقام ثابت وقال: «الحمد لله الذي السموات والأرضُ خَلْقه، وقضى فيهنّ أمره، وَوَسِع كُرْسِيّه علمه، ولم يك شيء قط إلّا من فضله. ثمّ كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسباً، وأصْدَقهم حديثاً، وأفضلهم حَسَباً، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خَلْقِه، فكان خِيَرَةَ الله في العالمين. ثمّ دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذَوِي رَحِمِهِ، أكرم الناس أنساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعالًا. ثمّ كان أوّل الخلق إجابة ـ واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ ـ نحن، فنحن أنصار الله وَوُزراء رسوله، نُقَاتِل الناس حتى يؤمنوا بالله، فَمَن آمنَ بالله ورسوله منع ماله ودَمَه، ومَن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا، واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، والسّلام عليكم»[3].

وقال بنو تميم: يا محمد! ائذَنْ لشاعرنا، فقال: «نعم»، فقام الزِّبْرِقَان بن بَدْر[4] فقال:

نحن الكرامُ فلا حَيٌّ يُعادِلُنا ... منّا الملوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ[5]

---

(١) نص الخطاب من: الطبري (٣/ ١١٦)، وانظر ما جاء في: أسد الغابة (١/ ١٠٦)، وبين الخطابين اختلاف يسير.

(٢) انظر سيرته في: أسد الغابة (١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) والإصابة (١/ ٢٠٣).

(٣) نص الخطاب من: الطبري (٣/ ١١٦)، وانظر ما جاء في: أسد الغابة (١/ ١٠٨)، وبين الخطابين اختلاف يسير.

(٤) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢/ ١٩٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٣)، وفي: أسد الغابة (١/ ١٠٨)، أن الزبرقان قال لرجل منهم: «قم فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك».

(٥) البيع: مواضع الصلوات والعبادات، واحدها: بيعة.

وكم قَسَرْنا من الأحياء كلّهمُ عند النِّهاب، وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ
ونحن نُطْعِمُ عند القَحْطِ مَطعِمُنَا من الشِّواء إذا لم يُؤْنَس القَزَع[1]
بِما تَرَى الناسَ تأتينا سراتُهُمُ من كل أرضٍ هُوِيّاً ثم نَصْطَنِعُ[2]
فَنَنْحَرُ الكُومَ عَبْطاً في أرُومَتِنَا للنّازلين إذا ما أنزلوا شَبِعوا[3]
فلا تَرانا إلى حَيٍّ نُفَاخِرُهم إلّا اسْتَقَادوا وكادَ الرَّأسُ يُقْتَطَعُ
إنّا أَبَيْنا ولن يأبى لنا أحَدٌ إنّا كذلك عند الفَخْرِ نَرْتَفِعُ
فمن يُقَادِرنا في ذاك يعرفنا فيرجعُ القول والأخبَار تُسْتَمَعُ

وكان حسّان بن ثابت الأنصاري شاعر النبيّ ﷺ غائباً، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قال حسّان: «فلما جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، خرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول:

مَنَعْنا رسول اللَّهِ إذْ حَلَّ وسْطَنَا على كلِّ باغٍ مَعَدّ ورَاغِم
مَنَعْناهُ لمَّا حَلَّ بين بُيُوتنا بأَسيافنا من كلِّ عادٍ وظالم
بِبَيْتٍ حَرِيْدٍ عِزّه وثَراؤُه بجابِيَة الجَوْلانَ وَسْطَ الأعاجِمَ[4]
هل المَجْدُ إلّا السُّوْدَ والعَوْدُ والنَّدى وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العظَائم

قال حسّان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضتُ في قوله وقلت على نحوٍ مما قال»:

إنّ الذَّوائب من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ قد بيَّنُوا سُنَّةً للنّاس تُتَّبَعُ[5]
يَرْضى بها كلُّ مَن كانت سَرِيْرَتُهُ تَقْوَى الإلهِ وكلُّ الخير يُصْطَنَعُ
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهمُ أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعهم نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غيرُ مُحْدَثَةٍ إنّ الخلائقَ فاعلم شَرُّها البَدعُ

---

(١) القزع: السحاب الرقيق.
(٢) هوياً: سراعاً.
(٣) الكوم: جمع كوماء، وهي العظيمة السنام من الإبل. وعبط: من غير علة أرومتنا: أي هذا الكرم متأصّل فينا.
(٤) البيت الحريد: الفريد.
(٥) الذوائب: السادة، انظر ديوان حسّان (٢٤٨).

إنْ كان في النّاس سَبَّاقون بَعْدَهُمُ فكلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكُفُّهُمُ عند الدِّفاعِ ولا يُوْهُونَ ما رَقَعُوا
إنْ سابقوا الناس يوماً فازَ سَبْقُهُمُ أو وازنوا أهلَ مَجْدٍ بالنَّدى مَتَعُوا[١]
أعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوحْيِ عِفَّتُهُمْ لا يَطْبَعونَ ولا يُرْدِيْهِمُ طَمَعُ[٢]
لا يَبْخَلونَ على جَارٍ بِفَضْلِهِمُ ولا يَمَسُّهُمُ من مَطْمَعٍ طَبَعُ[٣]
إذا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لم نَدِبّ لهم كما يَدِبّ إلى الوَحْشيَّةِ الذَّرَعُ[٤]
نَسْمو إذا الحربُ نالَتْنَا مَخالِبُها إذا الزَّعانِفُ من أظفارها خَشَعوا[٥]
لا فخرَ إنْ هُمْ أصابوا من عدوِّهِمُ وإن أُصيبوا فلا خُوْرٌ ولا هُلُعُ[٦]
كأنهم في الوَغى والموتُ مُكْتَنِعٌ أُسدٌ بَحَلْيَةَ في أَرْساغِها فَدَعُ[٧]
خُذْ منهمُ ما أتوا عَفْواً إذا غَضِبوا ولا يكن هَمَّك الأمرُ الذي مَنَعوا[٨]
فإنّ في حربهم فاتْرُك عداوتَهم شَرّاً يُخاضُ عليه السُّمُّ والسَلَعُ[٩]
أَكرِم بقومٍ رسولُ اللَّهِ شِيْعَتُهُم إذا تَفَرَّقَتِ الأَهواءُ والشِّيَعُ
أهدى لهم مِدْحَتِي قَلْبٌ يُوازِرُهُ فيما أَحَبَّ لسانٌ حائك صَنَعُ[١٠]
فإنهم أَفْضَلُ الأحياء كلّهم إن جدّ بالنّاس جِدُّ القَوْل أو شَمَعوا[١١]

فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع: «إنّ هذا الرّجل لمُؤَتىً له[١٢]!

(١) متعوا: زادوا.
(٢) الطبع: الدنّس، ولا يطبعون: لا يدنسون.
(٣) الطبع: الدّنس.
(٤) نصبنا: أظهرنا العداوة ولم نسرها. والذرع: ولد البقرة الوحشيّة.
(٥) الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم. وخشعوا: تذللوا.
(٦) الخور: الضعفاء. والهلع: جمع هلوع، وهم الجازعون.
(٧) مكتنع: دان. وحلية: مأسدة باليمن. والأرساغ: جمع رسغ، وهو موضع القيد من الرجل. فدع: اعوجاج إلى ناحية.
(٨) عفواً: من غير مشقّة.
(٩) يخاض: يخلط. والسلع: نبات مسموم.
(١٠) صنع: يحسن القول ويجيده.
(١١) شمعوا: هزلوا. وأصل الشمع: اللّهو والطرب.
(١٢) مؤتىً له: موفّق.

لخطيبُه أخطب من خطيبنا، ولشاعرُه أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا»[1].

وفي رواية، أنّ الأقرع قام فقال: «إني والله يا محمد! لقد جئتُ لأمرٍ، ما جاء له هؤلاء! قد قلت شعراً، فاسمعه»، فقال: «هاتِ» فقال[2]:

أَتَيْناكَ كيما يَعْلَمُ النّاسُ فضلنا ... إذا احتفلوا عند احْتِضَار المواسِم[3]

بأنا فروع النّاس في كلِّ موطن ... وأن ليس في أرض الحجازِ كَدارِم[4]

وأنا نذودُ المُعْلَمِيْنَ إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم[5]

وإنّ لنا المِرْباعَ من كلِّ غارةٍ ... نُغِيْرُ بِنَجْدٍ أو بأرض الأعاجم[6]

وقام حسّان بن ثابت فأجابه قائلًا:

هل المَجْدُ إلا السؤدد العَوْدُ والنَّدى ... وجاهُ الملوكِ واحتمال العظائم[7]

نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ محمداً ... على أنفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِم

بِحَيٍّ حَرِيْدٍ أصلُهُ وثَراؤُه ... بجابية الجَوْلانِ وسط الأعاجِمْ[8]

---

(١) الطبري (٣/ ١١٧ ـ ١١٩)، وانظر ما جاء في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٩) وابن الأثير (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٩) وأسد الغابة (١/ ١٠٧ ـ ١٠٨) مع اختلاف في السياق والشعر غير يسير، وما جاء في المتن نقلًا عن الطبري.

(٢) أسد الغابة (١/ ١٠٨)، وفي سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٠): أنّ الزبرقان بن بدر هو قائل هذا الشعر.

(٣) المواسم: جمع موسم، وهو المكان الذي يجتمع الناس فيه كلّ سنة، مثل موسم الحج، وموسم عكاظ.

(٤) دارم: من بني تميم.

(٥) المعلمين: الذين يعلمون أنفسهم بعلامة يعرفون بها، ليطلع الناس على بلائهم في الحرب.
وانتخوا: تكبّروا وأعجبوا بأنفسهم. والأصيد: المتكبِّر. والمتفاقم: المتعاظم.

(٦) المرباع: ربع الغنيمة.

(٧) العود: القديم، والذي يتكرّر على الزمان. والندى: الكرم والعطاء. والعظائم: جمع عظيمة.

(٨) حريد: منفرد لا يختلط بغيره لعزّته. وجابية الجولان: موضع بالشّام، وأصل الجابية: الحوض الكبير.

نَصَرْنَاهُ لَمّا حَلّ وَسْطَ ديارِنا ... بأسيافنا من كلِّ باغٍ وظالِمِ
جَعَلْنَا بَنِينَا دونه وبناتِنا ... وطِبْنا له نَفْساً بَفَيْءِ المغانِمِ
ونحن ضَرَبْنَا النّاسَ حتى تتابعوا ... على دينه بالمُرْهَفَاتِ الصَّوارِمِ[1]
ونحن وَلَدْنا من قُرَيشٍ عظيمَها ... ولدنا نبيَّ الخير من آل هاشِمِ[2]
بَنِيْ دارِمٍ لا تفخروا، إنّ فخرَكُمْ ... يعود وَبالًا عند ذكر المكارم
هَبِلْتُمْ علينا، تفخرون وأنتمُ ... لنا خَوَلٌ ما بين ظِئْرٍ وخادِمِ[3]
فإن كنتمُ جئتم لحقن دمائِكم ... وأموالكم أن تُقْسَمِوا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نِدّاً وأَسْلِموا ... ولا تَلْبَسوا زِيّاً كَزِيِّ الأعاجِمَ

فلما فرغ حسّان بن ثابت من قوله، قال الأقرع: «إنّ هذا الرَّجل لَمؤتىً: لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا»، فأسلم القوم، وجوّزهم رسول الله ﷺ، فأحسنَ جوائزهم[4]، وكان الأقرع هو الذي بادر بإعلان إسلامه، فقال: «أشهد ألّا إله إلّا الله، وأنك رسول الله»، فقال رسول الله ﷺ: «لا يضرّك ما كان قبل هذا»[5].

ولا شكّ في قدوم وفد بني تميم على النبيّ ﷺ في عام الوفود، أي في سنة تسع الهجريّة كما سبق ذكر، وقد نزل في هذا الوفد قرآن هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[6]،

---

(١) المرهفات الصوارم: السيوف المحددة القاطعة.
(٢) ولدنا نبيّ الخير: ذلك لأنّ أم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ كانت من بني النجّار من الأنصار.
(٣) هبلتم: فقِدتم. والظئر: التي ترضع ولد غيرها وهي تأخذ على ذلك أجراً، وأصله: الناقة التي تعطف على ولد غيرها. والخادم: يقال للذكر والأنثى.
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢)، وانظر أسد الغابة (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) مع اختلاف في عدد أبيات الشعر.
(٥) أسد الغابة (١/ ١٠٩).
(٦) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ٤)، وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٣) والاستيعاب (١/ ١٠٣) وأسد الغابة (١/ ١٠٩) والطبري (٣/ ١٢٠) وابن الأثير (٢/ ٢٩٠).

كما أنّ المصادر المعتمدة تجمع على قدومه، كما تجمع على قدوم الأقرع مع الوفد.

ولكن الشك في نصوص القصائد والخطب التي قيلت في أثناء اجتماع النبيّ ﷺ بالوفد، فهناك اختلاف في كلمات الشِّعر والخطب وفي قائليها إذ تنسب قسم من المصادر المعتمدة الشعر إلى الزبرقان تارة وإلى الأقرع تارة وإلى قيس بن عاصم[1] تارة أخرى.

ومن تدقيق ما قيل من الشعر والنثر، يظهر أثر التنميق الذي يحتاج إلى الروية ولا يستقيم مع الارتجال، فما قيل أشبه بالأعمال الأدبية المدبّرة لا بحوادث التاريخ التصادفيّة.

ويبدو أثر الأقرع في الوفد، فهو الذي استحثه على القدوم، وهو الذي حبّب إليه الإسلام، وهو الذي بايع النبيّ ﷺ قبل أعضاء الوفد ليقتدوا به ويقتفوا أثره، فنجح في ريادته أعظم النجاح.

لقد كان الأقرع رئيساً من رؤساء قبائل الأعراب، يحبّ هذا الفخر كما يحبه غيره من الرؤساء.

وكان النبيّ ﷺ يتألّفه بإكرام وفادته وقبول رجائه، وبالهدايا والمال، كما يتألّف أمثاله من المؤلفة قلوبهم.

فقد بعث النبي ﷺ عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزاري على رأس سرية إلى بني تميم فيما بين (السقْيا) وأرض بني تميم، وذلك في المحرّم من سنة تسع الهجرية (٦٣٠م)، فأسر أحد عشر رجلًا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً، فجاءه الأقرع مع قسم من رؤساء بني تميم، ورجوه أن يطلق سراح الأسرى، فردّ عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسّبي[2].

---

(١) انظر سيرته في أسد الغابة (٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٢) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١) ومغازي الواقدي (٣/ ٩٧٤ ـ ٩٧٥).

وأرسل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذُهَيْبة من اليمن، فقسمها بين أربعة أحدهم الأقرع[1]، وكانت سرية عليّ بن أبي طالب إلى اليمن سنة عشر الهجرية[2] (٦٣١م).

والتحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، بعد أن حظي الأقرع برعايته، ونال شرف صحبته، والجهاد تحت رايته.

المجاهد:

شهد الأقرع تحت لواء الرسول القائد فتح مكّة وغزوة (حُنَيْن) وحصار الطائف، كما ذكرنا.

وشهد تحت لواء خالد بن الوليد (اليمامَة)[3] وهي المعركة التي بين المسلمين من جهة بقيادة خالد بن الوليد وبين المرتدين من بني حَنِيْفَة بقيادة مسيلمة الكذّاب، وذلك سنة إحدىٰ عشرة الهجرية[4] (٦٣٢م)، كما شهد مع خالد غيرها[5] من حروب الردّة.

وسار مع خالد إلى العراق، وشهد معه المشاهد كلّها، وفي فتح (الأنبار)[6] وكان على مقدمته الأقرع، فلما بلغها خالد طوّق المدينة وأنشب القتال، وكان قليل الصبّر عنه. وأمر خالد رماته أن يصوِّبوا على عيون أعدائهم، فرموا رشقاً واحداً، ثم تابعوا فأصابوا ألف عين، فسميت تلك الوقعة: (ذات العيون)، وأخيراً استسلم الفُرْس فصالحهم خالد[7].

---

(١) الإصابة (١/ ٥٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٧٠) ومغازي الواقدي (٣/ ١٠٧٩).

(٣) الإصابة (١/ ٥٩).

(٤) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٧).

(٥) الإصابة (١/ ٥٩) وابن خلدون (٢/ ٨٧٥).

(٦) الأنبار: مدينة على الفرات غربي بغداد، بينهما عشر فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٤٠)، وهي مدينة الفلوجة.

(٧) انظر التفاصيل في الطبري (٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٦) وابن الأثير (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥) وابن خلدون (٢/ ٨٩٤ ـ ٨٩٥).

وسار خالد إلى (عَيْن التمر)[1] وفيها قوّات فارسيّة وعربية تدافع عنها، فاكتسحها خالد عَنْوَة[2].

وكان عيَاض بن غَنْم الفِهْرِيّ القرشيِ[3] قد سار إلى (دُوْمة الجَنْدَل)[4] ليخضع أهلها المتمردين، ثم يسير منها شرقاً إلى هدفه في فتح العراق بالتعاون مع خالد بن الوليد[5].

ولكن عِياضاً لم يستطع فتح (دُوْمَة الجَنْدَل)، فكتب إلى خالد بعد أن عجز عن فتحها يستمدُّ على مَنْ بإزائه من العدو، وكان خالد قد فرغ حينذاك من فتح (عين التمر)، فسار سيراً حثيثاً نحو عياض، فلما وصل (دُوْمَة الجندل) وجد عياضاً قد حاصر أهلها وحاصروه، وقد أخذوا عليه الطريق وأشجوه وشُجوا به، فجعل خالد (دُوْمة الجندل) بين عسكره وعسكر عياض.

وخرج أهلها لقتال المسلمين، ولكنهم لم يلبثوا أن انهزموا إلى الحصن، فلما امتلأ بالناس، أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للقتل والأسر.

وأطاف خالد بباب (الحصن)، ثم أمر به فاقتلع. واقتحم المسلمون على مَن فيه وقتلوا المقاتلة كافة إلّا أسرى بني كلب الذين أمّنهم بنو تميم وعلى رأسهم الأقرع[6] بعد أن قتل أحد قادة (دومة الجندل)[7].

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضع يقال له (شفاثا)، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٦/ ٢٥٣)، ولا تزال آثار الحصن باقية حتى اليوم، ويسمى: قصر الأخيضر، وقد أطلق عليه هذا الاسم بعد الإسلام، بينما كان بناء الحصن قبل الإسلام.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧) وابن الأثير (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ ـ ٤٧٩).

(٤) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، تقع بين دمشق والمدينة المنوّرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٠٦).

(٥) ابن الأثير (٢/ ٣٨٤).

(٦) الطبري (٣/ ٣٧٩).

(٧) الطبري (٣/ ٣٧٨).

وفي رواية: أنّ الأقرع كان مع شَرْحَبِيْل بن حَسَنَة[1] في (دومة الجندل)[2]، ولم يكن شَرْحَبِيْل في (دومة الجندل) بعد حروب الردّة، بل قصدها عياض بن غنم، لذلك لا صحة لهذه الرواية.

وعاد خالد على رأس قوّات المسلمين بعد استعادة فتح (دومة الجندل) إلى العراق، وكان معه الأقرع الذي شهد مع خالد معارك حرب العراق، وكان ذلك سنة اثنتي عشرة الهجرية (٦٣٣م).

وفي سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م)، أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالداً بالمسير إلى الشام من العراق، وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المُثَنّى بن حارثة الشيباني[3]، ولا يأخذنّ مَنْ فيه نجدة إلّا ويترك عند المثنى مثله. ولكن خالداً استأثر بأصحاب النبيّ ﷺ على المثنى، وترك للمثنى عدادهم من أهلِ القناعة مَنْ ليس له صحبة، ثمّ قسم الجند قسمين، فقال المثنى: والله لا أُقيم إلّا على إنفاذ أمر أبي بكر، وبالله ما أرجو النصر إلّا بأصحاب النبيّ ﷺ، فلما رأى خالد ذلك أرضاه[4].

وليس لدينا نص صريح يصّرح بأنّ خالداً أخذ معه الأقرع من العراق إلى الشّام، ولكن هناك دلائل تدلّ بوضوح على أنّ الأقرع كان مع خالد في رحلته العسكرية من العراق إلى الشام، فقد كان الأقرع موضع ثقة خالد، يوليه المقدمات في حروبه كما رأينا في معركة فتح الأنبار، ويحقن دماء بني كلب لرجاء الأقرع، ويوليه قيادة المقدمة بعد عودته من (دومة الجندل) إلى العراق ثانية[5].

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (١١٣ ـ ١١٩).
(٢) ابن خلدون (٢/ ٨٧٥) والإصابة (١/ ٥٩).
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧ ـ ٥٠).
(٤) ابن الأثير (٢/ ٤٠٧).
(٥) الطبري (٢/ ٣٨٠).

كما أنّ الأقرع صحابيّ جليل يحبّ أن يستأثر به خالد، وكان الأقرع مع خالد في حروب الردّة وفي معارك العراق، وقد عرف كلّ واحد منهما مزايا صاحبه وأساليبه القتالية نتيجة لرفقة السّلاح أمداً طويلًا.

فمن المتوقع أن يستأثر به خالد، وأن يُقِر الأقرع هذا الاستئثار طائعاً مختاراً.

ولعلّ مما يؤيّد هذا التوقّع ما ورد في بعض المصادر المعتمدة، أنّ الأقرع استشهد في معركة (اليرموك)[1] الحاسمة، تلك المعركة التي فتحت أبواب أرض الشّام على مصراعيها للفاتحين المسلمين، ومعنى ذلك أنّ الأقرع شهد تلك المعركة، فأخطأ من ذكر استشهاده فيها أو عدّه بين شهدائها، ولكنه لو لم يشهد تلك المعركة لما جاء ذكره بين أسماء الشهداء.

وعاد أهل العراق الذين شهدوا معركة (اليرموك) في أرض الشام إلى العراق، فوصلوا في اليوم الثاني من أيام معركة (القادسيّة) المشهورة، أي يوم (أغْواث)، فشهدوا هذه المعركة الحاسمة التي كانت بقيادة سعد بن أبي وقّاص[2]، وأبلوا فيها أعظم البلاء[3]. وكان ذلك سنة أربع عشرة الهجرية (٦٣٥م).

ولم يرد للأقرع ذكر في (القادسيّة)، فما كلّ مَن شهدها ورد ذكره.

وسكت المؤرخون عن أخبار الأقرع وبخاصة جهاده، ولكنّ قوم الأقرع بني تميم كان لهم جهاد مشهود في أرض فارس، بقيادة الأحنف بن قيس التّميميّ[4] وغيره من بني تميم، فليس من المعقول أن يبقى الأقرع بعيداً عن ميدان الجهاد.

---

(١) الإصابة (١/٥٩)، فقد ورد فيه: «وقرأت بخط الرضى الشاطبيّ: قُتِل الأقرع بن حابس باليرموك في عشرة من بنيه».

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ـ ٢٩٦).

(٣) الطبري (٣/٥٤٣) وابن الأثير (٢/٤٧٣).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢١٥ ـ ٢٤٦).

وفجأة برز اسم الأقرع قائداً فاتحاً، فقد عاد الأحنف بن قيس التمّيمي إلى مدينة (مَرُو الرُّوذ)، بعد أن انتصر على أعدائه انتصاراً ساحقاً، فلحق قسم من أعدائه بـ(الجُوْزَجان)، فوجّه إليهم الأحنفُ الأقرع على خيل وقال: «يا بني تميم! تحابُوا وتباذلوا تَعْدِلْ أموركم، وأبدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلُّوا يسلم لكم جهادكم»[1].

وسار الأقرع، فلقي العدو بالجُوْزَجان، فكانت بالمسلمين جولة، ثمّ عادوا وفتحوا الجوزجان عَنْوَة[2]، فقال كُثَيِّر النّهشلِيّ:

سَقَى مُزَن السَّحابِ إذا اسْتَهَلَّتْ ... مصارعَ فِتْيَةٍ بالجُوْزَجانِ

إلى القصْرين من رُسْتَاق خُوْطٍ[3] ... أقادَهُمُ هناك الأقرعانِ[4]

وكان فتح الجوزجان سنة إحدى وثلاثين الهجرية[5] (٦٥١م)، أو سنة اثنتين وثلاثين الهجرية[6] (٦٥٢م).

ويبدو أنّ الجوزجان انتقضت، فسيّره عبد الله بن عامِر[7] على رأس جيش إلى الجوزجان، فأصيب بالجوزجان هو والجيش[8] وذلك في زمن عثمان بن عفّان رضي الله عنه[9]. وقد استشهد عثمان سنة خمس وثلاثين الهجرية[10] (٦٥٥م)، ومعنى ذلك أنّ استشهاد الأقرع كان سنة ثلاث

---

(١) لا تغلوا: لا تخونوا في المغنم وغيره.
(٢) ابن الأثير (٣/١٢٦) وابن خلدون (٢/١٠١٣) والبلاذري (٥٧٣).
(٣) خوط: قرية من قرى بلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٩٠).
(٤) الطبري (٤/ ٣١٣).
(٥) ورد ذلك في حوادث إحدى وثلاثين الهجرية في ابن الأثير (٣/ ١١٧ ـ ١٣٠) وانظر البداية والنهاية (٧/ ١٦٠).
(٦) ورد ذلك في حوادث اثنتين وثلاثين الهجرية في الطبري (٤/ ٣٠٤ ـ ٣١٦).
(٧) انظر سيرته المفصّلة في هذا الكتاب.
(٨) أسد الغابة (١/١٠٩ ـ ١١٠).
(٩) الإصابة (١/ ٥٩).
(١٠) الطبري (٤/ ٤١٥) والبداية والنهاية (٧/ ١٩٠).

وثلاثين الهجرية أو أربع وثلاثين الهجرية أو خمس وثلاثين الهجرية، فانتهت باستشهاده صفحة من صفحات البطولة العربيّة الإسلاميّة.

الإنسان:

كان الأقرع في الجاهلية رئيس دارم من بني تميم، وكان من رؤساء بني تميم ومن المقدّمين فيهم، وبقي على منزلته في الرئاسة والشرق في الإسلام، فكان شريفاً في الجاهلية والإسلام[١].

وكان في الجاهلية مجوسياً، وكان بنو تميم قضاة موسم الحج وعكاظ، وقد اجتمع للأقرع قضاء الموسم وعكاظ، وكان آخر القضاة في الجاهلية ثم أدرك الإسلام[٢].

وتوليه منصب القضاء في الموسم وفي عكاظ دليل على رئاسته وشرفه، كما أنّ إعطاءه مائة من الإبل مع المؤلفة قلوبهم[٣] دليل آخر على منزلته العالية في الجاهلية والإسلام.

وقد أسلم وحسن إسلامه[٤]، ووفد على النبي ﷺ مع وفد تميم عام الوفود، ونال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام، ولم يرتد[٥] بعد أن التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى.

وكان في زيارة النبيّ ﷺ في يوم من الأيام، فأبصر النبيّ ﷺ يُقَبِّل الحسن[٦] وفي رواية أو الحسين، فقال الأقرع: «وأنّ لي من الولد عشرة، ما قَبَّلْتُ واحداً منهم»، فقال رسول الله ﷺ: «مَن لا يرحَم لا يُرْحم»[٧]

---

(١) أسد الغابة (١/ ١٠٩) والإصابة (١/ ٥٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٤)

(٢) المحبّر (١٨٢ - ١٨٣).

(٣) الشعر والشعراء (٢١٨ و٦٣٤).

(٤) الإصابة (١/ ٥٨).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٤٢).

(٦) الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٧) أسد الغابة (١/ ١٠٩) والإصابة (١/ ٥٨).

وفي رواية أنّ النبيّ ﷺ قال للأقرع: «ما أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك!»[1].

وقسوته البالغة دليل على بداوته المتطرِّفة، فهو مثال للأعرابيّ في شدّته وتطرفه اللّتين جعلتا قلبه يجف من الشفقة والحنان.

وحين ارتدّ الناس في أول عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وفد الأقرع إلى أبي بكر الصدِّيق ومعه الزِّبْرقان بن بَدْر التَّميميّ وقالا له: «اجعل لنا خراج (البحرين) ونضمن لك ألّا يرجع من قومنا أحدٌ» ففعل وكتب الكتاب، وكان الذي يختلف بينهم طَلْحَة بن عبيد الله رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأشهدوا شهوداً على ما جاء في الكتاب أحدهم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. وحُمِل الكتاب إلى عمر ليشهد، فنظر فيه ولم يشهد قائلًا: «لا والله ولا كَرامَة!»، ثم مزّق الكتاب ومحاه. وغضب طلحة، فأتى أبا بكر وقال: «أأنت الأمير أم عمر؟!» فقال: «عمر! غير أنّ الطاعة لي»، فسكت طلحة[2].

وقد استقطع عُيَيْنَة بن حِصْن والأقرع أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه أرضاً، فقال لهما عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «إنما كان النبيّ ﷺ يتألفكما على الإسلام، فأما الآن فاجهدا جهدكما»[3]. ذلك لأنّ الإسلام أصبح قوياً وأصبح المسلمون كثيرين، فلم تبق حاجة لدفع الأموال للمؤلفة قلوبهم.

وكان بليغاً في حديثه، فقد أخذ عُيَيْنة بن حِصْن عجوزاً من سبي هوازِن في غزوة (حُنَيْن) وقال حين أخذها: «أرى عجوزاً وأرى لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظُمَ فداؤها»، فلما ردّ رسول الله ﷺ السبايا لستٍّ

---

(1) البداية والنهاية (٧/ ١٤١).
(2) الطبري (٣/ ٢٧٥).
(3) الإصابة (١/ ٥٩).

فرائض[1]، أبي عُيَيْنَة أن يرد عجوزه، فقال له زُهير أبو صُرَد[2]: «خُذْها عنك، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديُها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا درّها بماكد[3]، ولا زوجها بواجد»[4]، فردّها عُيَيْنَة بست فرائض حين قال له زهير ما قال. ولقي عُيَيْنَةُ الأقرعَ، فشكا له ذلك، فقال الأقرع: «والله إنك ما أخذتها بكراً غريرة[5]، ولا نَصَفاً وثِيْرَة[6]» وقد كان شاعراً، وذكرنا شيئاً من شعره سابقاً.

لقد كان الأقرع من خير مسلمي رؤساء وشيوخ وسادة الأعراب، شجاعاً مقداماً، شهماً غيوراً، كريماً سخياً، يحب هذا الفخر ويهواه، ويحب هذا المال ويريده، يدافع عن رجاله ويحرص على حقوقهم، فلا عجب أن يفخر الشاعر الفرزدق بعمه الأقرع، فيقول:

وعند رسول الله قام ابن حابس ... بخطّه أسوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في قيودها ... مُغلّلة أعناقها في الشّكائم[7]

وكانت هُنَيْدَة بنت صَعْصَعَة عمّة الفَرَزدق تقول: «مَن جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي، يَحِلُّ لها أن تَضَعَ خِمَارَها عندهم، فصِرْمَتي[8] لها: أبي صَعْصَعَة، وأخي غالب، وخالي الأقرعَ بن حابِس، وزوجي الزِّبْرِقَان بن بَدْر»، فسميّت: ذاتُ الخِمار[9].

ولا أحد يعرف متى ولد الأقرع، فقد ولد في الجاهلية، وولد أمثاله

---

(١) الفرائض: جمع فريضة، والفريضة: المُسنّة من الإبل.
(٢) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢/٢٠٨).
(٣) الماكد: الغزير.
(٤) واجد: حزين.
(٥) غريرة: الصغيرة السنّ من النساء.
(٦) الطبري (٣/٨٨)، والوثيرة: السمينة.
(٧) الإصابة (١/٥٨).
(٨) الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل غير ذلك.
(٩) العقد الفريد (٢/١٩٦).

كثيرون وماتوا دون أن يعرف بسنة قدومهم ولا سنة رحيلهم شيئاً، فلم يكن لهم في جاهليتهم وزن ولا قيمة، فلما أسلم منهم من بقي على قيد الحياة، أصبح لهم بالإسلام وزن وقيمة في مجالات الحياة الجديدة: عسكرية في الفتح والجهاد، ومدنية في العلم والإدارة، فعُرف موت الأقرع في ساحات الوغى شهيداً سنة ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين أو خمس وثلاثين الهجرية.

لقد أكرمه الله بالشهادة، فنال درجة الشهداء الأبرار، وبقي اسمه في التاريخ، وسيبقى ما بقي التاريخ.

ومن حقِّ أهل بيته وغير أهل بيته أن يفخروا به رجلًا، لأنه تمسّك بأهداب الشرّف في الجاهلية والإسلام ولم يتهاون بما يتطلّبه الشرف من المتمسِّك بأهدابه من تكاليف جسام، فنال ثناء الناس حياً وميتاً، ونال ثواب الآخرة باستحقاق.

لقد كان الأقرع رجلًا.... وكفى..

القائد:

لا يستطيع المتتبِّع لجهاد الأقرع أن يتبيّن سماته القيادية إلّا في نطاق ضيِّق محدود، لأنّ المؤرخين والذين تطرّقوا إلى نواحٍ معّينة من حياته، لم يسلِّطوا الأضواء الكافية على حياته قائداً وإنساناً.

وقد كان الأقرع رئيساً من رؤساء بني تميم، وهي من القبائل العربية الكبيرة ذات التاريخ العريق في المجال العسكري قبل الإسلام وبعده، وكانت القبائل تقاتل بقيادة رئيسها في الجاهليّة وفي أيام الإسلام، فلا بد من أنّ الأقرع مارس القيادة العملية في ميادين القتال أيام الجاهلية، وفي ميادين الجهاد أيام الإسلام، ولكنّ الذين كتبوا عنه أهملوا تفاصيل المعارك التي خاضها وأثره القياديّ فيها وتأثيره في نتائج القتال، ولم يذكروا له غير موقفين قياديين: الأول قيادة المقدَّمة لجيش خالد بن الوليد في فتح (الأنبار)، والثاني مطاردة فلول القوّات الفارسيّة إلى (الجوزجان) وفتح هذه

المنطقة الواسعة الغنيّة، تلك القوّات التي كبدّها الأحنف بن قيس التميمي خسائر فادحة بالأرواح والمواد، فتركت ميدان المعركة وانسحبت إلى (الجوزجان).

وقد يغمز في قناة الأحنف بسبب تولية الأقرع منصباً قيادياً، لأنّ الأحنف من بني تميم والأقرع من بني تميم أيضاً، ولكن هذا الغمز لا يصدر إلّا من أعداء العرب والمسلمين أو من الذين ينقلون إلى العربية ما يكتبه أولئك الأعداء بدون تدقيق ولا تمحيص، ولا يصدر عن مُنْصِف يعتمد الحق ولا يحيد عنه، أما العسكريون المختصون فلا يقعون في مثل هذا الخطأ، لأنهم يعلمون علَم اليقين أنّ القريب قد يُؤْثر قريبه بالمناصب المدنية المريحة في أيام السلام، وقد يؤثره بالمناصب العسكرية في أيام السّلام أيضاً، ولكنه لا يؤثره بالمناصب العسكرية في أيام الحرب، لخطورة هذه المناصب على الذي يتولى القيادة، لأنه قد يقتل أو يصاب بأذى، وعلى الذي ولّاه القيادة، لأنّ إخفاق مَن ولّاه يؤثر في سمعته ومصيره، وعلى الجيش الذي يقوده، لأنه يقوده إلى الهزيمة ويكبِّده خسائر مادية ومعنوية، لذلك ليس هناك مسئول يولي منصب القيادة في أيام الحرب مَن لا يستحقه من ذوي قرباه.

فإذا غمز الأحنف في هذا المجال من الأعداء والمغرّر بهم والجهلاء، فإِنّ خالداً لا يمكن غمزه، لأنه من بني مخزوم والأقرع من بني تميم، ولأنّ خالداً لا يولي غير أصحاب الكفايات العالية والماضي المجيد.

إنّ الأقرع تولّى القيادة لكفايته العالية، ما في ذلك أدنى شك، فليس كلّ قائد يستطيع العمل بإِمرة خالد بن الوليد، ولا كلّ قائد يقدر على العمل بإِمرته، ولا يولّي خالد كلّ مَن وهبّ ودب منصباً قيادياً.

ومن المعلوم أنّ واجبات المقدَّمَة هي: الحصول على المعلومات المفصّلة عن العدو، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات المفصّلة

عن قواتنا، وحماية قواتنا في تقدمها وفي معسكرها، وإدخال الجيش في المعركة بأمان.

وهذه الواجبات المعلومة، بحاجة إلى قائد ماهر، يتميز بالذكاء، والشجاعة والإقدام، وحضور البديهة، وبمعرفة مبادىء الحرب، والاندفاع، وسرعة الحركة، والقابلية على تحمل أعباء القتال، وبإِتقان الفروسية إتقاناً متفوقاً، وبتحمل المسؤولية كاملة بلا تردّد.

هذا بالإضافة إلى قوّة الشخصية، والإِرادة القوية، والقابلية على إصدار القرارات السريعة السليمة، وتبادل الثقة بينه وبين رجاله، وتبادل المحبة، والماضي القياديّ النّاصع المجيد.

أما واجبات قوات المطاردة، فتحتاج إلى قائد قدير على قلب الانسحاب إلى هزيمة، وتحطيم قوّة العدو مادياً ومعنوياً لإِجباره على الاستسلام والرضوخ إلى شروط المنتصر، وإلى قائد يتميز بحبّ المغامرة والاندفاع بسرعة فائقة عمقاً، بالإِضافة إلى صفات القائد الأخرى بصورة عامة وإلى قائد المقدِّمة بصورة خاصة.

ونستطيع أن نستنتج أنّ الأقرع كان قائداً قديراً على إصدار القرارات الصّائبة السريعة، قادراً على وضعها في حيِّز التنفيذ، ذكياً ألمعيّ الذكاء، شجاعاً مقداماً جسوراً، حاضر البديهة، عارفاً بمبادىء الحرب، مندفعاً سريع الحركة، مغامراً من غير تهوّر، يثق برجاله ويثقون به ويحبّهم ويحبّونه، له قابلية بدنية متميزة، فارساً لامعاً، قوي الشخصيّة، صلب الإرادة، له ماض ناصع مجيد.

وهو فوق ذلك يتحمل المسؤولية كما يتحمّلها الرجال.

وأخيراً، توّج الأقرع حياته بالشّهادة، فسقط مضرّجاً بدمائه، ولم يسقط من يمينه السيّف.

الأقرع في التاريخ:

يذكر التّاريخ للأقرع أنه كان رئيساً من رؤساء بني تميم البارزين في الجاهليّة والإسلام.

ويذكر له، أنه كان قاضياً يقضي بين الناس في مواسم الحج وعكاظ في الجاهلية ليس بين تميم حسب، بل للحجيج جميعاً وللوافدين على عكاظ.

ويذكر له، أنه كان من أوائل من أسلم من رؤساء بني تميم، فنال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

ويذكر له، أنه كان من أبرز المؤلّفة قلوبهم ومن بين الطبقة الأولى منهم، وكان لأثره الحاسم في بني تميم إقبالهم على الإسلام ودخولهم في دين الله أفواجاً.

ويذكر له، أنه أسلم وحسن إسلامه، فلم يرتد كما فعل كثير من رؤساء القبائل الأخرى، وقاتل المرتدين قتالًا لا هوادة فيه.

ويذكر له، أنه وهب نفسه للجهاد في حروب الردّة وفتح العراق والشّام وفارس وخُراسان، فشرّق بجهاده وغرّب، ورفع رايات الإسلام خفاقة عالية شرقاً وغرباً.

ويذكر له، أنه فتح (الجوزجان) ونشر العربية لغة والإسلام ديناً في أرجائها الواسعة الفسيحة.

ويذكر له، أنه نال شرف الشهادة، فضحّى بروحهِ من أجل عقيدته، ولم يضح عقيدته من أجل روحه.

ويذكر له، أنه كان مثالًا حيّاً لرؤساء قبائل الأعراب في الجاهلية والإسلام، بما فيهم من مزايا وهنات.

رضي الله عن الفارس المغوار، القائد الفاتح، الشهيد البطل، الأقرع بن حابِس التّميميّ.



الخاتمة



الإسلام والحرب الإجماعيّة

الحرب الإجماعيّة الحديثة:

- ١ -

الحرب الإجماعيّة، أو الحرب الاعتصابيّة، أو الحرب الشّاملة، مصطلحات عسكرية معروفة، تدلّ على معنى عسكريّ واحد.

ومعنى الحرب الإجماعيّة هو حشد الطاقات الماديّة والطاقات المعنوية كافة للأمة، لا للجيش النظاميّ وحده، أو للقوات العسكرية النظاميّة وحدها، من أجل المجهود الحربي.

وهذا يعني أنّ الطاقات الماديّة كلّها: بشرية وطبيعيّة، وسلاحاً وعتاداً، ومعامل ومصانع، ومزارع وحقولًا، ووسائل نقل ووسائل تنقّل، ومستشفيات وأطباء، وأدوية وعقارات، وألبسة وتجهيزات، ومخازن ومستودعات، وغيرها من الطاقات المادية الأخرى التي تفيد المجهود الحربي قليلاً أو كثيراً، تحشد كلُّها لهذا المجهود من أجل إحراز النصر.

وهذا يعني أيضاً: أنّ الطاقات المعنوية كلّها: التوجيه المعنوي، خطباء المساجد، رجال الدين، أساتذة ومدرِّسين، أجهزة إعلام مكتوبة ومسموعة ومرئية، حرباً نفسية، مكافحة التجسس، قضايا الترفيه، وغيرها من الطاقات المعنوية الأخرى التي تؤثّر في المجهود الحربي، تحشد كلّها لإِحراز النصر.

وقد كانت القوّات المسلّحة النظامية مسؤولة وحدها عن إحراز النّصر، فأصبح كلّ قادر على حمل السِّلاح مسئولًا عن هذا النصر.

وكانت أموال الدولة ومصانعها الحربية مسؤولة عن تمويل الجيش النظاميّ وتسليحه وتجهيزه، فأصبحت في الحرب الإجماعية كلّ أموال الدولة أفراداً وجماعات، وكلّ مصانع البلاد الخاصة والحكوميّة، وكلّ إنتاج الأمة زراعياً وصناعياً، مسؤولة عن تمويل المحاربين وتسليحهم وتجهيزهم.

وحين صدر كتاب: (الأمة في الحرب) الذي ألّفه المشير لودندروف رئيس هيئة أركان حرب المشير هند نبرغ أبرز قادة ألمانيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وأصدره بعده الحرب العالمية الأولى، ظنّ الناس أنّ لودندروف أوّل مَن وضع أُسس الحرب الإجماعية في التاريخ العسكري، وسرى هذا الظنّ في الشرق والغرب قضيّةً مسلّمةً بها، وكان من الذين صدّقوا هذا الظن الآثم العسكريون العرب والمسلمون، فدرسوا هذا الكتاب القيِّم ودرّسوه في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات العسكرية: في مدارس ضباط الصف والضبّاط، وفي معاهد إعداد الفنيين العسكريين، وفي كليات إعداد الضباط وكليات الأركان والقيادة، وفي جامعات الدراسات العسكرية العليا.

وكان من حقِّ الجيوش النظاميّة الحديثة أن تدرس هذا الكتاب وتدرِّسه في الدول غير الإسلامية، أما في الدول الإسلامية فالحرب الإجماعية معروفة نصاً في الكتاب العزيز وتطبيقاً في عهد الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم (١١هـ ـ ١٠٠هـ)، حين كان المسلمون يطبّقون فريضة الجهاد ويلتزمون بمبادىء الإسلام.

والمهم: أنّ الحرب الإجماعية لم تطبّق إلّا خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) تطبيقاً كاملًا كما جرى في بعض دول الحلفاء كبريطانيا والاتحاد السوفياتي، وبعض دول المحور كألمانيا الهتلرية واليابان، كما طبّقت هذه الحرب تطبيقاً جزئياً في إيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

أما قبل الحرب العالمية الثانية، فلم تطبّق هذه الحرب في أية دولة غير إسلامية من دول العالم.

الحرب الإجماعية الإسلاميّة في القرآن:

- ٢ -

إنّ الاعتقاد السّائد بين المعنيين بالدراسات العسكرية من عسكريين ومدنيين، بأنّ المشير لودندروف هو الذي وضع أسس الحرب الإجماعيّة لأول مرة في التاريخ، لا يمت إلى الحقيقة بصلة قريبة أو بعيدة، وهو محض افتراء على حقائق التاريخ العسكريّ.

كما أنّ الفكرة السائدة، بأنّ ألمانيا الهتلرية وبريطانيا والاتحاد السوفياتي واليابان، هي التي طبّقت الحرب الإجماعيّة تطبيقاً كاملًا في خلال الحرب العالمية الثانية لأول مرة في تاريخ الحرب، خطأ فاحش لا يمتّ إلى الحقيقة التاريخيّة بصلة، ويدخل في عداد الجهل المطبق بالواقع التاريخي أو في التزييف المتعمَّد لحقائق التاريخ.

إنّ الإسلام هو الذي وضع أُسس الحرب الإجماعيَّة بنص القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ، والمسلمين هم الذين طبّقوا هذه الحرب عملياً في عهد الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم في القرن الأول الهجري الذي كان خير القرون.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[١]، وهذه الآية وغيرها من سورة (التوبة) ومن الآيات الأخرى في السُّور الأخرى، تقرِّر أسس الحرب الإجماعية بإحكام رائع وإيجاز غير مُخل.

ذكر المفسِّرون، ومنهم الإمام الزمخشريّ في تفسير (الكشاف) تفسيراً لهذه الآية الكريمة في معنى: (خفافاً وثقالًا)[٢]: «خفافاً في النفور لنشاطكم

---

(١) الآية الكريمة في سورة التوبة (٩: ٤١).

(٢) الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ٣٤).

له، وثقالاً عنه لمشقّته عليكم؛ أو خفافاً لِقِلّة عيالكم وأذيالكم، وثقالاً لكثرتها؛ أو خفافاً من السِّلاح، وثقالاً منه، أو ركبانا أو مشاة، أو شباباً أو شيوخاً، أو مهازيل وسماناً، أو صِحَاحاً ومِراضاً.

المحبّون للنفير وهم خفاف، والكارهون له وهم ثقال
وغير المعيلين وهم خفاف، والمعيلون وهم ثقال
وغير المسلّحين وهم خفاف، والمسلّحون وهم ثقال
والركبان وهم خفاف، والمشاة وهم ثقال
والشباب وهم خفاف، والشيوخ وهم ثقال
والمهازيل وهم خفاف، والسمان وهم ثقال
والصِحاح وهم خفاف، والمرضى وهم ثقال
والفقراء وهم خفاف، والأغنياء وهم ثقال

فمن يبقى من الأمة، إذا شهد الحرب الشباب والشيوخ، والركبان والمشاة، والفقراء والأغنياء، والأصحّاء والمرضى، والمعيلون وغير المعيلين؟!

ومعنى ذلك، أن النفير العام للجهاد الإسلامي، الذي يطلق عليه الفقهاء مصطلح: (فرض عَيْن)، ويطلق عليه العسكريون المحدثون: (النفير العام)، يشمل جميع القادرين على حمل السِّلاح من المسلمين، الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ولا يتخلّف مسلم عن الجهاد إلّا إذا سلك سبيلَ غير المؤمنين، فينبذه المجتمع الإسلاميّ، وينظر إليه نظرة لا تشرِّفه ولا يقبل بها مسلم حق.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، إيضاح لما سبقها في الآية الكريمة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فكلّ قادر على حمل السِّلاح يجاهد بنفسه، وكلّ قادر على الجهاد

بالمال يجاهد بماله، وكل قادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً.

وهذا هو حشد الطاقات المادية والمعنوية كلّها للمجهود الحربي، وهو ما نطلق عليه اليوم: الحرب الإجماعيّة.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في الجهاد بالأموال والأنفس، وفي كلِّ آية من تلك الآيات تسبق كلمة (الأموال) كلمة (الأنفس)، لأنّ المال عصب الحرب، وبالإمكان الاستفادة منه تمويناً وتسليحاً وتجهيزاً وتنقلاً في أيام الحرب، وإعداداً للجيش وتأسيساً للمصانع الحربية وإعالة لعوائل المجاهدين وعوائل الشهداء في أيام السّلام والحرب.

الحرب الإجماعيّة الإسلاميّة في الحديث:

- ٣ -

أما الأحاديث النبويّة التي وردت في الجهاد والحثّ عليه، فكثيرة جداً.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[١]، والجهاد باللِّسان هو الحرب الدعائية أو الحرب الإعلاميّة.

وقال ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٢]، حثّاً على إعداد الخيل للجهاد، وهو جزء من إعداد القوّة.

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ الله يُدخل بالسّهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة: صانعه يحتسب في صنعه الخير، والرامي به، ومُنَبِّلَه... وارموا واركبوا، وإن ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا، ومَنْ ترك الرمي بعد ما علمه

---

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والنسائي وابن حبّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، انظر: مختصر الجامع الصغير للمناوي (١/ ٢٤٥).

(٢) رواه الإمام البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والنسائي وابن ماجة والطبراني، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٢٠).

رغبة عنه، فإنها نعمة تركها، أو قال: نعمة كفرها»[1]، حثاً على التسليح والتدريب واستمراريّة التدريب.

وعن أبي أُمامَة البَاهِليّ[2] رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ لم يَغْزُ ولم يجهِّز غازياً، أو يخلف غازياً في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»[3]، حثٌ على الجهاد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يحدِّث نفسه بغزوٍ، مات على شعبة من النفاق»[4]، حثاً على الجهاد في سبيل الله.

وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لوَدِدْتُ أني أُقتلُ في سبيل الله فأُحْيَا، ثمّ أُقْتَلُ فأُحيا، ثم أُقْتَل فأُحيا، ثمّ أُقتل»[5].

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «لغَدْوَة أو رَوْحَة في سبيل الله، خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»[6]، وهذان الحديثان يبرزان أهميّة الجهاد في سبيل الله.

وسئل النبي ﷺ: «أيُّ الناس أفضل؟»، فقال: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»، قالوا: «ثمّ مَنْ؟»، قال: «مؤمن في شِعْبٍ[7] من الشِّعاب يتقي الله ويدع الناس من شرِّه»[8].

---

(١) رواه الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأحمد، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (١/١٢٩).

(٢) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (١٦٤ ـ ١٦٨).

(٣) رواه الدارمي بسنده، انظر سنن الدارمي (٢/٢٠٩) ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائي، انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (٤/٣٢٩) ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ ـ الطبعة الثالثة.

(٥) رواه الشيخان واللفظ للبخاري، انظر التاج (٤/٣٢٧).

(٦) رواه الخمسة إلّا أبا داود، انظر التاج (٤/٣٢٧)، والغدوة من أول النهار إلى الزوال، والروحة من الزوال إلى آخر النهار. وفي رواية: «الروحة والغدوة في سبيل الله، أفضل من الدنيا وما فيها».

(٧) الشِّعْبُ: الوادي بين جبلين، ويدع الناس من شرِّه: يمنعه عنهم.

(٨) رواه الخمسة، انظر التاج (٤/٣٢٨).

وقال رسول الله ﷺ: «ما اغبرّت قَدَما عبدٍ في سبيل الله، فتمسَّه النار»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «واعلموا أنّ الجنّة تحت ظِلال السيوف»[2].

ومالت نفس رجل إلى العُزْلة، فسأل النبي ﷺ عنها، فقال: «لا تفعل، فإِنّ مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً. ألا تحبّون أن يغفر الله لكم ويدخِلَكُمْ الجنّة؟ اغزوا في سبيل الله، مَن قاتل في سبيل الله فُواقَ ناقة[3] وجبت له الجنّة»[4].

التطبيق العملي للحرب الإجماعيّة الإسلاميّة بالأنفس:

ـ ٤ ـ

وكان التطبيق العملّي للحرب الإجماعيّة في الإسلام على عهد النبي ﷺ، في قرنه الذي كان خير القرون رائعاً حقاً.

شهد القتال في هذا القرن شباب صغار السن، فقد ردّ النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[5] يوم (أُحُد) لصغر سنّه، وأجاز يومئذ سَمُرَة بن جُنْدَب الفَزَارِيّ[6] ورافع بن خَدِيْج[7] من بني حارثة ولهما خمسة عشر سنة، وردّ أسامة وعبد الله بن عمر بن الخطّاب وغيرهما لصغر سنِّهم، ولكنه عاد فأجازهم عام (الخندق) بعد ذلك بسنة، وكان لعبد الله بن عمر يوم (أُحد) أربعة عشر عاماً، وكان سائر مَن ردّ معه في هذه السنِّ أيضاً[8].

---

(١) رواه البخاري والنسائي والترمذي، انظر التاج (٤/ ٣٢٩).
(٢) رواه الشيخان والترمذي، انظر التاج (٤/ ٣٢٩).
(٣) فُواق ناقة: قدر حلبها.
(٤) رواه الترمذي بسند حسن، انظر التاج (٤/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٥) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣ ـ ٥١).
(٦) انظر سيرته في الإصابة (٣/ ١٣٠ ـ ١٣١) وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٥٩).
(٧) انظر سيرته في الاستيعاب (٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠) وانظر جمهرة أنسَاب العرب (٣٤٠).
(٨) طبقات ابن سعد (٤/ ٦٢) والإصابة (٣/ ١٣٠) والاستيعاب (٢/ ٤٧٩).

وشهد عُمَيْر بن أبي وَقَّاص[1] غزوة (بدر)، وهو أخو سعد بن أبي وقاص[2]، قال سعد: «رأيت أخي عُمَيْر قبل أن يعرض رسول الله ﷺ للخروج إلى (بدر) يتوارى! فقلت: مالك يا أخي؟! فقال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ، فيستصغرني، ويردّني، وأنا أحبّ الخروج، لعلّ الله يرزقني الشّهادة. قال: فعرض رسول الله فاستصغره، فقال: ارجع!فبكى عمير! فأجازه رسول الله ﷺ، فكنتُ أعقد حمائل سيفه من صغره»، وقد استُشْهِد يوم (بدر) وهو ابن ست عشرة سنة[3].

وشهد القتال في هذا القرن كبار وشيوخ، وأصحاب عاهات مستدامة كالعرج وضعف البصر والشيخوخة.

فقد خرج النبيّ ﷺ إلى (أُحد)، فرفع حِسْل بن جابر والد حُذَيْفَة بن اليَمان[4] وثابت بن وَقْش[5] إلى الآكام مع النساء والصبيان، وكانا شيخين كبيرين، فقال أحدهما للآخر: «لا أبالك! ما ننتظر؟! إنّا نحن هامة[6] اليوم أو غدٍ»، فلحقا بالمسلمين ليرزقا الشّهادة، فلما دخلا في الناس قتل المشركون ثابت بن وَقْش، والتقت أسياف المسلمين على حِسْل والد حُذَيْفَة بن اليمان، فنادى حذيفة: «أبي... أبي....»، فقتلوه وهم لا يعرفونه، فقال حذيفة: «يغفر الله لكم»، وتصدّق بدِيَّته على المسلمين[7].

---

(١) انظر سيرته في أسد الغابة (١٤٨/٤).

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ـ ٢٩٦) ـ الطبعة الثانية.

(٣) طبقات ابن سعد (١٤٩/٢) وأسد الغابة (١٤٨/٤).

(٤) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ ـ ١١٧)، وانظر سيرة حسل، وقيل: حسيل بالتصغير في الإصابة (١٣/٢).

(٥) انظر سيرته في الإصابة (٢٠٤/١).

(٦) هامة: جثّة هامدة.

(٧) فتح الباري بشرح البخاري (٩٩/٧) وجوامع السيرة (١٦٤) والإصابة (٢٠٤/١).

وقُتِل عمّار بن ياسر[1] يوم (صِفِّين)[2] مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عمره يومئذٍ أربعاً وتسعين سنة، وقيل: ثلاث وتسعون سنة، وقيل: إحدى وتسعون سنة[3].

وعن صَفوان بن عمرو أنه قال: «كنت والياً على (حِمْص)، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل (دِمَشْق) على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عم! لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي! استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إنه مَنْ يحبّه الله يبتله»[4].

وخرج سعيد بن المُسَيّب[5] إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنّك عليل صاحب ضرر، فقال: «استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع»[6].

وشهد القتال في هذا القرن نساء أيضاً، قاتلن في صفوف المسلمين، ونهضن بواجبات إدارية في الميدان لا تقلّ أهمية عن الواجبات القتاليّة.

فقد شهدت نَسِيْبَة بنت كَعْب أم عمارة المازنيّة الأنصارية[7] غزوة (أُحد) مع النبيّ ﷺ. قالت نسيبة: «خرجت يوم (أُحد) ومعي سِقَاء وفيه ماء، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فكنت أباشر

---

(١) انظر سيرته في: الإصابة (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) وأسد الغابة (٤/ ٤٣ ـ ٤٧).

(٢) صفين: موضع بقرب الرقّة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقّة وبالس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢١٤).

(٣) أسد الغابة (٤/ ٤٧).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٣٤).

(٥) انظر سيرته في البداية والنهاية (٩/ ٩٩ ـ ١٠١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٩ ـ ٢٢١) وانظر مفصل سيرته في فقه الإمام سعيد بن المسيب (١/ ١٣ ـ ١٥٠).

(٦) تفسير الكشاف (٢/ ٣٤).

(٧) انظر سيرتها في الإصابة (٨/ ١٩٨ ـ ١٩٩) وأسد الغابة (٥/ ٥٥٥).

القتال وأذبّ عنهم بالسيف وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ»، وكان على عاتقها جرح أجوف له غور[1].

وشهدت نسيبة معركة (اليمامة)[2] مع خالد بن الوليد، وعاهدت الله أن تموت دون مسيلمة الكذاب أو تُقتل، فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثني عشر جرحاً[3]، ومعركة (اليمامة) كانت من معارك حروب الرِدَّة الفاصلة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما هو معروف، وكانت هذه المعركة الحاسمة سنة إحدى عشرة الهجريّة[4].

وركبت أُمّ حرام بنت ملحان[5] زوج عُبَادة بن الصَّامِت[6] البحر مع زوجها، سنة سبع وعشرين الهجريّة[7] في غزوة (قُبْرُس)[8] بقيادة معاوية بن أبي سفيان[9] في عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فلما وصلت إلى أرض الجزيرة قرِّبت لها بغلة، فركبتها، فصرعتها، فماتت[10].

وركبت في تلك الغزوة أيضاً زوج معاوية فاختة بنت قرطة من بني

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٩ ـ ٣٠) والإصابة (٨/ ١٩٨ ـ ١٩٩).
(٢) اليمامة: كان اسمها قديماً: جَوّاً والعَروض، وهي معدودة من نجد، قاعدتها: حِجْر، بينها وبين البحرين عشرة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥١٥ ـ ٥٢٢).
(٣) الإصابة (٨/ ١٩٨ ـ ١٩٩) وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٧٤ ـ ٧٥).
(٤) الطبري (٣/ ٢٨١) وابن الأثير (٣/ ٣٦٠) والعبر (١/ ١٣ ـ ١٤).
(٥) الإصابة (٨/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) وأسد الغابة (٥/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥).
(٦) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٥٣ ـ ٢٦٣).
(٧) الإصابة (٨/ ٢٢٣) والعبر (١/ ٢٩).
(٨) قبرس: جزيرة في بحر الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٦)، وبحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط.
(٩) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٧٤ ـ ١٩٤).
(١٠) الإصابة (٨/ ٢٢٣) وانظر الحديث الذي روته أم حرام في: التاج (٤/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠)، وقد رواه الخمسة، وانظر تفاصيل الحديث في: فتح الباري بشرح البخاري (٦/).

نوفل بن عبد مناف، وقيل: كنود بنت قرظة البحر مع زوجها[1].

وأراد حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ[2]، أن يبيِّت (المُوْرِيَان)[3]، فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكَلْبِيَّة[4] يذكر ذلك، فقالت له: «وأين موعدك؟»، فقال: «سُرادق (المُوْرِيان) أو الجنّة». ثمّ بيَّتهم، فقتل مَنْ أشرف له، وأتى السُّرادق، فوجد امرأته قد سبقت[5].

وفي صحيح الإمام البخاري: باب جهاد النِّساء، وباب غزو المرأة في البحر، وباب حمل الرَّجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه، وباب غزو النِّساء وقتالهنّ مع الرجال، وباب حمل النساء القِرَب إلى الناس في الغزو، وباب مداواة النساء الجرحى في الغزو، وباب ردّ النساء الجرحى والقتلى[6].

التطبيق العملي للحرب الإجماعية الإسلاميّة بالأموال:

- ٥ -

لقد قرن الإسلام دائماً الجهاد بالأرواح بالجهاد بالأموال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ

---

(١) انظر سيرة فاختة في الإصابة (٨/ ١٥٤) وسيرة كنود في الإصابة (٨/ ١٧٧)، وانظر ركوبها البحر في الإصابة (٨/ ١٥٤) و (٨/ ٢٢٣)، وانظر فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٥٧) وفيه: فاختة بنت قرظة، وفي الإصابة: فاخته بنت قرطة، والأول أصح، لأنه ورد في الصحيح.

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٣) الموريان: صاحب أرْمِنْيَاقُس (البلاذري ٢٧٣)، رجل من أرمنياقس (البلاذري ٢٧٧)، بطريق أرمنياقس (البلاذري ٢٧٨)، والبطريق رتبة عسكرية تعادل رتبة اللواء في الجيوش العربية الحديثة ومنصب قائد فرقة فيها، والموريان: حاكم (إرْمِيْنِيَة)، انظر ما جاء عنها في معجم البلدان (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٦).

(٤) أم عبد الله بنت يزيد الكلبية: زوج حبيب بن مسلمة، مات عنها فخلف عليها الضحاك بن قيس الفِهْرِيّ، فهي أم ولده، وهي أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق، انظر الطبري (٤/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٥) الطبري (٤/ ٢٤٨) وانظر البلاذري (٢٧٨).

(٦) انظر التفاصيل في: فتح الباري بشرح البخاري (٦/ ٥٨ ـ ٦٠).

﴿٢٠﴾ ﴾[١]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[٢]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣]، ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[٤]، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[٥].

بل يلاحظ في تلك الآيات الكريمة، أنّ (الأموال) تُقَدَّم على (الأنفس) دائماً، مما يدلّ على أهمية الجهاد بالأموال.

إنّ الأموال هي عصب الحرب، وبدونها لا تدور رحى الحرب ولا تؤدي إلى النصر.

وقد كان أغنياء المسلمين، لا يكتفون بالجهاد بأنفسهم، بل يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله: يجهِّزون أنفسهم بما يحتاجون إليه من سلاح ودوّاب وأرزاق، ويجهِّزون إخوانهم المجاهدين بما يحتاجون إليه من سلاح ودّواب وأرزاق، ويخلفون المجاهدين من إخوانهم بالخير في عوائلهم وذويهم، وينفقون عليهم كما ينفقون على مَن يعولون من عوائلهم وذويهم، ويواسونهم ويسهرون على مصالحهم.

كانت غنائم يوم (حُنَيْن)[٦] أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقيّة من الفضّة[٧].

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ٢٠).
(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة: (٢: ٢٦١).
(٣) الآية الكريمة من سورة الحديد: (٥٧: ١٠).
(٤) الآية الكريمة من سورة الصف: (٦١: ١١).
(٥) الآية الكريمة من سورة النساء (٤: ٩٥).
(٦) حنين: وادٍ قبل مدينة (الطّائف)، بينه وبين مكة المكرّمة ثلاث ليالٍ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٥٤).
(٧) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

فهل أبقى رسول الله ﷺ لنفسه ولأهله شيئاً من هذا المال أو من غيره من الأموال؟؟

بل هل أبقى لنفسه ولأهله شيئاً من ماله الخاص؟

إنه لم يفكِّر أبداً بنفسه، كما لم يفكِّر أبداً بأهله، فعاش فقيراً، ومات فقيراً، وأنفق كلَّ ما يملك في سبيل الله[1].

وأنفق أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه جميع ماله، وكان له أربعون ألفاً أنفقها كلّها على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد أعتق سبعة كانوا يعذّبون في الله منهم بِلال بن رَباح[2]، فمات متخلِّلًا بعباءته.

وأنفق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه نصف ماله[3] في سبيل الله.

وأنفق عثمان بن عفّان أموالًا طائلة: جهّز جيش العُسْرَة[4] بتسعمائة وخمسين بعيراً، وأتمَّ الألف بخمسين فرساً[5]، ولما قدم المهاجرون المدينة استذكروا الماء، وكان لرجل من بني غِفار عين يقال لها: (رُوْمَة)[6]، وكان يبيع القربة بِمُد، فاشتراها عثمان بخمس وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين[7].

وكان للزبير بن العوّام رضي الله عنه ألف مملوك يؤدون إليه الخراج،

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٩٦ ـ ٣٠٠).
(٢) الرياض النضرة (١/١١٦).
(٣) الرسول القائد (٣٢٢) ـ ط ٢.
(٤) جيش العسرة: جيش غزوة (تبوك) في السنة التاسعة الهجرية.
(٥) الرياض النضرة (٢/١١٨).
(٦) رومة: أرض بالمدينة المنورة بين الجُرْف وزِغابة، نزلها المشركون عام الخندق، وفيها بئر رومة: بئر رومة، ابتاعها عثمان بن عفّان رضي الله عنه وتصدق بها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤) و (٤/٣٣٦).
(٧) الرياض النضرة (٢/١٢٢)، والمد: مكيال قديم، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

فما كان يدخل منها بيته درهمٌ واحد، كان يتصدّق بذلك كلِّه. وباع داراً له بستمائة ألف، فقيل له: «يا أبا عبد الله! غُبِنْتَ!»، فقال: «كلا! والله لتعلمّن لم أُغبن... هي في سبيل الله»[1].

وباع عبد الرحمن بن عَوْف أرضاً من عثمان بن عفّان رضي الله عنهما بأربعين ألف دينار، فقسّم ذلك المال في بني زُهرة وأمهات المؤمنين وفقراء المسلمين. وتصدّق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله: أربعة آلاف، ثمّ تصدّق بأربعين ألف دينار، ثمّ حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثمّ حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وقد وردت له قافلة من تجارة الشام فحملها إلى رسول الله ﷺ[2].

وتصدَّق سعد بن أبي وقّاص بثلث ماله على عهد رسول الله ﷺ[3].

وحين سار المسلمون لفتح الشّام، خرج أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه يودِّع المجاهدين، فبصر بخباء عِكْرِمة بن أبي جَهْل رضي الله عنه[4]، يضمّ ثمانية أفراس ورماحاً وعُدَّة ظاهرة، فسلّم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة، فقال: «لا حاجة لي فيها، معي ألفا دينار»، فدعا له بخير[5].

ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه، لم يترك إلّا سلاحه وفرسه وغلامه»[6]، وهو القائد الفاتح الذي خاض خلال اثنتي عشرة سنة إحدى وأربعين معركة في اليمن والحجاز ونجد والعراق والشّام لم ترتد له راية أبداً[7]، وما تركه حبسه في سبيل الله!»[8].

---

(١) الرياض النضرة (٢/ ٣٦٤).
(٢) الرياض النضرة (٢/ ٣٨٥).
(٣) الرياض النضرة (٢/ ٤٠٦).
(٤) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٨٥ ـ ٩٥).
(٥) أسد الغابة (٤/ ٦).
(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨).
(٧) انظر كتابنا: خالد بن الوليد المخزومي (٢٥٢).
(٨) الإصابة (٢/ ١٠٠).

ولما قدم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الشّام، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخي؟!»، فقالوا: مَنْ؟! فقال: «أبو عبيدة»، قالوا: يأتيك الآن! فجاء أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه القائد العام في أرض الشام والرجل الثاني بعد عمر أمير المؤمنين، على ناقة مخطومة بحبلٍ، فسلّم عليه، فقال عمر للناس: «انصرفوا عنّا!». وسار عمر مع أبي عبيدة حتى أتى منزله عليه، فلم ير في بيته إلّا سيفه وترسه، فقال عمر: «لو اتّخذت متاعاً أو قال: شيئاً»، فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين! إنّ هذا سيبلغنا المقيل»[1]، فقال عمر: «غيرتنا الدنيا كلّنا غيرك يا أبا عبيدة»[2].

وكان عُمَيْر بن سعد الأنصاري[3] على (حِمْص) لعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، فكتب عمر إلى أهل (حمص): «اكتبوا لي فقراءكم»، فكتبوا إليه أسماء فقرائهم، وذكروا فيهم عمير بن سعد. فلما قرأ عمر اسمه قال: «مَنْ عمير بن سعد!!»، فقالوا: أميرنا! فقال: «أوْ فقيرٌ هو!!»، فقالوا: ليس أهل بيت أفقر منه! فقال عمر: «فأين عطاؤه!!» فقالوا: يخرجه كلّه لا يمسك منه شيئاً!! فوجّه إليه عمر بمائة دينار، فأخرجها كلّها للفقراء، فقالت له امرأته: «لو كنتَ حبستَ لنا منها ديناراً واحداً»، فقال لها: «لو ذكّرتني فعلت»[4].

ولقد اقتصرت على ذكر أمثلة من جهاد القادة بأموالهم في سبيل الله، في عهد النبيّ ﷺ وفي أيام مدّ الفتح الإسلاميّ حين انهمرت الغنائم على المسلمين انهماراً، وكان بإمكان أولئك القادة أن يثروا بالحلال لا بالحرام، ولكنهم عفّوا فعفّ رجالهم، ونسوا مصالحهم الذاتيّة لأنهم شغلوا بمصالح

---

(١) المقيل: النوم عند الظهيرة. يريد: أنّ ما لديه من طعام يكفيه إلى الظهر.
(٢) الإصابة (٤/ ١٢) وأسد الغابة (٣/ ٨٦).
(٣) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٥١٣ ـ ٥١٩) ـ ط ٢.
(٤) ألف باء للبلوي (١/ ٤٤٣).

المسلمين العليا، فكانوا خير سلف للأجيال المتعاقبة، وبقوا أسوة حسنة لتلك الأجيال.

ذلك هو أحد أسرار الفتوح، التي كانت ولا تزال وستبقى من أعاجيب الدهر، فقد كانت الأسوة الحسنة عاملًا من أهم عوامل انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

مقارنة بين الحرب الإجماعية الحديثة والحرب الإجماعية الإسلاميّة:

ـ ٦ ـ

تلك هي الحرب الإجماعيّة التي طبّقها المسلمون الأولون في الصدر الأول للإسلام، فوحّد الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام خلال عشر سنوات (١هـ ـ ١١هـ) لأول مرّة في التاريخ، شبه الجزيرة العربيّة تحت لواء الإسلام.

وامتد الفتح الإسلامي العظيم بعد التحاق النبيّ ﷺ خلال تسعين سنة (١١هـ ـ ١٠٠هـ) حتى شمل دولًا كثيرة لا تغرب عنها الشمس، هي أوسع من أيِّ مملكة في التاريخ القديم والحديث.

ولكن شتان بين الحرب الإجماعية الإسلامية التي طبقها المسلمون قبل خمسة عشر قرناً، وبين الحرب الإجماعية التي طبقتها الدول الحديثة في القرن العشرين الميلادي.

الحرب الإجماعية في الإسلام، حرب وقائية، هدفها حماية حرية نشر الدعوة الإسلامية، والدفاع عن بلاد المسلمين، وإقرار السّلام القوى ـ سلام الأقوياء.

والحرب الإجماعية في الدول الحديثة حرب عدوانية، هدفها استعباد الشعوب واستغلال الطّاقات والسيطرة على الموارد الاقتصادية والخامات.

والحرب الإجماعية في الإسلام حرب عادلة، هدفها هداية الناس

وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾(١)، وصدق غوستاف لوبون: «لم يعرف العالم فاتحاً أعدل وأرحم من العرب».

والحرب الإجماعيّة في الدول الحديثة حرب غير عادلة، هدفها التوّسع والقهر والتضليل والاستغلال والاستعباد.

والحرب الإجماعيّة في الإسلام متفوِّقة فواقاً كاسحاً على الحرب الإجماعية في الأمم الحديثة كمّاً ونوعاً.

أما تفوّقها من ناحية (الكَمِّ)، فإنّ قاعدة النفير العام في الحرب الإجماعية الحديثة تنصّ على حشد عشرة بالمئة فقط من تعداد السكّان للحرب، إذ تبدأ الجنديّة من سنِّ ثمانية عشر عاماً غالباً، وتنتهي خدْمة الاحتياط في سن تسع وثلاثين سنة للرجل وأربع وثلاثين سنة للمرأة(٢). أما المسلمون في حربهم الإجماعيّة فقد استطاعوا حشد أربعين بالمئة من تعداد نفوسهم، إذ تبدأ الجندية في سنِّ السادسة عشر أو الخامسة عشر عاماً، وتشمل كلّ قادر على الجهاد بماله أو نفسه أو بهما معاً، ولا تنتهي في سنٍّ معيَّنة، ويبقى المسلم مجاهداً ما دام قادراً على حمل السَّلاح.

وكلُّ قادر على حمل السِّلاح من المسلمين جنديٌّ أو قائدٌ في جيش المسلمين، ولا أعلم مسلماً حقاً تخلّف عن الجهاد في عهد النبي ﷺ إلّا بأمرٍ منه أو لعذر مشروع، غير الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة (تَبُوك)، فقاطعهم المسلمون وهجرهم أهلهم الأقربون حتى زوجاتهم، فلما تابوا تاب الله عليهم، بعد أن تحمّلوا الأهوال من مقاطعتهم.

فإذا قارنا نسبة الطّاقة البشريّة في الحرب الإجماعية الإسلاميّة وهي

---

(١) الآيتان الكريمتان من سورة الحج (٢٢: ٤٠ ـ ٤١).

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا: الوجيز في العسكرية الإسرائيلية (٧٣ ـ ٧٤) ـ ط٣.

أربعون بالمئة بالنسبة لتعداد المسلمين، بنسبة الطّاقة البشرية في الحرب الإجماعية الحديثة وهي عشر بالمئة، وجدنا البون شاسعاً، وأين الثرى من الثريّا؟!

أما تفوّقها من ناحية (النّوع)، فإنّ المسلمين الأولين جنوداً وقادة يؤمنون بعقيدة راسخة، يسترخصون في سبيلها أموالهم وأنفسهم حمايةً لها ودفاعاً عن حرية نشرها، يعملون تحت إمرة قيادات تمثّل أفضل القادرين منهم تقوى وكفاية، يشكِّلون بأنفسهم لرجالهم أسوة حسنة شجاعة وإقداماً وبذلًا وإنفاقاً.

هؤلاء المجاهدون الصادقون، بقياداتهم القادرة، قدّموا الشهداء الذين تساقطوا في ميدان الجهاد، فبلغت نسبة الشهداء ـ وبخاصة من الصحابة رضي الله عنهم، ثمانين بالمئة، وهي نسبة عالية جداً لا مثيل لها في تاريخ الحرب قديماً وحديثاً.

لقد شهد معركة (اليمامة) في حروب الردّة ثلاثة عشر ألفاً بقيادة خالد بن الوليد، وكانت خسائر المسلمين ألفاً ومائتي شهيد[١]، أي عشرة بالمائة من مجموع المجاهدين.

فإذا أحصينا عدد المعارك التي خاضها المسلمون في الغزوات والسرايا على عهد النبيّ ﷺ وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم، استطعنا أن نقدِّر مبلغ جسامة عدد الشهداء من المجاهدين.

وكمثال على ذلك، فإنّ الحارث بن هشام خرج في سبعين من أهل بيته، فرجع منهم أربعة فقط، ومات سائرهم بالطاعون[٢]، والشهيد يكون في الطعن والطاعون.

وكان شهداء المهاجرين والأنصار أكثر نصف الشّهداء في معركة

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير (١٢) ملحق بالجزء التاسع من تفسير ابن كثير.

(٢) الطبري (٣/ ٣٠٠).

(اليمامة)، فقد استشهد منهم من سكّان المدينة المنورة يومئذٍ ثلاثمائة وستون، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلاثمائة[1].

وكان شهداء المهاجرين والأنصار وشهداء التابعين بإحسان الذين كانوا ثلاثمائة شهيد من التابعين[2] في تلك المعركة ثمانين بالمائة من مجموع الشهداء، إذ يبلغ عدد شهداء المهاجرين والأنصار والتابعين تسعمائة وستين شهيداً من مجموع ألف ومائتي شهيد.

وهذا يدلّ على أثر الإيمان في تصاعد عدد الشهداء، ويكفي أن نذكر أنّ عدد الشهداء من القراء في معركة (اليمامة) ثلاثمائة شهيد في رواية وخمسمائة شهيد في رواية أخرى.

والقرّاء هم حاملو القرآن الكريم، وهم علماء المسلمين حينذاك، أي أنّ نسبة الشهداء من القرّاء في معركة واحدة فقط خمسة وعشرون بالمائة في رواية، وخمسة وأربعون بالمائة في رواية أخرى، وهي نسبة عالية جداً على أي حال.

هذه القدوة الحسنة متمثلة بالقادة الذين يقودون رجالهم من الإمام، وبالعلماء الذين يعملون أكثر مما يقولون، ألهبت مشاعر المجاهدين وحرّضتهم على القتال، وصدق رسول الله ﷺ: «صنفان من الناس إذا صَلَحا صَلَحَ الناس، وإذا فَسَدا فَسَد الناس: العلماء والأمراء»[3].

ذلك لأنّ شعار المجاهدين كان يومذاك: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾!؟[4]. الشهادة أو النصر.

وقد تطوّرت الأسلحة الحديثة في الجيوش الحديثة التي طبقت الحرب

---

(١) الطبري (٣/ ٢٩٦ - ٢٩٧) وابن الأثير (٢/ ٣٦٥).
(٢) الطبري (٣/ ٢٩٧).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٧٥).
(٤) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ٥٢).

الإجماعية في القرن العشرين، ولم تبق أسلحة بدائية كالسيف والرمح والسّهم كما كانت قبل خمسة عشر قرناً، ومع هذا لم يبلغ عدد القتلى في الجيوش الحديثة ثمانين بالمائة من مجموع المقاتلين.

والذين يبحثون في مصادر الصحابة عليهم رضوان الله، يجد واحداً من خمسة منهم مات على فراشه، وأربعةً استُشهدوا في ميادين الجهاد!

فلا تعجب من سرعة الفتوح المذهلة في القرن الأول الإسلامي الذي كان خير القرون ومن دوام تلك الفتوح وثباتها، فقد كان السلف الصالح يحرصون على الموت كحرص الخلف الطالح على الحياة.

وصدق الله العظيم: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

والخير الذي بشّر به سبحانه وتعالى، في هذه الآية الكريمة، هو خير الدنيا وخير الآخرة.

وخير الدنيا، هو إحراز النّصر، والحياة الكريمة في هذه الحياة: أفراداً وجماعات وشعوباً وأمّة واحدة، فلا كرامة لضعيف، ولا مكانة لضعيف، والمسلمون حين تخلُّوا عن الجهاد ذلّوا وهانوا واستُعبدوا.

عن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ قال: «... وإذا تركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلّا، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم» صدق رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السّلام.

ولن يعود المسلمون إلى سالف عزّهم ومجدهم، ما لم ينهضوا بفريضة الجهاد بما فيها من تكاليف البذل والتضحية والفداء.

أما خير الآخرة، فجنّة عرضها السموات والأرض، ونعيم خالد مقيم فيها للمجاهدين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

تلك هي الحرب الإجماعية في الإسلام، طبّقها المسلمون قبل خمسة

عشر قرناً خلت، فلا يقولنّ قائل بعد اليوم: إنها من صنع الأجانب نظريةً وتطبيقاً، فقد شرّعها الإسلام يوم كان الأجانب يغطّون في سبات عميق، فسادوا العالم فكريّاً وعسكريّاً، وقادروا الحضارة العالمية قروناً طويلة..

فلّما تخلّوا عنها فكراً وتطبيّقاً، تخلّى عنهم النصر، وتكاثرت هزائمهم، وأصبحت بلادهم مستعمرة، وخيراتهم لغيرهم، فما غُزي قوّم في عقر دارهم إلّا ذلّوا.

أعاد الله المسلمين إلى دينهم عوداً حميداً، وإلى الجهاد عوداً مجيداً، ولا غالب إلا الله، وصلى الله على إمام المجاهدين وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المصادر والمراجع

ابن الأبار (أبو عبد الله بن عبد الله القضاعي):

١ ـ الحلّة السيراء ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري):

٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طهران ـ ١٣٧٧هـ.

٣ ـ تجريد أسماء الصحابة، حيدر آباد الدكن ـ ١٣١٥هـ.

٤ ـ الكامل في التاريخ: ـ أ ـ مطبعة دار التحرير، القاهرة ـ ١٣٠٣هـ ـ بيروت ـ ١٣٨٥هـ.

ابن تغري بردي (جماد الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

٥ ـ النجوم الزاهرة ـ القاهرة ـ ١٣٤٨هـ.

ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير):

٦ ـ رحلة ابن جبير ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ.

ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي):

٧ ـ تاريخ عمر بن الخطّاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي):

٨ ـ المحبّر ـ تحقيق الدكتور إيلزه ليختن شتيتر) ـ بيروت ـ ١٣٦١هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد علي الكناني العسقلاني):

٩ ـ الإِصابة في تمييز الصحابة ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

١٠ ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٢٧هـ.

١١ ـ فتح الباري بشرح البخاري ـ بولاق ـ ١٣٠١هـ.

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

١٢ ـ أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

١٣ ـ أصحاب الفتيا من الصحابة ومَن بعدهم ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
١٤ ـ جمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
١٥ ـ جوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
١٦ ـ الفصل في الملل والنحل ـ القاهرة ـ ١٣٢١هـ.
١٧ ـ المحلّى ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي):

١٨ ـ صورة الأرض ـ بإشراف كرامرز ـ الطبعة الثانية ـ لايدن ـ ١٩٣٨م.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة):

١٩ ـ المسالك والممالك ـ لايدن ـ ١٨٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون):

٢٠ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بولاق ـ ١٢٨٤هـ.
٢١ ـ مقدمة ابن خلدون ـ طبعة مصطفى محمد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان):

٢٢ ـ وفيّات الأعيان ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م.

ابن دحلان (السيد أحمد زيني دحلان):

٢٣ ـ الفتوحات الإسلاميّة ـ القاهرة ـ ١٣٤٥هـ.

ابن رستة (أحمد أبو علي بن عمر بن رستة):

٢٤ ـ الأعلاق النفيسة ـ لايدن ـ ١٨٩١م.

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزّهري):

٢٥ ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ.

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر):

٢٦ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه):

٢٧ ـ العقد الفريد ـ بيروت ـ ١٣٨٤هـ.

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الشافعي):

٢٨ ـ تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ـ دمشق ـ ١٣٩٧هـ.

٢٩ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ هذّبه الشيخ عبد القادر بدران ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ.

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني):

٣٠ ـ مختصر كتاب البلدان ـ لايدن ـ ١٨٨٥م.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري):

٣١ ـ الإمامة والسياسة ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

٣٢ ـ الشعر والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.

٣٣ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

٣٤ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ ١٩٦٠م.

ابن القيسراني (أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني):

٣٥ ـ الأنساب المتفقة ـ أعادت مكتبة المثني ببغداد طبعه ـ بلا تاريخ.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي):

٣٦ ـ البداية والنهاية ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.

٣٧ ـ تفسير ابن كثير ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.

٣٨ ـ فضائل القرآن ـ ملحق بالتفسير ـ ١٣٤٧هـ.

ابن ماجة (محمد بن يزيد بن ماجه القزويني):

٣٩ ـ سنن ابن ماجه ـ ١٣١٣هـ.

ابن المعتز (عبد الله بن المعتز بن المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد):

٤٠ ـ طبقات الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري):

٤١ ـ السيرة النبويّة ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ.

أبو زهرة (الشيخ محمد أبو زهرة):

٤٢ ـ تاريخ المذاهب الإسلاميّة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

٤٣ ـ خاتم النبيين ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.

أبو الفدا (إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة):

٤٤ ـ تقويم البلدان ـ باريس ـ ١٨٤٠م.

٤٥ ـ المختصر من أخبار البشر ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

أبو الليل (محمد مرسي أبو اللّيل):

٤٦ ـ الهند: تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ـ القاهرة ـ ١٩٦٥م.

أبو يعلى (أبو يعلى حمزة بن القلانسي):

٤٧ ـ ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ـ ١٩٠٨م.

أبو يوسف (القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة):

٤٨ ـ الخراج ـ القاهرة ـ ١٣٤٦هـ.

إحسان حقي (الدكتور):

٤٩ ـ باكستان ـ بيروت ـ ١٣٩٣هـ.

أحمد أمين (الدكتور):

٥٠ ـ ضحى الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٥٢هـ ـ ط٢.

٥١ ـ فجر الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٥٤هـ ـ ط٣.

أحمد بن حنبل (الإمام):

٥٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ القاهرة ـ ١٣١٣هـ.

أحمد عطية:

٥٣ ـ القاموس الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

الإدريسيّ (الشّريف الإدريسيّ):

٥٤ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ نشره دوزي ودي جوجة ـ لايدن ١٨٦٦م.

الإسفرائيني (عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني التميمي):

٥٥ ـ الفرق بين الفرق ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الأسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطي):

٥٦ ـ لبّ الألباب في تحرير الأنساب ـ أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه ـ بلا تاريخ.

الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني):

٥٧ ـ حلية الأولياء، القاهرة ـ ١٣٥٦هـ.

الأصبهاني (حمزة بن حسن الأصبهاني):

٥٨ ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

الأصبَهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني):

٥٩ ـ الأغاني ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري):

٦٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني ـ القاهرة ـ ١٣٨١هـ.

الألوسي (محمود شكري الألوسي):
٦١ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ تحقيق محمد بهجت الأثري ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري):
٦٢ ـ صحيح البخاري ـ بولاق ـ ١٣٠٠هـ.
البشاري (المقدسي المعروف بالبشارى):
٦٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ لايدن ـ ١٩٠٦م.
البغوي (الإمام البغوي):
٦٤ ـ تفسير البغوي ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.
البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):
٦٥ ـ أنساب الأشراف ـ الجزء الأول ـ تحقيق محمد حميد الله (الدكتور) ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.
٦٦ ـ أنساب الأشراف ـ الجزء الرابع ـ القسم الثاني ـ القدس ـ ١٩٣٨م.
٦٧ ـ أنساب الأشراف ـ الجزء الخامس ـ القدس ـ ١٩٣٦م.
٦٨ ـ فتوح البلدان ـ أ ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م. ب ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ.
البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي):
٦٩ ـ البدء والتاريخ ـ مطهر بن طاهر المقدسي ـ نشره كلمان هوار ـ باريس ـ ١٨٩٩م.
البلوى (يوسف محمد البلوى):
٧٠ ـ ألف باء ـ القاهرة ـ ١٢٧٨هـ.
البيضاوي (القاضي أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي):
٧١ ـ تفسير البيضاوي ـ القاهرة ـ ١٣٣٠هـ.
الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري):
٧٢ ـ الوزراء والكتاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي):
٧٣ ـ صفة الصفوة ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٥٥هـ.
حامد عبد القادر:
٧٤ ـ الإسلام: ظهوره وانتشاره ـ القاهرة ـ ١٣٥٧هـ.

الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي):
٧٥ ـ إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي):
٧٦ ـ شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ـ القاهرة ـ ١٣٥٠هـ.
الخزرجيّ (أحمد بن عبد الله الخزرجيّ):
٧٧ ـ خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ـ القاهرة ـ ١٣٢٢هـ.
الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي):
٧٨ ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ـ ١٢٤٩هـ.
خليلي (خليل الله خليلي):
٧٩ ـ هرات ـ بغداد ـ ١٣٩٤م.
الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب):
٨٠ ـ مفاتيح العلوم ـ لايدن ـ ١٨٩٥م.
الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي):
٨١ ـ سنن الدارمي ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري):
٨٢ ـ تاريخ الخميس ـ القاهرة ـ ١٣٠٢هـ.
الدينوري (أبو حنيفة الدينوري):
٨٣ ـ الأخبار الطوال ـ القاهرة ـ ١٣٧٠هـ.
الذّهبيّ (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ):
٨٤ ـ تاريخ الإِسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٨هـ.
٨٥ ـ دولة الإِسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٨هـ.
٨٦ ـ سير أعلام النبلاء ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
٨٧ ـ العبر ـ تحقيق فؤاد سيد ـ الكويت ـ ١٩٦١م.
٨٨ ـ ميزان الاعتدال ـ القاهرة ـ ١٣٢٤هـ.
الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري):
٨٩ ـ نسب قريش ـ ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
الزركلي (خير الدين الزركلي):
٩٠ ـ الأعلام ـ القاهرة ـ ١٣٧٣هـ إلى ١٣٧٨هـ.

الزمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزّمخشري):
٩١ ـ تفسير الكشّاف ـ بولاق ـ ١٣١٩هـ ـ ط٢.
الساداتي (أحمد محمد الساداتي):
٩٢ ـ تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ـ القاهرة ١٣٧٧هـ.
سيّد الناس (ابن سيّد الناس):
٩٣ ـ عيون الأثر ـ القاهرة ـ ١٣٥٧هـ.
السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين السيوطي):
٩٤ ـ تاريخ الخلفاء ـ القاهرة ـ ١٣٥١هـ.
الشّافعي (الإمام الشّافعي):
٩٥ ـ الأم ـ بولاق ـ ١٣٢٢هـ ـ ط١.
الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني):
٩٦ ـ الملل والنحل ـ ليبزج ـ ١٩٢٣م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):
٩٧ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ أ ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ. ب ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
٩٨ ـ الجهاد وكتاب الجزيرة وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء ـ لايدن ـ ١٩٣٣م.
٩٩ ـ المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين ـ القاهرة ـ ١٣٥٨هـ.
عبد الرحمن بن عبد الله (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي):
١٠٠ ـ الروض الآنف (شرح السيرة النبوية لابن هشام) ـ القاهرة ـ ١٣٣٣هـ.
العصاميّ (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكيّ):
١٠١ ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ ١٣٧٩هـ.
علي أدهم:
١٠٢ ـ الهند والغرب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
علي بن عبد الرحمن (علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي):
١٠٣ ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان ـ تحقيق محمد عبد الغني حسن ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.

عيسى بن يوسف ألب تكين:

١٠٤ ـ قضية تركستان الشرقية ـ ترجمة إسماعيل حقي شن كولر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

فامبري (أرمينوس فامبري):

١٠٥ ـ تاريخ بخارى ترجمة أحمد محمد السّاداتي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

فتحي عثمان (الدكتور):

١٠٦ ـ الحدود الإِسلاميّة البيزنطيّة ـ القاهرة.

فنسنك (الدكتور):

١٠٧ ـ مفتاح كنوز السنّة ـ القاهرة ١٣٥٨هـ.

قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر):

١٠٨ ـ كتاب الخراج وصنعة الكتابة ـ لايدن ـ ١٨٨٩م.

القرشيّ (يحيى بن آدم القرشي):

١٠٩ ـ كتاب الخراج ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي):

١١٠ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القاهرة ـ ١٣٥٦هـ.

القلقشنديّ (أبو العبّاس أحمد القلقشندي):

١١١ ـ صبح الأعشى في صناعة الإِنشا ـ القاهرة ـ ١٩١٣م.

١١٢ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق إبراهيم الأبياري ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.

الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي):

١١٣ ـ الأصنام ـ القاهرة ـ ١٣٣٢هـ.

الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي):

١١٤ ـ كتاب الولاة والقضاة ـ لايدن ـ ١٩١٢م.

لسترنج:

١١٥ ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ بغداد ـ ١٣٨٣هـ.

الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري):

١١٦ ـ الأحكام السلطانية ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ.

المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير المبرد):

١١٧ ـ الكامل ـ القاهرة ـ ١٣٤٧هـ.

محمد أمين زكي:

١١٨ ـ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ـ نقله إلى العربية محمد علي عوني ـ القاهرة ـ ١٩٣٩م.

محمد رشيد رضا:

١١٩ ـ تفسير المنار ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي:

١٢٠ ـ فوات الوفيات ـ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.

محمد فؤاد عبد البَاقي:

١٢١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.

محمود شاكر:

١٢٢ ـ أفغانستان ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ.

١٢٣ ـ باكستان ـ بيروت ـ ١٣٨٢هـ.

المراكشي (عبد الواحد المراكشي):

١٢٤ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ القاهرة ١٣٤٧هـ.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):

١٢٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م ـ ط٤.

مكتب الصحافة بالسفارة الأفغانية بالقاهرة:

١٢٦ ـ أفغانستان ـ القاهرة ـ ١٣٨٠هـ.

الندوي (أبو الحسن علي الحسني الندوي):

١٢٧ ـ المسلمون في الهند ـ دمشق ـ ١٣٨١هـ.

الندوي (محمد إسماعيل الندوي ـ الدكتور):

١٢٨ ـ الهند القديمة: حضاراتها ودياناتها ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م.

النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي):

١٢٩ ـ تاريخ بخارى ـ تحقيق أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطّرازي ـ القاهرة ـ ١٣٨٥هـ.

النمر (عبد المنعم النمر (الشيخ)):

١٣٠ ـ تاريخ الإِسلام في الهند ـ القاهرة ـ ١٣٧٨هـ.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري):
١٣١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي):
١٣٢ ـ شرح النووي على مسلم ـ القاهرة ـ ١٢٨٣هـ.
١٣٣ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
هازارد (هاري. و. هازارد):
١٣٤ ـ أطلس التاريخ الإسلامي ـ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
الهرثمي:
١٣٥ ـ مختصر سياسة الحروب ـ تحقيق عبد الرءوف عون ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
الواقدي (محمد بن عمر بن واقد):
١٣٦ ـ المغازي ـ تحقيق مارسدن جونس ـ أكسفورد ـ ١٩٦٦م.
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي):
١٣٧ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ لايدن ـ ١٨٤٦م.
١٣٨ ـ معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣٢٣م.

المراجع الأجنبية

139 - Chember's Encyclopedia.

140 - Encyclopedia Britanica.

Brooks, E.W:

141 - The Arabs in Asia minor, 641-750- Journal of Hellenic Studies- Vol 18-1898.

142 - Byzantines and Arabs in the Time of early Alasid, 750 to 813- English Historicab Review- First Part- Octobre- 1900.

143 - The Compain of 716 to 718 from Arabic Sources- Journal of Hellenic Studies- vol 19-1899.

144 - Arabic Lists of the Byzantine Themes- Journal of Hellenc stadies- vol 21-1951.

Bury, J.B:

145 - History of the Later Roman Empire From The Ball of Jrene to the Aecession of Basil 1, (8.2-867)- London.

146 - History of the later Roman Empire from Arcedius to Jrane (395-565) - London.

Chei RA.M.A:

147 - La Lutte Arabes E7 Byzntins - Alexandrie- 1947.

Gibbon, E:

148 - Decilne and Fall of Roman Empire- London - 1897- 1902.

Vasilieav. A.A:

149 - The Byzantin Empire.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة